رواية

تلات ورقات

لوحة من ابداع
منال الشربيني

منال الشربيني

أما قبل،
لماذا عليَّ أن أُنْبِأك، دومًا، عن المكان وعن الزمان؟، لماذا عليَّ أن أحمل عبئًا حملته أنت طوال قرون وأنت تركز في تحديد تفاصيل الزمان والمكان؟ لماذا عليَّ أن أتحدث إليك وكأننا نختلف باختلاف الأماكن، والأزمنة؟، ولماذا ترهقني دومًا بما درجت أنت على رؤيته، وقراءته وسماعه، ووصفه؟، لماذا لا تسمعني حين خروج، أو حين ميلاد، أوحين عذراء،أو حين شيطان أو حين وطن؟، هل اختلف حبك لي كثيرًا أو قليلًا عن اليوم الذي وُلدتُ فيه، أو يوم تخرَّجتُ من الجامعة، أو يوم زفافي، أو يوم جعلتُك جدًا، أو عمًا أو خالًا، أو إبنًا ؟، لماذا لا يكون كلامُنا غير مؤرخٍ بتاريخٍ، أو محدَّدٍ بجغرافيا وخرائط؟، لماذا؟ والرسائل التي أُهديها لك اليوم، هي نفس الرسائل التي قيلت من قبل؟؛ كل كلمات العزاء، والحب، والغضب، والحرب، والسلام، بكل لغات الأرض، تحمل نفس المعنى:الموت. وكل العبارات الرقيقة، والمعاني الإنسانية، وحتى الحوار مع الرب، أنت فيها إما مرسِلٌ أو مستقبِلٌ،هي مجرد تقديم لما بعد الموت، لِمَ عليَّ أن أوضح أين كنتُ، أو أكون، ومتى وقعت أحداثٌ أود سردها لك، كيما يرتاح كل منا؟. فليكن الأمر كما أراه أنا هذه المرة، سأكلمك فقط عن الإنسان، فليكن الأمرُ ذاتَ إنسانٍ إذن، وسأترك لك تسمية الأماكن، ولتخْتَرْ الزمان الذي يناسبك، لتكتشف بنفسك أن لا فرق، لا فرق.

....

1

ذات بلدة

زِحتُ الستائر عن النافذة الوسيعة،التي تحتل مساحة حائط الغرفة، التي يبلغ عرضها ،تقريبا، تسعة أمتار فاستبان الضوء وقد افترش سلمًا طويلًا وعريضًا، تنام البيوت على جوانبه العلوية والسفلية. كان بيتنا يستند بأطراف أصابعه إلى الجهة الشرقية، التي نحتوا فيها من الجبل سلمًا بعناية فائقة، ويستند بقوائمه الخلفية إلى كتف الجبل من الناحية الغربية، وينحدر تحت نوافذه الجنوبية بعمق المدى النازل على جنبات الجبل ملامح واد سحيق. كنا نستقل السلم صعودًا كلما أردنا زيارة جارتنا "أم العبد"، كانت بوابة بيتنا الضخمة، تنفتح على منتصف السلم، وترقد الساحة المنبسطة على بسطة السلم، لتفترش مساحة كبيرة تسمح لنا بوضع منضدة، وثمانية مقاعد تجيء إليها جاراتي السبعة أم جهاد، وأم خليل، وأم بيتر، وأم نضال، وأم فادي، وأم بشار وأم العبد، وأنا بالطبع، لنحتسي قهوة الصبحية، و ما قبل المغرب. ويحكين لي عن البلدة، عن قراهن، عن وجع ورثنه، عن أراض وبساتين تركوها رغمًا، وعن قبور تمشي في الطرقات تطالب بالثأر، وعن داري التي وصلت إليها قبل شهرين والتي لم يسكنها أحد من قبل...

كنت أستقبل النهار من كل نوافذ البيت، وشرفاته، بطريقة مختلفة، تحملني النوافذ الخلفية إلى الوادي السحيق، فترتاح عيناي طويلًا حين تسرحان مني، في ثنايا الأشجار، التي خلقت من سقف الوادي حدائق معلقة بهية. كنت أجتهد كثيرًا، كي أبعد عيني عن مشهد الخيول والخراف، التي تسعى طوال النهار بين أقدام الشجر، لأصنع لنفسي كوبا من الشاي الممزوج بالنعناع الطازج. وبالكاد، يبين الرعاة، من وقت إلى آخر، بينما هم يهشون القطعان، من ثنايا عروش الأشجار قبل المغيب. وبالكاد، أيضًا، يصلني صوت نايٍ من هناك أو من اللاوراء، وربما سمعت أحدهم ينادي من وقت لآخر:"" مارو"!، أو"هَنَا"! كنت أبذل جهدًا من أجل الخروج بعيني من حالة التأمل في البعيد الأسفل في ذاك الوادي، ولا أخفيكم سرًا، كنت أشعر أنني في مجْمعٍ للآلهة، وأنني على وشك أن أرى "أبولو"، يطل بوجهه من بين أشجار السرو. لكن الأسطورة تقول بأنّ أبولو كان يطير على ظهر بجعة إلى أرض هيبربوريانز كي يقضي شهور الشتاء بها"، إذن فلن يطل

الآن، فنحن ما زلنا على أبواب شهر آب "أغسطس". يقول دكتور "بلاتو" الذي كان يدرسني مادة الشعر، بينما كنت أدرس في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية عن أبولو، أنه لم يكن مهذبًا مع النساء، وأن "دافني"؛ حورية المياه العذبة التي عشقها أبولو كرهته حتى الموت، حتى أنها لجأت إلى"غايا" إلهة الأرض، فحولتها إلى شجرة غارٍ، ظل أبولو يعشقها إلى الأبد. يا إلهي ما هذا الجو الخرافي الذي يحيط بداري هنا!

كانت تصلني دومًا، من تلك الجهة، رائحة الميرمية، والزعتر، والنعناع البري، وكلما انعتق النهار من الليل، لاحت زهور الأقحوان بورودها الصفراء البهية. كنت أتنفس بعمق مئة سنة ضوئية، حين ينفلت النور من هذه النافذة ليوقظني. في الواقع، كان جو يساعدني على التأمل، القراءة، الكتابة، وترتيل القرآن. ومن الناحية الشرقية، كان السلم المنحوت في الجبل ينقل إلينا وقع أقدام الصاعدين، والنازلين بشكل منتظم، في ساعات الصباح الأولى، منذ أول رجل يهبط من منازل القرية النائمة على الجبل لصلاة الفجر في المسجد الوحيد، الذي استقر منذ خمس سنوات، في الساحة القريبة من دار أم خليل. سألتهم دومًا، لماذا لا يصلنا صوت الأذان هنا، لماذا يهرب منا بعيدًا، فيجيء الرد: " لأن الوادي يفرغ الصدى في بطنه، قبل أن يصعد الجبل".

كانت الجمعة الأولى من شهر آب" " أغسطس"، ورغم شدة الحرارة، يصلنا الهواء نقيًا، ومنعشًا طوال اليوم، حتى أننا نضطر لسحب الأغطية على أجسامنا في الليل، حيث الرياح تذكرنا بأول الشتاء، في دارنا المطل على البحر في الإسكندرية. من الناحية الغربية، تقف الدور على راحات الجبل متفرقةً، أستطيع أن أعُدُّ منها سبعة بيوت مستقلة. كان الشارع يمر أمام بوابات الدور طويلًا، متسعًا، وجديدًا؛ يلمع فيه الأسفلت ليلَ نهار. وفي مقابل بيتنا، تسكن أم جهاد؛ جارتنا التي عرفتني إليها أم العبد؛ لها وجه جامد، عابس دومًا، كانت تتمتع بجمال شامي رائق و صوت جهوري، لا يتناسق مع فمها الصغير. لو انها سمحت لابتسامتها بأن ترتسم خمس مرات باليوم لانحلت قضية فلسطين. هي من قرية بفلسطين تدعى قلقيلية. أمٌ لطفلين أصغرهما لم يبلغ الرابعة بعد. اعتادت أن تلقي بطفليها، بعد أن يؤذن العشاء، في جوف غرفتهما ثم تطفي الضوء، وتغلق الباب بالمفتاح. لا يوجعها بكاءهما، ولا تستجيب لتوسلاتهما مهما علا صراخما. وحين نسألها لماذا تفعل ذلك دون رحمة، تقول إن زوجها على وشك الوصول، وأنهما ليسا بحاجة إلى طعام أو شراب، كما أن ملابسهما نظيفة، هذا موعد نومهما، وأن عليها أن تتهيأ لزوجها. لكن الحجة الأقوى التي كانت تقدمها دومًا، هي أنهما يجب أن يكبرا على طاعتها، والانصياع لأوامرها. كنت أعذرها رغم كل شيء، وأحيل كل تصرفاتها السادية من وجهة نظر علم النفس، إلى واقع مرير وانتهاكات لكل شيء حتى العصافير مر بها بلدها. يقول علماء النفس أن السادية تعني أن يتلذذ الشخص بإيذاء الغير في كل شيء، وليس في النواحي الجنسية فقط. حيث يشعر بنشوى تحقيق الذات، تتولد من عقدة بالنقص، تتسبب فيها عوامل كثيرة، و تتلف نفسية الشخص، فتجعله يستمتع بإيلام الآخرين. لقد رأيت أن أم جهاد تعاني من هذه النزعة بشراسة، ولكنني كنت دائمًا أقول إن كان الأمر متعلقًا بعقدة نفسية، فهل تصلح هذه المرأة لأن تقوم بدور الأم؟. ورغم أنني حملت دومًا فكرًا غضًا، ومُثُلًا عُلا، لا تقبل التدليس، كنت أختلق لها العذر دومًا. فحين يسلبك الآخر كل شيئًا، ويمارس ضدك سلوكًا غير قويم، ويمتهن كرامتك بطريقة أوبأخرى، يتكون لديك شعور بالنقص، ينتج عنه رغبة في الانتقام، وحين لا تمتلك القدرة على الثأر لنفسك تنتابك الرغبة في ممارسة نفس السلوك ضد من هم أقل منك قوة.

ليس من حقك أن تقتحم بيوت الآخرين، كي تصلح فسادًا تسببوا فيه، أو ضررًا ألحقوه بذويهم، وليس من حقك أن تتدخل في شئونهم، فالبيوت، كما تقول جدتي، أسرار. ولكن هل إيذاء الأطفال نفسيًا، وتحويلهم إلى سجناء بلا حول ولاقوة يعد شأنًا خاصًا؟ كنت أقول في نفسي دومًا: " حين يفقد العقل الباطن- اللاواعي-

قدرته على التحمل، يصبح شرسًا للغاية، ومن ثم يفقد الاتجاه، فتصدر عنه أفعالًا عنيفة، نحو أشخاص لا علاقة لهم، من قريب أو من بعيد، بما يعانيه، ويصبح أكثر إجرامًا وجنوحًا مع من تسبب يومًا في فض بكارة تلك المنطقة سلبًا، ومن هنا تقع أشرس الجرائم. نعم، حين تتراكم الانفعالات السلبية في العقل الباطن، فإنها تحوله إلى مجرم، عدواني، وشرس مع الأشخاص الخطأ بينما يصبح أكثر إجرامًا، وعنفًا، وشراسة مع من تسبب في إيذائه يومًا. ورغم أنني فسرت الأمر على هذا النحو، أعترف أنني كرهت أفعال أم جهاد حتى الموت.

ولأنني أؤمن، على نحو شخصي، بأن منطقة اللاوعي لدى الإنسان، بل ولدى الحيوان أيضًا، تشكل منطقة الوعي الحقيقي والمدرك للغاية لديهم، بما لها من قدرة على تخزين الأحداث، والمعاناة، والخبرات سلبًا وإيجابًا، والاحتفاظ بها طوال الوقت، وبما أنها لا تطفو على السطح إلا حين يغيب المرء عن وعيه، أو أثناء الحلم، فإنه من الوارد أن يفقد هذا اللاوعي المدرك وعيه تمامًا، ليصبح بربريًا، فينتقم بشكل تعسفي، من كل من يفوقهم قوة وبطشًا، ظنًا منه، بأنه يحقق نصرًا حقيقيًا، يثأر من خلاله، بأثر رجعي، لكل الخبرات السلبية المخزنة لديه. وإلا لماذا يقول المرء بعد ارتكابه لجريمة نكراء الجملة المشهورة " لم أكن في وعيي، لقد أغواني الشيطان"؟ لماذا يخشى الأعرابي غضبة الجمل؟ وعلى أي شيء يعتمد مدربوا الكلاب حين يحرضونها على الخصوم؟ ولكن، بينما يكون هذا التعسف والعنف غير مقبول، كردة فعل تجاه من يملكون الدفاع عن أنفسهم، ولو بنسبة واحد فاصلة مائة، فإنه يجب أن يكون سلوكًا مجرَّمًا إذا ما مارسه الشخص على الأطفال والكائنات الضعيفة، حتى لو كانت من عائلة الذباب. لذا وجدتني كلما أشفقت على أم جهاد، ازددت رغبة في أن أجردها من طفليها، فقد باتت تشكل خطرً جسيمًا عليهما، ورأيت دومًا أن الأمر استفحل، وبات العلاج حتميًا ولا بد أن يكون عاجلًا، ولكن بالطبع، ولكوني، كما يقولون هنا عن المصريين،"وافدة"، أرى أن كلامي طارئًا إلى حين.

كثيرًا ما سمعت نادرة- أم جهاد- تسرد ذكرياتها عن دار أبيها، وعن أطفال قريتها- كلكيلية (هكذا كانت تنطق اسم قريتها، فقد لاحظت أنها قلبت كل قاف إلى كاف طوال الوقت) حين كانوا صغارا، خاصة حين يأتي إلى القرية "صندوق العجب"، يحمله أحد الرجال ويتنقل به من قرية إلى أخرى. أخبرتني كيف أنهم كانوا يدفعون له الفطائر والخبز مقابل أن يمنح كلًا منهم فرصة مشاهدة ما يعرضه صندوقه الخشبي من صور طبيعية، وحيوانات غريبة بينما يردد بصوت مرتفع: "يلا اتفرج يا سلام.. على عجايب الزمان" ثم يسرد عليهم قصص الشهامة، البطولة، والسِّيَر الشعبية: عنتر وعبلة، الزير سالم، وأبو زيد الهلالي، أو يعرض صور المناظر الطبيعية الخلابة: الطيور، الحيوانات، الأفاعي الضخمة، عروس البحر أو العجوز الساحرة. أتذكر وجهها كما لو كانت أمامي الآن تسرد ذكريات تلك المرحلة من عمرها بينما الدموع تهطل كالمطر على خديها، بل أسمعها وقد اضطرب صوتها حين تغني:

أمّا انظر يا سلام .....على حيَّة إِمْ إسْنان

هاي حية إم راسين ..... أكلت حُرْمة وزَلَمْتِين

وكثيرًا ما ارتبك تفكيري، وحيرتني قسوتها في التعامل مع طفليها. كنت أقول بيني وبين قلبي، كيف يمكن لامرأة تحمل بين دفتي روحها هذه الذكريات الثرية، أن تحرم طفليها أقل نسبة من حرية تمكنهما من انتظار أبيهما، وعناقه، والطواف حول قدميه، واللهو على كتفيه بعد يوم عمل طويل. ويومًا عن يوم يزداد يقيني بأن للأمر علاقة وطيدة بفقدان الوطن، لقد أفقدها غياب ملامح الوطن قسوة مغتصبيه، ولم تزدها عقدة الفقد إلا إمعانًا في تفريغ توترها في هاذين الروحين الضعيفين- طفليها.

حين جئت مع زوجي عروسَ شهرين، منذ أكثر من الثلاثين عامًا، كنت قد تجاوزت الأربعة والعشرين عاما بخمسة أشهر إلا قليلًا. كانت النسوة اللواتي يقطن البيوت المجاورة جميعهن من قرى فلسطينية إلا جميلة، فقد كانت من أصل أردني، ترعى الغنم رغم ثرائها، وتستمع بتهجين الشجر، فقد علمتني يومًا كيف أقص فرعًا من شجر العنب الأحمر، أضع عليه من طين الأرض في مكان جرحه، أقوم بتقشير أحد الفروع القوية لشجرة العنب الأبيض من مفصله، العقدة، ومن ثم أدمج لحاء الفرعين ببعضهما البعض كما لو كنت أقوم بعملية لحام لطرفي سلك الهاتف، ومن ثم أقوم بلف شريط لاصق عليها كي أضمن لقاءً حميمًاً بينهما، ينتج عنه أن تحمل شجرة العنب نوعين ولونين للعنب على فروعها.

أما بقية جاراتي فقد كن جميعًا أكبر مني سنًا، وأكثر ولدًا، كان الجو جديداً تمامًا بالنسبة لي، وكن يشفقن علي لأنني أمضي طوال اليوم وحيدة بالمنزل، يخرج زوجي إلى عمله في العاشرة صباحًا، ولايعود إلا في العاشرة مساءً، كان يعمل بالاستيراد والتصدير. تخرج روحي معه صباحًا، ولا أستردها إلا حين يعود. كان كل جمال المناظر الطبيعية حولي، من جبال، وديان، أشجار، ورود، عشب، وطيور تمر من هنا وهناك، يختفي حين يعود سليم؛ زوجي، فقد كان لي، عالمًا بأسره، يضمد روحي فلا أحتاج لشيء طالما هو هنا.

كانت أم العبد قد أنجبت عشر فتيات، ويأبى زوجها إلا أن تمنحه الولد، فحملت في ابنها عبد الناصر، ليضم منزلُها الكبير عشر فتياتٍ، وصبيًا، وكمًا هائلًا من الاحتياجات النفسية، العاطفية، الفيزيائية، الفسيولوجية، البيولوجية، الروحية، والأهواء. كنت مضطربة للغاية حين التقيت بهم جميعًا، في أول زيارة لي مع زوجي إلى دارهما، شعرت أن وجودنا بينهم طارئًا، بينما وجودهم غير المستقر، مستقرًا على أية حال، رغم أن الفارق بيننا في الألقاب الشعبية ليس كبير؛ فنحن هنا وافدون، وهم لاجئون؛ فمعظمهم ممن يحملون هويات أردنية، بينما يشترط بقاءنا، الحصول على تصريح للعمل. وكنت أستغرب كثيرًا حين أعلم أن من يسن قوانين العمل والإقامة هنا منذ ستين عام أو يزيد هم أشخاص تعلموا في مصر بالمجان!

لم يستقبلناالأبوان، في ذلك اليوم البعيد، بمفردهما، فبمجرد أن سلما علينا عند عتبة الدار الأمامية ، انفلت جميع الأولاد تباعًا من داخل الدار إلى غرفة الجلوس وكأنهم يخرجون من الشقوق، صبايا جميلات؛ كانت كبراهن، تولين، في مثل سني، لم تتزوج بعد، هذا ما عرفته فيما بعد، ثم تتدرج أعمارهن بفارق تسعة أشهر فاصلة أربعة أيام أو خمسة، وأخيرًا، خرج "عَبِد" هكذا كانوا ينادونه، يحبو كالسلحفاة، من زاوية لإحدى الممرات التي أضاءها نور باهت للغاية. كان الجو يبعث على التوتر، فهذه أول مرة أخرج فيها من بيتي، لأزور أشخاصًا غرباء، تقف اللهجة بيني وبينهم حائلًا، خاصة في الأيام الأولى . بدأت حدة توتري تخف قليلًا، فقد رحبوا بنا كثيرًا، وبعد قليل، استأذنت الأم، ثم عادت لتدعوني أنا وزوجي إلى مائدة الطعام، فتبعناها، وجلسنا إلى المائدة. لست معتادة على الأكل إلا في بيت أبي، وحتى في بيت زوجي، كنت أستحي أن أستمر بالأكل، بعد أن ينهي طعامه، ولربما أكلت، سرًا، قطعة من صدر الدجاجة، بعد أن نرفع الطعام سويًا إلى المطبخ، بينما أعد الشاي، وكثيرا ما نهرني زوجي، فقد كان يشعر بالذنب لأنه يسبقني إلى الشبع دومًا، وكان يعاتبني دومًا فيقول بصوت بين الحب وبين الحب:

- "كلي، لا تتوقفي عن الطعام قبل أن تشعرين بالشبع، أنا رجل؛ أبذل جهدًا جبارًا في العمل، وآكل بسرعة كبيرة، فلا تقيسي وجبتك إلى وجبتي". كان يتفهم أنني أستحي. ولكن الآن، نحن على مائدة جيراننا، لا بد أن الأمر محرج للغاية، وقطعت أم العبد علي تفكيري، حين دخلت إلى الغرفة، وقد حملت صينية كبيرة عليها كمية كبيرة من الأرز؛ رصت عليها قطعًا من اللحم، يزينه البقدونس الأخضر المفروم، واللوز المحمص،

والصنوبر المقلي، ونقل الهواء إلى أنفينا رائحة نفاذة وغريبة، فلعبت معدتي كأنما ضربني أحدهم جسدي بعصا كركيت يمنة ويسرة، ثم صوب الكرة تمامًا إلى فم معدتي، فشعرت بحنجرتي تقفز إلى الأعلى مرارًا حتى تخيلت أنها ستنخلع من قفصي الصدري وتقلع تاركة الحجاب الحاجز:

- خففي حدة التوتر قليلًا، حاولي أن تتماسكي، ستعتقد المرأة أنك تشمئزين من أكلها، وتلك إهانة، كلي قدرًا بسيطًا من الأرز.

فأجبته بصوت يكاد يخرج من بين أسناني، وأنفاسي: لا أستطيع، أريد الحمام ضروري.

وهنا دخلت أم العبد ثانية تحمل صينية عليها دورق كبير مملوء بشراب أصفر وقالت:

- بدي ياتشُم اتذوكوا المنسف تاعنا، هادي أتشْلتنا المْفظَّلة، ما تْحسْبَوا حالتشُم اظيوف، ترى الدار دارتشُم، تشُلُوا صَحتين، بالله عليتُشم هاد بيتشُم الثاني، هلا فيتشُم.

ابتسمت لها، وأنا أركل بقدمي اليسرى قدم زوجي اليمنى، كي يستأذنها كي تدلني على الحمام، كنت على وشك أن أفرغ ما في بطني على قميصه، فقد بذلت جهدًا جهيدًا في الاحتفاظ بفمي مغلقا، بينما أسند رأسي على ظهره، وأخيرًا قال:

- من فضلك، التواليت، لزوجتي، فردت عليه:" طبعا، إتفظلي حبيبتي، من هُون".

في الواقع، كنت أتمنى لو أن من " هُون" يقودني إلى منزلي فورًا، لو قالوا لي وقتها، أن أبي سيعود حيًا، وأنه سيكون معنا في غرفة طعام أم العبد، لما رجعت. أضاءت المرأة الحمام، وقالت:

- تفظلي.. هلا بيتش

ابتسمت وأنا أجاهد القيء، وما أن أغلقت الباب حتى أفرغت أحشائي جميعها على الأرض، فهدأت قليلًا، ورحت أهيل الماء مباشرة على وجهي من الصنبور، ولما استعدت الهواء في رئتي، رحت أفتش عن مطهر ما، وممسحة للأرض، كي أترك لها الحمام نظيفًا كما كان، وكعادتي في تنظيف الحمام منذ كنت في بيت أبي، أتقنت إعادته إلى حالته الأولى، وأضفت إليه رائحة الديتول، وفتحت الباب وخرجت، كانت السيدة المحترمة تقف في نهاية الممر لتدلني على طريق العودة، كنت أرتجف من داخلي وأقول بيني وبيني" أريد أمي، أريد الحمام المحشو بالفريك، والملوخية، ومحشي ورق العنب والكوسا، آاااه. وما أن ولجنا الغرفة ثانية، حتى لمحت زوجي جالسًا، لمَّا يزل، بانتظاري، وقد اتخذني حجة، كي لا يمد يده إلى الطعام حتى أعود من الحمام، كانت المرأة قمة في الأدب، فتركتنا وحدنا وقالت، ربما استحييتما مني ومن زوجي، سأترككما وحدكما، استمتعا بالطعام، وأحنت رأسها لنا احترامًا، وابتسمت، فابتسمنا لها نفس الابتسامة؛ كنا نعني بها كلمة " ياريت".

كانت رائحة الشوربة نفاذة للغاية، فقلت لزوجي: لن آكل، لن أستطيع التفاعل مع هذا الطعام، صحيح أنها ليست المرة الأولى التي لا أعرف إسم الطعام الذي أتناوله؛ فقد كنت أعود من المدرسة وحتى الجامعة لآكل ما تصنعه أمي من طعام، كنت أعرف الدجاج واللحوم والأرانب، ولكني لم أميز يوما بين اللوبيا والفاصولياء مثلا، أو بين القلقاس والبطاطس. هذه المرَّة ليست كالمرات التي طبخت فيها أمي ... عفوًا أمي، سأكل البادنجان المحشي، لن أغضب إن طبخته، ولن أجرب إلا الأرز هنا، فلما تناولت أول ملعقة احتجت المناديل الورقية، وكان زوجي قد تناول خمس أو ست ملاعق ، كي لا يحرج جيراننا، وحين وجدني على وشك أن أسبب للمرأة إحباطًا ما، اقترح علي أن نقوم ببعثرة الأرز على جوانب الصينية ، ثم نبعده عن أطرافها مسافة كافية من جهتي ومن جهته، ليبدو الأمر كأننا أكلنا قدرًا جيدًا، ثم نعتذر عن الحساء الأصفر بأننا لا نأكل الضأن في مصر إلا في الأعياد، أقصد ليست من عاداتنا أن نأكله على العشاء. نحن نأكل على العشاء عشاء:

جبن، بيض، بسطرمة، زبادي، وشاي بلبن، وأحيانًا أفضل كعك اليانسون مع كوب من الحليب. أما هنا فإنهم يأكلون طعام الغداء على العشاء!

أتذكر جيدًا كيف كان أبي يقول:"ريش، ضلعة، شمبري، عرق فليتو، عرق تليبيانكو، روزبيف". كان الخروف الذي صنعت منه الشوربة مستوردًا على ما أعتقد؛ تنطلق منه رائحة رأيتها غريبة، من حين إلى آخر، فيتشبع جو الغرفة برائحة عيد الأضحى في أزقة الاسكندرية. هكذا ترجمت للأمر يومها، و مر الوقت ثقيلًا قبل أن تدخل المرأة لتقول: "صحتين وعافية جيراننا، والله انبسطنا فيشُم اليوم اشْتِير جيراننا"، ثم صارت توجه لي الكلام: "بالله عَليشِي شُلي، الدار دارش حبيبتي"، كنت أشكرها بحرارة من يتوسل لسجانه كي يطلق سراحه، شربنا الشاي الذي أتانا عبارة عن مياه مائلة إلى الصفرة نسبة إلى ما يشربه أهلونا في مصر من شاي اعتدت أن أراه أقرب إلى السواد منه إلى الأحمر، ومع أول رشفة قلت في نفسي" الله، إنه لذيذ للغاية، تفوح منه رائحة عشبة ما، لكنها زكية:" واااو، إنه يستحق المعاناة".

مرت عشر دقائق ربما قبل أن أستعيد هدوء معدتي، فقد رتب الشاي الجديد فيها شيئًا، قالوا يومها: إنه جيد، لقد أضفنا إليه الميرمية، وسألتني تولين: هل تعرفين الميرمية؟ فأجبتها بالنفي، ولكني استصغته بالفعل منذ الرشفة الأولى، وربما ساعدني على تقبلها، أنها تحمل رائحة الأرض، وعبق القرى. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، حول كل شيْ؛ عائلتي، عائلة زوجي، طبيعة عمل زوجي، وكيف جاءوا هم إلى هنا، وراحو يتكلمون عن الجسر،أعترف أنني لم أتواصل معهم حينها فيما يتعلق بلفظة" جسر"، فلم أكن أعرف لها مرادفًا غير" كوبري الجامعة في الشاطبي" بالإسكندرية. تكلم زوجي وأبو العبد كثيرًا وتذكروا طوال الوقت معاناة هنا ومأساة هناك. كانت التنهدات تلعب دور البطولة طوال الوقت، فاكتشفت أننا جميعًا غرباء هنا، وأن المكان لا يشكل وطنًا، ولا يبني بيوتًا، فقد كانت البيوت هناك حيث يرقد الجدود بسلام.

بعد تمنيات الجميع لنا بالذرية الصالحة، وهناءة العيش، ودعنا السيد أبو العبد وزوجته؛ سارا معنا حتى أول السلم المؤدي إلى بيتنا، ولم يتركانا، إلا حين تأكدا أننا أغلقنا الباب خلفنا، وانساب الصمت من ورائنا.

خلعت حذائي، ورميت كل فردة منه في مكان، وكذلك فعل زوجي، واستبقنا الباب إلى الحمام، كنا نحاول أن نزيل رائحة الضأن عن جسدينا، فلما انتبهنا أن أنفينا سيعيشان طويلًا، صرنا نضحك في هستيريا ونعانق بعضنا البعض كما لوكنا قطتين يتمرغان على بعضهما البعض في موسم الزواج، ويقول زوجي: " على كل حال، كان طعم الأرز شهيًا، وقد منحه الكركم طعمًا مختلفًا، فقلت له: لولا أنه امتزج بطعم محل عم حسين الجزار حين يقترب عيد الأضحى، لاستصغت الأمر.

خرجنا من الحمام، واستلمنا السرير، ولم ندر كيف هضمنا تلك الملاعق المزعجة، ولم نفق إلا على جرس المنبه يعلن التاسعة صباحًا، وما إن تلاقت عينانا حتى ارتفعت ضحكاتنا، ثم قفز زوجي ليرتدي ملابسه، وما هي إلا ساعة، حتى خرج إلى السلم صعودًا، حتى وصل إلى سيارتنا، التي تبيت يوميًا أمام بوابة دار أم العبد، ومن النافذة الغربية كنت أرى السيارة تلتهم الصخر، ثم تنحنى والطريق، إلى حيث تقطن المدينة الرياضية.

كان الأمر جديدًا تمامًا بالنسبة إلي؛ فأنا لم أخرج من بيت أبي إلا لكي أذهب إلى المدرسة، الكلية، حديقة أنطونيادس في الرحلات المدرسية، وكلية النصر في الشاطبي لحضور المسابقات الموسيقة، وفيكتوريا كوليدج حين قمت بدور " أوفيليا" في مسرحية هاملت لشكسبير حين كنت في السنة الثانية بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية. ولم أتعامل عن قرب إلا مع بنات وشباب عائلتي، حين يأتون لزيارتنا في الصيف، أو في المناسبات. لم يكن مسموح لنا، نحن البنات، أن نتبادل الحوارات مع من هم أكبر منا سنًا من الفتيات، كما كان محرم علينا الحديث مع النساء المتزوجات. عليَّ أن أعترف أنني من بيئة تقليدية منغلقة تمامًا، يهمها كثيرًا أن

تظل البنت مغلَّفة كقطعة حلوى، حتى يفكها زوجها بيديه يوم زفافها، ومن بيت أبي إلى بيت زوجي، لا فرق كبير يذكر غير أنني لم أعد أذهب ‘لى المدرسة أو الجامعة، ولم أعد أعزف البيانو مذ وصلت إلى هنا، لكنني أصبحت أجيد إشعال الشموع، وتشغيل الموسيقى الهادئة، وجمع الورد من الحديقة، و...و... مسح أحذية زوجي بكل حب.

وجدتني أسترجع كرم أبو العبد وزوجته معنا، وكيف أنهما، تفرغا لاستقبالنا والترحيب بنا، وبذلت السيدة جهدًا كبيرًا ،بلاريب، في طهي الطعام، فلما استرجعت استيائي من الطعام، واشمئزازي منه، استأت من نفسي كثيرًا، لأنني لم أمنح نفسي فرصة للتعرف إلى الطعام الغريب، وإلى مذاقه المغاير للملوخية، البامية، والطواجن التي اعتدت تناولها في بيت والدي. وتذكرت كلمات أبي، وكأنها تعاتبني:" لا يتقبل الناس الأشياء والأفكار الغريبة بسهولة، فكل جديد غريب، وكل جديد يحمل صراعًا مع القديم بالضرورة، ولكن إن أعطيت نفسك فرصة للتعرف على الأشياء الجديدة، سترى كم هي جيدة، وأنها تستحق معاناة التجريب، وشيئًا فشيئًا، تعتادها، فتتخلع من القديم، وتألفها، ومن ثم تتحول دون وعي للدفاع عنها أيضا".

ألم أقل لك أن اللاوعي لدينا هو منطقة الفعل، يعرقله وعينا في حالة الاستيقاظ، ويعيقه إلا عن الوقوف عند" الخيل والليل والبيداء تعرفني؟. لقد قالت لي المرأة عن المنسف أنه الطعام الشعبي المفضل هنا، وكان بديهيًا وطبيعيًا أن أستغربه أنا، لجهلي به، لكن جهلي به لا ينفي عنه أنه الطبق المفضل لدى قومها، لو أنني فقط منحت نفسي فرصة للتعرف إليه، لتقبلت طعمه؛ ولاستصغته. رحت أعنف نفسي طويلًا، وحمدت الله أن أحدًا منهم لم ينتبه إلى أننا لم نتناول الطعام، أوأن معدتي لعبت من رائحته، ومن يومها، قررت أن أتعامل مع كل شيء من باب ضرورة تقبل الأشياء الغريبة، والجديدة مهما كانت درجة تعقيدها أو غرابتها، إذ ليس من حقنا أن نرفض الأشياء لمجرد جهلنا بأنها موجودة في مكان ما، تحت مسمى مختلف، وضمن مكونات مغايرة.

كانت العامية الفلسطسينية التي نطقت بها المرأة غريبة بالنسبة لي، لكنها حملت جرسًا خاصًا إلى روحي، كانت تقلب السين إلى "إتش"، هكذا ينطقها أهل قريتها في "قضا القدس"، وفي "سلوان" بلد زوجها، ورحت أسترجع كلمات بعينها: شيفتش، اشلونتش، حياتش الله، ويعطيتش العافية. فليكن إذن يا أم العبد، يعطيتش العافية جارتي، حتمًا سيكون بيننا حوارت طويلة، فأمامنا وقت طويل قبل أن نغادر هذه البلدة.

اعتدت النوم لساعة أو ساعيتن بعد أن يخرج زوجي، وبعد أن أصلي الصبح إن فاتني الفجر يومًا، ولا أستيقظ إلا على صوت أم العبد يناديني من نافذة المطبخ، التي تطل على نافذة غرفة نومي، فأرتدي جلبابي، وأصعد السلالم، فأجدها وبناتها العشر في المطبخ، بينما يلهو صغيرها في البهو بقطع المكعبات. كانت سيدة لطيفة للغاية. اعتبرتني ابنتها الكبرى من أول لحظة تكلمت فيها معي، حين جاء بي زوجي من المطار عروسًا.

كان لزوجها- نزار شهاب، الذي يعمل إداريًا بالبنك المركزي، بشرة بيضاء مشوبة بالحمرة، وقامة ممشوقة، وبنية قوية، والأهم من هذا، أنه كان مهذبًا للغاية. هذا ما جعل زوجي يتركني بينهم طيلة اليوم إلى أن يعود من عمله مساءً، فيحملني ونعود إلى منزلنا.

3

في أيام يناير شديدة البرودة، يهاجمنا الطقس القطبي، وتحمل الرياح إلينا صوت الأذان من وقت لآخر كأنه آت من المحار، وكنت أواظب على الصلاة، وأؤديها في بيتي، أو في بيت أم العبد. اعتادت بناتها المجيء إلى بيتي كي تجمعنا صلاة الجماعة. وبمرور الوقت، ارتبطنا جميعًا بعضنا ببعض، واعتدت أكل المنسف، وأدمنت لحم الضأن، وصرت أشعر بمسئولية ما تجاههن، وحين تحل عليَّ روح أبي، أبدأ في سرد قصص

الأنبياء عليهن، وهن في دهشة مني؛ أقرأ في عيونهن كلامًا كثيرًا، وكأنهن يقلن كيف عرفت هذه المرأة كل هذه الحكايا.

كنا نجلس في أيام الجمع، بعد الصلاة، نتبادل الأحاديث حول الحجاب، وأحوال الفتيات حين يبلغن المحيض. لم تك أي منا ترتدي الحجاب حينها، وكنت أجيد دور الإمام، وإن لم أؤمهن يومًا بالفعل؛ فلقد قرأت أن لا إمامة للنساء، ورغم أنني لا أعرف لماذا، كنت أجدني أؤمهن دون ترتيب مسبق لذلك، فقد كن يستحيين الوقوف أمامي في الصف، ويتفانين في الوقوف صفًا غير معوج، لذا وبشكل طبيعي يتأخرن عني بمقدار خطوة، كان قلبي يقفز من الخشوع حين نخر جميعًا على الأرض سجدا، عندما تُتْلى آيات السجود. كنت أهتم بهن وبمشاكلهن، وكأنما هيأتني الغربة لأن أكون أختًا بالروح لهن جميعًا، فقد كانت أم العبد منشغلة عنهن دومًا؛ ترهقها أعمال المنزل، وسعادتها بكونها أصبحت أخيرًا أم العبد بالفعل.

كنت أساعدهن في دروسهن، وأعلمهمن الإنجليزية والفرنسية والعربية، ولم يخرج عن هذا السرب إلا أحلام، الصبية الحنطية الوحيدة في عائلة أم العبد شديدي البياض. كانت مختلفة عن الجميع في كل شيء، حتى أنها لم تكن تشاركنا الصلوات، لاتستمع إلى القصص الدينية، لا يعنيها أن تناقش أحوال النساء، تفضل الجينز الضيق، ولم يشغلها يومًا إلا النافذة الغربية، وذلك الشاب- نضال- الذي اعتاد أن يلف الطريق الواقع بين البيوت، على الجادة التي لاتبعد كثيرًا عن الطريق الواصل بين الجبل والوادي القابع خلف البيوت من الجهة الشرقية. كانت لا تستحي من أمها حين يأتي نضال، قبيل الغروب ليجوب الوادي؛ يرهقه نزولًا وصعودًا، فينخلع قلب أحلام لهفة إليه، بينما يطلق صفيرًا نعرفه جميعًا، فتستلم النافذة، حتى يحتل الليلُ البلدةَ القليلة بيوتها. كانت أم أيمن تُقسِم ،كل صباح، حين توقظ أحلام مع أخوتها للذهاب إلى المدرسة، أنها سوف تُزوِّجها بأول عريس يدق بابها، حتى لو كان يعمل زبالًا، لأنها رأت أنها فارت قبل الأوان، وأن الزواج هو أنسب الحلول لها، وكانت تقارنها دومًا بتولين، البنت الكبرى، والتي كانت تشبه فيروز في ملامح وجهها الدقيقة، وجسدها النحيل، وابتسامتها التي لا تبين، إلا حين تدير وجهها عن الناس.

كانت أم العبد تقول أنها ستسمح لتولين بإتمام تعليمها الجامعي، فهي قوية ولا تنهار أمام الرجال كما تفعل أحلام، وكنت أستغرب كيف يمكن لأم أن تتفوه بهكذا حديث عن ابنتها. كانت تتكلم عنها كأنها كيس قمامة لا بد من التخلص منه فورًا. وسمعتها يومًا تحدث جارتنا أم جهاد عن رغبتها في تزويجها، وتتوسل إليها كي تكلم أبو جهاد في الأمر، فلربما ينجح في العثور على عريس يخلصها من ورطتها مع ابنة شاردة، مندفعة، ربما أودى بها الجنوح إلى التسبب في كارثة للأسرة، فتضع رأس أبيها في الطين، فقد كانت تراها أنثى لا تخجل من البوح بأنوثتها ما استطاعت. وما أن بلغت أحلام الخامسة عشر،حتى فاجأتنا أم العبد بأن هنالك عريس قادم من الضفة، وأنه يريد عروسًا، وأنهم اقترحوا عليه أحلام. ولذهولنا جميعًا، لم تمانع أحلام في القبول به. طار عقلي؛ كيف يكون هذا الأمر؟، لقد أخبرتني أحلام بحبها الجارف لنضال، رغم أنهما لا يلتقيان، بالطبع، إلا شفهيًا، في جولته اليومية قبيل الغروب، وروحيًا إلى الأبد. كيف قبلت هذه المجنونة الزواج بغيره؟ وهي التي قالت لي ذات مساء أنها تشعر بروحها تطير فوق رأسه كأنها فراشة تحلق حول الضوء، وأنها كانت تركب معه بساط الريح أحيانًا. كان نضال ابن جيراننا، نرى بيت أهله الذي يقبع بين بساتين الزيتون في الوادي من نوافذنا صغيرًا للغاية كأنه مثلث. كان في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية بينما هي في المترك- الثالث الإعدادي، وهي سن لا تسمح لشاب أن يتحدث إلى أهله في أمر الزواج. كنا جميعا نعلم ذلك، ونناقش الأمر مع أحلام، كنت بمثابة الأخت الكبرى لهن جميعًا برغبة أبيهن وأمهن، وكانت أم العبد تحثني على الحديث معهن كي تعلم خباياهن. كان تقول لي دومًا، كوني صديقة لهن، سيخبرونك بكل

شيء لأنهم يحببنك، ويثقن بك، كي نحميهن من أنفسهن، البنات ضعيفات، حتى لا تحيد إحداهن عن السرب. كنت أجيد دور المعالج النفسي، والمنوم المغناطيسي، وجالب الأرواح، وقاريء الكف أحيانًا هههه، وربما أكون أول من اخترع الهندسة الإجتماعية، وقام بتطبيقها بالفعل، ورحت أسأل نفسي: ترى!هل أنا من أقنعت أحلام يومًا أن تتزوج بابن الضفة الذي يعمل موظفًا في المركز الجغرافي دون قصد مني حين رحت أحضر لها ولأخواتها مجلات الأزياء، وأحدثهن عن البرفانات الباريسية العتيقة، وآخر صرعات الفساتين الثرية، وأخبرهن أن الرجل الفقير لا يحقق للمرأة شيئًا من أحلامها، ومن ثم غزوت منطقة اللاوعي لديها، فجعلتها تنظر إلى المستقبل بواقعية أكبر؟ فلا مقارنة بالطبع بين عريس الضفة الثري، ونضال الطالب الذي لا يملك لنفسه شيئًا، في الوقت الحاضر على الأقل. أم انها وافقت على العريس لأنه كان وسيمًا بدرجة لا تقاوم؟ أم لأنه انبهر بها، فراح يقدم لها كل المغريات التي لا يمكن لأنثى أن ترفضها؟، وفيما بعد سألتها:

- هل أنت مقتنعة تماما بهذه الخطوة؟ هل ستسكنين الضفة حقًا؟ رغم كل ما يحدث هناك من مصائب، قتل، هدم، وتعديات من الاسرائيليين؟ ولدهشتي، كانت تهز رأسها وتقول: نعم، سأذهب إلى الضفة، فأقول مستنكرة: والدراسة؟، فتجيبني دون أن يرتسم على ملامح وجهها شيئًا لأقرؤه: "لم تأت إلى منزل أمي امرأة حصلت على أكثر من "المترك"- الإعدادية من قبل، ولم تبق في القرية فتاة لم تتزوج بعد المترك إلا تولين، هنا لا يسمحون لنا بأكثر من ذلك، ولا يغرَّنَّك أن تولين ستكمل تعليمها الجامعي، هي ستفعل ذلك، كي تعوض النقص الذي تشعرها به أمي وجاراتها، لقد نجحن في جعلها تتأزم نفسيًا، لأن أحدًا لم يدق بابنا من أجلها يومًا. هي في نظر نفسها والمجتمع عانس فلا حظ لها من الجمال."

كنت أستغرب هذا المجتمع للغاية، لكنني لم أك قوية بما يكفي لتغيير مفاهيمه العرجاء، فيما يتعلق بالمرأة، و لم أجرؤ على إقناع أم العبد، أن الزواج لم يكن يومًا هو الحل. ولم أستطع تغيير رأيها في ابنتها، التي ترى فيها مهرة جامحة، ستلحق العار بالعائلة لا محالة، وأن عليها أن تعجل بزواجها. لم يزعجني خوف أم العبد من جنوح ابنتها، فهي قروية بسيطة، لا تدرك من الحياة غير أنها زوجة، كل ما عليها هو الإنجاب الطهي، الاعتناء بالدار، القيام على شئون الكل، والخوف من غضب أبو العبد عليها. إنما كنت أستغرب من فكر زوجها، الموظف الذي حصل يومًا على بكالوريوس التجارة- شعبة إدارة أعمال من جامعة النجاح الوطنية بالضفة الغربية، والذي يعمل مديرًا ماليًا بالبنك المركزي، وبرغم كل هذا، كان له عقلية القرويين القدامى، الذين يكثرون من ذرياتهم كي يساعدوهم في فلاحة الأرض وعزقها، و يتخذون من عيالهم أنفارًا، يستخدمونهم في أعمال الأرض والبيارات؛ ويعاملونهم أحيانًا كعمال التراحيل، كيف لم يغير فيه العلم شيئا؟ لكن بالطبع، كان يجب علي أن أتوقف عن طرح الأسئلة، فهو رجل أصر أن تنجب له زوجته كل عصارة رحمها كي تجلب له ولدًا على البنات؟ ولم أره اعترض على زواج ابنته في هذه السن المبكرة. كل هذه الأفكار كانت تطاردني حين أعود مساءً مع زوجي إلى بيتنا.

طلبت من زوجي أن نتناول العشاء في مطعم القدس ، وفي المطعم، أخبرته أن أحلام ستتزوج العريس القادم من الضفة، وأنها سعيدة بذلك للغاية. كان الأمر محيرًا لنا، فأنا وزوجي نحب بعضنا البعض حتى الثمالة، وليس لدى أي منا استعدادًا بنسبة واحد بالمليون لأن يترك الآخر مقابل الدنيا بأسرها، وأقنعني زوجي، حين علل ذلك بأن المصلحة تغلب دومًا، وأن أحلام ربما حسبت الأمر من منطلق المكسب والخسارة، فعريس غني، وجاهز، يختلف بالضرورة عن طالب بالمرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي؛ لن يستوي رجلا؛ ولن يستقل ماليًا قبل سبعة أعوام على الأقل، فاختصرت أحلام المسافة، واستقر وعيها على أن عريس الضفة هو الأنسب لها.

لا أدري لماذا سيطر قرار أحلام المفاجيء على تفكيري، كنت قد رأيت الحب في عينيها لنضال مُجسَّدًا، في كل غروب؛ فهي لم تهتم يومًا لضرب أمها لها على مؤخرتها، في كل مرة تخرج نصف جسدها من النافذة، كي تتابعه، وهو ينحني مع الطريق؛ ثم يعود لينحني من جديد. كانت تتحمل الإهانة تلو الأخرى، وتتعرض للسباب طوال الوقت . وحين تستعد الشمس للسقوط في فخ الليل، ينتاب أحلام نشاط غير مسبوق، فتصعد فوق السطوح تارة، وتنظر من النافذة تارة أخرى، ولا تهدأ إلا حين يعود نضال أدراجه إلى ناحية بيته في قعر الوادي. لم أرها تأخذ من روحه أو أنفاسه إلا تلويحة، أو اثنتين، تتناثران من يده وهو يطير في قلب الطريق نزولًا أو يرهقه صعودا.

اجتمع الجيران والأقارب، وجاء الأهل من هنا وهناك، والتم الجميع في بيت أم العبد، جاءوا جميعًا لحضور عرس أحلام. كان جوًا جديدًا للغاية، فانعقاد حفل زفاف بالمنزل يعد غريبًا بالنسبة إلي، فحفلات الزفاف في الاسكندرية غالبًا ما تقام في الفنادق، أو قاعات الأفراح، أو المسارح. على أية حال، كنت أقوم بدور طالب، دخل حقل إعداد الأبحاث حديثًا، و قد فرض عليه أستاذه رصد العينات البحثية عن قرب، ويطلب منه تدوين كل مشاهداته بعناية، كي يحصل على درجة علمية ما، ومن هنا رحت أتفحص الوجوه، والعادات والتقاليد، والملابس، واللهجات، وأبهرني الأمر، فليس مثل أن تعيش التجربة لايف.

انفتحت الصالونات الخمس للضيوف الرجال، في اليوم السابق على حفل الزفاف. وجلست النسوة في غرفة تحتل فيها تلك المساند الضخمة التي تتكون منها القعدة العربية الكبيرة كل جوانب الغرفة. وكان قد تم تخصيص إحدى الغرف الجانبية للعناية بجسد أحلام. وكنت أدخل مع تولين، تالا، تغريد وتمارا من وقت لآخر لأتابع الأمر، وفي كل مرة، كنت أرى أحلامَ مختلفة، حتى انتهت الماشطة من العناية بجسدها، تلميعه، ومزجه بالعطور. كان الصبايا يرقصن، ويغنين طول الوقت، وسمعت، للمرة الأولى، الزغرودة الفلسطينية، فرحت أنصت جيدًا للصوت، لأنني حسبته صراخًا، فجمدت في مكاني. لماذا تصرخ هذه المرأة؟، ولكني سيطرت على أعصابي، وقلت في نفسي: اهدئي ياريم، لقد نصحك أبوك بأن تفهمي ما يدور أولًا، ثم تستقبلينه بالرفض او القبول فيما بعد، امنحي عقلك فرصة لتفهمي الأمر"، وأمعنت النظر في المرأة فوجدتها تعاود الكرة، وفي كل مرة، تنهي الأمر بعبارة" واللي يحب النبي يصلي عليه"، فيقول قلبي والنسوة:"عليه الصلاة والسلام"، ثم صرخن جميعًا مرات ومرات. رحت أنقل بصري بين المرأة والنسوة كأنني بلهاء، وبعد قليل وجدت كل النساء يقلن كلامًا لاأميزه، ثم يصرخن بالزغاريد. هي بالتأكيد زغاريد، وهذا يوم الحنة الذي يسبق يوم عرس أحلام بيوم. تذكرت زغرودة جارتنا سيرين، حين أخبرتها زوجة خالها أن عمتها استفاقت من غيبوبة الكبد، ثم تذكرت صوت صراخها حين قالوا في نفس اللحظة أنها ماتت، فلم أمنع نفسي من الابتسام، فانتبهت أم العبد التي فهمتني جيدًا وقالت لي هذه هي الزغرودة الفلسطينية، يسمونها في فلسطين و الأردن "المهاهاة". قلت في قلبي:" ولم لا؟ فقد اختلط الحزن عليهن والفرح، بل كان الحزن أشد وطأةً، فخرجت الفرحة من حلوق النساء صارخة يتخللها الصلاة على النبي بين الحين والآخر، ولفت انتباهي أنهن لم يحددن نبيً بعينه، فقد ردد الجميع: "اللهم صلي عليه"، وكانت بيننا أم بيتر وأم حنا جارة أم العبد التي قابلتها منذ يومين وعرفت أنها من بيت ساحور بالضفة. ولأول مرة انتبه إلى أن دمعي يسقط من القنوات الدمعية إلى قلبي فيحرقه. تفحصت وجوه النسوة مرة أخرى، كن يصلين على النبي دون أن يتعاركا على اسم نبي بعينه، فجميعهم يستحقون صلاة الله وسلامه.

ارتعش الصباح في بيت أم العبد مبكرًا، أو أظنني رأيته هكذا، ومضى مترنحًا، وراح يطرق باب غرفة أحلام. ثم دق السائق الذي سيقلها إلى محل الكوافير جرس الباب الخارجي للدار ففتحت عينيها. كان شعرها المصبوغ بلون دم الغزال، يضفي لون العناب على وجنتيها ويديها وساقيها اللتين خرجتا من الشورت الأسود، كأنهما صنعتا من البللور؛ ممشوقتان كأنهما لحورية. كانت بشرتها بلون الحنطة الممزوجة بعسل النحل الجبلي، وكنت قد صعدت إلى دار أم العبد بعد أن غادر زوجي إلى العمل، كالعادة. لا فائدة من البقاء وحيدة في كل هذا المنزل. اليوم هو عرس أحلام، ولأول مرة أشعر بوخز في قلبي، ودمعة محبوسة في مقلتي، تفر كي تعود لتفر. لقد عشت بينهم خمس سنوات كاملة أختًا كبرى بالفعل، يا الله، لكم أنتم طيبون يا آل أبو العبد. رحت أفكر كيف أنني سأجيء هنا غدًا، فلا أجد أحلام، وسألت نفسي: ترى! هل أم العبد سعيدة بهذا الزواج بالفعل، أم انها فعلت الصواب لحماية ابنتها من تهور سن المراهقة، لا سيما وأنها الصبية الوحيدة، التي تمردت على الواقع، وخرجت عن وعيها، ولم تعر التقاليد اهتمامًا حين شعرت بميل للجنس الآخر.
ياإلهي، آاه، لماذا أشعر بكل هذا الوجع، بمجرد أن يبدأ تفكيري في رحيل أحلام؟. أجابني قلبي:"ربما لأننا نحن المصريين عاطفيون للغاية، وينساب منا الحنان طالما للنهر في مصر متسع لحياة"، ولم يخرجني من شجني، غير صوت أحلام:
- صباح الخير سيدة ريم!
- صباح النور يا حياتي، صباح الحلوات.
- "تسلمي يا نشمية، سأفتقدك جارتنا. يعز علي كل شيء هنا يا ست ريم. سأفتقد كل شيء هنا،سأشتاق إلى رائحة دارنا السلالم، سطح الدار، النوافذ المطوية قبل المفتوحة، أمي أبي، أخواتي، والصغير." فأوجعني قلبي للغاية، وتذكرت بكاء أمي وأخوتي حين ودعوني قبل مجيئي إلى هنا؛ أتذكر جيدًا، كيف أن أخويي الصغيران، لم يقويا على مصافحتى وعناقي، ولم يحملهما جسديهما، فجلسا القرفصاء فانحنيت إليهما، أرفعهما، وأعانقهما معًا، كنا نبكي كما لم نبك من قبل، قتلهم رحيلي، ودمرتنا جميعًا إلى الآن لحظات وداعي الأولى. وأتذكر كيف احمر وجه أمي من شدة الانفعال، وهي تودعني، وتتركني كما تقول دومًا:" بين يدي الله" أتذكر كيف كانت تشْتُّم رائحتي، ولا تملك إلا الدعاء والدعاء والدعاء، ونبهتني أحلام:
- سيدة ريم، ما بك؟
- لا شيء، ربما لم أنم جيدًا البارحة، لا شيء، هيا استعدي للكوافير، لقد جهزت لك أمك حقيبتك وفستانك، وحذاءك، وملابسك الداخلية، وكل شيء، من حقك أن تفرحي اليوم مقدار ما تشائين.
نهضت أحلام من مكانها، لتجلس على حافة الكرسي بجواري، تتدلى ساقاها الجميلتان عاريتان تمامًا، إلا من وشم أخذ ينساب على جانبي ساقيها، مستمتعًا بلون حنطي براق، كثيرًا ما رغبت النساء الأوروبيات في الحصول عليه لبشرتهن الباهتة، وضعت ساقها اليمنى فوق اليسرى وراحت تعيد خصلات شعرها إلى الوراء، ثم فركت عينيها وتثاءبت ملء فيها، أريد أن أحدثك قليلًا، تفضلي إلى غرفة نومي، فلما دخلنا، بادرتني قائلة:
- هل سأتألم؟ تلعثمت قليلًا قبل أن أجيبها، فقد لطمني سؤالها على أذني لطمة مفاجئة، ثم استجمعت قوة كلمات جدتي وأجبتها: لا. عليكما، فقط، أن تتفقا على لغة مشتركة بينكما أولا، بعدها سيكون كل شيء على مايرام، وسيكون الكون لكما. هزت أحلام رأسها ثم نهضت لتفتح النافذة، وبعدها، اتجهت إلى خزانة الملابس، فاختارت بنطالًا من الجينز الأزرق، وبلوزة بلون قلب البطيخ، ثم وضعت قدميها الصغيرتين في حذاء رياضي أبيض يزينه خطان ورديان على الجانبين، ثم خرجنا معا إلى البهو الكبير، حيث تجلس أم العبد،

والجارات والقريبات، كانت "أم العبد" سعيدة للغاية لأن الله استجاب لها، وأرسل لأحلام عريس يخفف من وطأة التوتر الذي تسببه أحلام لها، كانت تمزح مع النساء اللواتي رحن يزغردن من وقت إلى آخر. كن يمْرُسْن "الجميد الكركي والخليلي"(والجميد هو مادة المنسف الأولية، تصنعها القرويات من اللبن، في مرحلة ما؛ ويقمن بتنشيفه، وتخزينه، وتتخذ كرات الجميد شكل كرات الجبن القديمة، التي يصنعها أهلنا في صعيد مصر) ولقد لاحظت أن للجميد والجبنة القديمة مذاق متشابه. راحت النسوة تمرسنه- تفركنه- بأيديهن استعدادًا لصنع غداء العرس الضخم، الذي هو المنسف بالطبع، وكنت قد اعتدت طبخه وتناوله. كنت قد أصبحت فلسطينية – أردنية- لبنانية-سورية إلا قليلًا، و"من عاشر الجوم"، حتى أنه أصبح وجبتي المفضلة التي إن لم أستطع إعدادها في بيتي، أذهب مع زوجي لنتناوله في مطعم القدس.

كانت أم العبد ترتدي نظارة سميكة، يطلقون عليها في مصر"كعب كباية". كنت أرى أنه من الطبيعي أن يتضرر نظرها بعد كل هذه الولادات التي أخبرتني عنها يومًا، حين كنا نجلس مع جارتنا أم جهاد في شرفتها المطلة على الشارع الرئيسي للقرية، قالت أنها ولدت كل بناتها ولادة طبيعية، ولكنها اضطرت للولادة القيصرية، حين فاجأها المخاض، وهي حامل في ابنها الصبي. كانت تقول: "حمل الصبيان جاسي، وولادتهم مُرّة" كنت أقشعر من فكرة الحمل والولادة، ولا أتخيل أن ذلك سيحدث معي، بينما أنا هنا وحدي. كنت أراها امرأةً حديدية؛ كنت أسمع وقع قدميها تدب فوق رأسي. يأتيني صوتها من خلال سقف غرفة نومي، حين تنهض مع الفجر، لتعد فطور زوجها وأولادها، قبيل خروجهم إلى المدارس. كنت أسمع قعقعة القدور، والملاعق، والأكواب، وهي تغسلها، فقد كانت نوافذ غرفة المطبخ تطل على نوافذ غرفة نومي. كنت أقول في نفسي: كيف يمكن لهذه المرأة أن تهتم بأمر كل هؤلاء القوم؟ وأتعجب. كان من الطبيعي أيضا، أن تزداد عصبيتها، حين تخرج عليها أحلام بأفعال جديدة، منافية للتقاليد، والأخلاق، وطبيعة الأنثى في الشرق.

كان لأحلام طريقة مغايرة تمامًا لكل ما تفعله تولين وتالا وتغريد اللواتي كن أكبر سنًا، وكانت تمارا التي تصغر أحلام بعام واحد، فائقة الجمال، لكنها خجولة إلى درجة لا توصف، كانت تخجل حين تعطس أمامنا، أو حين يعلو صوت عطستها؛ كانت تحاول تغيير الأمر بأن تنظر إلينا جميعًا ثم تضع يدها على أنفها وتفتعل السعال حتى تكسر حدة صمتنا، ثم تدخل المطبخ، وتبدأ في غسل الصحون. كنا نتعامل مع خجلها بكل الود، بينما حين تعطس أحلام أو تسعل، فإنها تضحك بصوت مرتفع، وتقفز فوق الكراسي، وتعاود تقليد صوت العطس مرةأخرى حتى يضحك الجميع مرارًا، كانت مختلفة بالفعل، فلم أرها يومًا وقد انحنت على رأس أمها، تقبِّلُه كما تفعل بقية أخواتها، كانت تشيح بوجهها عنها، حين لا يعجبها حديثها عن نضال، خاصة حين تكيل لها الشتائم، والنعوت، التي كنت أنا شخصيًا، أتمنى لأحلام الزواج من كل قلبي، كي يرحمها الله من ذلك اللسان المر.

لا أنسى حين دخلنا المطبخ جميعًا لنصنع الكعك قبل العيد الصغير، كنا جميعًا مشغولون بتكشيل العجين، وتقطيعه، ورصه في الصواني، وقد جلسنا إلى مائدة الطعام بالمطبخ، ما عدا أحلام. كانت فوق سطح الدار كالعادة، فقد كان الوقت قبيل المغرب بتوقيت نضال الذي يجوب الوادي بدراجته، ويرهق الطريق الدائري الذي يلف المدينة هبوطًا وصعودًا وحلزونيًا. تبادلنا جميعًا نظرات القلق، فقد كنا نخشى غضب أم العبد لو اكتشفت غياب أحلام، وكأنما نقول:" لو أن إحداكن تنادي أحلام، قبل أن نسمع وصلة الشتائم، والدعوات بالسخط، والمسخ، التي ستبدأ على لسان أمها بعد قليل. وبذكاء شديد، انسحبت خلود، وهي أصغر الفتيات العشر وكانت تبلغ من العمر ست سنوات حينها، وبعد قليل عادت ومعها أحلام، استغربنا جميعًا، كيف تسنى لخلود أن تقنع أحلام بالنزول، دون أن يكمل نضال جولته المسائية. وكعادتها المرحة، قالت أحلام وهي

تبتسم، وتغمز بعينها لنا:" لا بد أن البوم قد حلق في المكان طويلًا، أو أن الخفافيش خرجت في النهار"، ضحكت كل منا سرًا، فنحن لا نريد أن نثير حفيظة الأم، لأنها لو انفلت عيار لسانها، ستكون كطلقات الرشاش، ولن يسلم من لسانها أحد حتى أنا، لأنني بالطبع سأبدأ في توزيع النصائح، والحكم على الكل، فأنا الأكبر والأعقل، وأم العبد كأي أم؛ لا تحب أن يوجد على وجه الأرض من هو أفضل من أولادها، وسرعان ما ستقول لي: " لو ان أمك أنجبت منك اثنتين لانعدل حال العالم". كنت أضحك بيني وبين قلبي، وودت لو قلت لها أنني بالفعل يمكنني فعل ذلك في عرف زوجي وأهلي.

كانت تولين كالعادة، تتمتم المنطق، والعقل صمتًا ولا تملك الجرأة على إبداء رأيًا مغايرًا لما تراه أمها. أما أنا، فلم تدرك أم العبد أن مصدر العقل والمنطق عندي آتيان من كوني تمتعت بأب وأم مثقفين للغاية، عاملوني بالمنطق، والعقل طوال الوقت، ناقشوني كثيرًا، في كل شيء، ومنحوني الوقت والثقة كي أعبر عما بداخلي حتى لو تعارض مع مفاهيمها، وإن كان لا بد لي من تغيير موقفي تجاه أمرٍ ما، فهو بالطبع بعد قناعة تامة مني، بأنهم يريان ما لا أرى، بحكم خبرتهما، فقد اقتنعت دومًا، أنني لن أحظى بحب مثل حبهما لي ما حييت.

الأمر الثاني أنني أحظ بزواج ناجح جدًا، وزوج رائع يحبني، وحياة مستقرة، ماليًا، معنويًا، وصحيًا. لو أن شيئًا من هذه الأمور اختل، لأدخلني في معترك نفسي شرس، ربما أكون معه أكثر تمردًا من أحلام، ولربما فقدت عقلي، وتحدثت إلى نضال بنفسي أمام الجميع، ضاربةً بعرض الحائط كل شيء، لربما نزلت إلى أول الطريق في الوادي كي أنتظره، بل ربما ركبت خلفه على الدراجة لأجوب معه المكان ذهابًا، وإيابًا بينما أحتضن ظهره، ألف ذراعي حول خصره، وألتصق به كما لوكنت وشمًا دون أن ألق بالًا لأحد. ربما أصبحت أكثر شراسة في الدفاع عن حبي، حياتي، وشاب يجوب الوادي لأجلي؛ من أجل نظرة واحدة، يلقيها على خيالي، من وراء زجاج النوافذ. ولربما كنت أول من تزوجت عرفيًا في هذا المجتمع المنغلق، الذي لو طارت نظرات المرأة فيه عفوًا إلى ساق أحد الرعاة بينما يرفع طرف ثوبه بيده لرجموها حتى الموت. فأنا ذات طبيعة متمردة للغاية، أعرفني جيدًا، لقد قلت يومًا لابن عمي الضابط الصغير، وكان وقتها ملازم أول بالقوات المسلحة، أنني لا أحبه، وأنني أحب قريب صديقتي، ذلك المهندس الوسيم، وكنت أعتذر عن مقابلته دومًا. كان خاتمه في إصبعي لا يعني يا شيئًا، فهو ليس إلا حصيلة اتفاق رجلين: أبي وعمي، وليس حصيلة رضاي، وقبولي به زوجًا في المستقبل.

كنت أعتذر عن استقبالي له، وأختلق الأعذار حين يأتي لزيارتنا بعد شهر من الغياب، وأتحجج له في شهر رمضان، بأنني لم أخرج لاستقباله فور مجيئه، لأنني كنت أصلي التراويح. وحين حاول لمس يدي، ليعبر لي عن حبه، اعتذرت له، وقلت له:" هذا حرام"، وتقمصت دور الدراويش، وقلت:" ليس مسموحًا للخطيب أن يلمس يد خطيبته، هذا حرامٌ بيِّن". بينما تختفي كل المواعظ والفتاوى التقويمية، حين تذوب يدي في يد ذاك المهندس، الذي أصبح زوجي فيما بعد. وحين حاول ابن عمي تقبيلي ونحن نصعد سلالم بيت أبي، مضطرين، لأن الكهرباء انقطعت فعطلت المصعد، تحولت إلى واحدة من قطط القمامة، وأبعدته عني بكل قسوة، وقلت له هذه سلالم بيتنا، وأنا أعرف جيدًا كيف أصعد وحدي، صعدت السلالم على طريقة الفئران قفزا وطيرانا حتى وصلت الدور السابع، فلما فتحت أمي الباب، رأيت أبي خلفها يسألني عن علاء، فقلت له أنه قادم خلفي، وهنا أدرك أبي أنني لا أرغب في إكمال هذا الزواج، فأرسل إلي أمي التي تبعتني إلى غرفتي، فأخبرتها أنه حاول سرقتكم، ورحت أكيل له الاتهامات وانعته بالتجاوز وخيانة الثقة، وأنه أهانني حين غافلتني ذراعاه لتحتضنني، وأنه غدر بي، ورحت أقول لها:" ثم ماذا لو رآني أحد الجيران، الذي ربما تصادف أنه صاعد خلفنا، أو سبقنا بدور أو اثنين؟" أتذكر يومها كيف قالت لي أمي وهي ترفع حاجبًا، وتخفض الثاني مستنكرة

جرأتي في فضح ابن عمي الذي لم أفهم حبه جيدًا حينئذ:" لو أحببته لوجدت للأمر مذاقًا مختلفًا". فقد كانت تباهي قريباتنا بخطبتي لهذا الضابط الوسيم. وأقسم أن أم العبد نفسها كانت لتفعل الشيء نفسه لو أن فرصةً أتيحت لها.

علي أن أعترف الآن، بأن مرحلة المراهقة، تعد من أقسى المراحل التي يمر بها وعينا المدرك، ليترك في عقلنا الباطن، إدراكًا عميقًا، يجيد التحليل والتدقيق، لما سنكون عليه حين نبلغ من العمر مبلغ النضج. كما يترك فينا ألمًا لا يزول إلا بموتنا. نعم، ربما كنت سأصبح أكثر شراسة مع أمي، حين تمنعني بطريقتها القاسية والعدائية من رؤية نضال، وربما كنت سأتعمد كسر زجاج النافذة، حتى لا تغلقها أمي، وتمنعني رؤيته آتيًا إلي خصيصًا من جنوب الوادي، ثم ماذا لو لم تكن أم العبد نفسها زوجة الآن، أعتقد أنها ماكانت لتفوت فرصة حب جميل كحب نضال لأحلام، وربما كانت هربت مع حبيبها، من يدري؟ حين يتعلق الأمر بغيرنا، نحكم بقسوة، ونترفع عن كل شيء كما لوكنا ملائكة، وننسى أن الجنوح هو مادة الكون الأولية، ألم يعص آدمُ أمر ربَه؟

لم أك أرغب في استعراض قواي العقلية والمنطقية في الحوار مع أم العبد فيما يخص أمور بناتها. أردت فقط أن أخفف من حدة توتر الحوار بينها وبين أحلام. وفيما بعد أدركت أن أحلام هي المعادل الموضوعي لمنطقة اللاوعي لدي، ولدى أم العبد، ولدى كل فتاة قمعتها التقاليد، وحاصرتها الاتهامات كونها أنثى. بل هي الصمت الموجود بداخلنا جميعًا، حين لا نستطيع ترجمته على أرض الواقع. كان تعاطفي مع أحلام نابع من تعاطفي مع الجزء الصامت في داخلي، والذي تمنيت لو لم يمسسه أحد بسوء ما حييت. عرفت فيما بعد أنني كنت أحلام المقموعة في منطقة "اللاوعي" الذي أشعر أنه مدرك للغاية. هذا ما اكتشفته بالفعل. إنه المحرك الأساسي، والباعث النفسي، الذي منه ينطلق وعينا بالأشياء من حولنا، والذي منه تنطلق أحكامنا، وأفعالنا، وقراراتنا، وحتى جرائمنا، وتجاوزاتنا، صغرت أم كبرت. لم أك بدفاعي الخفي عن أحلام، أمام أم العبد، أقصد تحريض الفتاة على معاندة أمها، أو توريطها في الخروج عن العرف، والتقاليد الصارمة التي تعامل المرأة على أنها مجلبة للعار فقط ليس إلا. بل كان نقاشي معها محاولة لغلق الفجوة بين مفهومين أحدهما تقليدي مغلق؛ لا يرى إلا فلكة معلق فيها ساقان لفتاة، سوط مسلط على ظهرها، شعر يجذبه رجل، ويمسح به أرضية البيت، وفرج أنثى سيجلب العار والخزي، لا محالة، لأنها أطلت من النافذة لترى الطريق فكرًا مستنيرًا، يبحث عن آفاق رحبة، لروح تواقٍ للتغيير، متمردٍ على الأطر البالية، ومطالبٍ بحقه في الاختيار، الانطلاق، وتحديد المصير. لكنني أعترف بالطبع أنني فشلت، فقد استجاب الله لدعاء أم العبد ولم يعر حواراتي اهتمامًا. ليس لدي اعتراض بالطبع، فالله يحب الأمهات، ولا يرفض لهن طلبا، خاصة حين يتعلق الأمر بأولادهن، و.....

قاطعتني أحلام:" سيدة ريم، كيفك اليوم، أين شردت منا؟ أراك ذهبت بخيالك إلى مصر"، قلت لا، أنا معكم هنا تمامًا، ولكني تحدثت مع الله قليلًا، ففتحت عينيها الوساع حتى خِلْتُ أنهما التصقا ببعضهما البعض، وقالت: حوار مع الله؟"، هل تجيدين الحوار مع الله مثلي؟، قلت: " أوتحاورين الله يا أحلام؟"، قالت: لا أنام قبل أن أحاوره، ويرد هو بدوره علي"، قلت نعم، هو يرد دومًا على من يقصد بابه، بطريقة أو بأخرى، قالت: بل، هو يحب المحاورة، لا أكتفي بدعاء وحديث أكون فيه أنا المتكلم فقط، نحن نتبادل الأدوار"، قلت:" يا إلهي، أحلام!،أوتفعلين ذلك حقا؟، قالت: لقد اكتشفت أن الله يحب المحاور الجيد".

تعجبت من كلامها كثيرًا، وقلت في نفسي أعلم أن بإمكان البراح أن يكون خير معلم للروح الإنساني، لأنه يوحي له صمتًا بما يعجز الكلام عن تبيانه، فرسائل الصمت تنقش على الروح حكمة، وتلبسه تاج معرفة

مغاير للمألوف، ولقد تعلق قلب أحلام بالبراح، فلم لا؟، إنها تقول ما يجول في قلبي وروحي، نعم أنا أحاور الله كثيرًا، وأتبادل معه الأدوار؛ أحدثه فينصت، ويحدثني فأنصت. أسأله بالمنطق، وأدعوه أن يلبي حاجتي وفق ما وعدنا به، ومن باب" لقد قلت لنا يارب كذا فنريد كذا" يدور الحوار بيني وبينه. نعم، علي أن أحترم أن لأحلام حوار مع الله مفتوح. لم يك من المجدي بمكان، أن أناقش أم العبد في مدى وعي أحلام واختلافها عن بقية الفتيات هنا، فلقد نشأت أم العبد على الطاعة العمياء، لكل ما يحمل صفة ذكر؛ رأيتها حين تضع الطعام للأسماك في حوض السمك تبدأ برش الطعام فوق رءوس الجمع الذي تكثر فيه الذكران، أولًا، وتتلكع كثيرًا حتى تطمئن إلى ترضيتهم، وتستمتع حين تقترب الإناث في محاولة لالتقاط ما تيسر من فتات، ثم تذهب إلى آخر الحوض لترمي الطعام للإناث اللاتي يأتين سعيا، وتسبقهن الذكور دومًا فأشفق عليهن، وأنظر إلى وجه أم العبد فأراه منفرج الأسارير؛ فقد أرضت الذكور. حتى على مائدة الطعام، أراها تضع النصيب الأكبر من الطعام لعَبِدْ وأبيه أولًا، ثم يأتي البقية في المرتبة الأخيرة.

لا أدري لماذا استرجعت ذلك اليوم كما لو كان الآن؛ عمَّان؛ بلد عانقني بكل ما أوتي لبلدٍ من قدرة على العناق، طيران عاليا؛ مطار عمَّان الدولي، وحقائبي وبعد لحظات عانقاني، حتى شعرت أنني تبخرت، عمّان وزوجي. لم يكن قد مر شهران على زفافنا، لم أر يومها غيرهما، لا أعلم أيهما رأيت أولًا. دخلت بيتي، وللوهلة الأولى وقعت عيناي على الوادي والجبل وما شئت من مروج، لم يتح لي زوجي فرصةً فحملني، كان اليوم يمر طويلًا من دونه، تخرج روحي معه صباحا ولا تعود إلا معه، كنت أقضي اليوم أحاول استرجاع ماحدث، ودعتني أمي، أبي وأخوي الصغريين. كنت قد اخترته من بين الكثيرين من العرسان إذ لم يكن بالنسبة لي عريسًا والسلام، كان كل ما يمكن لفتاة أن تحلم به، لا أذكر أننا تشاجرنا يومًا، أو أنه تركني أنام دامعة. غلبني النوم دومًا على كتفه الأيسر، وغلبه الحب دومًا فكان وطن. كانت عمان بهية هادئة وطيبة. كان َلأهلها أخلاق القرية في مصر. سَكَنْتَ بحي راق. لم يزل الأصدقاء يهاتفنني، ويحكين عن عمَّان؛ قالوا أنها اختلفت، وكثر الأغراب بها، ولكنها دومًا ستبقى المرأة التي عانقتني وزوجي حين هبط سلم الطائرة وقدم لي عمَّان، كان لجارتي أم العبد عشر بنات، وكان الولد هو حلم تلك المرأة وزوجها، وكأن كل من بالبيت من جميلات مجرد هواء، ما كنت لأجرؤ أن أتناقش معهما في ذلك ، فالعقل الجمعي أيضا لحقني إلى هناك...الولد، الصبي، والرجل. عمَّان بكل ما أحاطتني به من حبٍ، كانت تنحازُ إلى الرجال!

-5

من قبل أن يصير لها ولد على عشر فتيات، كانت تنادي زوجها بسبب وبدون سبب " أبو العبد"، هكذا قالت لي يومًا. وحين تشتري الخروف للعيد تراها تفضله ذكرًا. لقد نشأت المرأة على تمجيد الذكر، وتستشعر الضعف واللاقيمة في كل ما هو مؤنث، حتى حين تتكلم عن أبو العبد في حياتهما الخاصة تقول:" لن أقوم بأعمال الدار اليوم، فالليلة هي ليلة أبو العبد"، وكنت أتعجب وأقول في نفسي:" مال لهذه المرأة؟ ولم لا تكون الليلة ليلة أم العبد وأبو العبد معًا؟". هذه هي أم العبد فكيف أناقشها صراحةً في أمر حب أحلام للبراح ولنضال؟، كنت أرى وجهها معجونًا بالغضب من أحلام، وكأنما هي العدو. كانت دعواتها على أحلام تحرق قلبي بالفعل. لم أر أمي يومًا دعت على أحد من أخوتي مثلما تفعل هذه المرأة. وحتى لو غضبت أمي من أحدنا ، كنت أراها تبكي وتستغفر الله وتقول: اوعى يارب تاخد على كلامي أنا كنت عصبية". كم هي غبية هذه المرأة- أم العبد- رغم طيبتها التي لا توصف، والتي يمكن أن ألمحها على الفور حين يغلبني البكاء حنينًا إلى عائلتي.

كانت الصباحات في دار أم العبد تذكرني بصباحات بيت أهلي في مصر، حيث يفتتح القرآن الكريم اليوم بهدوء، فيوقظنا على مهل. كنت أسمع وقع أقدامها عند الفجر تروح وتجيء فوق رأسي، عبر سقف غرفة نومي، ثم ينقل الصمت إلى الوادي والجبل صوت القرآن كأنه آت من كهف مقدس. وما إن تتخذ الشمس مكانها، في ركن الصباح البهي، حتى ينتاب السلالم الجبلية صخب وقع أقدام الطلاب، العمال، والموظفين الذين لم يزيدوا حين كنت هناك عن الثلاثين أو الأربعين نسمة.

كانت أم العبد ترى زوجي من نافذة المطبخ حين يخرج إلى عمله، عند التاسعة صباحًا، وعلى الفور ينطلق صوتها: ريم، ريم، يلا اطلعي راح ساوي الكهوة، وإذا بدك تاخدي شاور خِدِيهْ عِنْدنَا" ثم تذوب في الضحك. "كنت أستاء من عبارتها عن الشاور في باديء الأمر، لأنني لست معتادة على مثل هذا النوع من المزاح الجريء، ولكن سرعان ما اعتدت على طريقتها التي لم تك تخلو من تلميحات جنسية، ولكنني سرعان ما نجحتُ في أن أجعلها تقلع عنها. كانت أم العبد تعتقد أن الطريقة التي تتكلم بها الراقصات، وتجار المخدرات، والآتون من قاع المجتمع، في المسلسلات والأفلام المصرية، هي نفسها الطريقة السائدة في كل البيوت المصرية، فكانت تختار جملًا ساقطة من فيلم ما، كي ترد بها علي فأستشيط غضبًا، ويحتاج الأمر مني لأن أشرح لها خطأها في فهم المغزى من وراء الأفلام والمسلسلات، فليس كل ما تعرضه الأفلام المصرية من نماذج لنساء سيئات السمعة، أو ساقطات، يعني أن نساء شعب بأكمله على هذه الشاكلة، وفيما بعد نجحت في أن أجعلها تقلع عن التكلم بتلك المصرية الساقطة. هي كغيرها من العرب، تعتقد أم العبد أن كل مصرية هي راقصة محترفة بالمقام الأول، إذ لم تكن الفضائيات قد انتشرت بعد في ذلك الوقت ، تعرض القنوات العربية كل المنتجات المصرية من أفلام، مسلسلات، وبرامج، وقلَّما تتدخل سوريا أو لبنان بفيلم، أو مسلسل من هنا أو هناك. القرويون هم القرويون، في كل بقاع الأرض؛ يحملون شكل انقباض الأرض حين تمتص المياه في طبقاتها البعيدة، فتتشقق من الجفاف، ويشغلهم الجنس بدرجة أولية، من فرط ما يرون من جماع بين الحيوانات والأشجار، بشكل طبيعي، أو بتدخل مباشر منهم. ويتعاملون مع كل شيء من منطلق التذكير والتأنيث. هم متشابهون في كل مكان أيضًا، يستهجنون كل ما يرونه غريبًا عن تقاليدهم. ولكن ليس من المنطق في شيء، تعميم الأحكام على الكل من منطلق الفرد، وكان علي أن أعذر الكل هنا بالطبع.

استطعت قراءة هذا الفكر العقيم جيدًا، حين التقينا نحن الجارات، ببيت جارتنا أم بيتر ذات صبحية، فمن عادة النسوة هنا، أن يلتقين في الصباحات ببيت إحداهن، حيث تصنع الكعك اللذيذ، القهوة، وخبز الزيت والزعتر. كن يتبادلن الزيارات فيما بينهن، فأصبح لي أيضًا يوم أدعوهن فيه إلى منزلي. في تلك الصبحية، التقيت إحدى الجارات، وكنت أراها للمرة الأولى، منذ أن سكنت بجوار أم العبد، كان بطنها المنفوخ ينبيء عن موعد ولادة قريب؛ لها وجه منفوخ تقريبًا، بفعل الحمل، وبعد أن تناولنا بعض الشطائر، وجهت كلامها إلي فقالت: " طبعا انتي رقاصة محترفة"، كنت على وشك أن أضربها بصينية القهوة، بما عليها من فناجين ممتلئة، واسترجعت ذاكرتي بسرعة فائقة ردة فعل صدام حسين حين أطلق النار فجأة على أحد أقاربه، الذي راح ينتقد بعض الأمور في البلاد على مائدة الاجتماعات في المجتمع المغلق الذي جمعه بكل قيادات البلد سرًا، لكني تماسكت إلا قليلًا، لم أجبها، واكتفيت بأن رمقتها بنظرة باردة جعلتها تتوقع السوء. فقالت أم العبد :" لا، ريم غير، ريم ما حدن يحكي عنها إنها مصرية،" فزادت الطين بلة، فقلت في سري: "الله يخيبكم، ويخيب اللي نساكم إن ستات مصر هم اللي خلفو رجالة تحارب بدالكم". ولكن كان لزامًا عليَّ أن أرد بما يليق بي، وليس بما يستحققن، فقلت:" أرى أنكن جميعًا لم تفهمن رسائل الأفلام والمسلسلات المصرية على النحو الصحيح، إن الأفلام والمسسلسلات، إنما تعكس سلبيات الواقع، وكواليس الفساد، كي تحمي من لا

يعرفها من الوقوع في الفخاخ، وهي تخاطب في الناس وعيهم، ويبدو أنه على المخرجين والممثلين المصرين أن يقوموا بعقد ندوات توعية للمتلقين، يعرفونهم من خلالها، كيفية استقبال المنتج الإبداعي، أيًّا كان مصدره، حتى لا يتم الحكم على كل شرائح المجتمع من منطلق الحكم على شريحة فاسدة، تم تسليط الضوء على كواليسها العفنة.

ختمت كلامي بيني وبين نفسي فقلت: "حين يكون المتلقي جاهل، يسقط أمامه كل علم". كنت غاضبة. ربما لم يفهمن كلامي كله، لكنهن فهمن غضبي وغيرتي على نساء مصر، ورحت أحكي لهن عن جارتنا الأرملة التي لم تتجاوز الثلاثين ربيعًا، وكيف أنها فقدت زوجها في حرب 73، كيف أنه ترك لها خمس بنات، كيف أنها رفضت أن تستبدل بأبيهن زوجًا آخر، كيف رقدت عليهن كما ترقد البطات على البيض، ولم تتركهن إلا وقد اتخذن عروشهن في بيوت أزواجهن. وعمتي صافي، تلك البرنسيسة، التي طلقها زوجها، وهي في سن الثلاثين أيضًا، لأنه ارتبط جنسيًا براقصة، وترك لها أربعة أولاد ربتهم وحدها، أصبح أقلهم رتبةً وكيلًا للنيابة. ومن هنا بدأت المرأة تعتذر وتحولت الجلسة إلى سرد لأمجاد مصر، حتى وصلوا إلى سيرة عبد الناصر، فقالت إحداهن وكانت في الخمسين من عمرها:" ساق الله أيام ناصر، والله كنا لما نشوف المصري ببلادنا نلْتَم حواليه ونتمسح بيه ونقول بركاتك ، كنا نشوف فيه ناصر، ونشوف ناصر في الكل، ويصير كل واحد فينا بده يرضيه وما نتركه إلا وكل أمور مرتاحة" فشكرتها، ورفعت رأسي نحو المرأة الحامل وقلت لها:" أرجو من الله أن يمنحك ساعة يسر، وأن تلدي بسلام، ولكن عليك أن تضعي في اعتبارك دومًا حين تشاهدين أفلامنا، أو مسلسلاتنا، أنها مجرد انعكاس لنموذج سيء يعيش بيننا ولا بد من تحذير الناس منه، نموذج سيء وسط نماذج كثيرة محترمة، وخلوقة، وإلا سيكون على أن أسألك عمن باعوا فلسطين يومًا، هل يمكن أن أحاسبك اليوم على فعل قام به أخوك؟، فاحمر وجههن جميعًا خجلًا، ووجمًا وقالت أم بيتر: معك حق، معك حق، فمهما قلنا للناس أننا لم نبع أراضينا كما هو مشاع عنا، فلن يصدقنا أحد، أرى أن لك كل الحق سيدة ريم"، وبينما امتعضت وجوه البعض استياءً من عبارتي الأخيرة، كنت على استعداد للنزال حتى آخر رمق، ليس لأنني أردت الثأر لنساء بلدي، ولكن لكي أخلق بيننا روحًا تحترم الآخر، وتقدره حق قدره، طالما لم يصدر عنه مايسيء للآخرين.

في الواقع، لم أرغب أن يجري الحوار على هذا النحو بيننا، لا سيما وأننا جارات ، ولربما طالت جيرتنا فأنا هنا بصفة دائمة، لأن شركة زوجي لا فروع لها في أي مكان آخر، ولكي أخفف من توتر الجو في بيت أم جهاد، قلت للمرأة الحامل " أعدك أن أعلمك الرقص بعد الولادة، ولكن عليك أن تعلمي أن هنالك فرق بين كونك راقصة خاصة لزوجك، وراقصة على المشاع"، فسرت موجة من الضحك عبرت الشرفة، وأظن أنها طارت لترفرف فوق شجر السرو الذي يلف المكان، وشعرت بالفخر، فمازالت لي القدرة على التنظير. وارتشفنا ما تبقى من قهوة، وخرجت مع أم العبد، تلك المرأة التي كانت ترمقني بالحب والود طوال الوقت، ويعجبها تعثر لساني بين اللهجة المصرية والفلسطينيةالممزوجة بكلمات بدوية سمعتها من جميلة، تلك المرأة الراعية التي كانت تهبط الوادي تهش أغنامها يوميًا مرتين عند الصباح والغروب، وتنزل بهم السلالم التي تمر بباب داري الأمامي. كانت جميلة هي المرأة الأردنية الأصل بيننا كلنا، وكانت تسكن في دار تربعت على قمة الجبل. وقد علمت فيما بعد أنها تمتلك ربع مساحة أراضي الجبل. كنا جميعًا ضيوفًا على بلدها، وكانت ترحب بي ترحيبًا حارًا، كلما تصادف و التقينا.

قال أبو العبد: السوق بعيدة على أهل قريتنا، ففكرت أن أتخذ من غرفة الخزين دكانة لبيع المعلبات، البقوليات، الحلويات، والسكاكر، تخدم أهلنا هنا بدلًا من معاناتهم في النزول إلى سوق المدينة، فما رأيك؟ لم

أستوعب يومها معنى أن يطرح عليَّ موظف مالي وإداري في البنك المركزي أمرًا كهذا، وقلت في نفسي: لو كنتَ في مصر، وقلت هذا الذي قلته لي عن فتح محل بقالة بمنزلك، لتبرأت منك زوجتك، ولطلبت الطلاق، ولاستنكرت عليك العائلة الأمر، ولقاطعك بعضهم، لأنك ستصبح في نظرهم مجرد بقال أي دون المستوى، وتتدنى رتبك بينهم لترى الطبقية مجسدة". وأخرجني من حديث النفس صوت تمارا وهي تقول بفرح استغربته أنا: فكرة طيبة يا أبي، ولم لا، ستساعد أهل القرية كثيرًا إن فعلت ذلك، فالسوق بعيدة، والشتاء يغلق الطرق إلى أي مكان، وسنتصل بصديقاتنا، ونعلن أن لدينا بضائع، سيفرحن كثيرًا، ويخبرن عائلاتهن، وستدعو أم خليل الله كثيرًا من أجلك، فهي وحيدة منذ أن رحل ابنها إلى الضفة ولم يعد، ومع الصباح سيعرف الجميع أننا نملك دكانة صغيرة في بيتنا، رفعت رأسي للرجل الذي ينتظر أجابتي وقلت: طالما أن الأمر لا يتعارض مع مكانتك كرجل يعمل بالبنك المركزي فلا بأس، احمد الله أنك لست بمصر، فاقتراح مثل هذا، كان ليقابل بمئات التعليقات التي لن ترضيك فرد: نعم، عندكم بمصر يهتمون بالمظاهر، لكن، يا ريم، الأمر كما ترينه هنا بنفسك، أنا مسئول عن كوم من اللحم، ويجب علي أن أغطي احتياجات الجميع، ورغم أنني أتلقى راتبًا ضخمًا، تبقى المسئوليات أكبر من طاقتي طوال الوقت. على كل حال لن أزيد عن الثمن الأصلي للبضاعة إلا حق الطريق. غلبت عليه فطرته فأخبرني بأنه لن يفعل ذلك تخفيفًا عن أهل القرية، بل من أجل أبنائه، فلم يسعني إلا أن احترمته، ولكني لا أدري لماذا تذكرت "شايلوك." لكنني قلت: معك حق عمي.

كان كلام الرجل منطقيًا، عمليًا، وجريئًا أيضًا، لكنني استنتجت بالطبع أن الحرب، والتهجير، والنزوح، والخراب، والدمار، واللاعودة، غيرت تفكير الشعب بالطبع، فأصبح استيعابه للأمور أكبر، وبات يتصرف، في مجمله، من باب " للضرورة أحكام"، وأعجبتني روح الرجل المتفتحة، و ذاته المتلاشية، في آنٍ، أمام تلبية احتياج أهل بيته، مهما كلفه الأمر، ومن يومها، أخذت نظرتي للأمور تتبدل شيئًا فشيئًا. وقلت في نفسي: لماذ نتخلى عن غطرستنا، وشعورنا بالطبقية حين نتعرض للكوارث؟ هل صرنا بهذا الغباء، بحيث لا يمكننا أن نشعر بالمساواة إلا حين تجتاحنا الكوارث؟ هل نحن بحاجة إلى كارثة جديدة كي نحقق المساواة أو كلما احتجنا إلى تغيير المفاهيم المغلوطة؟ ولم لا؟ لقد رأيت جارتنا، سليطة اللسان تلك، تصرخ بكل ما أوتيت من قوة، وتستغيث بحارس العمارة، وتتحدث معه بكل الود،كي ينقذها، بعد أن كانت تعامله كأنه أحد عبيد أبيها، حين انقطعت الكهرباء فعطلت المصعد بينما هي بداخله. تقول جدتي: " البني آدم مش بييجي غير بالعين الحمرا"، لماذا لا يسمع أحدهم لنصائح جدتي؟

في اليوم التالي، كان مدخل بيت أم العبد مكتظًا بصناديق المعلبات، والسكر، والأرز، والمعكرونة، والحلويات؛ تتناثر حوله الصبايا كأنهن ورود جورية خرجت للتو من تيجانها؛ يحملن الصناديق، ويساعدن أبيهن في ترتيب البضاعة في أركان غرفة الخزين، فانضممت إليهن. كان الأمر جديدًا للغاية بالنسبة لي، لكنه ترك أثرً واضحًا في روحي طوال حياتي.

اشتهر المكان، وجاءالمشترون من كل مكان، ولدهشتي لم أر على وجه أحد من أهل القرية استياءً، أو ازدراءً للعم أبو العبد، بل كنت أسمعهم يدعون له بالخير، والتيسير لأنه سهل عليهم الذهاب لسوق المدينة، ومن يومها، لم يُغلق باب دار أم أيمن الخارجي، وبقيت نافذة غرفة الخزين مفتوحة لأهل القرية، وأخبرتني أم العبد ان زوجها لا ينام قبل أن تنام القرية.

موجوعةً، كانت أحلام تسمع دعوات أمها عليها طوال الوقت، وكنت أرى الدموع تتجمد في عينيها، كانت تنظر إلي بحزن، وتشيح بوجهها إلى البراح، الذي كان يلف الدار، ونراه جميعًا من وراء النوافذ الزجاجية أفقًا رحيبًا لا يحده حد، لكنه كان يعني بالنسبة لأحلام نضال.

استغربت كثيرًا حين وافقت أحلام على الزواج من عريس الضفة، وسألتها :

- ماذا عن نضال؟".
- سيبقى نضال.
- ولماذا توافقين على الارتباط بروح لا يتمم روحك؟
- لا أحد يفهم الروح هنا،الحديث عن الروح محفوف بلعنات وسباب أمي، والله يستجيب للأمهات.
- لا، بل الله يستجيب لدعوة الحق.
- إذن، فأمي على حق"، ألا ترين؟، ها أنذا اليوم عروس للضفة.
- ستقييمن هناك عند نار الله الموقدة؟".
- أينما تكونوا يدرككم الموت، هكذا قالت لنا معلمة الدار يومًا.
- ولكن، قلبي يحدثني أنك لست بخير.
- لاتقلقي سيدة ريم، سأكون على مايرام.

قلت في نفسي لقد تبدلت حال الفتاة من فرط الحزن فراحت تختصر الحياة في الموت، يبدو تأثير الآنسة باسمة ،معلمة الدار، واضحًا على طريقة تفكير أحلام، فهذه أول مرة أراها غير متمردة. ترى! ما سر هذا الاستسلام المفاجيء؟ أعرف عنادها واعتدادها برؤيتها ونفسها، ترى ما الذي حدث؟

كانت الفتيات يتعلمن التجويد، ويحفظن القرآن، والحديث، عند الآنسة باسمة بدار حفصة لتعيلم القرآن، كانت لها سمعة طيبة للغاية، وكانت تحظى بحب وثقة الجميع. في البدء رغبت الفتيات في الذهاب إلى الدار مرتان أسبوعيًا، كي يقطعن روتين القرية ويخرجن قليلًا، كي لا يكتئبن. وشيئًا فشيئًا، أحببن الآنسة باسمة. كانت تشتري أغطية الرأس، وتتكلم عن قيمة الحجاب للمرأة، وفي كل محاضرة تقوم بوضع الحجاب بنفسها على من يرغبن من فتيات. كانت الفتيات يخرجن لحضور الدرس بشعورهن المنسدلة على ظهورهن، ويرجعن إلى بيوتهن وقد ارتدين الحجاب. كنت بين الحضور يومًا ورأيت بنفسي، كيف كان الفتيات يسلمن لها رؤوسهن، كي تغطيها بالحجاب، كان مشهدًا مهيبًا، وكنت لا أستغرب حين تبكي النسوة من رهبة الأمر فقد كانت تسري القشعريرة بجسدي في كل مرة يخرج وجه إحدى الفتيات من الطرحة كأنه الفجر. كان للستر معنى حيًا، وسرًا يمارس سطوته على الجميع، ولقد رأيته بنفسي حيًا يرزق في هذا المكان. عند انتهاء الجلسة تحظى الفتيات اللواتي ارتدين الحجاب بمباركة الجميع.

خرجت من عندها وأنا أحييها بشدة، وأشيد بقدرتها على تحريك وعيهن بحنكة، كانت تمارس الهندسة الاجتماعية ببراعة شديدة، وكن يأتين إليها من كل فج عميق. كنت أصفق لها كثيرًا بيني وبين نفسي، وتمنيت لو اجتمع العرب يومًا على أمرٍ واحد، كما اجتمع القرية على شكر مجهودات الآنسة باسمة في أمر الحجاب.

قرأت في أحد التقارير، أن حكومة الاتحاد السوفياتي، قامت بحملة تغيير جذري، في السلوك، والمثل العليا للمواطنين السوفيتيين، لتحل محل الأطر الاجتماعية القديمة لروسيا القيصرية، لتتماشى مع الثقافة السوفيتية الجديدة، من أجل خلق الإنسان السوفيتي الجديد. واستخدم السوفيتيون في ذلك الصحف، الكتب، الأفلام، الترحيل الجماعي، وتكتيكات التصميم المعماري لتكون بمثابة الدافع الاجتماعي لتغيير القيم الشخصية والعلاقات الخاصة، ومن هنا رأيت في الآنسة باسمة شكلت مثالًا جيدًا على توجيه العقول نحو مسارات

مغايرة بشكل مبهر، أثرت بشكل واضح على طريقة تسليم نساء القرية رؤوسهن لها طوعًا. يا لها من بارعة!

حين قالت أحلام:" أينما تكونوا يدرككم الموت"، أدركت أنها اختارت الموتَ بديلًا عن أمٍ تكرهها، وتتمنى عدم وجودها بالدار طيلة الوقت، حتى بتنا نعتقد بأنها تدعو عليها في اليوم 99 مرة، أي بعدد حبات المسبحة. لقد اعتبرت الفتاة أن الزواج موتٌ، طالما أنها ليست مع نضال. وأن الأمر كله سواء، فلافرق بين البقاء والرحيل، وأن عليها الامتثال لإرادة الرب. أما نضال، فسيبقى كما هو بداخلها، روحًا تجوب الوادي من أجلها إلى الأبد، وتحلق معه كيفما شاءت في عالم الأرواح. إذ لا يمكن لأحد أن يؤطر الروح، أو يحد من جموحها، واستفقت على قولها:" سيكون نضال معي أينما ذهبت، وحين أنجب صبيًا، سأدعوه نضال، ومسحت دموعها التي ظهرت فجأة على كل وجهها كأنما رشها أحدهم بسطل من الماء، فقمت إليها واحتضنت رأسها حتى لا ينفجر، فراحت تبكي بانهيار، وأوجعتني تنهيداتها فقلت:

- يمكنك رفض العريس، مازال أمامك فرصة، لم يعقدوا القران بعد، مسحت دموعها وقالت:

- لا سأرحل.

- تتحدثين عن الرحيل، وليس عن البيت الجديد، والأثاث الفاخر، تقولين أنه رحيلٌ يا أحلام، وليس استقرارًا في بيت جديد.

- نعم، إنه الرحيل، الاستقرار هناك في الوادي حيث روح نضال. ثم ما الفرق الآن، كل ما هنالك أنني سأستبدل حبًا ضائعًا ليس مسموحًا لي أن أجني ثمرته بوطن ضائع ليس مسموحًا لي أن أحمل هويته.

صفعتني كلماتها وألجمت لساني عن الرد، سألتها بلسان مرتبك:

- هل عرف نضال أنك ستتزوجين؟

- سيعرف، حتمًا، حين يمر اليوم، فيرى الأنوار معلقة على النوافذ، ولا يراني بانتظاره كعادتي.

ابتلعت دمعي وقلت:

- لم قَبِلت؟

- لم يردُّ الله دعوة أمي، فكيف أردها أنا؟.

كانت الفتاة تتكلم كما لو كانت فيلسوفًا في آخر حوارٍ له على فراش الموت، فلقد تحدثت عن الروح كثيرًا، وتلاقت عينانا طويلًا، ووخزني قلبي، فقد تيقنت أننا أصبحنا خطان متوزايان.

وساد بيننا صمت، قال مالم يقله أحد من قبل، ثم عانقتني طويلًا وقالت:

- إن قابلت نضالَ يومًا، أخبريه أنني لم أرحل بدونه، وأخبريه أنني أركب خلفه على الدراجة وأجوب معه الوادي كعادتنا، قلت:

- حمَّلتِني مالا أطيق ياأحلام.

قالت:

- التقاطع هو قمة التواصل، فقلت:

- نعم.

ومن يومها صرت أعقد العلائق بين كل متقاطعين لكي أجد الطريق.

7

خرجت أحلام مع الصبايا، ليركبن السيارات التي ستقلهن إلى محل الكوافير اللبناني المشهور، والذي يبعد بمقدار خمسة عشر كيلومترًا عن قريتنا، كانت البهجة؛ وألوان الملابس؛ ورائحة العطور المعجونة بالصبايا،

تبعث على الطيران، وتنشر ضحكاتهن في أنحاء المكان، فالبيت يركب الوادي كما لو كان فرسًا جامحة، والوادي خير من ينقل الكلام، والصدى يشتعل بالكلام والضحكات والنكات التي انصبت كليًا، على كيفية تحول أحلام غدًا من فتاة إلى امرأة. كن يضحكن ويسابقن الريح في مخيلاتهن؛ تحلم كل واحدة فيهن أن ترى في نفسها سندريلا، قبل أن تعلن الساعة انتصاف الليل. هكذا هن الفتيات في بلادي، لا يرين في أنفسهن إلا سندريلا، تنتظر كل منهن أن يأتي الفارس ليأخذها إلى قصره، جميعهن يفكرن في الفارس، ولم تسأل إحداهن نفسها يومًا:" ترى ماذا لو كان مسحورًا هو الآخر، وأنه سيفقد قصره وبهاءه عند الفجر؟، لقد رأين جميعهن في سندريلا ضالتهن المنشودة، ترى! ألهذا تفقد الفتيات جمالهن بعد الإنجاب، لتعود سندريلا إلى أعمال البيت، وتتوقف الساعة عن الدوران وتتسمر عقاربها، لتبدو عقاربها بعد منتصف الليل بدقيقة دومًا؟، ويعود الفارس إلى إقامة الحفلات ليحظ دومًا بسندريلا أخرى، هكذا دواليك؟.

راحت السيارات تأكل الطريق؛ وتنشر ضحكات البنات في الهواء، فتحملها الرياح غنجات متقطعة، تأتينا تارة من ناحية المطبخ، وتارة من ناحية الباب الأمامي للدار، وتارة من ناحية غرف نوم البنات التي تطل على الحديقة الخلفية للدار، والتي تنتفح نوافذها جميعًا على الجبال القائمة على رأس الوادي. وسرعان ما بدت السيارات لنا من نوافذ المكان، كأنها لعب أطفال، أطلق لهاالريموت كونترول العنان حتى نفذت البطارية. ثم لم نعد نرى لهم أثرًا إلا في مخيلتنا. ورحنا نتخيل مجيء موكب العروس عند الغروب تمامًا، حيث ستجلس أحلام بين الأهل والأقارب قليلًا، قبل أن يحملها زوجها ويرحلان معًا، إلى حيث ينتظرهما شهر العسل في الفندق تارة، وفي تركيا تارة أخرى، أو وفقما شاء العريس.

كنت وأم العبد والنساء قد اتخذنا من البهو الوسيع متكأً نشرب فيه القهوة تارة، وتأخذنا الحكايا تارة أخرى، قبل أن أنزل إلى منزلي كي أعد ثوبًا يليق بالمناسبة، كانت النسوة يترقبن وصولي كي يروا كيف ستبدو جارتهن المصرية حين تتزين، لمحت ذلك في عيونهن، خاصة حين قالت لي إحداهن وقد هز كتفيها كم لو كانت لعوب:

"المصريات شاطرات في كل شيء، وما بيحتاجن للماشطات"، ابتسمت لها ابتسامة مصرية صفراء وأومأت برأسي أحييها، وأنا مستاءة للغاية من العبارة، لكن ماذا أفعل؟ فهذا ما تسببت فيه أفلامنا، ووجدتني أقول في نفسي:" هذه بضاعة قومنا رُدَّت إلينا، فلا لوم عليهن، هن حصاد تلقٍ عقيمٍ لنصوص ومفاهيم تم زراعتها في أرض غير مهيئة لاستقبالها، وواقع تم التوثيق له بطريقة قميئة، خرجت عن كونها إشارات تحذر المجتمع من فئات مجتمعية ضالة وقذرة، تسكن فيه، أينما اتخذ موضعه، إلى نوع من الإساءة للكيان الأنثوي المصري خاصة على مدار الساعة، ورحت ألعن الغباء والأغبياء في كل مكان، وتساءلت بيني وبين قلبي:" ترى! لماذا لا يعتبرون الرجل الساقط في الأفلام نموذجًا حيًا لكل الرجال المصريين؟... لماذا؟ أوليس إن سقطت المرأة سقط الرجل بالضرورة، والعكس صحيح؟ ألم يقل الله في سورة النور: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " لقد قال الله سبحانه ووتعالى " اجلدوهما، أي أن العقوبة للرجل والمرأة واحدة. من حقي إذن أن أغضب حين يجرم القانون الوضعي المرأة، بينما يعفو عن الرجل إن قبض عليهما في حالة تلبس بشقة مشبوهة، ومن حقي أن أشعل الكون صراخًا حين يعامل المجتمع ككل المرأة على أنها ممنوع من الصرف، بينما يعامل الرجل على أنه همزة وصل.

لا تختلف المرأة في مصر عن المرأة في فلسطين، أوالهند، أوالكونغو؛ كلنا متشابهات فسيولوجيًا، وبيولوجيًا، ونفسيًا، وعصبيًا، وجنسيًا، ولولا توق النساء هنا للرقص، لما تكلمن دومًا عنه، ولما أصبح في

بؤرة اهتماهن، يقول علماء النفس: حين يتكلم الشخص بالسلب عن شيء بعينه طوال الوقت، فهذه إشارة بأنه يفتقده، وأنه أصبح هاجسًا يلح عليه، ويتوق إليه"، لو كان الأمر بيدي لشققت بطن كل من تسول له نفسه بالعبث بعقول البشر من دون أن يعدَّها جيدًا لاستقبال رسالته. إن طريقة نشر المخبوء من الأفعال غير السوية، والشواذ من القصص التي تتنافى مع تفكيرنا الشرقي، تجلب لنا العار، طالما أن المتلقي لا يفهم أن هذا مجرد تحذير له من نوعيات ربما يقع في فخاخها، لولم تحذره مثل هذه الأفلام. يا إلهي، يبدو أنني جعلت من الحبة قبة، وأن كلام النساء سيشكل لي عقدة ما، لا أرغب في ذلك بالطبع، علي أن أكون أكثر إيجابية، وأن أحاول توضيح الأمر، ولكن، أنا أطالب فقط، بأن نجعل لكل شيءأرضية محددة ننطلق منها، أطالب بأن تتهيأ العقول لاستقبال المخبوء، وألا نطلق الأحكام جزافًا، فالأرض تتهيأ بالجفاف للمطر، والأم تتهيأ لوليدها بالحمل والمخاض، والعروس تتهيأ لزوجها بفستان العرس، والنجوم تعبر السماء وتقف عن نقطة محددة لتدل على مجيء الأنبياء. ولكن في بلادي ستبقى كل الأمور الجديدة موبوءة ومتهمة إلى الأبد. رغم أنني سمعت جدتي تقول مرارًا" الجديد له عيد"، لماذا لا أرى لهذا المثل عندنا مكانًا إلا السجن؟ ولماذا لم تتهم أي من النسوة هنا الرجل المصري الذي يغرر بالنسوة، يعمل قوادًا أو يبيع عرضه وكرامته بالزندقة؟ لماذا انصبت الاتهامات على المرأة وحدها؟. وهل هو المصري فقط هو من يفعل ذلك؟، وماذا عن أولئك النخاسين في كل مكان، بائعي الأرض والعرض، وماذا عن السجون هنا، هل فرغت إلا من المصريين والمصريات؟ يا لك من عالم قذر!.ورحت أستعيد عبارة المرأة الحامل: " طبعا انتي رقاصة محترفة"، يا إلهي ما أغباها، إنه العقل الجمعي مرة أخرى، فنحن شعوب تربت على مقولة "أن لا مساس" للرجل، بينما نضع علامات الاستفهام والتعجب على المرأة، بل نضعها دومًا بين علامتي التنصيص، ورحت أقول لنفسي: يااه، ياريم، ماهذا الذي تقولين، لقد خلطت الأمور ببعضها البعض، فترد عليَ نفسي: "عن نفسي، لم أعرف عن الخيانة أو الغش شيئًا، حتى رأيته مجسدًا في الأفلام، ولم أعرف شيئًا عن الزواج، قبل أن أتزوج، لأنني تربيت في عائلة لا تتحدث إلى الفتيات، عن أي شيء، حتى يحدثها زوجها، ولأن التليفزيون لم يكن قبيحًا وقذرًا كما هو عليه في هذه الأيام، كانت أمي ترى في انعدام الأخبار والمعرفة أنباءً طيبة، لقد اعتقدت النسوة هنا أن المصريات جميعهن خبيرات في الرقص، وفي الرجال، وكن يتغامزن فيما بينهن، كما لو كن قد وجدن فيَّ معلمة " فرفشة" هبطت إليهن من السماء، وهذا أمر مشين، يعكس نظرة قاصرة بالطبع، فلقد خلقنا الله جميعًا نحن النسوة بمواصفات متشابهة، وتكمن في كل منا "عشتار" بكل عنفوانها وأنوثتها، وعنفها أيضًا، فقلت لنفسي أواسيها: على كلٍ لم تكن أي منهن تحمل غير شهادة "المترك"، الإعدادية، بينما أنهيت أنت ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية، تتحدثين الإنجليزية والفرنسية بطلاقة، و بالسليقة أنت مشروع كاتبة مميزة، هكذا تنبأ لكِ البروفيسور الإنجليزي" بليتو" الذي كان يدرسك مادة الشعر في الجامعة، كان يناديك دومًا بلقب عائلتك ويقول: ريم مراد، لن أستمع اليوم إلا لتعليقك على قصيدة «الأرض اليباب» للشاعر ت.س.إليوت." لكم كنت مغرمة بإليوت وما زلت. لقد لمحت في عيون البعض توجسًا ما، ولقد اكتشفت أن كلمة "مصرية" تشكل لهم حساسية كبيرة تجعلهن على أقل تقدير يخشين على أزواجهن من رؤية المصريات، بل ويخفين عنهم أمر مجيء أية امراة مصرية لتسكن الحي. وكثيرًا ماجعلني هذا الأمر حزينة. والأدهى، أن من تتهم المرأة هنا هي المرأة، يا إلهي! لا رد لقضائك. أعلم أن كل شيء لا محالة آتٍ ومنتهٍ إلى حكمة، ولا بد أنني سأعبر كل هذه الاختبارات التي أمر بها هنا، بنفس راضية.

كنت بالنسبة إليهن المرأة المثقفة مادمت مصرية، والراقصة أيضًا. هكذا قلن حين قررن أن تكون الجلسة الصباحية، في بيتي، في الشرفة الخلفية المطلة على الوادي، والتي تبدو وكأنما تنام بين أحضان الجبال. كنا

في دار أم خليل حين قالت: "سوف نكون غدًا ضيوفًا على جارتنا المصرية". كنت أتعامل مع الأمر بروح رياضية، وفي قرارة نفسي يفور كل الحنق والغضب للفظة " المصرية"، ماذا لو قلن:" ريم؟" وتذكرت ما قرأته يومًا عن سيدنا موسى عليه السلام، وكيف استمروا بمناداته "المصري| رغم أنه تربى ونشأ في قصر الفرعون، لا ضَيْر، فلأكن " المصرية" إذن.

رحت أسترجع مأساة أم خالد –الدادة- التي كانت تعمل في مدرستي حين كنت في المرحلة الإعدادية، والتي مات زوجها وترك لها ولدين، ربتهما بمفردها بينما كنت أعود إلى بيتي فأجد أمًا وأبًا وأخوة وخادمتين، لكي أخبر أمي أن المديرة أرسلت لها معي ورقة عليها قراءتها، فتقرأها وتقول : أعانها الله، وفي الصباح ترسل أمي معي ظرفًا مغلقًا، وتقول لي "أعطه للمديرة"، وفيما بعد عرفت من أمي أن المديرة كانت تجمع التبرعات لأم خالد، لم تسمع جاراتي حكايات مشابهة عن المصريات، وإن سمعن فإنهن يرفضن غير الكلام عن الصور السلبية، ستبقى النساء نساء لا يتكلمن إلا في العريس وقميص النوم ونور أحمر يضيئونه ليلًا، كي يخبرن بعضهن البعض بلغة المنارات أنهن ما زلن إناثًا، طالما أن رسائل الأفلام المصرية إليهن لا تترجم إلا إلى راقصات، وحمالات للصدر تبرز ما يمكن إخفاؤه، وبائعات هوى، وكلما ازداد شعورهن بأنهن دمى مؤقتة، ازداد كرهي للمطايا.

أتذكر أنني يومها، تركتهن جميعًا يتبادلن أطراف الحديث، ورحت أقلب وعيي في مجلة سياسية موضوعة على إحدى الموائد، وفجأة امتدت يدي رغمًا إلى قلم أضعه عمدًا بين صفحات المجلة، ورحت أفر صفحاتها، وأخيرا وقعت عيناي على صور لزعماء العالم، جمعها محرر ما في صفحتين متقابلتين، فوجدتني أقف عندها طويلًا، وكلما مررت بقلمي على مناطق إفريقية أو آسيوية أجدني أرسم رؤوسًا للنعاج كثيرة، ونعوشًا للقائمين على شئون البلاد، مفتوحة على مصراعيها لتلقي المزيد، ومشانقَ للشعوب المستسلمة، وصلبان أعلقها شواهدًا في أعلى الصفحة للعابرين بأرواحهم الكأس برضا. وحين أمر على مصر أراني أرسم امرأة تحمل طفلًا، وتتسول قوت اليوم السابق، وتركل بقدميها قبيلة كلاب.

8

تركت دار أم العبد ورجعت إلى بيتي، أجريت اتصالًا هاتفيًا بزوجي فرد أحد الموظفين علي هاتفه كالعادة وقال: سليم بك مشغول يا سيدتي، شكرته بصوت مخنوق وأغلقت الهاتف، واتجهت إلى حيث مرآة غرفة نومي الضخمة التي اتخذت من أحد الحوائط مكانًا كاملًا لها، كنت أبدو كالأقزام، يقف خلفي الدولاب شاهقة أبوابه، وقد صنعت تاجه المحفور بعناية، مائة يد ذهبية تجيد النقوش، والبوفيه العتيق، الذي وقف في الركن الأقصى للغرفة، تمامًا بجوار باب الشرفة، وكنت أكثر طولًا من ارتفاع السرير بالطبع. نظرت حولي؛ لا شيء سوى روب، بيجاما زوجي، هوت شورت، وحمالة صدر، كانت تلك الأشياء قد تبعثرت بشكل فوضوي على الأرض، رفعتهم عن الأرض، والفوتيه وذهبت إلى الحمام، وأدرت الغسالة، ثم دخلت حمام غرفتي، ملأت البانيو وأضفت زيت الياسمين إلى الماء، وخلعت ملابسي ووضعت قدمي أتحسس بها درجة حرارة الماء ثم قدمي الثانية وجلست بهدوء بين الماء ورائحة الياسمين، وقلت في نفسي من هنا تبدأ الحياة.

خرجت من الحمَّام أكثر انتعاشًا، كان وجهي نضرًا للغاية، واحتلت رائحة الياسمين كل المكان، قلت: "هكذا يكون الاحتلال مقبولًا". جلست إلى مقعد السراحة، كان شعري لا يحتاج إلى الكثير من التصفيف، كان بحاجة لمجفف الشعر فقط، وبعد خمس دقائق كان ينسدل على ظهري أشقر لامع، كنت أفكر طويلًا في حوار النساء عن المصريات، وكيف أنهن يعتقدن أن جميعنا ساقطات، أجل، هم لا يعرفون مرادفً لكلمة راقصة سوى كلمة ساقطة. وإن جاءت الصفة مخففة في كلمة راقصة. و لكن ما العيب في الرقص؟، لماذا ترى هاتيك

النسوة أنه من العيب أن ترقص المرأة؟ أنا لا أراه عيبًا طالما لم يرها رجل غير زوجها. إن الرقص نوع من الجنس، ياإلهي!؛ لو قلت لهن هذا الكلام لاعتبرنني امرأةً لعوب، ولفرضن الحجاب على أزواجهن. ضحكت بيني وبين المرآة، وصرت أوجه الكلام لصورتي في المرآة: إنهم جميعًا، هنا وهناك، رجالًا ونساءً، لا يفهمون الرقص دون أن يقرنونه بالجنس، ولا يفهمون الجنس إلا مقترنًا بالأعضاءالتناسلية. هنالك بون شاسع بين ما يفهمونه في بلادي، وحقيقة الأشياء.

لقد قرأت يومًا تحليلًا كتبه "ول وايريل ديورانت" يوضح رؤيته لبدايات الفنون ونشأتها في الجزء الأول من كتابه "قصة الحضارة"، وذلك من خلال نظريات العديد من الفلاسفة والباحثين التي جمعها في رؤيته الخاصة الموحدة يقول فيه: [ولنا أن نقول، بأنه عن الرقص نشأ العزفُ الموسيقي على الآلات، كما نشأت المسرحية، فالعزف الموسيقي- فيما يبدو- قد نشأ عن رغبة الإنسان في توقيع الرقص توقيعًاً له فواصل تحدده، وتصاحبه أصوات تقويه ... وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر... صنعها من قرون الحيوانات، جلودها، أصدافها، وعاجها، من النحاس، الخيزران والخشب. ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة.... ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون. وتطور السلم الموسيقي في غموض وخفوت، حتى أصبح على ما هو عليه الآن. ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة، خلق لنا "الهمجي" المسرحية والأوبرا. ذلك لأن الرقص البدائي كان في كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة، فقد كان يحاكي حركات الحيوان والإنسان... ثم أنتقل إلى أداء يحاكي به الأفعال والحوادث ... فبغير هؤلاء " الهمج" وما أنفقوه في مائة ألف عام من تجريب وتحسس، لما كُتِبَ للمدنيّة النهوض، فنحن مدينون لهم بكل شيء تقريباً... "

أما الرقص كما أفهمه أنا؛ فهو نوع من الجنس، والجنس في مفهومي يعني التقاء عقل بعقل، روح بروح، فنجانين للقهوة في الشرفة، لهفة عند اللقاء، قلق، اهتمام، عشاء راقص، شموع، ورود، وسيمفونيات " ينّي"،" بيتهوفن"، و"موتسارت"، ثم يأتي الرقم عشرة لينهي المسألة فسيولوجيًا، حتى لو صار عندي عشرة أولاد، وحتى لو فقد كل منا قدرته على مداعبة الآخر لسبب أو لآخر. إن قبلة أطبعها على ظهر زوجي، وهو مستلقٍ على جنبه، لا تفسير لها سوى أنها جنس من نوع خاص، وراقٍ جدًا. حديثنا اللطيف معًا طوال اليوم، مقدمة لجنس نفسي، روحاني، مزاجي، وبيولوجي، يهيؤه طوال الوقت لأن يراني مختلفة عنه عضويًا، وعضليًا؛ ويهيؤني لاستقباله كأننا سنتزوج اليوم. أن أقدم له فنجان اسبريسو دون أن يطلبه مني يعني أنني أداعب فيه رجولته، وأعرض أنوثتي بما يليق بي وبه. حرصي على ألا أجعله يغضب، نوع من الجنس. إن غضبت منه، أكون بهذا أدعوه للمصالحة، فالمصالحة فن لأنها رقص على المشاعر، والرقص على المشاعر نوع من المداعبة، والمداعبة بين الزوجين جنس. وإن أدرت له ظهري وتركت بيني وبينه مساحة ما، فهي دعوة له لأن يجذبني إليه، ويعانقني رغمًا فلا أمانع، لكنها "رغمًا " مهذبة، وليس بدافع كلابي في موسم التزاوج، أعتبره أنل قمة الحب، ويعتبره هو قمة الرجولة. ودعوتي هذه نوع من الجنس، ولو أعددت له طعاما شهيًا، فهي دعوة مني له كي نتشارك البانيو فيما بعد. ما هذا؟ لما خرجت من الرقص إلى الجنس؟ أعتقد أنه لا فرق...لا فرق إلا في عقولنا الخربة.

يبدو أن شيئًا لن يوقفني عن هذا الجنون... إن موسيقى بتهوفن وموتزارت التي تأخذنا إلى رحلة بالزوارق إلى عالم الروح هي جنس راق. ولكنهم زرعوا في وعي الناس أن الرقص ضرب من الجنس الرخيص، ولقد اقترن الجنس لدى العقل الجمعي بالعهر والعاهرات، ولا سبيل لتحقيقه إلا من خلال القنوات، المصارف الفسيولوجية، والبلاعات. ولكن هل يعرف قومنا المعنى الحقيقي لكلمة جنس؟ قومنا؟ هل قلت قومنا؟، لماذا

جمعت الكل؟ سأكون مخطئة لو عممت المسألة، إذن فلنتفق أنني أقول ضمنًا" كلمة البعض. على كلٍ، كنت أقول أن الجنس هو مرادف للنوع، والنوع يعني اندراج مجموعة من الكائنات تحمل سمات مشتركة، تُكوِّن فيما بينها مجتمعًا يتزاوج فيما بينه، من أجل الحفاظ على النوع. ولكن المفهوم الدراج عن الكلمة ألقى بها في وادي الرذيلة، واستحسنها العقل الجمعي فذاع صيتها، كما ذاع صيت كلمة "غانية" وانتقل من معناه الأصلي، الذي يعني امرأة فاتنة الجمال إلى داعرة بالمفهوم السوقي للكلمة. يا الله!، ماذا لو قلت للنسوة هنا أن الرقص هو مائدة الجنس الثمين، طالما أنك في بيتك، ومع زوجك أو حتى لو كنت وحدك تمامًا! وأن الراقصات في الأفلام الهابطة ساقطات، فقط، لأن رقصهن ارتبط بممارسة الرذيلة على المشاع، وارتبطت الرذيلة عند العرب بأصحاب الرايات الحمر.

ماذا لو فسرت لهن أن الموج يرقص على صفحة البحر حتى الثمالة حتى يتكون الزبد، أن الأرض ترقص تحت جسد المطر حتى يتفصد عرقها ويخر منها من كل زوج بهيج، كما أن المروج ترقص للشمس فتنتعش وتزهو على عروشها، يقول الله في قرآنه: حتى إذا نزل عليها المطر اهتزت وربت"، إن الاهتزاز في الأرض رقص. كما إن المايسترو في الأوبرا يقود فرقته إلى التحليق بالموسيقى والجمهور في عالم الروح، فينتابها نشوى الرقص. ولكن قومي لا يجدون للرقص إلا تفسيرًا ساقطًا كعقولهم، إنهم يصدرون التفاسير الساقطة دومًا، و يستوردون الأفكار الساقطة فقط؛ فقد استوردوا العري من الغرب، مجردًا عن معناه، فلما بانت سوءاتنا مخزية تدعو للاشمئزاز، رأينا الغرب أكثر حشمة وحياءً منا.

أستطيع أن أميز عُرْيَنا من عُريِهم حين أشاهد أفلامنا وقد ظهرت فيهاالممثلات مبتذلات، يحركهن ألسنتهن وأجسادهن بائعات للهوى وما من مضمون سوى التجارة الرخيصة بينما تخرج الأوروبيات عاريات بلا تكلف فلا تكاد تلمح جسدها العاري من فرط ما يجذبك حديثها وفكرها. تخرج علينا الممثلات العربيات عرايا من كل شيءإلا الدنس لحمًا رخيصًا مبالغًا فيه. نحن لا نجيد إلا استيراد العهر الثقافي والسياسي والاجتماعي ، حتى الدين لم يسلم منهم، غمروا أسواقنا بالغث من الفكر والتأويل، أقصد البعض طبعًا... كان علي أن أوقف نفسي عن الكلام،لأنني لو استرسلت لاعتقلت نفسي.

كان لا بد لي أن أستمع إلى أولئك النسوة دون أن أتفوه ببنت شفة، فلن يفهنني بالطبع، ولا أريد أن أمارس عليهن سطوة المثقف فينفرن مني، سأكتفي اليوم بأن أجعلهن يرجعن خطوتين إلى الوراء قبل أن تقرر إحداهن الحديث عن النساء المصريات أمامي، حظي أنني كنت المصرية الوحيدة بالحي، وكان الجميع هنا من قرى فلسطين، وحدها كانت أم بيتر لبنانية، وكانت جميلة هي المرأة الأردنية الأصل الوحيدة التي رأيتها منذ جئت إلى هنا.

شيء واحد كان يشفع لهن جميعًا عندي؛ كن جميعًا كالأرض البكر، غير ملوثات. وجدتهن كما جبلتهن عليه الطبيعة والأرض الطيبة، وكما صنعتهم المأساة، ووجع الأرض الأسيرة. حزينات كالزنبقات السود اللواتي تبرعمن للتو عند باب داري، لذا كنت أشفق عليهن كثيرًا، وأعذر طبيعة البيئة المنغلقة التي أتوا منها هربًا أو نزوحًا، أو طردًا حين جردهم اليهود من هوية ومن أرض. فالحرمان من الأرض يجعل المرء أكثر حدة، وأكثر عداءً، وشعورًا بالطبقية واحتقار الغير، الحرمان من الوطن والاضطهاد يذهبان بالمرء إلى الإصابة بالعقد النفسية، ومنها عقدة الدونية، أي شعور الإنسان بالنقص ،أو العجز العضوي أو النفسي أو الاجتماعي بطريقة تؤثر على سلوكه، مما يدفع بعض الحالات إلى التجاوز التعويضي بالنبوغ وتحقيق الذات والكينونة، أو إلى التعصب، الانكفاء، والضعة والجريمة في حالات أخرى. هن معذورات بالتأكيد، ويجب علي أن أتعامل مع الأمر بود كبير. لقد كن حصاد جريمة حضارية ارتكبها الإحتلال والعديد من الخونة.

كنت أود فقط أن أقول لهم:" نحن فلاحون وتقليديون أكثر منكم، ولكن ضيعتنا أفلام هابطة. تذكرت بيت جدتي بالمنصورة، وتحديدًا في "دكرنس"؛ كان بيتًا كبيرًا للغاية، له باب يدخل منه الرجال، وآخر يدخل منه النسوة، وآخر تدخل منه الخادمات من القرويات اللواتي كن يساعدن جدتي في صنع الخبز والطواجن، وبرامات الأرز المدسوس، وتنظيف الأوز والبط ،وإعداد الموائد في أيام الجمع، قبل الصلاة لتقديمه للمصلين. كانت غرفه العلوية مخصصة لنوم النساء، والسفلية للرجال. كان ضيوف جدي كثر، يروحون ويجيئون طوال اليوم حتى قبيل المغرب، ولم يك مطبخنا يهدأ من رائحة الطهي، وكان الفرن يرقد خلف الدار مفعمًا بالنار طوال الوقت. نار ما إن تشتعل حتى تعود لتشتعل. وكانت الحمَّامات بالطابق الأول على أحدث طراز، وكذلك حمامات غرف النساء، ولكن في جناح غرف المسافرين، كان الحمَّام عربيًا تجلس رخامته على الأرض، هكذا يحبها أهل قريتنا، وكانت المغسلة التي يتوضأ فيها الضيوف، أو يستعملونها لغسل الأيادي، بعد الأكل، عبارة عن طست نحاسي كبير، موضوع أسفل مكبس الطمنبور، الذي يعمل على الضخ اليدوي للماء، وبجانبه وضعت النسوة إبريقًا نحاسيًا يصب به الرجال الماء على أيدي الضيوف حين يفرغون من تناول الطعام، أو للراغبين في الوضوء، كان على أحدهم أن يضغط على مكبس الطمنبور ليضخ المياه، ولم يك مسموحًا للنساء أن يظهرهن في هذه الجهة.

كانت جدتي تجمع كل النساء والصبايا، وتعلمنا كيف أن على المرأة أن تنظف جسدها، وتقلم أظافرها، وكيفية الوضوء، الصلاة تغطية الرأس والجسد، وعدم الحديث مع الرجال والغرباء. نحن أيضا من بيوت لا تسمح لبناتها بالرقص. حتى مضغ اللبان، كان الجميع يعتبرونه من سوء التربية. بل كان أكبرالأمور عيبًا. حرصت عماتي على ألا يتكلمن في أمور النساء الخاصة أمام الصغيرات، ولم يك مسموحًا للفتيات أن تغير من شكل حاجبيها قبل ليلة زفافها، يا للغباء! لم تعكس الأفلام إلا صورة مشوهة للمرأة والفتاة المصرية، وحتى لو احتج البعض بأنه يعالج واقعًا مريرًا، فكيف تعالج داءً بداء؟، كانت أمي تقول لأخي الأكبر :" لابد أن تهيء أختك للحوار بأن تكلمها بلغة مهذبة دومًا إن أردت أن تحذرها من صديقات السوء، ويجب أن يكون حديثك إليها غير مباشر، حتى لا تخدش حياءها، ولا تسمعها أثناء الحوار كلامًا لا يليق بفتاة، حتى لاتفقد حياءها فتتجرأ عليك يومًا". كانت أمي محقة بالطبع، فلو أننا سمعنا كل شيء بصراحة، ووقاحة، لتغيرت سلوكياتنا بالإيحاء، دون وعي منا لأن اللاوعي لدينا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتجارب التي يتم تخزينها، والخبرات التي نكتسبها من هنا وهناك، و التي منها ننطلق نحن سلوكًا، قرارًا، وردةَ فعل. كيف سأقنع هؤلاء النسوة بما أقول؟ لقد وضعنا المخرجون، الممثلون، وكُتَّاب الفن الهابط في مأزق نحن النساء المصريات خاصة حين تضطرنا الظروف للتعامل مع البيئات المنغلقة التي لا تزيدها المأساة إلا التصاقًا بالدين، وتأخذهم الفتاوى إلى صغائر الأمور، فتجدهم يتكلمون عن حف الشارب، إطلاق اللحية، طول الجلباب، وعورة النساء، وينصب جام غضبهم على المرأة، فهي الكائن الوحيد الذي تشعرهم سطوتهم عليها بالفحولة والسلطة التي جردهم منها المستعمر يومًا على اختلاف مسماه. أيها الأرواح إنكم ساديُّون!

كنت أهم بترتيب لفة الطرحة، كلمسة أخيرة، قبل أن أصعد إلى دار أم العبد لحضور عرس أحلام، بينما تأتيني من وقت لآخر، كلمات المهاهة الفلسطينية، تلك التي تحمل ثلاث أرباع الصراخ، وثلثًا من الفرح المخنوق. كانت الزغاريد تتنقل في الوادي، وكأنما تنقل وجع أحلام لنضال، كطلقة تبحث عن صدره لتقتله عمدًا. تُرى! هل سيفهم نضال اليوم أنها لن تكون له منذ اليوم حين يأتي مع الغروب، فتنطفيء الأضواء التي تتلألأ على نافذة أحلام قلبه؟ تراه سيفهم حين لا يراها بانتظاره، كالعادة عند الغروب، أن تلك الأنوار والزينة التي تلف أسوار المنزل الخارجية،وأشجار سروه، وزيتونه، ورمانه، وتكعيبات العنب ليست إلا إعلانًا عن

رحيل أحلام إلى الضفة، أو إلى الأبد؟، هل أخبرته إحدى الجارات التي تسكن قريبًا من داره التي ترقد عند الطرف الأقصى من جنوب الوادي أن اليوم هو عرس أحلام؟، ترى هل انقبض قلبه اليوم؟ ترى! هل سيكون شجاعًا بما يكفي لكي يسأل أمه عن اسم العروس؟ وماذا لوأخبرته أمه، ترى هل سيستطيع إخفاء قهره، وألمه، عنها؟

استقبلني النسوة في بيت أم العبد بحفاوة، كنا جميعًا نرتدي الجلباب الطويل والحجاب حتى نصل إلى باب قاعة النساء، ثم تخلع كل منا جلبابها بمجرد أن تعبر عتبة القاعة إلى الداخل، لتعج القاعة بالإناث الجميلات والفساتين البراند،و الأحذية الفخمة، والبرفانات الباريسية الفاخرة، وكن ينظرن جميعًا إلى فساتين بعضهن البعض، كان نعرف آخر صيحات الأساور، والسلاسل الذهبية، وآخر صرعات الأقراط والخواتم الألماسية، وأسعار فصوص الزبرجد من بعضن البعض، وتتباهي كل منهن برسومات الحناء على ساقيها وبطنها وصدره وظهرها، كن بانوراما جمال وفتنة، وكنت أنا، بالطبع، كل ذلك، ما عدا فيما يتعلق برسومات الحناء، فأنا لا أحب من الحناء غير رائحتها، لكن أن تلمس جسدي، فهذا أمر لا يروق لي. كانت السيدات في القاعة النسوية حداثيات في كل شيء إلا عقولهن وطريقة إعدادهن للطعام، وكان الرجال في القاعة المجاورة تميزهن الكروش المنتفخة، والشوارب الكثيفة، يتفاخرون بأنسابهم وأعراقهم، بينما يرتع اليهود على مقابر أجدادهم، وشبابهم، وأحفادهم، كما لو كانوا يؤكدون على هويتهم شفاهة، لعل جرحًا غائرًا يتمركز بين عيونهم يحاولون إيقاف نرفه.

لاح موكب العروس، وكلما اقتربت العربات التي تقلها والصبايا، ارتفع صوت زغاريد النسوة اللواتي وقفن أمام باب الدار، وارتفعت أصوات أبواق السيارات. كان النسوة يترقبن وصول الموكب، كأنهن يترقبن مجيء فوج من الأسرى أفرجت عنهم السلطات الإسرائيلية للتو، كنت أستعجب من لهفتهن على رؤية وجهها، وفستانها بعد أن اشتغل عليه الكوافير، وكنت قد دفعني الفضول مثلهن، ولكنه فضول لشيء آخر، كنت أريد قراءة وجه أحلام، لأرى إن كانت بالفعل سعيدة، أم أن بهجة ثوب العرس فعلت فعلتها معها، وقادتها على غير هدى كما تفعل النداهة، فجعلها تستقبل المجهول بابتسامة شهيد. اقتربت العربات رويدًا رويدًا، وبدأت الزفة، ورقص الخيل، والدبكة، والرقص بالعصا، وكانت النسوة يصفقن لرجل أخذ يهز خصره كالنساء، وينخرطن في الضحك المكتوم، ويضعن أيديهن على أفواههم، كانت أحلام وعريسها يتوسطان الحضور، ويقفان في دائرة رسمها أحد أصدقاء أبيها كي يقفا في داخلها، ليتمكن الجميع من الرقص حولهما، ثم قال أحدهم بصوت جهوري:" ما يجمعه الله لا يفرقه إنسان"، وارتفع صوت مكبر الصوت، وراح ينقل الأغاني إلى الوادي، كان الوقت عصرًا حين جاء موكب أحلام، فالأعراس هنا تنهي مع دخول الغروب، حتى إذا كان الوقت قبيل الغروب بقليل، لم أر لأحلام غير ضحكة ثابتة، رسمتها بعناية فائقة على وجهها، راحت توزعها على الكل، أما أنا، فقد رمقتني بطرف عينيها، ثم أشاحت بوجهها سريعًا، خشية أن أقرأ ما قرأت؛ فقد لمحت نضال يحاول الاختباء في ركن قصي من عينيها، لكنه فشل في الاختباء مني. وبعد قليل، دخل الجميع إلى الصالونات المفتوحة، لتبدأ فعاليات أخرى للعرس بين زغاريد، ورقص، ومرح.

جلس النسوة في مكان منفصل عن الرجال، وبين اللحظة والأخرى ينبهنا أحدهم أن العريس قادم ليجلس بيننا قليلًا، كي تغطي النساء شعورهن، وكنا قد ارتدينا جلابيبنا ولم نخلعها منذ خرجنا لنستقبل أحلام، ورويدًا رويدًا خفت الضجة، وقطع الوادي صوتُ صفير نضال، فارتبكتُ أنا بدلًا عن أحلام، ونظرت إليها من بين الزحام، فطارت عيناها لتقع على عيني، فنظرت إليها نظرة داعمة، وركزت عيني على بؤبؤي عينيها، كي تثبت، لأن الدموع تحالفت عليها. في الواقع، رغبت في أن أبعث لها برسالة فحواها أن اهدئي وتماسكي،

وأخرى تقول: "انها رغبتك، فلم يجبرك أحد"، ونجحت رسائلي السريعة جدًا في تأجيل دموعها، وتخفيف تدفق الدم إلى قلبها الذي أجبرها على إطلاق زفيرً طويلًا، بدا لي أنها اجتهدت طويلًا كي تخرجه من صدرها. اختفى صفير نضال تدريجيًا، ولم يعد مرة أخرى، أو ربما عاد ولم ننتبه فقد عادت مكبرات الصوت لتعمل جاهدة، كي تصل الفرحة إلى كل الوادي، لكم كانت غبية تلك المكبرات الصوتية، لم تراع مشاعر أحلام، فانطلقت تعلن خبر زفافها بوحشية، ولا بد أنهاافترست نضال الذي لا بد أنه قد علم من الجارات أنه عرس أحلام، أو ربما اغتيالها، أو على الأرجح اغتيالهما معًا.

وزعت الصبايا الشراب، والحلويات الشرقية على الحضور، وشيئًا فشيئًا، خف الجمع، واتسعت القاعات لتعود إلى طبيعتها: مقاعد خالية إلا من بقايا البالونات المنفوخة؛ والورود المنثورة، وبدت الموائد مزدحمة بالأكواب، والكؤوس الفارغة، ووقف النسوة يلتقطن الصور مع العروس ويودعنها، متمنين لها حياة سعيدة في الضفة، لا أدري لماذا كانت لفظة الضفة تربك نبضات قلبي، رغم أنني لم أزرها يومًا، إلا على شاشات التلفاز، ولم أرها إلا شوارع عتيقة، وأزقة، وممرات، ترصد بين كل مقبرة ومقبرة مقبرة، وبين كل دار ودار ثأر لم ينم منذ أكثر من نصف قرن، ولا أراه سيهدأ طالما أن هنالك قبورًا تكفكف دمع قبور.

يا الله، لماذا يجب على أحلام أن تذهب إلى الضفة؟، ولماذا تشعر أم العبد بكل هذا الفرح لفراق ابنتها، التي كانت تؤمن بحقها في تقرير المصير. هل يمكن أن تطغى فرحتها بالعريس، والستر لابنتها على شعور الأمومة بداخلها لدرجة تجعلها لا تشعر إلا بظل الرجل الذي وضعت ابنتها تحته، بغض النظر عن كون هذا الظل لصفصافة، لزيتونة عتيقة أم لخيال الظل؟. وهل ينحصر معنى الستر في كيان رجل؟ هل الستر يعني استبدال بيت ببيت، وأب،وأخ بزوج؟ كانت سيرة الضفة في عيون النسوة تعني الوجع، لم تُحَمِّل أيٌّ منهن أحلام سوى السلامات للدور، لترابات التلال والوديان، ومرثيات للطلول، فكلهن فقدن الكثير من الأهل والأقارب هناك. جمعتهن كلهن تنهيدة وجع حين رحن يقبلن وجنتي أحلام وجبينها الذي سوف يقابل هواء الضفة عما قريب...

وقفت أم العبد تودع جاراتها لدى الباب، والابتسامة لا تفارقها، فلما خرجت آخر الجارات استدارت ولجأت إلى جدران غرفة المخزن، لم تشعل ضوء الغرفة، ولكنها انهمرت في البكاء، كنت أتابعها طوال الوقت، ولكنني انشغلت عنها لفترة ما بينما كنت أتابع أحلام. كنت أرغب في إيجاد تفسير لثبات المرأة، وقدرتها على مفارقة ابنتها إلى أرض كل ما فيها مضطهد حتى العصافير، وكنت لا أجد تفسيرًا لقبول أحلام الزواج من غير نضال، ولا أجد تفسيرًا لعجز صفير نضال عن الوصول إلينا في طريق عودته إلى قريته بعد الغروب، ووقع بكاء جارتي الطيبة كما الصاعقة على قلبي، كان باستطاعتي رؤية جسدها يهتز بشدة من فرط البكاء، فقد اضطرها العقل الجمعي إلى قبول المنفى لابنتها بديلًا عن حضنها ودفء العائلة، "كي تحميها"، حسب قولها، من جموحها الذي لم تعرِّفه مجتعاتنا العربية إلا بلفظة واحدة" السقوط".

مشيت إلى حيث تقف أم العبد، وناديتها بصوت خفيض، فمسحت دموعها بطرف كمها، واستدارت نحوي وقالت :" لا تقلقي علي ياريم، إنها دموع الفرح"، فهززت رأسي وقلت:" معك حق، فأحلام اليوم ملكة جمال، فجاءني ردها متلعثما:" نعم، العروس عليها نُكْطَة من المصحف، هيك بتِشُول الجدات" وأشعَلَت نور الغرفة، وتعمدت ألا تقع عيناها على عينيي، كنا قد فهمنا بعضنا البعض بشكل يسمح لي أن أرد صمتًا على صمتها بصوت مرتفع.

أمسكتني من ذراعي، ودخلنا معًا إلى حيث تمددت قريباتها، اللواتي جئن من قرى مجاورة، على المساند المتفرقة، التي تلف الغرفة، لتصنع منها جلسة عربية مريحة للغاية، وكنا قد تعبنا طوال اليوم. جلسنا فوق

الأرائك الأرضية تحيط بنا المساند من كل جانب، وبعد قليل بدأت الأضواء تخفت في الدار، فقد انتهى العرس، وانتهى إلى مسامعنا، صوت لعم نزار يودع آخر رجل لدى الباب، ثم سمعنا صوت انغلاق البوابة الخارجية، بعدها، لم نعد نسمع شيئًا، وبعد قليل، دخلت أحلام وأخواتها إلى الغرفة، كانت قد بدلت ثوب الزفاف استعدادًا للرحيل مع زوجها إلى الفندق الذي سيستقبل إعلانهما زوجين ومن ثم يتخذان طريقهما إلى الضفة. كانت مراسمَ زواجٍ مختلفة تمامًا، عما اعتدت عليه في مصر. لقد اكتفي العم نزار وأقرباؤه بما هو ضروري، فاجتمعوا في يوم الطلبة المبدئية حيث جاء العريس مع أهله لطلب العروس للزواج، ثم جاءوا مرة أخرى في يوم الطلبة الرسمية وقراءة الفاتحة، حيث حضر عدد قليل من الأسرتين وأصدقائهم المقربين، وبعد ذلك بفترة قصيرة تم عقد القران، وانتهى العرس عند المغرب. بعد ذلك تنتقل العروس إلى بيت الزوجية يصحبها بعض أفرد عائلتها، أما أحلام فستمضي مع زوجها إلى الضفة وحيدين تمامًا، ستبدل ثوب الزفاف، وتردي ملابس عادية، وستخرج من بيت أبيها إلى الفدق. واقتصر العرس على بعض التهاني والرقصات والأغنيات والمهاهة التي تطلقها النسوة من وقت لآخر. كان العم نزار يعمل طوال الوقت، على مراعاة شعور أقربائه، الذين فقدوا أبناءهم نتيجة الأسر، القتل و التشريد في الضفة، لكني حملت جميع فعاليات هذا العرس في قلبي لأنه حمَّلني بين ضلوعي نبوءة لم يظهر نجمها بعد.

كان لا بد لي أن أنزل إلى بيتي، فزوجي يعود عند العاشرة، وهنا نظرت أحلام إلي، ثم قالت: "سيدة ريم، أنا أحبك"، هزتني عبارتها للغاية فقلت: وأنا أيضًا أحبك، كثيرًا. تمنيت لو ان بيتك قريب من هنا، لكنه القدر،" فقالت:" بل إنها أمي؛ لم ترغب أمي في بقائي ببيتها، ووخزت دعواتها قلبي كثيرًا، كانت تطلب من الله أن يخلصها مني، فأشفقت عليها من رأفته بها، وغلظته عليّ. خفت أن يستجيب لها، فيفجعها بموتي على حين غرة، فينفطر قلبها لفقدي، فهي لا شك تحبني للغاية، لذا قررت الرحيل عروسًا؛ سأمضي بالأبيض على أية حال. لم أك لأحتمل أن يخلصها الله مني بطريقة أخرى." انفطر قلبي من حديثها، فعانقتها، كي أمنعها من مواصلة الكلام، فبكت طويلًا، فأوحيت للجميع أنها تبكي لأنها ستفتقدنا جميعًا، ولم تقل هي حرفًا واحدًا، وفجأة ركضت إلى أمها واختبأت في صدرها وبكيا معًا حتى انهار البكاء. كان قلبي مشطورًا بينهما، ووقف النسوة يمسحن دموعهن، تأثرا بالعناق بين العروس وأمها، ولأول مرة في حياتي، منذ أن دخلت بيت أم العبد أسمعها تدعو لأحلام، قالت: الله يرضى عَليش ويْوفْشِشْ يا إمي، الله يجعل أيامتش تشُلهن فرح وهنا يا الله". في الواقع، كانت أحلام تبكي نضال في حضن أمها، كنت أسمع صمتها بقول: فليسامحك الله ياأمي، لم حرمتني من نضال؟ إنه روحي وجرحي يمشيان على الأرض". من يومها بت أعرف جيدًا شعور الراحلين إلى المنفى، وعرفت أيضًا أن الموتَ في الموتِ، حياة.

انتهت لحظة عناقهما حين نادى أبو العبد أحلام بصوت مخنوق، شعرت أنه يود لو صرخ، لكن شريعة الرجال في بلادي، تستنكر على الرجل دموعه، وتتهمه بالضعف لو أظهرها، كما لو كان صنمًا، وحتى الأصنام خلق لها المثالون دموعًا تليق بوجعهم. كان يريد أن يرى وجهها ويعانقها طويلًا قبل أن تتركه، وترحل إلى حياة دبرتها لها أمها دون علمه. لم يكن الرجل يعلم شيئًا عن نضال، ولو علم لذبحها بالتأكيد. ولم يك يعلم أن زوجه تمضي اليوم بطوله تسب أحلام، وتنعتها بصفات لا تليق بفتاة، لأن قلبها معلق بالنافذة، والغروب، وصفارة نضال، لم يك يعلم غير أن ابنته الصغيرة، الحنطية، جاءها عريس، قبل أختها الكبرى تولين، وأن عليه أن يكون رجلًا متفتحًا، يعلق الأمر على النصيب. كان زوج أحلام بغرفة الصالون بانتظار عروسه كي يرحلا معًا، وبعد قليل كان الجميع يصطفون أمام باب الدار، كانت الفتيات التسع يتناوبن العناق، التقبيل، والدموع مع أختهن، ووقفن مع رفيقات أحلام يودعنن أحلام وزوجها بالزغاريد، ويدعين لها،وحملت

هي خلود وعانقتها طويلًا، وبكت، ثم حملت أخيها الصغير وضمته إليها طويلًا، وتنهدت كأنها فوهة بركان يطلق من فوهته اللافا. ثم صاحت خلود:" دخلك أحلام، وِين دَكَ اتْرُوحي؟ راح اتْطَوْلي؟ خِدِينِي مَعِك دَخِيل الله"، واحتارت العروس كثيرًا، بين كل هذه المشاعر ثم ألقت نظرة أخيرة على وجه أمها، ونظرت إلى الأرض، وأدارت وجهها، فوضع زوجها يده على خصرها، واتجها إلى السيارة. وبينما استندت النسوة إلى حائط الحديقة، سقط منه حجر، فحمله أبو العبد وحاول أن يعيده إلى مكانه، فلم يستطع لأنه كان بحاجة إلى بعض الإسمنت، فأجل إلحاقه بالجدار إلى وقتً لاحق، ورنت في أذني واضحة كلمات مهاهاة أم العبد من بين دموعها:

ريتُه ملبوس مبارك بالسبِع بركات
كما بارك المسيح على الخمس خُبزات
أو كما بارك محمد على جبل عرفات

إرفعي راسك يا مرفوعة الراسي
لا فيكِ عيبة ولا بِتْطَملي الراسي
إرْفَعي راسِك لبيِّك وقوليلُه
احنا طاسات الذهب ومْعَرّمة بلولو

....

شلّحْتك بدلة العزوبية لبّستك بدلة العُرْس
شمعة اسكندرانية تِظْوي على جميع القُدس
لولولولولولولو .....لي

صارت أحلام تلوح لهم ويلوحون لها حتى انحدرت السيارة مع آخر منعطف للوادي فغاب عن الجميع موكب أحلام، وانعصر قلبي، فبكيت، وسقطت أم العبد مغشيًا عليها أمام الباب، فحملها زوجها إلى الداخل، وراحت النسوة يلقين على وجهها الماء، ولم نتركها إلا وقد استعادت أنفاسًا ضعيفة، وأحسبها ستعاني من ضيق التنفس لأيام كثيرة مقبلة..

كان على أن أترك الليل لدار أم العبد، كيما استقبله في داري، فنزلت السلالم وحدي، وفتحت البوابة الخارجية، ورحت أخلع حذائي العالي؛ فردة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى الباب الداخلي، ثم باب البيت. أدرت المفتاح بيد، وحملت الحذاء باليد الأخرى. وما إن دخلت حتى ارتميت على الصوفا المقابلة للباب، ورحت أخلع الطرحة ثم الجلباب، ثم الفستان، ثم كل شيء، وفررت إلى الحمام، كي آخذ حمامًا ساخنًا، يُمكِّنُني من استيعاب دموع أحلام الأخيرة قبل أن يغلق السائق باب السيارة التي تقلها وزوجها، قبل لحظات من الرحيل، لن أنسى ما حييت كيف رمقتني بعينيها، ثم نظرت إلى النافذة العلوية، ثم إلى البراح حيث يسري دومًا صوت صافرة نضال.

أسلمت جسدي للماء في البانيو، وأنعشتني رائحة الياسمين، ولم أستفق من هذا الجو الشاعري، إلا على صوت زوجي، آتٍ من قاعة الطعام:" ريم حياتي، لا تخرجي من البانيو، لحظة أكون معك."

9

استيقظت في صباح اليوم التالي للعرس، فوجدتني لست بخير. كان زوجي قد أشفق علي كعادته، فخرج دون أن يوقظني، ياله من رجل رائع. لم أنهض من سريري كالعادة، ولم تنادني أم أيمن أيضًا، على غير عادتها.

سرحت طويلًا في باب الغرفة، كان بابًا ضخمًا بطول الحائط يصل إلى ثلاثة فاصلة خمسين مترا، له لون وردي فاتح، كانت إحدى ضلفتيه مفتوحة والأخرى مغلقة إلا قليلًا، أراحني اللون الروز كثيرًا، فتجولت عيناي في سقف الغرفة ورحت أرى أشكالًا رسمتها الظلال المنبعثة من ثنايا النافذة، و فجأة وقعت عيني على لوحة غريبة رسمها الضوء المنكسر على الحائط الذي يعلو عتبة الباب، رحت أحدد ملامح الصورة، فرأيت بحرًا عاليًا موجه، استطعت تمييز الموج بشكل كبير، حتى أنني شعرت أنه سينقلب علي، يخرج منه صدر عار لرجل غطس بكل جسده الأسفل في الماء، ولم أر إلا يده اليمني تأمرني بالخروج، رحت أحدق في تلك اللوحة مرارًا، وأقول لنفسي نعم، هذا رجل عارٍ صدره، يلوح لي بالخروج، وكان نصفه الأسفل في الماء، نعم، هذا ماء وموج عاتٍ، حوَّلت عيني عنه، وكلما عدت لأنظر إلى نفس المكان، صدمتني ملامح وجه الرجل، وحدثتني نفسي أن هذه ليست إلا إشارة لنا بضرورة الرحيل من هنا، ولكنني كتمت الأمر، ولم أخبر أحدًا، ونهضت من السرير، ودخلت الحمام لأتوضأ، ومن بعيد جاءني صوت الأذان، ولم أعرف أنه أذان العصر، إلا حين ألقيت نظرة إلى ساعة الحائط المعلقة في غرفة الجلوس.

شغلتني أمور أحلام عن القراءة في المصحف، كنت أواظب على القراءة فيه لمدة ساعتين يوميًا، واشتقت بالفعل لعادتي القديمة، فنويت الصلاة، وما أن كبرت الله، حتى شعرت بقشعريرة، تغزو كل جسدي، فقد شعرت بأنني لست وحدي، كان لدي يقين أن حشدًا يصلي خلفي. لم أتوقف عن الصلاة، رغم أنني أسرعت في إنجاز طقوسها. سلمت عن يميني، وعن يساري. كان قلبي قد قرأ جيدًا ملامح اللوحة وإشارة الرجل، ولم أعرف بعد، لماذا علينا أن نترك دارنا. وهل إن تركناها سنصبح فارِّين، مطرودين، أم نازحين. طرت دون أن أبدل ملابس الصلاة إلى دار أم العبد، فرأيتها في الحديقة الأمامية، تسقي الشجر والورد، وقد تناثرت الفتيات حولها، وبعض قريباتها، فلما رأتني قالت، لم نود إيقاظك مبكرًا جارتنا، لأنك تعبت معنا للغاية طوال الفترة الماضية.

- نعم، كنت بحاجة إلى النوم.

- ريم! ما بك ريم؟. قلت في نفسي:" لست على مايرام، هكذا أشعر."

ثم ارتبك صوتي وأنا أتماسك حتى لا ينفلت لساني فأخبرها بأمر اللوحة، لأنها لن تفهمني، فهي لم تفهم أحلام من قبل، فهل ستفهم محارواتي مع لوحة على الحائط:

- لا تقلقي، أنا بخير عزيزتي.

-

ضحكت مع الصبايا، ودخلنا لنصنع الشاي، كنت بحاجة إلى خبز الزعتر بزيت الزيتون، لا يكون طعمه لذيذًا حين أتناوله وحدي. دخلنا جميعًا إلى المطبخ، كان لنا ولعًا بالجلوس في شرفة المطبخ المطلة على جانب كبير من بساتين الزيتون، كنت أعشق شكل الرعاة والخراف والخيول من بعيد، لوحة الرحب تعني لي الكثير في هذه البلدة التي لم تتح لي سوى أن أحبها.

كانت نفسية تولين البنت الكبرى لأم العبد، تسوء يومًا بعد يوم، فلا أحد يتقدم لخطبتها، وقد بلغت من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، يعتبرونها هنا عانسًا بالطبع، وكلما جاءت الجارات لزيارة أمها، يسألنها: ألم يأتك عريس؟"، فتهز رأسها بالنفي المعجون بالحزن، ويعصرها الخزي، وتطأطيء رأسها، كما لو كانت قد اخترقت القانون، أو كما لوكانت قد ارتكبت فعلًا فاضحًا في الطريق العام، فقررت أن أعلمها كيف ترد على مثل هذه الأسئلة، و كثيرًا ما شجعتها على ضرورة إكمال تعليمها الجامعي، ولم أتركها إلا وقدالتحقت بكلية الآداب، وتخصصت في الأدب العربي، بعدها، بدأت ألمح في عينها بريقًا مختلفًا بدا تأثيره واضحًا عليها حين

سألتها إحداهن عن العريس فأجابت:" سيأتي يوم، فيه أضع ساقي اليمنى فوق اليسرى، وأختار واحدًا من بين الكثيرين من هؤلاء الرائعين، وحتمًا، سأختار من يليق بي، وسأملي عليه شروطي، مازلت دون الثلاثين، فلم أبلغ الخامسة والعشرين بعد"، ورأيت النسوة يستمعن لهذا الرد ويحركن أذانهن يمنة ويسرة، ويرفعن حواجبهن كأنهن كلاب برية أزكمت أنوفها رائحة الطرائد في مرمى الريح"، وكنت أضحك في نفسي، كنت أعلم أنني سأترك هنا، في هذه البلد، شيئًا ما"

رجعت كعادتي إلى منزلي ورحت أطهو الدجاج بالكاري، وأصنع السلطة التي يحبها زوجي، وانتظرته في الشرفة الخلفية للبيت، كان الظلام يلف كل شيء حولي، وخلا الجبل والوادي، إلا من أضواء الطريق وضوء قمر شاحب. كان من المفترض أن يخيفني مثل هذ الجو الطلسمي بالطبع، لكنني كنت بحاجة إلى الظلام، والهدوء، وكان الضوءالخافت المضطرب الساكن فوق عروش الجبال، كافيًا بالنسبة لي لهذه الليلة. ومن بعيد يصلني صوت التلفاز آتيًا من وسط الدار، يحمل صوت فيروز " بيني وبينك يا هالليل....، وبعد قليل سمعته ينادي اسمي كالعادة: ريمو.. ريمووو..، فدخلت لأستقبله، فعانقني، ياإلهي لكم افتقدته، كنت أتعلق برقبته، فأبدو كالميدالية، التي حصل عليها أحد لاعبي القوى، بعد فوزه بسباق مائة ميل، كان قصر قامتي يبدو واضحًا للغاية، وتبدو المفارقة بيِّنة إن وقفت إلى جواره، فزوجي شاب ثلاثيني، طويل القامة، قوي البنية، وكنت أصل برأسي، فقط،إلى صدره، ولم أحلم يومًا بالوصول برأسي إلى أكثر من محاذاة كتفه، وما أن انتهي عناقنا، حتى راح يحملني، ويلف بي، كما فعل يوم زفافنا، لولا جيرة أم العبد لقتلت نفسي من الوحدة، فعشر ساعات من العمل المتواصل، تسرق عمرنا رويدًا رويدًا، كان عليه أن يباشر أعماله بنفسه، كان له ثلاثة شركاء، ولم يك يثق إلا في يده، وما تجلب، وما تفعل، كان دقيقًا للغاية، ولا يترك شيئًا للظروف، لذا، كان لزامًا علينا أن نتحمل، أقسم بالله، لولا بيت أم العبد لقتلتني الوحدة بالفعل.

تناولنا العشاء في السرير، وحين نهض زوجي ليرفع صينية العشاء، لمحت الرجل العاري والبحر، ويده تشير بوضوح شديد إلي كي أرحل. ربما يأمر الجميع بالرحيل أيضّا، فانتفض قلبي، وخفتت نبضاته. بدا الأمر حقيقيًا ورحت أقول في نفسي: إنها إشارة صامتة إلى الآن، وربما انقلبت لشيء آخر أكثر عنفًا أو إيذاءً لو أنني لم أخبر زوجي، لا سيما أن روحي ترجمت الأمر على هذا النحو، وارتجف قلبي فزعًا. كنت أومن بالرسائل التي تبعثها الأماكن والأشياء إلى روحي، كنت أؤمن مثلا أن هنالك مغزى واضحًا من وراء ظهور مفاجيء لاسم معين أو لرقم فردي، خاصة إن كان الرقم سبعة، على ظهر إحدى السيارات، التي تحمل مقولات شعبية، بينما أكون على وشك اتخاذ قرار مهم، أو حين يقلقني شيٌء ما، وكنت كثيرًا ما أقرأ ما ترسمه الغيوم من لوحات على وجه السماء، وأترجم شفراتها، فقررت أن أحكي لزوجي، لعله يرى رأيًا مغايرًا، ولكن ماذا لو لم ير شيئا؟

كان من عادته أن يعد العشاء لنا، فلما عاد إلى الغرفة يحمل كوبين من عصير التوت البري، قلت له:

- سأريك شيئًا، وعليك أن تخبرني كيف تراه، فإن رأيته بوضوح، عليك أن تحدثني بما حدثتك به نفسك عنه"
- موافق، أين؟
- هناك فوق الباب، هل يمكنك تحديد ملامح لوحة ما؟

حدق زوجي طويلًا في المكان الذي أشرت إليه بينما أمسكت أنا قلبي بيدي خشية أن يخبرني أنه لا يرى شيئا، كان يحدق بدهشة وتتسع عيناه، فقلت له:

-هل رأيت شيئا، هل حددت ملامح شيء ما؟، فلم يرد، قلت في نفسي : إذن ربما هي الوحدة، أو السكون، ربما يرغب السكون في أن يعيش وحيدًا في المنزل، ولم لا، أنا لا أنزل إلى البيت إلا بعد العشاء، وكثيرًا ما يتأخر زوجي في عمله، فترفض أم العبد وزجها أن يتركاني، قبل أن يعود ليأخذني، وفجأة قال زوجي:

- نعم، إنها لوحة يظهر فيها رجلٌ عاري الصدر، ويغطس نصفه الأسفل في الماء، ويأمر بيده اليمنى أحدهم كي يخرج، نعم، إنه، بالفعل، يأمر شخص ما بالانصراف، ويبدو لي أنه يشبه هامان فرعون، قلت نعم: رأيته كأنه هو بالفعل، له نفس الرأس الصلعاء، والوجع الصخري، تمامًا كما ظهر في فيلم موسى. ولكن ماذا ترى في هذه اللوحة؟، أقصد ماالذي حدثك به قلبك؟.

- لا أسمع ما يقوله لي قلبي بوضوح، لكنها رسالة ما.

- لنا؟.

- ربما.

- كنت أصغي إلى قلبي كثيرًا، كلما ضاقت علي الأرض بما رحبت، فلا يصلني إلا صوت الله، أما هذه اللوحة، فقد ترجمها قلبي بطريقة مختلفة، إن هامان هذا لا يرغب ببقائنا هنا، هامان بكل جبروته وتعنته يأمرنا بالرحيل. وأرى أن علينا أن نترك هذه الدار. اندهش زوجي لكلامي وقال بصوت بين القلق والاستغراب:

- نترك الدار؟. ولم؟، قلت :

- ولكن لا أعلم، لم يحدثني قلبي بغير هذا منذ رأيت هذا الرجل منذ أكثر من ثلاثة أيام، وهنا ضم زوجي رأسي وقال:

- لا عليك، لا بد أننا متعبين من الوحدة هنا، أو ربما لأنك تتركين الدار كثيرًا، ثم أردف: لا عليك، سأجلب من يعمل على طلاء هذه الغرفة، ومن ثم نحرك السرير عن هذا الجانب، ربما تحتاج الطاقة السلبية في المكان إلى الحركة، ثم لماذا لا يكون الأمر على عكس ما فهمنا؟، لماذا لا نفهم إشارته لنا بالخروج على أنها دعوة لنا للابتعاد عن خطر ما، لو قسنا الأمور على أنه ليس معادلًا موضوعيًا لهامان وهو بين الغرق والنجاة، بل هو تناص مع غرق فرعون، فتكون فحوى رسالته: اخرجا، لديكما فرصة للنجاة"، ثم أردف زوجي: ما هذا؟ ما هذا الذي قلته؟ النجاة؟ من أيء شيء؟ هل نحن في خطر ما هنا؟، ثم أخذ يوجه لالكلام لي: " هل حدثت أمور لا أعرفها؟، قلت : لا شيء غير طبيعي، غير هذه اللوحة التي تؤرقني، وتجعلني أهرب إلى أم العبد، قبل أن يذوب قلبي خوفًا، ضمني زوجي إلى صدره، وقال: تعوذي بالله من الشيطان الرجيم، إنها مجرد خيالات، رسمتها الرطوبة، ليس إلا. لقد أصبحت أكثر شفافية من ذي قبل، فالصمت والهدوء، وجو الجبال والوديان حول روحك إلى قاريء جيد لكل شيء. اهدئي ياحبيبتي، وليكن الغد يومًا أكثرَ طيبة، فتقوقعت في حضن زوجي طويلًا، فاستسلمت كل حواسي، وطرنا في النوم.

استيقظت في الصباح التالي ولم أجد زوجي بجانبي؛ خرج كعادته، دون أن يوقظني، فهو يشفق علي من الغربة، ولا يريد أن يرهقني بأعباءَ إضافية، طالما كان بإمكانه أن يحل محلي، ويصنع لنفسه فنجان القهوة الصباحية، لكني كنت دومًا أقول في نفسي:" سأنتبه حين ينهض من جانبي"، لكنه كان ينجح دومًا في الحفاظ على هدوء نومي، كنت أجله وأحترمه بقدر يفوق حبي له، لقد شكل لي بُعدًا جديدًا للحياة، غير تلك التي تقول عنها جارتي أم جهاد التي يوقظها زوجها بصوته الجهوري، فتقفز من الفراش، وتفر إلى الخارج، ولا تستيقظ بشكل تام إلا في المطبخ، وبعد أن تصب القهوة له، وتحملها إليه في غرفة المعيشة، كانت تقول لنا في جلساتنا الصباحية أنها كانت تشعر كأن قلبها على وشك أن يقفز من صدرها، ويسقط على صينية القهوة، وأنها فشلت

في أن تقنعه بتغيير طريقته في إيقاظها، ومع الأيام اعتادت الغلظة في صوته، فلم تعد تسمعه مطلقًا، بل وأقلع قلبها عن القفز، واضطر هو للدخول إليها ليوقظها، وفي أغلب الأحيان، كان يهزها بعنف، خشية أن يكون قد أصابتها سكتة ما.

نهضت من سريري واتجهت إلى الحمام، قمت بكل طقوس الصباح، وضوء، صلاة، فطور، شاي بالميرمية، ومن ثم يبدأ نهار رائق للغاية، وفجأة سمعت صوت صراخ قريب، ثم بعيد للغاية، فقفزت إلى الشرفة التي نقلت إلى الصوت ولم أفهم شيئًا، ثم نادتني أم العبد: - - ريم، هل أنت بخير؟، قلت بصوت مرتفع:

- نعم، بخير، لا تقلقي.

- من أين يصدر هذا الصراخ؟، سألتني وسكتت، وسكت الصراخ، وبعد عشر دقائق انطلق الصراخ مكتومًا مرة أخرى، بعدها رأيت أم العبد وأم جهاد وقد وقفتا على أول درجات السلم وتجوبان بآذانهم الجهات الأربع بحثًا عن مصدر الصوت. كان الصراخ يعلو ثم ينعدم ثم يأتي مكتومًا. وفجأة ركضت أم العبد باتجاه منزل جارة لنا، كنا لا نراها في لقاءاتنا النسوية الصباحية. كانت النسوة يقلن إنها امرأة غريبة الأطوار، وحدثتني تالا عن بنتيها، اللتين لم أرهما منذ أن جئت إلى الحي الشرقي، وكيف أنهما مغلوبتين على أمرهما، وربما أخبرتني شيئًا ما، عن الطريقة التي تعاملهما بها أمهما، وأظنها قالت أنها تعاملهما كما لو كانتا من فصيلة الكلاب الضالة أو أقل شأنا.

اندفعت أم جهاد وأم العبد نحو باب المنزل الحديدي المصمت، وقرعت أم العبد الجرس مرات كثيرة كما بدا لنا من حركة يدها على الجرس ولم يأتها رد، وفي تلك الحظات، كان الصراخ قد اختفى تمامًا، فارتدت المرأتين عن الباب خطوتين ليبتعدا، وفجأة ظهر رجل مفتول العضلات من وراء الباب، وقال شيئا للسيدتين، ثم سمح لهما بالدخول، ولم أعد أعرف شيئًا، حاولت إبعاد تفكيري عن الأمر، ولكن يبدو أنني كنت مشروع صحفي على الطريق، فارتديت الجلباب ووضعت شالًا قصيرًا على رأسي، وتركت منزلي وصعدت إلى بيت أم العبد، فلما فتحت لي تالا، قالت:

- هل سمعت الصراخ؟

- نعم، يبدو أن أحدهم يضرب امرأة و فتاة، ربما أخوها أو زوجها. فهذا أمر متعارف عليه، لن تصرخ المرأة إلا من الرجل.

- لا، إنه خال أمل وأماني تستدعيه أم غالب دومًا كلما أخطأت إحداهما، فيأتي ويضربهما ضربًا مبرحًا ثم يغادر.

- خال؟ مبرحًا؟، كيف؟

- نعم، هكذا قالت لي أماني يومًا، حين سمحت لهما أم غالب يومًا بأن يأتيا معنا إلى صلاة العيد الكبير منذ أكثر من أربعة أعوام.

- هل هما في نفس عمرك؟

- لا، هما أكبر بكثير، توأمتان يشبهان بعضهما تمامًا، ولا نكاد نراهما تقريبًا، إلا حين تمرقان إلى منزلهما، أو تخرجان منه، وغالبًا ما يحدث هذا حين لا يكون خالهما بالمنزل، إنه عنيف للغاية، لقد قالت إحداهما لنا عنه هذا، حين تسللت إلينا، وتحدثت معي ومع تولين حين كانت تروي شجرات الياسمين، في الحديقة الأمامية للمنزل، لقد حدثتنا عنه بصوت منخفض للغاية، ثم طارت قبل أن تراها أمها من النافذة، تعجبنا كثيرًا، فقد أخبرتنا أنه لا يأتي إلا لكي يضربهما، ولا يكون هذا إلا بعد أن تتصل به أمهما، التي كانت تخوفهما به طوال الوقت، ويبدو أنه الآن بالمنزل، هذه سيارته التي تبدو مؤخرتها من الكراج قرمزية.

- بالمنزل؟ ، ولم أكد أنهي الكلمة، حتى ظهرت أم العبد تتبعها أم جهاد بخطوتين، ثم سارت المرأتان بمحاذاة بعضهما البعض، وحين عبرت السيدتان الباب الداخلي للدار، قالت أم العبد: إنه خالهما، كان يضربهما، لأن أخته اتصلت تشتكي منهما، إنه يعتبرهما عارًا، لقد راح يردد طوال الوقت : "لا بد أن العار قادم على يديهما لا محالة". قالت تولين: إنه يمنعهما من الخروج لأي جهة، ومن مشاهدة التفاز، بل ومن القراءة أيضًا. وفيما بعد عرفت أنه لولا الفضول، الذي يدفع بنات أم العبد دومًا، إلى النظر من النوافذ، لدى سماعهن صوت محرك السيارات، لما عرفن شيئا عن الفتيات وخالهما، ولما عرفن سوى أنهن كن يذهبن إلى مدرسة القرية، التي يدخلها الفتيات حين يبلغن السادسة من أعمارهن، ولا يخرجن منها إلا حين يحصلن على شهادة "المترك"، ولقد أنهتا المترك منذ عامين.

كانت مدرسة البنات تبعد كثيرًا عن مدرسة البنين بمسافة كبيرة. فالخلط بين الجنسين هنا جريمة نكراء في ذلك الوقت. كانت العائلات المسيحية تسكن أطراف هذه القرية النائمة، في حي يطلقون عليه حي "العدرا"، تجاوره مدرسة العدرا، التي التحق مبناها بكنيسة "العدرا" أيضًا، كما التحقت بها كذلك، عيادة طبية شاملة، تقول أم أيمن أنها كانت تكتظ بالناس، فهي تمنح الرعاية الطبية للناس كافة، بغض النظر عن مسألة الدين، كنت أراها في طريقنا حين ينحدر بنا الطريق، أو يصعد إلى، أو من مدخل القرية الجنوبي ومخرجها. كان حي "العدرا" يجيد إرسال الصمت إلى القرية. كانت مدرسة الراهبات قائمة في الطرف الجنوبي الشرقي للقرية، لا يتركها ابن السادسة إلا بعد أن يحصل على المترك أيضًا. بت أعرف الكثير عن ذلك الحي، دون أن أغوص في تفاصيل عالمه، وكلما ازداد كلام الصمت في قلبي، كلما ازددت عزمًا على فك أسر الفتاتين، وكلما ازداد مقتي لخالهما، ولتلك المرأة التي ترسل لأخيها كي يأتي لتعذيب ابنتيها. لو رزقني الله بفتاة لأرخيت عليها حنان العالم، ولأغدقت عليها الاسترخاء والهدوء، بل إنني لن أسامح نفسي لو كنت سببًا في بكائها يومًا. لم تمر هذه الفترة من حياتي، في هذه القرية النائمة، مرور الكرام، كنت أفكر بكل شيء، ولكني لم أعقد المقارنات بينها وبين قريتي، فقد كانتا متشابهتين للغاية، في كل شيء.

راحت بنات أم العبد يتهامسن فيما بينهن حول الفتاتين، ولم أميز شيئًا مما يقلن غير امتعاض وجوههن، و ملامح الاستنكار والألم، التي لفت المكان، بين السر وبين الجهر، ولما دخلت أم العبد وأم جهاد إلى الدار، ركضت الفتيات جميعهن، كي يستطلعن الأمر، حتى خلود التي لم تكد تنهي عامهاالسادس ، انتابها الفضول، و أبدت اهتمامًا بالغًا بالضجة التي قلبت كيان الصباح في الحي، كنت أرقب الأمر بهدوء. حتمًا ستخبرني أم العبد بحقيقة الأمر حين نكون وحدنا، ولربما سمحت لتولين وتالا، وتغريد، وتمارا، بالجلوس معنا، فلما سألتها الجميع قالت:

- لا شيء، كانت أماني تعاني من مغص كلوي شديد، فاتصلت أمها بخالها، فجلب لها الدواء. هي الآن بخير. تركناها تغالب النوم.

لم تقتنع الفتيات بالطبع وسرعان ما قالت تالا : نحن لم ننه أعمال المنزل والمطبخ بعد، وسيرفع أذان الظهر بعد قليل، وصارت تقسم أعمال البيت بينهن جميعًا، وحارت أم العبد في طعام الغداء، فقررت أن تذيقني طعم " المجدرة"، وهي عبارة عن أرز مخلوط العدس الأسود. ليس للطعام أدنى مذاق، حين أكون بمفردي، في منزلي، ولم أكن أحظى بصحبة زوجي على الغداء إلا في أيام الآحاد، وكنت محظوظة بالفعل، إذ أمضي يوم الجمعة بكل طقوسة الروحانية في بيت أم العبد، فقد كان يشبه يوم الجمعة في بيت أبي.

دخلنا المطبخ جميعًا وجلست مع الأم إلى طاولة المطبخ الضخمة، وطلبنا بعضًا من القهوة بينما تخلط الأرز بالعدس الأسود في الطنجرة التيفال، كي يستقيم اليوم، فقد بدأ غامضًا ومرعبًا للغاية.

كانت أم العبد تنحاز إلى الصبيان والرجال، وقلَّما أنصفت فتاةً على رجل، ولمحت هي في عيني فضولًا شديدًا لمعرفة سر صراخ الصباح، في بيت جارتنا الغامضة، فقالت:

- إتشِسْرِي للبنت ضلع يطلع لها مائة ضلع.

وبقدر ما آلمتني العبارة، بقدر ما ابتسمت لها كي تخرج ما في جعبتها، كان عقلي الباطن قد اتخذ موقفًا من أم العبد منذ تفريطها في أحلام ، وربما آلمني كثيرًا أن عناقها الأخير لأحلام، رغم سطوة الدموع، والإنهيار عليه، كان عناق الذي تخلص من مصيبة في بيته، ولم تك دموعها إلا دموع الخلاص من عار محقق، لولا ستر الله ولطفه بها إذ أرسل العريس في الوقت المناسب، وأردفت قائلة:

- لا يريد خالهما تزويجهما، غبي.

- لماذا؟

- ولا يريد لهما الخروج من الدار، لقد ازدادت أماني وزنًا، وقد تضخم بطنها بشكل واضح.

- ربما يعود زيادة حجم بطنها إلى تضخم في الطحال، أو لخلل أصاب أمعاءها الغليظة، أو ربما أنها تعاني ورمًا ما.

- أخشى أن يفوتهما قطار الزواج، فهما لا تخرجان إلى الأعراس فتراهما النسوة، فيجلبن لهما عرسانًا، كما يفعل الجميع.

- يبدو أن أمهما تعاني مرضًا نفسيًا ما.

- ربما، فهي غير متأثرة ببكائهما، ولا تكترث لقهرهما. وهنا نظرت مباشرة في عيني أم العبد، ويبدو أنها لمحت أحلام تعاتبها في نظرتي، فطأطأت رأسها وقالت: أرى أن زواجهما كفيل بحل الأزمة.

- الزواج؟ الزواج مرة أخرى؟ الزواج يا أم العَبِد؟، قلت ذلك دون تفكير وبلهجة غاضبة وعلامة تعجب واستياء، لم أنتبه إلى حدتهم إلا حين توقفت أم أيمن عن سحب بعض القهوة بشفتيها من فنجانها لبرهة، ثم بلعت ريقها بصعوبة، وقد احتبس في قلبها الشهيق وهي تنظر في عيني، فتصنعت الهدوء وأعدت سؤالي لها:

- الزواج؟، هل تعتبرين الزواج حلًا لكل المشاكل؟، هل يكمن حل كل ما تعانيه المرأة أو تتسبب فيه في رجل؟

- على الأقل تجد حلًا لمشاكلها حين تنتقل إلى بيت آخر، ورجل تهتم بشئونه، فتتلهى عن إثارة المتاعب.

- هل يعني الزواج رجلًا أهتم بشئونه، وأغوص في إرضائه لدرجة أنسى معها كل ما يؤلمني؟ أهذا كل ما أريد تحقيقه؟، وماذا لو أضاف لهمي هموما جديدة؟

- ها أنت امرأة متزوجة، فما الذي يزعج في الأمر؟، أنت مستقلة وحرة وتنعمين بزوج لا يعنيه في الدنيا غير أن تكوني راضية، وفي أسعد حال.

- لا أتكلم عن تجربتي، أنا أتكلم في العموم يأم، أتحدث عن طريقة التخلص من الفتيات بالزواج. وقررت أن أوقظ فيهاإحساسًا بالذنب لرحيل أحلام، فقلت:

- لقد اخترت الزواج حلًا لأحلام، والآن لأمل وأماني، وماذا بعد؟ لم لا تتحدثون إلى الفتيات، تتعرفون على مشاكلهن النفسية واحتياجاتهن، لماذ تعتبروهن مجالًا للشبهة لا سبيل لتبرئة ساحته، لماذا لم تناقشي أحلام؟ لقد ناقشتها أنا مرارًا، واقتربت منها وفهمت أنها تبحث عن تغييرٍ ما، اختيارٍ مستقل تحققه بنفسها، مجالٍ أرحب لروحها. لو منحتها الفرصة، لتركت نضال من تلقاء نفسها، فقط لو منحتها الفرصة لتنضج في قلبك، وبين ذراعيك، وفجأة وجدتني أبكي بشدة، فبكت المرأة. لم أقصد إيلامها بالطبع، أو ربما قصدت لكني عدلت عن قراري فلا شيء أكثر إيلامٍ من بكاء أم، وضعت الأم كفيها على وجهها وراحت تهتز من فرط البكاء وناولتها

منديلًا كي تجفف دموعها، ثم حضنت رأسها لكي تهدأ، وفي الواقع، كنت أحاول أن أضمده لها قليلًا، فقد كان حجم الصدع فيه، لا يسمح لها بأكثر من أن تعتقد أن الزواج هو المُخلِّص.

كان أبو العبد شريكًا أساسيًا فيما وصلت إليه حالة زوجه بالطبع، فإصراره على إنجاب صبي بعد عشر بنات، دون الالتفات إلى صحة زوجته، أو حالتها النفسية، أمر لا بد أنه ولَّد في داخلها خوفًا بحجم الكرة الأرضية، واعتقادًا بأن الذكر هو الخلاص، فكثيرًا ما سمعته يندب حظه لأنه أبو البنات، ويتحسر على عمره الذي ضاع هباء، ورأيته مرارًا يحتضن ابنه ويقول له:

- أنت فقط من يجعلني أحتمل العيش مع أمك، أعلمُ أنني لن أعيش حتى أراك رجلًا ، فحين تبلغ العشرين من عمرك، سأكون قد جاوزت الستين بخمس سنوات،أو سأكون قد رحلت"، فقلت في نفسي: نعم، كانت جدتي تقول: "ابن الكبر يتيم"، وحين ضممت رأسهاإلى صدري بدأت في سردية لم أتوقع سماعها:

- إني متعبة للغاية يا ريم، متعبة وأشعر بأنني وحدي تمامًا بهذه االحياة. كان أمر زواجي معلق على إنجاب الصبي، وهددني نزار بالزواج من امرأة أخرى إن لم أنجح في المجيء بالصبي. كنت أكرر تجربةالحمل فقط كي أمنع حياتي من الإنهيار. لم يعد لي من أحد في الضفة سوى عمتين، ولا أعلم إن كانتا على قيد الحياة أم انهدمت فوقهما الدور كما هو الحال هناك دومًا. خرج رجال العائلة، كالعادة، ذات جمعة لتأدية الصلاة في الحرم الإبراهيمي و لم يرجعوا؛ ولم أر غير بنات عمي، اللواتي توزعن في دول الخليج وأمريكا وفرنسا وإيطاليا، وهاجر ابن خالي الوحيد، إلى استراليا، ولم نعد نعرف عنه شيئًا. أين أذهب ببناتي لو فعلها نزار وغادرنا ليومين على الأقل في الأسبوع يقضيهما مع زوجته الثانية؟ وماذا لو أنجبت له الأخرى خمسة ذكور؟. كنت مهددة حتى أنجبت عبد الناصر، حتى ابني هذا لا أظن أنني سأعيش حتى أراه شابًا. كثيرٌ جدًا هذا الذي أعانيه ياريم.

ظلت المرأة تبكي، كأن لم تبك على شيء من قبل، فشعرت بالذنب لأنني نفضت غبار الزمن، عن الألم الكامن في جوانب روحها، ولكنني قلت في نفسي:" لربما كانت بحاجة إلى تلك الهزة العنيفة، كي أخلصها من عقدة الخلاص بالزواج والخلاص بالرجل، ربما مكنتها من الوقوف بمفردها، مهما كان الأمر، دون أن تميد الأرض من تحتها، لمجرد أنها بلا سند غير زوجها، وحتى لا تشكل لها فوبيا فقدان الرجال، نوعًا من الشعور بالدونية.

كان العم نزار الذي كان يهددها على مدار عشرين سنة بالزواج من أخرى، يصلي الفرائض ويذكرنا بالصوم، في الأيام البيض، وفي العشرة الأوائل من ذي الحجة. يحرص على أخذ ابنه إلى المسجد لحضور دروس الجمعة والاثنين. رحت أتساءل : ألم يقابل هذا الرجل اللهَ في كل هذه الأوقات؟، ألم يتعرف عليه عن كثب؟، ألم يخبره يومًا فور تضرع ما، أونظرة متفحصة إلى القرآن قول الله سبحانه وتعالى: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)? (سورة الشورى). ألم ير أنه هو من يمنح الذكور والإناث، وليست أم العبد؟ وعرفت أنه لا يختلف كثيرًا،عن كل من يحترفون مهنة المتدين من المدَّعين، فهم ليسوا إلا حفظة، مجردين من العقل، ومن كل شيء، غير التقليد الأعمى، وحزنت، نعم حزنت لأنني لم أنتبه منذ مجيئي أن من تحتاج إلى الرعاية والحب هي أم العبد نفسها.

فكرت في كل شيء وأنا أحتضن رأس المرأة، التي لا بد أنها تتوق الآن إلى حضن أمها، كنت حريصة على تهدئتها كما كنت حريصة على أن أوقظ فيها الأم الطيبة، التي تناقش بناتها لتحل مشاكلهن بطرق أخرى غير النفي بالزواج، وأخيرًا، راحت أنفاسها تستقر، وراحت تعابير وجهها تهدأ رويدًا رويدًا، وتبدلت حمرة خديها

إلى بياض رائق، وتنفست بعمق، ثم قالت: - لم تتصل أحلام بنا منذ أن سافرت ، لقد مضى على رحيلها تسعة أشهر الآن، فلم أرد، واكتفيت بمواساتها صمتًا، لكنها فهمت بالطبع أنني، رغما كنت أعاتبها دومًا حين تتذكر أحلام.

أخذت نفسًا عميقًا، كي أتمكن من مواصلة اليوم بشكل لا يؤثر على طريقة استقبالي لزوجي، فأنا في بيت عائلي، مشحون بالأحداث، صرت أحمل هم كل فرد فيه، وكانوا يسألونني المشورة في كل شيء، كأنني ابنتهم الكبرى، لذا كنت أشعر بمسئولية كبيرة تجاههم جميعًا، حتى العم نزار، لم ألمح في عيني هذا الرجل يومًا غير انعكاس لقلب أبي، هكذا كان يعاملني، كان يقول لي: " اصنعي لنا كوبين من الشاي ياريم"، وكنت أدخل المطبخ أصنع إبريقًا للكل وأضع الأكواب على الصينية، فقد بت أعرف كل تفاصيل البيت كما تعرفها تولين وتالا وتمار وتغريد. كنت حريصة على أن أرضى الكل، كما تحرص على ذلك خالتي زينب –أم العبد. كان زوجي يشتري السوبر ماركت –بدون مبالغة- في طريق عودته إلى البيت، ويحمل سيارته مالاتطيق، ويقوم بتقسيم كل ما اشتراه بيننا وبين أم العبد، وكأنه آت إلى بيت حماه. ماهذا هل قلت بيت حماه؟ لالالا.. لو فعل ذلك في بيت أبي لطرده ههه، سيقول له حتمًا: "ليه انت جاي في بيت فيفي؟ ههههه..."

كانت الحياة سلسة وطيبة للغاية هنا، وكانوا يعاملونه كزوج ابنة بار، ويحترمونه لأنه مهذب للغاية، ويتمنون لتولين زوجًا في مثل أخلاقه. لم اشْكُ منه يومًا، فلم يكن من الرجال التي تتفنن في إزعاج زوجاتهن. وكنت له فينوس التي اعتقد الرومان أنها ولدت في البحر، وجاءت إلى شواطئ قبرص في محارة، وأعتقد أنهم على حق.

10

استيقظت كالعادة، فلم أجد زوجي، وما أن وقعت عيناي على المسافة التي تعلو باب الغرفة حتى رأيت اللوحة ثانية، البحر الغارق فيه إلى نصفه رجل عاري الصدر يشير لي بيمناه أن ارحلي، فانقبض قلبي خوفًا، وقفزت من السرير بسرعة، أخذت الجلباب ووضعت الإيشارب على رأسي كيفما اتفق، وهممت بالخروج فسمعت طرقًا خفيفًا على الباب، تسمرت في مكاني، فلم يعتد أحد أن يدق بابي هكذا، فقد اعتادت أم العبد أن تناديني من نافذة المطبخ التي تطل على غرفة نومي. زحت الستائر عن الشرفة المطلة على السلم، ولدهشتي رأيت فتاة ترتدي إيشاربًا، وجلبابًا لم تره المكواة من زمن، فخفت، لكنني أحسست في دقتها على الباب، رعشة عصفور فقد جناحيه، فقررت أن أفتح الباب، وقبل أن أصل قلت كالعادة في بلادنا:" من؟، فجاءني الرد بصوت هزيل": - أأأأأأ.... ماني"

- أماني؟ أماني بنت جيراننا أم غالب؟

- نعم ست ريم، أنا هي.

- ست ريم؟، أوتعرفينني بإسمي؟

- نعم، افتحي لي أرجوك.

- كاد صوتها أن يقطع أوصال قلبي، ويصيبني بإغماءة سكر على أقل تقدير، ولم أنتبه إلا وأنها أمامي؛ فتاة سمراء بدينة، يحيط محجري عينيها سواد عظيم؛ تطل منهما عينان خائفتان حد الموت، هكذا قرأتهما بروحي التي أرقها صراخ أمس بما يكفي سهد سنة كاملة، وفجأة اندفعت من تحت ذراعي اليسرى، التي استندت إلى دعامة الباب كي تمنعني من أن أسقط من المفاجأة، وجَلَسَت إلى أقرب مقعد بجوار الباب، وراحت تتفحص المكان كأنها قطة أتينا بهاإلى الدار للتو، فسألتها:

- من منكما التي كانت تصرخ بالأمس؟

- نحن الاثنتان.
- و لِمْ؟
- كلما غضبت أمي من إحدانا، تتصل بخالي، فيأتي، ويسحبنا على السلالم كما لو كنا خرافًا، ليلقي بنا في القبو، ثم يخلع حزامه، أو عقاله، ويضربنا دون رحمة حتى أنه كسر أسنان أختي الأمامية جميعها، وحلق لنا شعورنا، يقول لنا دومًا:" سأجز هذا الشعر حتى لا تتباهيان به بعد الآن،" ثم كشفت عن رأسها فرأيت جوانتنامو؛ جمجمة لعبت فيها الأمواس كل اللعبات، في كل الاتجاهات. رأيت رأسًا لا علاقة له باسم أماني، فأسقط في يدي، ولم أدر ماذا عساي أقول، ولكنني خفت كثيرًا من وجودها عندي. ماذا لو اكتشفت أمها أنها في بيتي؟، كان عقلي يعمل بسرعة ألف فيمتو ثانية في الفيمتو ثانية، فسألتها:
- هل تعلم أمك أنك خارج البيت؟
- لا.
- لا؟
- هي تعرف أنني أسحب خرطوم الماء، لأروي الحديقة الخلفية، ستحسبني أروي الشجر، عادة أغيب بين المياه والشجر. لقد ذكرتك خالتي أم العبد كثيرًا حين زارتنا بالأمس، ومدحتك بصورة جعلتني أحب روحك، فرغبت في رؤيتك.
- أشكرك، وتشجعت قليلًا وسألتها:
- هل الرجل الذي تتصل به أمك هو خالك بالفعل؟ كنت متهورة بطرحي لهذا السؤال، لكنها استقبلته بالبراءة التي طرحتُه بها تمامًا وقالت:
- نعم، ولكن، يبدو الأمر كما لو أننا لسنا بنات أخته. قالتها بحزن وعجز شديدين، كنت أنظر إلى جلد رأسها المشوه ولا أتخيل أن تكون تلك المرأة أمهما بأي حال من الأحوال، فسألتها:
- ما هو أقصى ذنب يستدعي مجيء خالكما، كي يضربكما، ويشوه فتاتين في عمر الزهور مثلكما؟
- القراءة، رغبتنا في الزواج من قبل، ورفضنا لجبروته مع الناس.
- نعم؟ ماهذا الذي تقولين؟
- لقد منعنا خالنا من القراءة في بداية الأمر، ومن مشاهدة التلفاز، ثم من الزواج، إنه يعامل الناس بجبروت وتعالٍ، هو يعتقد أننا نفشي أسراره أيضًا، ولا يقبل بأي اقتراح تقوله النسوة في المآتم والأفراح حول مسألة زواجنا، هو يعتبرنا عارًا، وسنجلب له العار يومًا ما. رغم أن من أفشل عاداتنا أن نتزوج بعد أداء امتحان المترك مباشرة، هل تعتقدين أنه يكره تلك العادة سيدة ريم؟
- مممم، ربما، وهل يرى أن تعذيبكما حتى الموت يعد بديلًا عن العريس؟
- ماذا لو رأيت أمل؟، هو يشوه جسدها بالسجائر وتراه أمنا ولا تفعل له شيئًا، إنها تخاف منه أيضًا. إنها تتركنا وحيدتين في القبو، ولا تنزل إلينا، إلا بعد أن تسمع محرك سيارة خالنا يخرج من الكراج، لتخرجنا؛ خرقتين، ممزقتين، تستند إحدانا على الأخرى، هكذا هو الأمر منذ قرر خالي بعدم إلحاقنا بالمدرسة قبل ثلاث سنوات، وتحديدًا حين بلغنا سن الطمث، شيء واحد لم يعد يحدث كما في السابق، وهو أننا لم نعد نبكي.
سأخبرك بسرٍ خطير سيدة ريم.
- ما هو؟
- نحن نسمع رجالًا يصرخون طوال الوقت حولنا، ولا نعرف من أين يأتي الصوت، لم نر أحدًا يومًا، ولا نعرف إن كان لأمر حقيقًا، أم أن الجن يعبث بعقولنا. لكننا نسمع الأصوات طوال الوقت، أنا وأختي. أحيانًا

يضربنا خالنا فيقول لنا: سأجعلكما عميانًا حتى لا تنقلا كل ما تريانه هنا. هل تعتقدين أننا رأينا شيئًا من قبل؟ نحن نشك في قدرتنا على التمييز بين الأصوات. ربما نسمع نقيق الضفادع في الليل. لا أدري. لقد أخبرته أمي أننا نسمع أصواتًا وصراخًا، هم يقولان أننا فقدنا عقلينا. هو يتوعدنا بقص ألسنتنا طوال الوقت.
ياإلهي، ما هذا الكابوس؟، كنت كالمقيدة يداه، لا أدري كيف أتعامل مع الأمر. في الواقع، ولأنني غريبة بلاد، كما يقولون عنا هنا، اكتفيت بالاستماع إليها. كنت أستغرب أنها مازالت تملك تفكيرًا سليمًا، رغم كل ما حدث لها. لو أن أحدًا نهرني لأُصبت بانهيار عصبي في الحال. كنت مرتبكة للغاية، أو بالأحرى كنت أضعف من حمايتهما من جهالة أم، وجبروت خال، ومجتمع لا يرى في المرأة غير العار. وكنت أستغرب كيف يتخلصون من عارهم بأن يلقوا بناتهم في عِصَم الرجال. لو كان المعتقد السائد هنا أن الفتيات يعنين العار فأنا أعترف أنني لم أر إلا مجتمعًا يتاجر في العار؛ يستورده من الآباء على هيئة زوجات، ويصدره للأزواج على هيئة بنات للزواج. كيف يفكر هذا الرجل- الخال؟ رحت أراقب الفتاة وهي تشرب عصير البرتقال بنهم دفعة واحدة، وقلت في نفسي:" إن كان يقصد تربيتهما فلم أر هذه الهمجية في طريقة شرب الفتاة للعصير؟ ولماذا رغم كل هذا الثراء، الذي تبدو عليه دارهما ترتدي الفتاة ملابس فقيرة، كأنها أقل من خادمة. كانت رأسي تدور، وأحسست بأعصابي توخزني، فما يحدث كان أكبر مني بكثير، على الأقل لأنني تصرفت بسلبية، ولم يكن باستطاعتي تقديم أي شيء للفتاة سوى المواساة. ثم وداعًا فوريًا، قبل أن تحدث الكارثة، ويتهمني أحدهم هنا بأنني أحرض الفتاتين على أهلهما. لو كنت في مصر لاستغثت برجال الحي. فمكالمة واحدة لشاب من جيراننا، كفيلة بأن تقلب الحي رأسًا على عقب. وربما كان بإمكاني التحفظ على الفتاة، إلى أن تصل تأتي الشرطة وترى الأمر بنفسها. لم أشعر أنني لا قيمة لي بدون مصر، كما شعرت اليوم. وبمجرد أن قالت :
- هلا سمحت لي الخروج؟، إذ لن ينتهي الأمر على خير إن لمحتني أمي خارج البوابة، حتى فتحت لها الباب وسلَّمتُها للشارع.
ومن النافذة الشرقية رأيتها تعبر البوابة الحديدية المصمتة لدارهم، وتغيب خلفه. صراخ؟ لقد قالت الفتاة صراخ فتيات ورجال، ما هذا؟ ما الذي يجري ورء هذه البوابة الصماء؟
جمعت شتات نفسي، ورتبت غرفة النوم إلا قليلًا، وارتديت الجلباب، وفي طريقي للخروج من غرفة النوم لمحت اللوحة ثانية، ويد الرجل تأمرني بالخروج، فانتابتني قشعريرة، ربما من جراء اصطدام جسمي بأحد الأشباح، وحملت قلبي في فمي، وطرت إلى دار أم العبد، كانت تروي الحديقة الأمامية للدار كالعادة، فلما رأتني قالت:
- ما الأمر يا ريم؟ هل أنت عل ما يرام؟ أراك شاحبة للغاية، ربما أنك حامل ولا تعلمين، إن نظرة عينيك تقول أنك حامل ووو.....
- حامل؟ آه ربما، ولكن ألا توجد قراءة أخرى للشحوب غير الحمل؟، يا للنساء الكبيرات لا يعرفن من أمر النساء إلا الزواج والحمل. ماذا عن أرواحنا؟، عن مشاعرنا، عن طموحاتنا، عن طرق نختارها بأنفسنا، وعن قرارات لا يتدخل فيها أحد؟، وماذا عن الرفض؟، لماذا لا تفترضوا جميعًا، أن من حقنا أن نرفض أمورًا كثيرة، وأننا نرغب في تغيير الكثير من التابوهات، التي ورثتموها عن الفكر الوهابي؟ الإسلام براء من أفكاركم. رفقًا بالقوارير.
- لقد مرت ثلاثة أعوام على زواجك ولم تحملين، ألا يفاتحك سليم في الأمر؟ ألا تشعرين بالرغبة في أن تصبحين أمًا؟، جاء سؤالها الأخير على قلبي كأنما صفعني أحدهم على خدي الأيسر حيث ضرس العقل، الذي بدأ يروج لصعقي من شدة الألم، وفجأة قلت:

- لا، لا، أنا لا أريد أطفالًا، لماذا يتحتم علي أن أنجب؟، ولمن؟، ألمجتمع يرى في الفتاة عار، وفي الذكر المُخَلِّص؟، لا، لا أريد. فمهما فعلت من أجل تصحيح هذين المفهومين سأفشل، لقد سبقني العقل الجمعي، وسقط بالجميع في الجب، ولست أملك حبال من أخرجوا يوسف من القاع، ولكنني سأظل أتكلم عن الأمل.
- ما بك ريم؟ كلامك غريب اليوم؟
- لاشيء، لاشيء، فقط كنت أريد أن أقول لك أن أماني زارتني اليوم دون علم أمها، فوجئت بها تدق بابي.
- أماني؟ ابنة أم غالب؟
- نعم، قالت أنك ذكرتني لديهم بخير، فرغِبَت في لقائي، مسكينة هي وأختها، لا بد أن يجد أحدكم حل لمعاناتهما مع خالهما وأمهما.
- من الحماقة أن نتدخل في هذا الأمر.
- حماقة؟، من المحتمل أن تموت البنتان يومًا من التعذيب.
- البيوت أسرار، لا أحد يعلم السبب وراء أفعال الخال، ولم تجبنا الأم أمس بغير:" إنهما بحاجة إلى التربية".
- لكن البنت قالت إن خالهما منعهما من التعليم، ومن الخروج، ومن التعبير عن رأيهما، ومن مشاهدة التلفاز، ومن القراءة، والآن يمنعهما من الزواج، لقد روت أماني لي كل شيء، إنه يطفيء السجائر في جسد أختها، هل رأيت أختها بالأمس؟
- مممممم، ريم بربك، لا دخل لنا بكل هذا. لا، لم نر أيًّا منهما.
- أكره سلبيتي للغاية، لم أستطع حماية الفتاتين، ولا أدري كيف أفعل. لم لا تقولين للعم نزار فلربما أبلغ الشرطة؟، فهذاالمكان على وشك استقبال جريمة مروعة، أو أن جرائم كثيرة تحتبيء زراء هذا الباب المرعب، لقد قالت البنت أيضًا أنهما تسمعان أصوات صراخ فتيات ورجال في مكان ما بجوار غرفهما أيضًا، هل ستغاضون على كل هذه الأنباء؟
- زوجي؟ لالالا، لن يفعل، فأم غالب امرأة عنيفة، ولأخيها نفوذ كبير، ولا تتحرك وحدة الشرطة التي تتولى الأمور الأمنية لقريتنا إلا بأمره، و لن يترك الأمر يمر بسلام إن توصل إلى شخصية المبلِّغ. أرجوك لا طاقة لنا بالمشاكل. فليجعل الله لهما مخرجا. لعله خير، كل ذلك لأنهما لا تصليان، وهذه هي الشكوى الرئيسية، التي تغضب أمهما، كما أنها قالت أنهم تقرآن الروايات، وتعتقد هي أن تلك الروايات، مسئولة عن تمردهما عليها من حين لآخر، وأنهما تحصلان على الروايات بطريقة لا تعرفها، فكلما مزقت رواية جاءتا بغيرها.
- روايات؟ تمرد؟.
وهنا دخلت تولين تحمل صينية الشاي وخبز الزيت والزعتر. يبدو انها سمعت حواري مع أمها فقالت بلا مبالاة:
أنا أعطيهما الروايات، أنا صديقتهما، كنا نذهب إلى المدرسة معًا، حتى إذا كانت السنة الثامنة، لم تخرجا معنا في أول يوم لنذهب كعادتنا إلى المدرسة، فلمَّا سألت أمل عن السبب أخبرتني أن خالها منعهما من المدرسة، لأن أثداءهما انتفخت، وأنه يخشى عليهما من تحرش الشباب. ولأنني أعرف عشقهن للقراءة، أجلب لهما الروايات، كي لا تشعران باليأس، هنا التفت إلى تولين وقلت:
- ما اسم الروايات التي أعطيتها لهما من قبل؟
- "مزرعة الحيوانات" – جورج أورويل، "ذهب مع الريح"، "سبع سنوات" " مرتفعات ويذرينج" لكن خالهما دومًا يأتي ويمزق لهما الكتب.

- يا إلهي، هل يوجد مخلوقات بهذه البشاعة؟ أصابني إحباط شديد لكوني عاجزة عن رفع الظلم عن هاتين الفتاتين، ولكنني رحت أشرح لخالتي زينب، ولتولين شرحًا تصويريًا، كيف كانت فروة رأس أماني مشوهة، وكيف أنها بالكاد تتنفس بشكل طبيعي، إنهما تعانيان خطر الموت، ولا بد أن يراهما طبيب، وإلا نكون قد شاركنا في جريمة وشيكة بسبب سلبيتنا هذه.
قالت تولين بأسى: لقد كانتا متفوقتين للغاية، ولا أدري لماذا منعهما هذا الخال المعتوه من إتمام المترك على الأقل.
لم يسفر حواري معهما عن شيء غير مصمصة شفاه، ودعوات بأن يأتيهما الفرج.
نجحت مأساة أمل وأماني في تخفيف حدة التوتر الذي تسببه لي لوحة هامان، التي تصفعني كلما دخلت إلى غرفة نومي، أو خرجت منها، فنسيت أن أخبر أم العبد بأمرها. ولكن حين تركتني ودخلت المطبخ كي تعد " المسخن" أخبرت تولين بالأمر، فانتابها الفضول في أن ترى اللوحة. وعلى غير عادتي، نزلت وتولين إلى منزلي عند العصر، وحين وصلنا إلى غرفة نومي أشرت إلى اللوحة وأنا أمسك أنفاسي، فقد خشيت ألا تراها فتعتقد أن بي مس من الشيطان، فالبيت خالٍ طوال الوقت إلا من صوت الصمت، الذي تنشره الجبال التي تلف المنزل، وفجأة قالت: هذا الرجل يأمركم بالرحيل، أو هكذا قرأت اللوحة"، قلت لها: نعم، هذه قراءتي وقراءة سليم أيضًا. ولكن، لم لا يكون الأمر موجه لنا جميعًا، ألا ترين معي أن الأمر غريب؟ والأغرب أن تعابير وجهه تزداد حدة يومًا بعد يوم، وكأنما يأمرنا بسرعة المغادرة.
قالت: أتوقع هذا بالطبع، فهذه الدار لم يسكنها أحد قبلكم، ولم تقبل جيرانًا لنا مطلقًا غيركم، رغم أن أبي يعرضها للبيع منذ خمس سنوات، وأردفت: هل تعتقدين بوجود الجن؟
- الجن؟، نحن من يستحضر الجن، إنهم لا يأتون من تلقاء أنفسهم، هذا إن كانوا موجودين بالفعل على النحو الذي وصفه لنا بعضهم. دعيني أهمس لك:" إنني أفهم وجود الجن بطريقة مغايرة لما عرفناه عنهم طوال الوقت، ولكن هذا ليس وقت الحديث عن الجن. ولكن لم ذكرتيهم الآن؟
- لا شيء، ولكن يبدو أن هذه رسالة مهذبة منهم، لا بد أنهم رأوك لا تستحقين الطرد فأرسلوا لك هذه الرسالة.
- الطرد؟
- حتى الجن يعلمون كيف يتعاملون معك سيدة ريم، أنت تستحقين الإحترام، ثم ضحكت وقالت : هل أخفتك؟ لم أقصد بالطبع، ولكني أخشى عليك الجلوس بمفردك هنا، حين زارتنا جدتي قبل أربعة أعوام، كانت تفضل الجلوس بمفردها لأوقات طويلة، وفجأة راحت تقول لنا أنها كانت ترى الجالسين إلى مائدة الملك في اللوحة المعلقة فوق مائدة الطعام في القاعة الكبرى يتناولون الطعام بالفعل، ويتبادلون بينهم أطراف الحديث، وأحيانًا يغضب كبيرهم،فيتركهم ويخرج من اللوحة، وأن أحدهم كان يخرج ليناولها العنب. كنا لا نصدقها، فنقول : "لقد اختلت الجدة" لكننا لا نكذبها حتى لا نجرح مشاعرها. وفي اليوم الذي قالت فيه: " بينما امتدت أيديهم إلى الطعام وبدأوا التهامه بالفعل جاء الشخص الذي اعتاد أن يعطيها العنب ليأخذها كي تجلس معهم إلى المائدة، فذهبت وأكلت معهم"، أتذكر وقتها كيف نظرنا إليها جميعًا، وخفنا على عقلها بالفعل. لكنها قالت لنا هذا ثم نامت ولم تستيقظ روحها. لذا أخشى عليك.
- ماذا؟، هل حدث هذا بالفعل؟
- نعم، لقد ماتت جدتي بعد أن تناولت معهم العنب في داخل اللوحة. ولكن إيه يا ريما، اهدأي، إنها الرطوبة، تلك التي لحقت بالحوائط، تخلق أشكالًا تقرأها أرواحنا الشفافة، لا أكثر، لو علم خال أماني باستيائك منه، لسحبك إلى القبو، ولعلقك في الفلكة، ولاتهمك بتخريب عقول الفتيات، لأنك ستعلمينهن كيف يقرأن اللوحات

حتى لو كانت الرطوبة هي من رسمها وضحكت. هذه روحك يا ريم تريد الهرب من سلبيتنا جميعًا تجاه كل شيء منذ أن رحلت أحلام، ووو.....قالت هذا وغاب صوتها في البكاء.

- أحلام؟ يا إلهي لكم افتقدها، ولكم أوجعني رحيلها، ولولا أنك بكيت الآن لظننت أنكم جميعًا تماثيلًا من الشمع، من فرط ما رأيتكم بعيدين كل البعد عن الإنسانية والرحمة، ومن فرط ما رأيتكم مرتبطين، أيَّما ارتباط بتقاليد عمياء، وأرى أنكم تتبعون فكرًا غريبًا يمنع النساء من تلقي العلم. وتخضعون للعادات العتيقة،ولا تفتحون مجالًا للمناقشة وأن عقولكم ثابتة جامدة، لا تعرف للتعامل مع الروح سبيلًا.

- النساء؟ نحن أفضل حالًا من عائلات أخرى، على الأقل أنت تسمعين صوت ضحكاتنا مرتفع، دون أن يعنفنا أبي، لقد خرج أبي عن قانون القافلة قليلًا على كل حال، وربما اعتبره أقرباؤنا متحررًا، لأنه يسمح لنا بالنقاش معه. إن الزواج هو الحل الوحيد لخروج الفتيات من هذا الممر الضيق في بيت العائلة. على الأقل، ستجد من يضمها ولو لفترة قصيرة من وقت لآخر في بيت زوجها. نحن لا نملك من الأمر شيئًا يا ريم، أنت تعيشين بيننا، وتعلمين أننا هنا لا رأي لنا أمام قوانين أمنا، فما بالنا لو فكرنا في حل للفتاتين دون الرجوع إليها بالدرجة الأولى؟ لم تك أمي متسلطة قبل مجيء عبد الناصر، لقد كانت كثيرة البكاء، وكثيرة الشكوى من اضطهاد رحمها لها بإنجاب البنات. وكانت تنظر إلينا كما لو كنا لعنات انصبت فوق رأسها، وكانت لا يهدأ لها بال حتى ترانا جميعًا بالمطبخ، نغسل الصحون، ونرتب خزاناته، ونمسح أرضيته، كان لا بد أن نعمل نحن التسعة، بين ترتيب الغرف، وأعمال النظافة في كل مكان بالبيت، فقد كانت خلود صغيرة للغاية. كانت تنادي علينا في الصباح، فنشعر أن الجنود بالباب، وأن طلقاتهم على وشك اختراق أجسامنا. كنت أحاول تهدئتها، والحديث معها، لكنها لم تك تصغي إلا لخوفها من زواج أبي من امرأة غيرها، وتهديده لها طوال الوقت بالزواج إن هي أنجبت فتاة للمرة العاشرة. لقد اختلفت أمي كثيرًا عن ذي قبل، وازدادت طغيانًا وسطوة حتى على أبي. نحن نعاني توابع زلزال مروع اسمه عبد الناصر؛ سقط على رؤوسنا جميعًا، كما لو أنها أتت بما لم تأت به النساء من قبل، هي لا تبتسم إلا لعبد الناصر، ولا تتنازل عن رأي إلا من أجل ناصر، ولا يسبقنا إلى الطعام والحلوى غير ناصر، وهكذا يفعل أبي، وكأنما كان بانتظار جرعة مخدر طال انتظارها؛ لقد هدأ أبي تمامًا، ولم يعد صوته جهوريًّا كما كان من قبل. بل إنه لم يعد يتشاجر معها، رغم أنني كثيرًا ما سمعته يردد كلامًا كالعدودة، لم أفهم منه إلا أنينَا رأيته يهز رأسه معه يمنة ويسرة وكأنه في حضرة ما.

كنت أرى الحزن على وجه تولين فحولت الكلام إلى الروايات التي أعطتها لأماني وضحكت بينما أقول:

- هل أعطيت الفتاتين "مزرعة الحيوانات"؟ يا لك من محرضة سرية، أراك استفدت من دور الحمام في نشر أخبار المزرعة إلى المزارع المجاورة، فابتسمت تولين باقتضاب، فقلت لها: أراك توحين لهما بالقيام بثورة على أمهما وخالهما؟ وضحكت من قلبي، فقالت تولين بحدة:

- نعم، أعني ذلك بالفعل، لقد كانتا من الأوائل في المدرسة وكثيرًا ما عبرتا عن رغبتهما في إتمام تعليمهما الجامعي، وكانت أماني ترسم لوحات تحصد جائزة الوزارة السنوية، وكانت المعلمة تأخذ دفترها نموذجًا تمرره إلى الطلاب كي يتصفحونه ويقلدونها، وأتذكر أنها رسمت لوحة غريبة للغاية بالقلم الرصاص؛ شكلت في أعلى اللوحة هيكل طائرة غريب الشكل، يتدلى منه حبل طويل، ينتهي إلى قفص كبير، يجلس بداخله شاب نحيل الجسم، وقد طأطأ رأسه وأرخى كتفيه بينما تركت المساحات المتبقية في اللوحة بيضاء إلا من نقاط سوداء تتنهي كلما اقتربت اللوحة من جزئها الأسفل. قالت معلمة الرسم أنها ستفوز لأنها تركت مساحة بيضاء في اللوحة ولم تشوهها، أتذكر الآن كيف اكتفت أماني بأن رمقتها بازدراء ولم تقل شيئا، وحين عادت

إلى المنزل شاهدت أمها اللوحة، وتمعنت فيها كثيرًا، وقالت لي أمل فيما بعد، أن خالها مزقها حين رآها، ومنعها من الرسم، وألزمها بالدراسة من الكتب المدرسية فقط، ولم يسمح لهما بمتابعة التلفاز إلا في وجود أمهما، وحين رسمت لوحتها الأخيرة، جعلتني أول من يراها، كانت مرسومة بالرصاص أيضًا، قسمت اللوحة نصفين بالعرض، ورسمت فتاة دقيقة الملامح تصعد إلى الأعلى تكاد تلمس بقدميها الخط ورسمت حول رأسها دائرة كبيرة وكتبت عبارة واحدة أوضحها القرص البيضاوي الذي يخرج من شفتيها: " يسوع"، بعدها استيقظنا جميعًا على صوت صرخات متقطعة، ومكتومة آتية من ناحية القبو، فقد كان للقبو نافذة مطلة على الحديقة الأمامية للدار، وكانت تجيد نقل الكلام للبراح، فكانت صرخات البنتين تصلنا كالعويل، فقطعت على العصافير فرحتهم بالصباح. أظننا سمعنا أصواتًا أخرى، ...ربما...ولأننا أقرب البيوت لبيت أم غالب، كنا أول من يرتبك. ولكننا لم نفعل شيئًا البتة. واكتفى أبي بأن قال: "اللهم اجعل لهما مخرجا."

- هل تكتفون بالدعاء؟ وهل يجدي الدعاء وحده نفعًا، مع احتمالية قتل إنسان لآخر دون رحمة؟ هل يحل الدعاء محل إبلاغ الشرطة مثلًا؟ كنت أفكر بالاتصال بالشرطة لحماية هاتين البنتين من أم مريضة نفسيًا، وخالٍ لا يجيد غير دور الكرباج على من هم أضعف منه، يقول أبي ليس من الرجولة أن تضرب امرأة مهما بلغت من البذاءة فما بالك بفتاتين لا حول لهما ولا قوة، هل تعرفين بماذا يشتغل الخال؟ أقصد ماهي مهنته؟

- قالت لي أماني يومًا أن له نفوذًا كبيرًا، وله علاقات وثيقة مع أعيان البلد، ولكنه ظاهريًّا، يمتلك مكتبة لبيع الكتب الدينية والمصاحف، والأناجيل والتوراة، والمخطوطات العتيقة، وكتب التراث، نعم هو يبيع الكتب القديمة ولا يرى إشكالية في بيع الأناجيل والتوراة، وتقول أمل أنه يتاجر في الأراضي، وكثيرً ما قرأت أسماءً يهودية شغلت الفراغ الذي يلي عبارة" طرف تاني مشتري" في أوراق العقود.

* مممم... ماذا؟ كتب دينية؟ مصاحف؟ أناجيل؟ وتوراة؟ صدمتني الإجابة للغاية، وأدركت حينها أن وراء كل هذه المظاهر، رأسماليًا خطيرًا لا تعنيه التجارة مع الله، بقدر ما تعنيه التجارة مع البشر، فلو أنه قرأ حرفًا واحدًا من الكتب السماوية أو الأرضية لعرف أن ما يفعله بالفتاتين جرم ليس بعده جرم، وانه يفسد في الأض، ولا عقاب للمفسدين سوى القتل، أوالنفي. و استطعت من خلال كلام تولين أن أعرف من يكون هذا الخال، وأي خلفية تشكل وعيه ووجدانه، فهو ككثيرين بيننا، ممن يتخفون وراء كل ما نعتبره مقدسًا، بينما هم في الواقع، يبتغون التربُّح من المقدس. إن أكثر التجارة رواجًا في العالم، هي تجارة الكتب الدينية، خاصةً، في العالم الثالث الذي يشغله كثيرًا وفقط، طول المسبحة والجلباب أكثر مما يشغله فهم " أوصيكم بالنساء خيرًا" و" خيركم خيركم لأهله."

قطع حواري مع تولين صوت أم العبد تنادي:

ريم، تولين، هيا ، لقد انتهيت من الغداء لتوي، اصعدا كي تشاركانا في إعداد المائدة، فخرجنا، أغلقت الباب، وكنت بالفعل قد نسيت أمر اللوحة تمامًا، تلك التي تربك سلامي مع نفسي، حين أعود مساء مع زوجي، في الواقع، لم أدر لماذا أرعبني هذا الرجل الذي يذهب بي إلى حادثة غرق فرعون وقومه، وشعرت أن هامان يسكن دارنا. فهل نجا هامان من الغرق؟. أم أنه سبح ضد التيار فنجا، وأصبح أكثر رأفة منا بأحوال الفتاتين. ولماذا اختار داري ليظهر فيها؟ هل يريد أن يبلغني رسالة فحواها أن اخرجي من هنا طالما أنه لا فائدة من وجودك. اخرجي، طالما أنك ستتبعين القطيع. وقلت لنفسي:" لقد ظهر هامان اللوحة هذا في اليوم التالي لرحيل أحلام، وهو نفس اليوم السابق على زيارة أماني لي، ومن يومها وتعابير وجهه على الحائط تزيدها الرطوبة حدة. فهل أصبح هامان أكثر رأفة منا جميعًا، وجاء كي يتهمني بأنني أنا من يستحق الغرق لا هو؟ ولكن لماذا اعتبرت أنه يوجه الأمر بالخروج لي وحدي؟ لو كان الأمر كذلك لما رآه أحد غيري، ولاعتبروني

مجنونة. ولخشي علي زوجي بالطبع ولرتب لي موعدًا مع طبيب نفسي. ولربما أخبر شيخ المسجد ليقرأ على الماء آيات السحر، ولأمرني أن أستحم بها. ولربما جلبت لي أم العبد جارتنا أم فدوى، كي تخرج الجن من جسدي. وفجأة تنبهت أنني بدأت أفقد عقلي، وأغوص في بحر الأسئلة المرفوضة، فهززت رأسي كأنني ببغاء باغته صراخ صاحبه فراح ينفض ريشه ويرتعش بكل عنف، حتى لا تجرني الأسئلة إلى رؤية لوحات أخرى..

كنت أمرر كل شيء على عقلي قبل أن أتفوه به، أو اتخذ فيه قرارًا، وفهمت من كلام تولين عن أم غالب وأخيها الكثير، فهو رجل ذو نفوذ. لا تجرؤ الشرطة على الاقتراب من سور حديقة بيته. بل لا يجرؤ أحدهم على التعامل مع أشجار الرمان الذي ينمو في مدخل بيته بطريقة غير لائقة. هل يعقل أن تقوم لشرطة بعكس دورها هنا؟ لا..لابد أن هنالك إشاعة ما حول هذا الأمر، ربما هم لا يعرفون عن الأمر شيئًا، وربما جاء احترامهم لقدسية بيت أخته من باب احترام مكانته ونفوذه، من المؤكد سيقتحمون داره بل سيهدمونها فوق رأسه لو كن متجاوزًا، لن أعول كثيرًا على كلام ام العبد حول خوف الشرطة من نفوذ الرجل. لولا أنني لا أجرؤ على اتخاذ خطوة تقديم البلاغ دون علم زوجي، لذهبت بنفسي إلى قسم البوليس ولقدمت بلاغًا ضد هذا الجبار. حتى لو كان بين رجال الشرطة من يدلس لأجل مصلحة شخصية، أو مجاملات مجتمعية، فلن يكون الكل مدلسين، لا بد أنها حالة فردية، نحن بشر تحدثنا انفسنا بلوء من وقت لآخر. لكن، أنا لا أقبل أن تغلب الصفات البشرية على الصفات النورانية في رجل الشرطة، إنه حمايتي وظهري، فكيف يكون كبقية البشر؟ كنت دومًا أقول لا بد أن يخضع كل من يريد الالتحاق بكلية الشرطة أو أمناء الشرطة لتقييم نفسي، عصبي، أخلاقي، سلوكي حتى يتم قبوله كي لا يجور حين استخدام سلطته. لا بد أن أم العبد تخيفني فقط من مغبة الأمر علي، وهي في ذلك محقة بالطبع، فلو عرف الرجل أن الذي أبلغ الشرطة عن تجاوزاته يحمل الجنسية المصرية لدمر حياته، بل وأخفى جثته في القبو. ماهذا،ألهذا الحد بلغ بهم الجبروت، وبلغ بنا التهميش؟ هل صحيح ما تقوله أم العبد حول خوف الشرطة من بطش الرجل؟ ما هذا الهراء؟ هل نحن في الغابة؟ إنها بلد قانون، أعرف جيدًا أن لا تهاون فيها مع المخطئين، ولكن تحسُّبًا، سأرضخ للأمر الواقع هنا، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا. لقد فهمت أن دوري لم يحن بعد. غير أنني سأجن إن لم أنقذ هاتين الفتاتين، ولربما زحت الستار عن أمور أخطر من ذلك. ورحت أفكر بهذا الغبي، لماذا يمنعهما من القراءة بينما يمتلك مكتبة لبيع الكتب؟ ترى هل نوعية الرواية هي السبب؟ ربما، فمزرعة الحيوانات تعلم الإنسان من منطلق سلوك الحيوان كيف يتمرد على معذبيه، وكيف يخطط للخلاص من العبودية، ربما خاف عليهما من الحب، فمنعهما من القراءة حين وجدهما تقرآن "مرتفعات ويذرنج". ياله من متخلف وغبي!

لقد لاحظت أن أماني كانت واعية تمامًا، لكل كلمة قالتها لي عن حياتها وحياة أختها، ولم يبد عليهاأنها تعاني خللًا عقليًا ما، على الرغم من كل ما تعرضت له من أذى نفسي، وبدني، على يد خالها، وأتذكر أنها قالت أنهما فقدتا الشعور بالألم فقد اعتادتا عليه، وأنها تزأران أحيانًا حين يخرج خالهما عن المألوف، فيتعمد توجيه طعنات موجهة لأثدائهن، مستخدمًا في ذلك خشبة مدببة، حيث الهرمونات ووو.....أو حين يركل واحدة منهما بمقدمة قدمه حين تستدير لتختبيء منه في مؤخرة عذريتها، وكثيرًا ما نزفت هي وأختها، ولكنهما لا يعلمان إن كان قد أصابهما مكروه في هذا الموضع أم لا، ألا فليلعنك الله من خال! لو حدث هذا معي لخلعت أسنانه من مكانها، ولكن، من يدري؟ ربما كنت، لقلة حيلتي، سأطلق عواء ذئب قصوا له ذيله، فراح يقفز في مكانه بجنون من فرط الألم. فهاأنذا، لم أستطع إلى الآن أن أنقذهما بينما أنا طليقة حرة. إنهما في أمس الحاجة إلى الخلاص، فكيف ستأتيني الشجاعة كي أخلص نفسي لو أنني كنت مكانهما؟ يا إلهي لقد قالت الفتاة أنهما

تسمعان صرخات فتيات ورجال قريبة من غرفتهم، فهل يعني هذا أن جرائم كبرى تتم في هذا الدار، على مسمع ومرأى من الجبل، دون أن يهتز غضبًا، أو يطلق حممه على الجميع؟ سلامٌ قولًا من رب رحيم.
رحت أعاتب نفسي طوال الوقت، ولم أنتبه إلا على تولين تناديني، ويبدو أنها نادتني مرتين، أو ثلاث مرات من قبل، فقد بدت مستغربة من عدم ردي عليها، فقالت:
- أين سرحت أفكارك؟ هنيئا لمن زرته بروحك.
- لم أسرح إلى أبعد من بيت أم غالب.
- أم غالب ثانية؟، صلي لأجلهم ، فلنصلي جميعًا لأجلهم.
كنت أكره عبارة "صلي لأجلهم"، فأنا مقتنعة أن الصلاة وحدها لا تكفي، لن تنقذهما صلاتي ودعواتي، وحدها من هذا الدمار النفسي، والبيولوجي، والفسيولوجي الشامل، يا إلهي! هذا الأمر يحتاج إلى تدخل الشرطة فورًا، لذا قررت أن أكون إيجابية في المرة القادمة، ولكنني عدت فقلت في نفسي، بينما مشهد رأس أماني المحلوق بكل وحشية لا يفارق مخيلتي، :"ولكن هل سيكون هنالك مرة أخرى؟ أقصد هل سيعلو صراخهما مرة ثانية أم سيحرص خالهماعلى كتم صوتيهما، فلا بد أن أخته أخبرته أننا جميعًا عرفنا بأمر ضربه لهما. ترى هل سيأتي هذا الخنزير مرة أخرى؟ وماذا لو استغاثت الفتاتين بنا مرة أخرى؟، هل يوجد أشخاصًا اخرى يعذهم هذا السادي، السيكوباتي، الوضيع كما قالت أماني؟ أم أننا سنتفاجأ بأمور أخرى؟ وأقسمت أن أتصل بالشرطة، فهي الحل الوحيد لهذه الكارثة،وقتها ستنتقل البنتان بشكل قانوني لتلقي العلاج على الأقل، وسيتم تجريم خالهما، وإيداع أمهما مصحة ما، فلا بد أنها مختلة نفسيًا، وبالطبع كنت أحلم، فالأمر كما يقولون هنا خطير، فقسم الشرطة المسئول عن هذه القرية، لا يجرؤ على دخول بيته، ولكن ماذا لو اعتبر القانون أن الخال والد، وأن من حقه تربية بنات أخته بالطريقة التي يراها مناسبة؟ ذلك السادي، الذي يمارس حقه كوالد في تربية بنات أخته، بما لايتفق وأبسط قوانين الرفق بالفئران، ورحت ألعن كل من علم بأمر الفتاتين، ومنعه التواطؤ مع الخال، وخوفه من نفوذه من إنقاذهما،ورحت ألعن تلك الأم التي بلغ بها الخنوع وشعور الإماء، كي توافق على تجريد بنتيها من فرحتيهما بالأنوثة، بعمر الزهور، بالشعور الطويلة، رائحة الورد، وكتاب يتنفسان منه الحياة. ولكن، هل بالفعل هنالك بشر آخرون محتجزون في القبو؟
جلسنا إلى المائدة جميعًا؛ أربعة عشر شخصًا. وراحت أم العبد، وتولين يوزعن الدجاج المتبل بالسماق، والمنقوع في زيت الزيتون، والبصل المقلي فوق خبز الشراك الطيب ، كنت قد اعتدت الحياة على الطريقة الفلسطينية، وبت أشعر بانتماء غريب، لكل شيء يمت لهذه البلدة بصلة، وكنت أستغرب من نفسي كثيرًا، وأقول: لماذا يشعر المصري بالانتماء لهوية التراب الذي يعاشره بصورة لا يفعلها غيره من الجنسيات؟، كنت أسمع أبناء عمتي الذين يعيشون في أمريكا حين ينزلون إلى مصر لزيارتنا يقولون:
- لدينا في أمريكا كذا وكذا، ويقول جارنا الذي قضى في ليبيا ثلاث سنوات:
- نحن في ليبيا نفعل كذا وكذا، وفوق ذلك يكتسب اللهجة ببراعة، وينسى مصريته بما لها وما عليها، حتى أنا بت أتكلم اللهجة الفلسطينية- الأردنية، وآكل الأكلات الفلطسينية والأردنية، وأستمتع بمنقوشة الزيت والزعتر عند الصباح، كما لو كنت قد رضعتها مع حليب أمي. لماذا تصبغنا هوية الآخر بكل هذه السرعة والقوة؟ كنت أؤمن دومًا أن الهوية تعني أن تكون أنت، كما تريد، لا كما يريد لك الآخرون، ومن وقت لآخر، كنت أحمد الله أن منحني أمًا طيبة، تدعو لي دومًا. كنت أسمعها تقول: "اللهم اجعل في وجهها جوهرة، وفي فمها سكرة، وارخ لها القبول في الأرض"، ورحت أدعو الله كي ينقذ أمل وأماني، ولكني كنت دوما أقول في نفسي:" لا يبدأ الله الفعل، إنما الله ردة فعل لما نريد نحن أن نكون عليه، إذ يقول: لا يغير الله ما بقومٍ حتى

يغيروا ما بأنفسهم" ونظرت إلى رأس المائدة، إلى حيث يجلس العم نزار دومًا، لكم كنت أُجِلّ هذا الرجل. لكم كان طيبًا وخلوقًا! ولكم كان جبانًا كالباقين.
ومن القاعة الوسطى جاءنا صوت المذيع يحمل أنباء متفرقة:
" اعتقال خمسة جنود ينطقون بالعربية في قاعدة جوية أميركية.
اليابان تتأهب لتسونمي وتقوم بإجلاء الضحايا عن المناطق الساحلية.
بعد تداعيات عربية وإقليمية، هل الحرب قادمة؟
مصرع عشرات الفلسطينين بنيران جنود الاحتلال في اشتباكت شملت العديد من مناطق الجليل وبيت ساحور.
القوات الإسرائيلية تنكل بالفلسطينيات في قطاع غزة."
وحين انتهى الموجز، دار حور طويل بيني وبين العم نزار حول ضياع فلسطين، وانفلات الأمر على هذا النحو المرعب، الذي تطالعنا به الميديا، يوميًا، وتذكرت جملة قالها عمي محمود لأبي ذات يوم، حين زارنا في صيف عام 1980، حول "القضية" حيث قال بعصبية شديدة: لا تنفعل كثيرًا لأجلهم يا عزيزي، إنهم بشر باعوا أراضيهم، وفرطوا فيها. لم يجبرهم أحد على ذلك. إنهم خونة و عليهم أن يدفعوا الثمن وحدهم. فلذهبوا إلى الجحيم، لم لا يدفعون عن أنفسهم بأيديهم؟ إنهم يزعجوننا بصراخهم" ، وكنت أسمع أبي يجيبه بغضب: أنت لا تفهم التاريخ بشكل كاف، أنت تردد ما يقوله الأغبياء.
لم أفهم شيئًا يومها، ولأنني كنت صغيرة لم أهتم كثيرًا لحقيقة الأمر،إذ كان كل ما يعنيني هو ألا يختلف أبي وعمي ، لم أحب يومًا أن أراهما على خلاف.
- ما الذي تعرفينه عن الخروج؟ عن النزوح؟ عن اللاعودة؟، نحن بلاهوية، مهما حصلنا على وثائق، وإقامات، وجوازات سفر من هنا أو هناك، أو منحونا جنسيات مختلفة. لا شيء يعوضنا هويتنا عزيزتي، نحن فقط موجودون في مكان ما، فوق أرض ما، مع بشر ما، في اللا زمان، وفي الماوراء، والحقيقة أننا نعيش بأرواحنا هناك؛ لذا سنعيش ونموت فلسطينيين.
- ليست الهوية انتماء لمكان معين، أو أرض. الهوية عشرة طويلة، وعميقة تربطنا بالأرواح التي تسكن المكان. الهوية إنسان. الهوية أن تسكن الأماكن روحك، وأن تسكن روحك الأماكن. الهوية حب كبير يربطنا بالأشياء، حب لا يغيره إنسان. إن فلسطين، تلك التي بداخلك، هي التي أتكلم عنها، كل منا له فلسطينه التي ارتبط بها وأحبها، كل منا له مكان شكَّل فيه نطفة هوية، تلك النطفة، هي التي تجعله يعود إليها دومًا، يقتله الحنين.
- ولكنك لم تجيبي عن سؤالي بعد، ماذا عن الخروج؟ هل يعني لك شيئا؟
- الخروج هو قمة الدخول، كما أن الموت هو قمة الحياة، هل سمعت عن إنسان غنى لشيء لم يفقده؟، هل سمعت عن حنين قصير المدى لشخص موجود؟، هل سمعت عن امرأة أطلقوا عليه لقب أرملة بينما زوجها على قيد الحياة؟، هل سمعت عن صراخ أطلقه طائر ينام مع زوجه وصغاره قريرًا فوق شجرة صفصاف؟، نحن نخرج بالجسد لا بالروح، الخروج لا يعني الموت، فالموت حياة.
- هل تشتاقين إلى مصر؟
- بالطبع، نعم، إلى كل تفاصيلها الصغيرة.
- هل خرجت منها لأن طائرة حلقت بك مبتعدة عن أجوائها؟ وجاءت بك إلى هنا؟
- بالطبع لا.

- هذا ما قصدته، كلما ازدادت الظلمة، كلما ازداد تمسكنا بالنور.
- معك حق، فالموتى هم الذين يوقعون في دفاتر الحضور بحروف كبيرة بينما يحملق الأحياء في سرير الذكرى بلا حراك.
- ما الذي يدفعك للرجوع إلى دارك هنا؟
- زوجي. قلت ذلك دون تجهيز للإجابة مسبق.
- لا، إنما يدفعك الخروج إلى العودة، كما تدفعنا المعصية إلى التوبة.
أصابتني إجابة العم نزار بالدوار، ورحت أقول في نفسي، لقد تحول الرجل إلى فيلسوف، بمجرد أن لمس الحديث وجيعته، لقد كان يتحدث إلى من منطقة بعيدة للغاية في أقصى روحه، وبدا الأمر لي كما لو كانت الأرض تدافع فيه عن نفسها، وتوقفني لتقول :" ها أنذا"، ولا خروج مني إلا إلي، لكم هو موجع أن تسأل أحدهم عن جرحه، لو سألني أحدهم عن جرحي، سأخبره أنني أحمله معي أينما أذهب، ونظرت إلى أبو العبد، فوجدته لا يزال يخاطبني، وانتبهت فوجدتني أحملق في وجهه ولا أسمعه، ويعتقد هو أنني أشد على يده فيسترسل:
- حين يكون التابوت ثقيلًا، تخور قوى الحمالين، وصار يغني:
سبل عيونه
ومد ايده يحنونه
خصرو رقيق
وبالمنديل يلفونه
كان لا بد أن أخفف من وطأة هذا الجرح الذي انفتح في روح الرجل، فقلت له:
- هل يعجبك الشاي الصعيدي؟
- لم لا، يا بنت الرجال.
فاستأذنته لأعد شاي الميرمية،وانتهزت الفرصة، كي أهرب من جرح لديه، رأيت بنفسي أنه يرفض أن يطيب.

....

11

تسلل الليل إلى قريتنا مبكرًا قليلًا، فقد كان أيلول في آخره وبدأ النهار في التراجع رويدًا رويدًا. جلسنا حول خالتي زينب - أم العبد- في غرفة المعيشة، كانت تحيك الستائر الثقيلة، كي تقي البيت شتاء قارصًا أوشك أن يهاجم البلاد، وراحت تقول:

أيلول دنبو مبلول
بأيلول مدوا الجلول
في آخر أيلول الصيف بزول
إن هل أيلول بنزل الزيت في الزيتون

وبعد أن قدمت الشاي للسيد نزار، صنعت تمارا شاي الميرمية لنا جميعًا، وفجأة قال تولين لأمها:
- هل أخبرتك ريم عن اللوحة التي في غرفة نومها؟، فارتَبكْتُ، وكاد كوب الشاي يسقط من يدي، وحاولت أن أغمز لها بعيني كي تصمت، لكنها كانت تجلس في مكان لم يسمح لها إلا أن تسترسل:

- يا إلهي، لو رأيت اللوحة ستشعرين أن الرجل يتكلم بلهجة آمرة، إنه يأمرهم بالرحيل، هنا تركت أم العبد الإبرة والتفتت إلي، كي تأخذ مني توكيدًا لكلام تولين، فأومأت لها أن نعم، هو ذاك، فقالت: ما هذا الهراء؟، أراكما متوترتين من كثرة الكلام عن بنات أم غالب، ثم حاولت تغيير الموضوع فاستطردت قائلة:
* أين خلود؟، لم تكن البنت بجورانا في الغرفة كعادتها، فتبعثرنا كي نبحث عنها، وأخيرًا وجدناها، كانت قد افترشت الصوفا في غرفة الجلوس واستسلمت للنوم. فحملتها تالا ود خلت بها إلى غرفة نوم الصغيرات، ثم عدنا جميعًا إلى أماكننا، وماهي إلا لحظات حتى سمعت سمعنا صوت محرك سيارة، ثم زامور سيارة زوجي، فطرت إلى البوابة، وأنا أقول تصبحون على خير جيراننا ، ونزلت إلى بيتي.
تعلقت في رقبة زوجي طويلًا؛ وراح يعانقني، ويقبلني في كل مكان، كأنني كلب " لولو" دخل عليه صاحبه، بعد غياب عشر ساعات، ثم قال:
* هيا، ارتدي ملابس الخروج، سنتعشى بالمدينة، بالمطعم الصيني.
* المطعم الصيني؟!!، لقد أكلت للتو، ولكن ،إنه المطعم الصيني، ومشوار بالسيارة ، والمدينة، نعم، كنت بحاجة إلى التغيير.
كانت القرية نائمة. لا يقطع صمتها إلا صوت محرك السيارة وهو ينقض على الأسفلت ليحملنا إلى المطعم، لا أحد يتصور أن أناسًا يسكنون هذا المكان، كان الدفء المنبعث من صوت زوجي يضيءالطريق، ويحتوي كل كياني، كنت أركن رأسي على ذراعه اليمنى ويمسك هو المقود بيده اليسرى، وأحيانًا كنا نمسك بمقبض المكبح معًا؛ يضع يده فوق يدي، كان يتحدث عن افتتاح المطعم في الجهة الغربية للبلد، وعن بهاء الأضواء التي تنبعث منه إلى الطريق، والديكور البهي الذي نفذ به المهندسون تحفتهم الفنية على شكل مطعم ينام في حضن المدينة الصماء مقارنة بالاسكندرية في ليال الشتاء. لا شيء يشبه الشتاء في الاسكندرية بالنسبة لي، لا شيء يشبه نزهة بالسيارة في فجر شتوي سكندري. وأخيرًا سطعت أنوار المطعم كثيرة ومتناغمة مضيئة، وخافتة في نفس الوقت، واقتربنا من الكراج الخارجي، فاتخذ زوجي طريقه إلى أقرب نقطة وأوقف المحرك، ونزلنا. كنت أعلق كفي في ذراعه، وكأنما وضعت قطعة شوكولا في جيب معطف جدي، وكان يضحك ويبحث عنها ويقول: أشعر برأس قطيطة يتسلل بين جنبي وكوعي، ويضحك طويلًا بينما أحاول جاهدة أن أصلب رأسي إلى كتفه، عبثا. دخلنا المطعم، فاستقبلنا الجرسون بانحناءة، وقادنا إلى مائدة بجوار شرفة تطل على الحديقة الخلفية للمطعم، هكذا بدت من وراء زجاج النافذة، كانت الأشجار مضيئة والممرات، وبدا الجو ساحرا بالفعل، كانت عيناي تنطقان بالسعادة لأنني سأحظى بفترة كبيرة مع زوجي، كوقت مقتطع، بعيدًا عن يوم الإجازة الذي يضيع معظمه في إصلاح السخان، أو تنظيف خزان المياه، أو تغيير أماكن الأثاث كي نتخلص من الطاقة السلبية في المنزل، وأحيانًا في النوم، فزوجي لا يجيد النوم إلى في أيام الإجازات، وأحيانًا أجده خارجًا من غرفة النوم فأقول حسنٌ، لقد استيقظ، فيتجه نحوي يقبل رأسي، ثم يعود أدراجه ليكمل نومه. لقد اعتدت على كل ما يفعل، ولكن اليوم مختلف بالفعل، وانتهزت الفرصة سانحة للتحدث في أمر اللوحة إلى أن يأتي الطعام، فسألته:
-هل فكرت بأمر اللوحة ثانية؟، هل خطرت على بالك؟ أقصد هل تصدق أن لوحة رسمتها الرطوبة والمياة المتسربة من مطبخ أم أيمن على الحائط يمكن أن يكون لها تأثير ما يكون من شأنه أن يغير حياتنا ثلاث مائة وثمانين درجة؟
- فكرت جديًا بالطبع.
- جديًا؟، تقصد أنك مقتنع أن هنالك رسالة ما يقولها الدار لنا؟

- لم لا؟، فرسائل الله للإنسان كثيرة، وهي واحدة منها، فبدلا من الحلم، جاءت في شكل رسم، ربما كي لا يبرح مكانه في مخيلتنا.
- هل تعتقد أنني أثرت فيك إيحاءً، فبت ترى ما أرى، كالذي يصيبه الغثيان حين يرى شخصًا قد فقد وعيه، أو من يصيبه مغص حاد لمجرد أن رأى شخصًا آخر يصرخ من بطنه؟
- ليس إلى هذه الدرجة يا حبيبتي، فالرجل في اللوحة يبدو واضح الملامح، ولم نر له ملمحًا من قبل على هذه الهيئة، منذ جئنا إلى هنا، قبل ثلاث سنوات تقريبًا، ولم تريه أنت أيضا قبل أسبوعين، ربما انتابت الدار الوحدة مثلنا، فأنت لا تمكثين فيها بالنهار وقتا طويلًا، ربما لا يزيد عن مقدار ما تبدلين ملابسك، وتستعدين للخروج إلى دار أم أيمن، ربما ملت الدار من الوحدة، ووجدت أننا لم نحقق لها التسلية الكافية، والصخب الذي تحلم به.
- معك حق، وربما لأنها وجدتني عاجزة عن الفعل، وأنني لا أنهي أمرًا بحل جذري، فكل حلولي مؤجلة، وكل مشاهداتي لا تخرج عن كونها مجرد خلق علاقات بين الأشياء لأخلص إلى نتائج خلص إليها الآخرون طوال الوقت، دون أن يفكرون في حلول قاطعة لها، أو آتي أنا بجديد.
- تتكلمين ألغازًا ياريم، ما هي الأسباب والنتائج التي تحللينها كالآخرين، ولا تستطيعين معها اتخاذ ردة فعل تناسبها وتقضي عليها؟
- أماني
- أماني؟
- نعم، وسردت الواقعة بحذافيرها على زوجي، كان مندهشًا ومنزعجًا للغاية، وحسبته سيقترح علي حلًا، بل حسبت أن عمه الشرير سيحضر عليه فيثور ومن ثم يكلم الرجال ويجمعهم ويتجهون لبيت أم غالب. هكذا كان ليتصرف في مصر. لكنه أمرني بلهجة حادة:
- عليك أن تنتبهي يا ريم. نحن هنا غريبان – وافدان- حتى لو كنت رجل أعمال. لا شأن لك بمشاكل أماني أو غيرها. أنا مشغول طوال اليوم في عملي، ولست على استعداد لأن أنشغل عليك، فهؤلاء القوم لهم قوانينهم العرفية، التي تسبق القضاء، بل وتستأذنه في التنحي جانبًا، إن لزم الأمر. لا نريد أن نتورط في المشاكل مع أحدهم. انتبهي . لا تتدخلي في هذه الأمور، لم يتدخل فيها كل أهل الحي، هل تقومين أنت بدور البطل المُخلِّص؟
- ولم لا، فقد استنجدت بي الفتاة، لو رأيت فروة رأسها، لأشفقت عليها ، ولو كنت أملك مسدسًا لقتلت خالها على الفور.
- أنت مجنونة، لو تمردت هذه الفتاة يومًا، سيقولون لقد حرضتها المصرية على أمها وخالها، أرجوك، ارحمينا من قصص لا علاقة لنا بها.
- هل جئنا إلى هنا لنكون مهمشين، لا دور لنا؟ هل جئنا ها لنصبح ميتين إلى إشعار آخر؟ وماذا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟،وماذا عن "انصر اخاك ظالما أومظلوما"؟، هل وقف هذا الأمر عند حدود المظهر، ومن صام، ومن صلى فقط؟ هل جئت بي إلى هنا كي أصبح دمية تجلس على الرف، يعلوها الغبار، ولا تمتد يدها لتهش الغرباء إن عبثوا بجو الغرفة؟ هل نحن هنا مجرد غنمتين تتبعان القطيع؟ هل يليق هذا بوعينا؟ أنا بالفعل غاضبة.
خفف زوجي من حدته، وأمسك بيدي مهدئًا، واستأنف حةاره قائلًا:

- لن يفهموا هذا الأمر هنا، كل شخص هنا حاكم على بيته فقط، ثم انتبهي لأننا وحدنا، لن يقف معنا أحد إن اعترضتنا المشاكل. حتى السفارة ستكون أول من يخذلنا. ثم،أرجوك يا حبيبتي، افهمي، أنت لن تصلحي الكون.

أحبطني كلامه كثيرًا، وللحظات، سقط من عيني ،لبرهة، السوبر هيرو الذي تزوجته، اعتقدت أنه سيبلغ شخصًا ما في وزارة الداخلية طالما أن القسم الذي نتبعه مأجور لأبو غالب، أو يثير الأمر في صحيفة ما، فهو يتعامل مع كل شرائح البلد بحكم عمله كرجل أعمال. ولكنه اتخذ موقفًا شبيهًا بموقف العم نزار، حين قررت أم العبد تزويج أحلام في الضفة؛ كان صدره على وشك الانفجار، وهو يودع ابنته، لكنه لم يجرؤ على الاعتراض على رحيلها إلى أجل غير مسمى، وإلى أرض، تتشكل فيها، بين كل مقبرة ومقبرة مقبرة. قررت الصمت، لأنهي الحوار بهدوء، ووفر عليَّ الجرسون الأمر، فقد جاء بالأطباق وبدأت لحظات أخرى، راح زوجي فيها يعرفني بالأصناف، والبهارات، والأرز الصيني الملون، كانت ألوان الطعام مغرية، وفيما بعد، التهينا بالفعل في كيفية الإمساك بالعودين والتقاط الطعام.

حين عدنا إلى المنزل، ودخلت غرفة نومي، كانت ملامح الرجل الذي يسكن اللوحة قد صارت أكثر عبوسًا، وأصبحت تعابير وجهه أكثر صرامة، أو هكذا هيء لي. كانت يده تشير، لمَّا تزل، إليَّ :" أن ارحلوا"، بشكل أكثر سفورٍ عن ذي قبل، فارتجف قلبي، وهُرِعتُ إلى زوجي، وقلت له: نعم، لابد أن نترك هذه الدار ونرحل، إذ أنني لم أعد أطيق البقاء هنا. فحملني إلى السرير، وحاول تهدئتي، ونمنا يومها؛ دون مداعبة، لكنه قال لي كلمة واحدة: نعم، لابد أن أجد لنا بيتًا في المدينة، سأكلم السمسار غدًا، فازددت التصاقًا به، وما إن لف ذراعه حول خصري حتى غلبنا النوم.

.....

-12

كان قد مر أسبوع على حواري مع زوجي حول الرحيل، وأخيرًا، أخبرني أن عليَّ الاستعداد للرحيل إلى جبل الحسين، حيث منزلنا الجديد، كان من الصعب علي أن أترك عائلة أم العبد. كان قرار الرحيل المفاجيء قد صدم الجميع. وكالعادة استخدمت الهندسة الاجتماعية، اتكأت على عقل جمعي لا يسمح للناس بمناقشة أمر قرره رجل، وأخبرتهم أن علي أن أكون حيث يريد زوجي. وقف الجميع يودعوننا باكين. يعانقني الكبير والصغير، ولكني عانقت تولين، تالا، وتمارا، وتغريد طويلًا بقوة، حتى كادت صدورنا أن تنفجر.

عانقتني جاراتي. كان مشهدًا مؤثرًا للغاية. يا الله، لكم أكره الوداع والرحيل، و لكم أكره أن أغادر الأماكن. في الواقع، أنا لم أغادر قرية الجبل، بل انتقلت لأعيش وعيها بكل شيء منذ اللحظة التي تركتها بجسدي. لم أكن أعرف أن حب الناس والأماكن من أكبر النعم التي يمكن لإنسان أن يحظى بها في حياته إلا حين وقفت لأودع كل تفصيلة في دار أم العبد بكل حذافيرها. وجدتني أزرع روحي في كل ركن منها. لولا المجهول الذي أخافني من تلك اللوحة لما تركتهم. لقد انتقلت بالجسد، وبقيت بالروح.

تحركت السيارة وبدأت في ترك بيت أم العبد والصبايا. كنت أودع أهلي مرة ثانية بالفعل. وانخلع قلبي وقلوبهن، وشعرت بروحي تركض في كل اتجاه في القرية، تقبلها، تودعه، وتستودعها الله لتسكن فيه إلى لأبد. نعم، لقد استودعت الله بيت أم العبد، وقريةً لمَّا تزل تقبع في روحي وشمًا لن ينمَّحي ما حييت. وفجأة تعثرت السيارة أمام بوابة بيت أم نضال، فصرخت رغمًا عني:" أماني"، وبكيت، وحين نظرت خلفي وجدت الجميع نقاط ضوء يلوح لي بيده مودعًا، الدور، المدارس، المسجد، الكنيسة، المركز الطبي، العدرا، والراهبات، وأخيرًا ديار أهل نضال في أسفل الوادي، ولم يكن من بينهم أماني، فقد رحلت معي بالروح، و لم

يعد لها مجسدًا في ذاكرتي غير رأسها المشوه بفعل مقص خال فظ ومجتمع لا يرحم، وصراخ وقفنا جميعًا أمامه جبناء حتى النخاع.

شعرت للحظة، أن الرجل في اللوحة يعاقبني بالطرد لأنني كنت سلبية للغاية؛ فأنا لم أقم في الدار طويلًا، لم أمنحها من روحي ما يكفي من صلوات، لم أعترض على سباب أم العبد القذر لأحلام، لم أعترض على زواجها ورحيلها، ولم أفعل شيئًا إزاء تعذيب الفتاتين، بل إنني لم أشطب وجهه من اللوحة كي لا أراه مجددًا. ها أنذا أستسلم كالجبناء، للرحيل من قلب المعمعة. ربما لو اتخذت موقفًا إيجابيًا منه هو شخصيًا فعمدت إلى اللوحة، وطعنتها مرارًا بالسكين حتى تضيع ملامحها، أو محوت آثار الرطوبة عنها، لخفت حدة ملامحه، ولخف شعوري بأنني مطرودة. كان لدي شعور المطرود المهان. ربما لو فقأت عينيه، أو قطعت يده، بل لو أنني أضفت لمنسوب الماء في اللوحة ماءً لأغرقه تمامًا، لمضى إلى حال سبيله، ولربما سمح لي بالبقاء. من حقه أن يطردني، فهو لم يجد مني غير الخوف، الجبن، والتوجس خيفة. لقد خرج هامان بجبروته من الحائط، ليطردني لأنني لم اتخذ موقفًا إزاء كل ما حدث من اعتداءات هنا، ترى! هل أنا بحاجة إلى مصحة؟ هل كل ما أقوله يعد منطقيًا؟، هل أنا بخير؟ صرت طوال الطريق أقرن بين ظهور اللوحة في بيتي، ورحيل أحلام، ثم زيارة أماني لبيتي.

رحت أواسي نفسي فأقول لها:" لقد لجأت الفتاة إليك أنت فقط، لأنها علمت أنك جارة طيبة، تتفهمين الآخر، تستوعبينه. تعلمين الفتيات الصلاة، تحبين صوت الأذان و"العدرا"، وتصفقين للآنسة باسمة وللراهبات. ولكن هل يمكن أن تكفي هذه الأشياء وحدها لرفع الظلم؟. هل أكون مجنونة إن توقعت أننا، يومًا، سنصبح جميعنا أحلام ،أماني وأمل؟ هل أنا على مايرام؟ هل أعاني مثلًا من عقدة المبالغة؟ يقول علماء النفس أن المصاب بهذه العقدة، يجد متعة كبيرة في تضخيم الأمور عندما يرويها للآخرين، فيضيف لها الكثير من المبالغات، حتى تبدو الحادثة كأنها أبواب جهنم، و هذا النوع في الغالب هو من يخلق الاشاعات وسط المجتمعات. لكنني لم أضخم الأمر، إن ما أقوله هي ماق التله الفتاة. هل أعطيت الأمر أكبر من حجمه؟ أم أن الناس اعتادت الأمور الجسام فاستصغرتها؟...تقول جدتي: حين يعصي الإنسان الله، يوخره ضميره مرتين، أو ثلاث، فإن لم يستجب له فإنه يعتاد المعصية فتصبح الأمور الصحيحة خطأً في نظره، فهل اعتاد القوم هنا الصراخ والعويل من فرط ما تعرضوا له من ويلات في بلدهم، فلم يعد ما يعنيه الأمر لهم مساوٍ لما يعنيه لي؟ ... هل يتحتم على المرء أن يعيش بين الضباع حتى يعتاد الروائح النتنة؟... هيييه، يا ريم! هل أنت بخير؟

لقد طلبت أماني مني المساعدة دون أن تصرخ، فقد صرخت الجروح في رأسها بدلًا عنها، فلم أنقذها، لقد جاءت تلك الفتاة، لتترك في روحي كلمة" جبانة" وتمضي، و لن تبرح هذه الكلمة مكانها في سمعي ما حييت، حتى أرفع الظلم عنهما معًا؛ الأختين أم غالب وليذهب علمء النفس إلى الجحيم.

لو كانت المبالغة عقدة نفسية، فلماذا كانوا يدربوننا في المدراس حين كنا صغارًا على الهروب من سلم الحريق، بعد أن يعلق الناظر جرس المدرسة، كنا نمثل الخوف، والهروب، تحسبًا، حتى يكون بمقدورنا تفادي الحرائق إن وقعت بالفعل، لماذا كانوا يدربوننا على الهروب إلى الملاجيء والمخابيء فنحرص على ان نطأطيء رؤوسنا ونمشي بمحاذاة الحوائط وننزل السلالم هرولة بينما تنطلق صافرات الإنذار متقطعة، كي يدربونا على التصرف الصحيح في حال حدوث إحدى الغارات؟ لماذا جهزونا للحرب دون حرب، ولماذا جهزونا للغزو والغارات دون وجود خطر حقيقي؟ لو كانت المبالغة عقدة نفسية، فليعتبرني الجميع مهترئة نفسيًا، أثرت الوحدة والغربة على نفسيتي سلبًا، وعليهم أن يتمنوا جميعًا لو أنها أصابتهم أيضًا، فلربما قطعوا على الخراب الطريق ، ومنعوه فرصة السير حرًا في البلاد.

-13

وجدتني في بيتي الجديد فجأة، كما رحلت من داري في قرية الجبل فجأة. رحت أعد المنزل وكان زوجي قد احضر لي خادمة مصرية الجنسية. فقلت لنفسي على الأقل سأجد من يحدثني بلهجتي الأصلية. يهيؤني المكان لصباح جديد، لاأعلم كيف ستكون ملامحه، فوق هذا الجبل.

نظرت إلى خانة الحالة الاجتماعية لخادمتي بينما أتفحص هويتها، فوجدتها تشترك وابنة خالي التي تعمل جراحة قلب في نيويورك في نفس الحالة الاجتماعية؛ مطلقة. لاتحدثني بعد ذلك عن الفرق، لأنه في الواقع، لا فرق.. لا فرق إلا في عقولنا الخربة.

انتصب الصباح فوق قمم البيوت، هكذا بدا المنظر من نافذة غرفة الصالون، لا تزيد البيوت هنا عن طابقين. تقف الحدائق بينهم على مسافة واحدة. مختلف هو الصباح هنا. وجرحني الحنين إلى صباحات دار أم العبد حيث صخب الفتيات وضحكاتهن، لعناتها المتلاحقة كلما عصين لها أمرا، وشاي الميرمية وخبز الزيت والزعتر وفرن الدار، الذي لا تكاد تنطفي شعلاته حتى تعود لتشتعل، ووجه أم العبد حين تلطخه المساحيق قبل أن يعود العم نزار في المساء، أضحكني كثيرًا أن أتذكرها حين تتحول إلى أنثى كيفما اتفق بعد صلاة العشاء. سأزورهم حتمًا، حين يحصل زوجي على إجازته الأسبوعية. وتذكرت رأس أماني، وشعرت بالعجز عن أي فعل، بل شعرت بأنني مجرمة لأنني لم أنقذها وأختها، وبأني خذلتها كما خذلها المجتمع بنظرته الغبية للنساء في كل بلاد الشرق، ونادتني سهير:

- سيدة ريم! لقد أعددت الفطور.

- آه، حقا، حالًا، وأمرتها بالجلوس معي إلى مائدة الفطور، ولكنها رمقتني بنظرة مضطربة، وأعتقد أنها كانت تقول في نفسها، هل هذه المرأة حقيقية؟، قلت لها أنت هنا لمساعدتي، ولولاك لما استطعت تحريك كرسي من مكانه، أنت أمانة برقبتي، يحاسبني الله على روحك.

- جزاك الله كل خير مدام، وفجأة، انهارت في البكاء، فتركتها تبكي، حتى انقطعت دموعها، ورحت أطمأنها أنها بيد أمينة، وأنني أتفهم وضعها، ورحت ألعن الاقتصاد، الرأسمالية ،الإقطاع ،الباشوات، الهوانم،النقود، الفقر، الحرب، الدمار، وكل من تسبب لمثل هذه المرأة في أن تشعر بأنها مجرد خادمة، أي انها تحتل مكانة دنيا في المجتمع. مهما نعطي هذه المرأة من تبريرات حول كونها تعمل بشرف، وأن العمل ليس عيبًا، لن نمسح عن كرامتها، أدنى ذرة من امتهان، تسبب لها فيها أحدهم يومًا.

في بلاد تسود فيها الفوقية، والطبقية، علينا أن نذكر البعض بأنهم لولا البترول لما أصبحوا شيئًا مذكورا. ونذكر البعض الآخر بأنهم أصبحوا أغنياء بالصدفة، بالتدليس والانتهازية. أما هؤلاء الذين ورثوا الخلق الكريم، وبيوت العز والكرم عن سابع جد، أولئك هم الأحسن خلقًا، والأكثر تواضعًا. كلما وضعهم الله في موضع قوة، لم تزدهم قوتهم إلا تواضعًا، وخشيةً من الله. ويبدو أن سهير تعرضت لأحقرهم طريقة.

اعتدلت في جلستها، ومدت يدهاعلى استحياء إلى كوب الشاي بالحليب، فاليوم سيكون فطورنا مصري خالص؛ بيض مسلوق، وجبن فلاحي، وعسل نحل، ولكني اشتقت لخبزة الزعتر في دار أم العبد؛ فقمت إلى المطبخ، فمشت سهير خلفي، ورحت أعلمها كيف تصنع خبز الزيت والزعتر، ورجعنا معًا إلى المائدة؛ تحمل هي صينية عليها طبق زيت زيتون، وطبق زعتر، وطبق من الزيتون الأخضر، وجلسنا نتناول فطورنا واشتقت لضجة المطبخ وصوت الملاعق والصحون وشجار الصغيرين عبد وخلود، وشتائم من العبد لأحلام، وولبقع الشاي على أرضية المطبخ، ولتغريد تضع الاكوب على الصينية، وفجأة قالت سهير:

- هل لي أن أطلب منك طلبًا؟
- تفضلي، بالطبع.
- لا تخبري أحدًا بأنني مطلقة.
- مطلقة؟، انت مطلقة؟، مازلت صغيرة!!
- لا أحب أن يعاملني كأحدهم كأنني سلعة رخيصة يمكن لأي شخص أن يمد يده إليها ليتحسسها قليلا ثم يتركها، لقد فقدت عذريتي عنوة؛ حملت عنوة، وأجهضت عنوة، وأحمل وثيقة زواج لشخص لم أعرفه، وأخرى لطلاقي من نفس الشخص عنوة.
صفعني كلامها، بل أذهلني. ضربني الدوار، وشعرت بالأرض تميد من تحتي، حاولت أن أحتفظ بعيني مفتوحتين وقلت بصوت مرتبك:
- طلاق إجباري، وزواج إجباري، وحمل إجباري، وتخلص من الحمل إجباري؟
ماهذا الذي تقولين؟
- إنها قصة طويلة، خلاصتها أنني أبحث عن لقب آخر غير مطلقة، ثم عبس وجهها فجأة وسألتني:
- لماذا أوصى الله والرسول بالأرملة، ولم يوص بالمطلقة؟
وقع سؤالها على أعصابي مثل صاعقة ضربت البحر فأضرمت فيه النار. وحاولت الإجابة، لكن شيئا منطقيًا لم يسعفني. كان سؤالها وجيهًا للغاية. رحت أتذكر الآيات التي تتعلق بالنساء في القرآن الكريم، فوجدت أنه لم يأت ذكر لقب "مطلقة" صراحةً إلا لتقنين تبعات الطلاق، كوجوب حصولها على كافة حقوقها، وفي إطار إمكانية زواجها بآخر بعد انقضاء فترة العدة، ولقد شدد الله على الرجل فأمره بالتقوى والإحسان إليها حتى بعد الفراق؛ فألزمه النفقة عليها، وعلى عيالها، طالما لم تتزوج. بينما لم يأت تحذير واضح للناس يكون من شأنه أن يوقفهم عن الخوض في عرضها، واستباحة شرفها، واعتبارها سلعة رخيصة، مستباحة التداول، أو مواطنًا من الدرجة عاشرة، يقل مهرها لأنها مطلقة رغم أن كل ما يلحق بها من أذى نفسي، وجسدي، يدخل في باب قذف المحصنات؛ حدد الله ثمانين جلدة لكل من تسول له نفسه قذف المحصنات الغافلات. نحن أمام مهزلة بكل المقاييس إذ أخرج العقل الجمعي العربي المرأة المطلقة من جنس النساء؛ حيث يعتبرونها عارًا، وهمشها الشيوخ في خطبهم، فلم يحذروا الناس من عقوبة قذفها بشكل خاص، وإنماقتصر كلامهم على لفظة النساء، ولأننا مجتمعات تربت على التلقين، والحفظ من دون فهم، فصلنا المطلقة عن جنس النساء.
لقد تشارك الجميع في الظلم إذ لم نسمع في خطب الجمع إلا عن الأرملة واليتيم، وكأنما خرجت المطلقة عن جنس البشر استثناءً لا يتوجب الوقوف عنده لمنحه حقه الطبيعي من الأمان، والكرامة، ولو من باب الرفق بالحيوان. لقد خاطب الله الناس كافة، فقال:"لافرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى"؛ هذا جواب كافٍ شافْ. يا إلهي، أيعقل أن تحمل هذه المرأة المسكينة كل هذا الألم النفسي، تارة كخادمة، وأخرى كفريسة، وثالثة لأنها مطلقة؟ إنها تبدو فتاة صغيرة، لقد حسبتها لم تتزوج بعد، وأنها اضطرت للعمل كي تعيل عائلتها. لكنها قطعت تفكيري وقالت: لاعليك سيدتي، لن تجدي لي جوابًا، فقد حصر الشيوخ الأمر في الأرملة واليتيم، هل رأيت الرجال انطلقوا لينصفوا مطلقة في مكان ما؟ أنا أشاهد الأفلام والمسلسلات في أوقات فراغي، ولم أر أي تعاطف مع المطلقة. حين تذهب المطلقة إلى المحامي في الأفلام، يبدأ في ابتزازها جنسيًا، أو ماليًا، حتى يمكنها الحصول على حقوقها، بل إنه يتواطأ مع الزوج أو محاميه على عدم منحها شيئا. وحين ترغب المطلقة في الزواج مرة أخرى، يستهين المجتمع بأسره بحقوقها، ويعتبرها سلعة "سكاند هاند"، ويطلبها الرجال للزواج السريع، لأنها سلعة غير مكلفة.

قلت في نفسي: ولكن لم لا يكون المجتمع منصفًا في الظلم فيعامل الرجل المطلق من نفس المنطلق؟ المطلقة يلزمها مطلق، فإن اتهمها المجتمع بالزندقة، والرخص، وجب اتهام الرجل بالضرورة.، وإن أهانها وجب إهانته وإلا علينا أن نقول: "تلك إذن قسمة ضيزى."

ألجمني فهمها للأمر، وبحثها عن إجابة، فرحت أسأل نفسي لماذ لم يحدثنا الشيوخ عن تكريم الله للمطلقات، لقد كرمهن الله حين قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان" ولكن الكلام هنا موجه للزوج فقط، ولكن ماذا عن المجتمع؟ هل يكفي أن يقتصر الإحسان إليهن على الزوج فقط؟، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان" تعني إما أن يُبْقي الزوج على زوجه معززة مكرمة؛ يعاملها بالمعروف؛ لها ما له، وعليها ما عليه، وإما أن يطلقها دون أن ينقصها شيئًا من حقوقها، "ولا تنسوا الفضل بينكم"، أي لا يسيء أحد من الزوجين إلى الآخر احترامًا لما سبق بينهما من عشرة. ولكن ماذا عن الناس من حولها؟ هل هنالك ما قيل بهذا الشأن؟ وإن كان كذلك، لماذا لا يعيده الشيوخ على مسامعنا مرارًا وتكرارًا حتى تصبح أقوالهم بهذا الشأن مقولات يحفظها الكبير والصغير كما هو الحال بالنسبة لقول الرسول الكريم: أنا وكافل اليتيم كهاتين"، "القائم على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله". ورأيتني ألقي بالسؤال على نفسي:" ترى! أين تكون المطلقات من كل هذا؟ ومن يحمي سهير من عقل جمعي يرى في المطلقة وجبة سهلة؟، وبين النوم، واليقظة تذكرت مرة أخرى، أن الله وضع حدًا لقذف المحصنات ثمانين جلدة، وهذه إجابة شافية من شأنها إنهاء هذا الجنون الذي تعاني منه سهير. فجأة، قفز إلى رأسي حدست رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه". فهززت رأسي بيأس، وقلت بيني وبين قلبي:" لكنهم لم يجدوا في الوصايا لقب" مطلقة" بشكل صريح، لذا اعتروه تهميشًا لها، ففضلوا عدم الوقوف عندها طويلًا، وتركوها للمجتمع، ينهش لحمها كما يشاء، ولم يدرجه أحدهم تحت مظلة المحصنات العفيفات الشريفات. وإلى أن يحذر الشيوخ على المنابر، وفي كل موقف من عواقب إهانة المطلقة على وجه الخصوص، فيذكرون لقبها بكل الود، كما يذكرون لقب الأرملة، سيظل لقب " مطلقة" وصمة عار على جبين المرأة العربية، طالما أصر العقل الجمعي على اعتبارها جنسًا منفصلًا عن لفظة" نساء".

ضربني الصداع في كل رأسي، ولم أعد أحتمل الكلام حول هذا الأمر. ظل شيء واحد يتردد في داخلي، فحواه أنني لابد أن أكون إيجابية. فأشرت إليها بكفي، أن كفى! تركت المائدة، واقترحت على سهير أن تطهو لنا بعض البامية، على أن تضيف إليها لحم الضأن، فأعصابي بحاجة إلى مكونات البامية. اتجهت إلى غرفة نومي، ولأول مرة منذ جئت إلى هنا، أراني أخلد إلى القيلولة، وبينما أنا بين اليقظة والنعاس وجدتني أقول:" يا الله، إن رأسي لا تحتمل كل هذا الوجع: أحلام، و أماني، ثم سهير؟. وضعت الوسادة على رأسي، وأعتقد أنني غبت عن الوعي.

دفعني الفضول لمعرفة حكاية سهير، فخرجت إلى الحديقة، وطلبت منها أن تعد لنا الغداء، ثم جلسنا نحتسي الشاي سوية، كنت أخجل كثيرًا إن شربت الشاي وحدي طالما في المنزل خادمة؛ لم أحب يومًاأن تظل خادمتي في المطبخ؛ تأكل وحدها، بينما أنا أتناول طعامي في الحديقة، لم أحب يومًا هذا الأمر، كنت أشفق على النساء أينما كن، خاصة كلما كن غير قادرات على مواجهة الحياة، وبعد قليل قلت لها: يمكنك التحدث معي بكل صراحة، أخبريني القصة كلها، من أول لحظة جئت فيها إلى هنا، فسحبت سهير شهيقًا أوجع رئتي وبدأت في السرد:

- نحن عائلة فقيرة للغاية؛ من ضواحي طنطا، تركنا أبي وتزوج بامرأة غير أمي. أما أمي، فقد أخذها خالي منا عنوة، وتركنا لأبي؛ ثلاث بنات وأخ واحد، لا أعلم أين هم الآن. لم تستطع جدتي الاعتناء بنا. ولم تسمح

لنا زوجة أبي بالنوم في المنزل، فكنا نفترش درجات السلالم بعد موت جدتي. يمكن أن يكون هذا فيلمًا عربيًا من زمن الأبيض والأسود. كنت دومًا، أسأل نفسي سؤالًا واحدا:" لماذا يقبل أبي بذلك؟. حين جاء السيد بهاء إلى قريتنا، هو وزوجه، يبحثان عن خادمة صغيرة، من أجل زوجه، وأبنائه، مع وعدٍ بأن يربيانها بين أولادهم، هُرِع أبي إليه، وسمح له أن يأخذني معه، حتى أنه ذهب معه لإنهاء الأوراق الرسمية. حملت جواز سفر، وطرت معهم. لا تسأليني كيف أنهوا الأوراق، لكني سمعت السيد إيهاب يقول لشخص ما:" عليك إنهاء الأمر بسرعة مقابل أي مبلغ من المال، فلدي أعمالً هامة، يجب أن نغادر خلال أسبوع،" ثم وجدتني هنا، ومن يومها، لم أبرح بيته إلا حين طلبني زوجك كي أرعاك، فلما علمت أنك مصرية وافقت على الفور. فركت يديها، وبدت عليها مأساة ما: ثم استطردت تقول:" وفي أحد الأيام، وكعادة ما يجري في بيت السيد بهاء جاءء أصدقاؤه إلى البيت، كانوا يشربون الخمر، ويشاهدون الأفلام الإباحية، وكنت أضطر إلى خدمتهم، وكانت زوجته تجلس معهم أحيانًا، وحين يغيب عن وعيه، تدخل زوجته وصديقه إلى غرفة نومها، ويغيبا ساعة، ثم يخرج صديقه، ويعود إلى مقعده، ولا يستفيق الجميع إلا عند الظهيرة. لم أملك الجرأة يومًا كي أعترض على خدمتهم، وخفت أن أنقل للسيد خبرًا كهذا. إذ أن أسهل الأمور هنا أن يتهمك أحدهم، أو يحرض عليك شرطي، لو قلت له ربما سحبني من شعري وسلمني للشرطة، ولربما اتهمني بسرقة مجوهرات زوجه. لم يكن لي مكان آخر أذهب إليه، ولو وقعت في يدي أمناء الشرطة لن يرحموني، فهنا يعتبرون المصرية البسيطة، وخصوصًا الخادمة فريسة سهلة، ولن يصدقوا أنني ضحية لا حول لها ولاقوة، لن يرحموني، فاضطررت للعيش بينهم لا أسمع، لا أرى لا أتكلم، وذات يوم، ولسوء حظها، لم يغب السيد بهاء عن الوعي، فشاهدهما وهما يدخلان معًا إلى الغرفة، ولدهشتي لم يحرك ساكنًا، واستمر الأمر هكذا لثلاث ليال متتاليات، حتى قلت في نفسي : أين الله من كل هذا؟، وعدت لأستغفره. وفي يوم الجمعة، التي تلت تلك الليالي، قال السيد بهاء لي أن رجال العائلة سيجتمعون في المنزل، وأن علي أن أعد طعامًا كثيرًا، وما إلى ذلك، كانت السيدة نهلة، زوجه وابنة عمه في آن معًا، وكان الرجال القادمون على الغداء كلهم من عائلة واحدة... وفي آخر اليوم، دخل السيد، وقال لي أغلقي الأبواب جيدًا على الأطفال، كي لا يغادروا جناحهم ، لا أريدهم أن يسمعوا أحاديثنا بغرفة الصالون، فقلت له سأفعل بالطبع. لكن الفضول دفعني لأن أتجسس على ما يدور بالصالون، ولدهشتي سمعت السيد بهاء يقول لعمه الكبير:" بعد أن تسمع هذا التسجيل، سوف لن يسألني أحد منكم حقوقًا لها، ولن تأخذ الأولاد بالطبع، عليكم أن تأخذوها معكم إلى خارج هذا المنزل بكل هدوء، وسنحدد موعدًا للطلاق على الفور" ثم أدار مسجل الصوت، فجاء صوت السيدة نهلة ومعها صديق زوجها واضحا جليًا؛ زوجين يمارسان الدعابات الزوجية بشكل أكثر من طبيعي، كأنهما تزوجا منذ يومين، كانت كمية الحميمية التي تخرج من الجهاز كفيلة بأن تحرق أعصاب كل الرجال بالغرفة، وكان من الحكمة أن صرخ عمه في الجميع فقال: "كفى! وقفز من مقعده واتجه إليها، صار يضربها بالشماغ وبالحذاء، وفقدت هي القدرة على النطق، ثم لم أسمع ،بعد ذلك، إلا صفعة الباب لحلقه خلف الجميع. بعدها دخل السيد بهاء إلى المطبخ، وطلب مني أن أصنع له فنجانَ قهوة، ولما خرجت لتنظيف الصالون، سألته عن السيدة فقال:" أخذوها معهم، ولن تعود أبدًا، اهتمي أنت بشئون الأولاد جيدًا، وإن احتجت شيئًا، اتصلي بي هاتفيًا،" ثم حمل كيس التبغ، ومفاتيح السيارة وخرج.

مرت الأيام عادية للغاية، وحين يسألي الأولاد عن السيدة، أقول لهم أنها بالمستشفى،وستعود بعد أن تنتهي فترة علاجها، وكانت "ميس" لم تزل طفلة تنام بجواري، فقد كانت في الخامسة من عمرها حين حدث هذا الزلزال العائلي.

في إحدى الأمسيات الباردة، دخل علي السيد المطبخ، وقال لي:"اصنعي لي فنجان قهوة، وأدخليه إلى غرفة نومي،" ففعلت، ولما استدرت كي أخرج من الغرفة، حملني كأنني حقيبة يد السيدة، ورماني على السرير واغتصبني، ولم يتركني إلا وأنا منهكة القوة، أبكي من كل شيء. ظلت عبارة واحدة تجول في كل كياني: أين الله من كل هذا؟ ومن يومها، صار يعاملني معاملة الأزواج، ويقول لي:" أنت على الأقل أشرف منها، فلم يلمسك أحد غيري"، ولم يك باليد حيلة، فرضخت للأمر الواقع. لا أنكر أنني أحببته، واعتدت على وجوده في حياتي كرجل، حتى جاء ذلك اليوم الذي قضى عليَّ تمامًا؛ فاجأني القيء عند الصباح، ورحت أعاني من الدوار طوال الوقت، وتراجع نشاطي، فلم أعد أرغب في القيام بأعمال المنزل، وفقدت شهيتي، واحتجت إلى النوم طوال الوقت، فأخبرته بذلك؛ فطار عقله، وصار يضربني ويقذفني بكل مايراه أمامه من أشياء، ثم دخل علي في الصباح التالي وقال لي:" استعدي كي نذهب لعيادة الطبيب". في العيادة، فحصتني الطبيبة، وبعد عدة أسئلة وفحص نسائي، وآخر بالسونار، أخبرتنا بأنني حامل في الشهر الرابع، فطار عقله، ولولا أنه قدمني للطبيبة كزوجته، لقتلني، فقد كان الشرر يتطاير من عينيه، لكنه تماسك بالطبع، وقال للطبيبة بصوت ثعلبي:" إنني وزوجتي لدينا من الأولاد أربعة، أنا أخشى على صحتها كثيرًا، وتجعلني طبيعة عملي أسافر، وأتركها طويلًا، وليس لنا من أحد هنا، فهل يمكن إجراء إجهاض ما؟ ولدهشتي قالت الطبيبة:" نعم، لكنها مكلفة، وأرجو ألا تخبر أحدًا بذلك". فعرفت من يومها، أن بإمكان النقود أن تبعث الموتى أيضًا، وغبت في مصيبتي، وما آل إليه حالي، ولم يجد بكائي نفعا، أو تقريبًا، لم أك أملك حتى الدموع، ولم أعد أر إلا شبحين يتآمران على الله، ويتجرآن على روحين لا ذنب لهما سوى أن الله لم يمنحهما من حوله وقوته شيئًا، أو لعله منحني شيئًا سيأتي لاحقًا. خرجت معه من العيادة، وجلست بالسيارة صامتة تمامًا, فقد جردني هذا العالم وهذا السيد من كل شيء. لكنني لم أسخط إلا على أمي، فقد تركتني أذهب، لمجرد أنها لم تحتمل عصبية والدي. ورحت أقول لو كنت مكانها لحملت كل سباخ الأرض فوق رأسي دون أن أفرط في نطفة من أظافر أولادي. كانت عبارة:" إنها زوجتي وأنا أشفق عليها" ترن في أذني، وتمنيت لو أن لي زوجٌ بالفعل،أو لو أنه اعتبرني كذلك. ورحت أنظر إلى السماء أعاتبها، لكنها كانت ملبدة بالغيوم هي الأخرى، فلم أر غير سحابات سود، عكست صورة باب أبي الموصد، ووجه زوجة أبي تطل من كوة في الغيم، فأشحت بوجهي إلى الطريق؛ كان كالعادة، يحملنا إلى الدوار السابع، ثم إلى الدور التاسع، ثم إلى المطبخ، ثم إلى نهاية اليوم، والأيام التي تلته، حتى جاء موعد زيارتي للعيادة كي أجهض الجنين. حتى هذا الجنين لم يك من صلاحياتي أن أقرر مصيره، كما لم أقرر أن أمنحه حق الحياة، ولم يرحمني السيد، فقبل نزولي من المنزل طلبني للمداعبة، فلم أرفض، هل تعلمين سيدة ريم السر وراء عدم رفضي؟، كنت أبحث في داخلي طويلًا عن السر وراء عدم رفضي له، ولكن يبدو أننا حين نعتاد الأشياء، يصبح تغييرها أو رفضها ضربًا من الخروج من الملة. وبعد إجهاض الجنين بشهر تقريبًا، استخرج لي السيد وثيقة زواج من شخص وهمي، وقال لي احمليها في حقيبتك، كي تخبري والدك إن عدت إلى مصر يومًا أنني زوجَّتُك من شخص لم يناسبك لأنه سيء، فطلبتِ الطلاق. فكنت أحمل في حقيبتي، وثيقتين إحدهما للزواج، والأخرى للطلاق من رجلين، أحدهما مجهول على الورق، و الآخر معلومٌ في الحرام، كي يكونا حجة لي، حين يسألني الناس في مصر عن غشاء البكارة.

- ولكن كيف قبلت بكل هذه الأمور؟ كيف قبلت؟ أنت المخطئة بالطبع لأنك رضيت بكل هذا الواقع، لماذا لم تتصلي الشرطة؟ لماذ لم تستغيثي بأحد من الجيران؟

وجاءني ردها صادمًا حين قالت:

- لا تحكمي على أمور من خارج الدائرة، ضعي نفسك في الدائرة، وتخيلي الأمر، ثم أطلقي أحكامك، ستجدين أن ما فعلته بالضبط هو كل ما كان بوسع أي امرأة ضعيفة فعله في تلك المرحلة، فالسيد يملك من المال ما يكفي لشراء دولة، وهو قادر على ينهي جريمة قتل لصالح القاتل بمكالمة تليفونية. إن السيد يلعب الجولف مع كبار الشخصيات هنا وفي مصر.

وبَّختُ نفسي كثيرًا، لأنني تسرعت في الحكم، وحملتها عبئًا فوق عبئها، فقلت معتذرة:

- نعم، أنت محقة.

حين نكون بصد إصدار الأحكام، لا بد أن نبني أحكامنا من داخل الدائرة، وليس من خارجها، نعم، لقد كانت محقة بالطبع، ولقد لاحظت أننا حين نستمع إلى معاناة الآخرين، تحل علينا روح القديسين، ومن ثم، نتكلم كأننا ملائكة، وتأخذنا الجلالة، فنلوم ونشجب ونعترض، ونطلق أحكامنا بجبروت، كما لو كنا نخط الفصل الأخير من رواية الأرض. ورحت أتخيل القبو في بيت أم غالب، فسمعت صرير أسناني وهي تصطك ببعضها البعض، وتركل خال أماني بين فخذيه.

واستطردت سهير: حتى جاء اليوم الذي زارنا فيه زوجك، وعرفت أنه مصري الجنسية، وسمح لي السيد بالحديث معه، فاستأذنته في رقم هاتفه، ورجوته أن يجعلني أزورك يومًا، ولكن منعني الحياء من الاتصال به، حتى جاء ذلك اليوم، الذي دخل فيه ابن أخو السيد إلى المطبخ وحاول اغتصابي وهو يقول: " تعالي ، لا تدَّعي الشرف، لا فرق بيني وبين عمي، فصرخت، وضربته بمضرب البيض على وجهه، وركضت حافية إلى الشارع، ورحت أبحث عن هاتف عمومي، واتصلت بزوجك، فأحضرني إليك، وتصادف أن ذلك في يوم مجيئكما إلى هنا، وقد أخبر السيد بهاء، أنك مريضة للغاية، وبحاجة إلى الرعاية، فلم يمانع، ولم أخبره بما فعله ابن أخيه، وسمعته يقول لي : ستعتني السيدة ريم بك جيدًا، إنها سيدة جديرة بالاحترام.

-

اتجهت إلى سهير، وضممت رأسها إلى صدري، كنت أحاول تضميد روحها التي اغْتُصِبت، لعلني أرتق صدعًا في قلبها، وطبعت قبلة على رأسها، الذي غطته بخرقة زرقاء، حجبت تحتها بقايا امرأة، فانزاح غطاء رأسها قليلًا، فرأيت الثعلبة. كانت قد اغتالت مقدمة رأسها ، فزحته تمامًا، فرأيتها تغزو معظم جلد رأسها، وأوجعتني الفجاءة، واستحت هي، فحاولت جذب الغطاء لتستر قهرها، فطمأنتها، وقلت:" إن هذا أمر طبيعي، بعد كل ما تعرضت له هنا، ولكن، ألم يأخذك السيد إيهاب هذا إلى الطبيب كي يعالجك؟"

- لا، إنه لا يأخذني إلا إلى طبيبة النساء، هذا كل ما يهمه.

- قذر، خنزير.

كانت تزم شفتيها وترخي عينيها حتى لا تلتقي وعينيي، وكنت حريصة على ألا أجعلها تشعر بالخجل، ثم ماذا لوكنت مكانها؟، كان مجرد التفكير في الأمر، يصيبني بالدوار، يا إلهي، كأنني جئت هنا لكي أرى العالم من أعلى الجبل تارة، ومن الوادي تارة أخرى، وتذكرت زميلًا لي من الهند، كان يدرس معي في المعهد البريطاني، حين قال لي:

- تخيلي معي أنك تجلسين على قمة جبل.

- مممم.. أتخيل الآن.

- صفي لي كيف ترين الوادي من مكانك؟

- قلت بعيد جدا.

- والناس؟

- كأنهم دمى أو قصاقيص ورق.
- والمركبات والشاحنات؟
- كأنها لعب تعمل بالريموت كنترول.
- هل تحبين أن يظل المشهد على ما هو عليه الآن؟
- لا، إنه مزعج للغاية، أنا أحب الأحجام الطبيعية، ترتاح عيني لرؤيتها.
- حسن، أتفضلين النزول إليهم؟ أم صعودهم إليك؟
- مممم، صعودهم بالطبع، الوادي من هنا يبدو عالمًا خرافيًا وساحر.
- هل تودين المكوث على قمة الجبل حتى بعد موتك؟
- مممم، بعد موتي، كيف؟
- حين تمنحين كل من بالوادي فرصة الصعود، والجلوس بجوارك، وقتها ستحتفظ لك ذاكرتهم بمكانك، فالأماكن لا ذاكرة لها، نحن من نصنع ذاكرة المكان.
نعم، نحن من نصنع ذاكرة الأماكن، ولا مكان بدون وجودنا، ولا زمان.
وعلى الفور قلت لسهير:
- انسي تلك الأعوام وراء ظهرك. يومًا ما، سيأتي سيد مهذب؛ ويطلبك للزواج، ستمكثين بيننا معززة مكرمة، حتى يجيء هذا اليوم. من الآن فصاعدا نحن أهلك، وأدرت قرص الهاتف واتصلت بمستشفى التحرير الفلسطينية، وأخذت موعدًا مع طبيب الجلدية، كي نبدأ مرحلة علاج الثعلبة التي غزت رأس سهير، وأماكن متفرقة من رقبتها، وكتفيها، وظهرها، كان الأمر مروعًا بحق، وكانت بقعًا صغيرة قد بدت في السطو على جبهتها.
لم انتظر ردا منها كي توافق على بقائها معنا، فقد بات الأمر منته تمامًا، وجاءت مشيئة الله لتدعمني ؛ فقد اضطر السيد بهاء للسفر إلى السعودية، ليستقر مع أولاده بعيدًا عن أجواء الفضائح التي تسببت فيها زوجه، وبعيدًا عن نظرات العائلة، وهمسهم، ولمزهم؛ حتى يوفر لأولاده بيئة أكثر نقاءً، خاصة وأن ابنته قد وصلت سن البلوغ، فترك لنا سهير ورحل دون أن يعطيها فلسًا واحدًا على سبيل الشفقة، كمكافأة إنهاء الخدمة التي ينمحونها للخفراء في مصانع الأسمنت. في الواقع، لم تكن سهير بالنسبة له سوى أَمَة، لا سعر لها. لكني كنت أسمع كلامها مع الله عند الفجر، طوال خمسة أعوامٍ، عملت فيها لدي، تطلب منه ان يجعل لها مخرجًا، وعاملتها بدوري بكل الود، كإنسانة تساعدني في كل شيء، وكأخت تعثر حظها مع الحياة، وحرصت وزوجي على منحها كل الحب الذي فقدته، وكل الأمان الذي ضنت به إحدى الأمهات يومًا على أولادها، لأن زوجًا غبيًا أساء إليها. كنت أرى دومًا أن من حق المرأة أن تغير كل شيء في حياتها، وأن تتنازل، كزوجة، عن كل شيء حين الطلاق إلا أولادها، ولو كلفها ذلك أن تحمل سباخ الحقول فوق رأسها، كما تقول سهير.
لقد قررت أن أحميها رغمًا عنها، ووفقني الله لذلك، ولدهشتنا، لم نشعر أنا وزوجي بأن هنالك امرأة غريبة بالدار، كانت سهير أختًا بالفعل، ولم يمر وقت طويلٌ على تناولها العقاقير والمراهم التي وصفها لها الطبيب حتى بدأ داء البهاق بالتراجع، وبدأت خصلات شعرها الذهبي ترفرف على جبينها لتسفر عن امرأة غاية في الجمال، وبعد عشاء أحد الأيام، دخل زوجي وأخبرني أن صديقا له من طنطا، رأى سهير معنا في المول، وأنه يطلبها للزواج، وأنه رجل محترم ومشهود له بالخلق الطيب، وأن علي أن أعرض الأمر عليها، ففعلت، ولما كان اليوم الذي سترحل فيه سهير لأول مرة إلى قريتها في طنطا، عانقتني طويلًا وبكت كثيرًا، بل وراحت تعانق كل شيء بالدار، الأبواب والحوائط، والمقاعد، وغرفة المعيشة. أوصلناها إلى المطار، كنا

نودع جزءً منا بالفعل، ولأول مرة منذ أن جئت إلى هنا شعرت بالرضا، وأصابتني رغبة عارمة في النوم، وفي طريق عودتنا، تذكرت أمل وأماني، وكيف أنني تركتهما لمصير مجهول، وأخبرت زوجي برغبتي في زيارة أم العبد، فقال:" حسنٌ! سنرتب للأمر،"
رافضةً صلاة النخل للريح، واستسلام الشط لفوضى الموج، جعلت من كل فرد في بيت أم العبد مخبرًا سريًا، كي أعرف كل ما يدور في بيت أم غالب، وكثيرًا ما تمنيت لو رأيته، هذا الخال، كنت أرغب في رؤية هذا الذي يمشي على رجلين، ويمتلك عقلًا، لكنه لا يمتلك إنسانًا في داخله. كنت أود قراءته بشكل جيد، كي أفهم معنى عنفه، فلربما كان الرجل مريضًا أيضًا، فغالبًا ما تكون الدوافع وراء ارتكاب الجرائم أكثر بشاعة من الجريمة نفسها. كنت قد عزمت على أن أكون إيجابية تمامًا هذه المرة، مهما كلف الأمر. لقد أدركت الآن لماذا كنت أشعر بالفخر حين أقرأ عن حاكم بابل- نبوخذ نصر- لكم أبهرتني قوته التي بها احتل القدس، هدم الهيكل، وأسر الشعب اليهودي!
انطلقت بنا السيارة إلى بيتنا، كانت تعرف الطريق جيدًا، فكل شيء ينطق بما علمتَه إياه يومًا. وفي الواقع، لم أعتبر هذه السيارة يومًا من جنس الجماد، كنت أحترمها، وأقول في نفسي: "الجماد يعيش طويلًا، ولا بد أنه يعرف الطريق إلى الماوراء" لذا وضعت وشاحًا أصفر حول ساق شجرة السرو في حديقة بيتي الجديد وأقسمت ألا أزيله حتى ينفك أسر الفتاتين أم غالب.

...

14

لم أتَمَنْ أن يكون لشيء برواز كما تمنيت للوحة هامان تلك. لو كان له برواز لعلقته على ساق شجرة السرو التي تقف على أول السلم الحجري، ليراه العابرون من وإلى الوادي، فلربما حرك فيهم شيئًا. أو لكنت علقته على أحد الأعمدة القريبة من مدخل الجامع، أو الكنيسة أيهما أقرب، فلربما يتذكر القوم فرعون، ولربما فكر نَفَرٌ منهم في الخروج على كل شيء لا يتفق مع كل ما هو إنساني. كان صدري ضيقًا للغاية، وتوقف عقلي تقريبًا عن التفكير، فأطلقت له العنان فاختل توازنه، وعرض الصور تباعًا، الذكريات، المشاهد المؤلمة، الكلمات المؤذية، والوجع كأنما اختل توازن الأحداث فيه فانقلب. أصابني الدوار للحظة، ولما انتبهت إلى الأمر وجدتني في مصر، وتحديدًا مع ليندا، صديقة طفولتي، تلك الطفلة التي لم تكبر بداخلي. لقد افترقنا منذ ثلاثة أعوام أو مايزيد، لكنها تهاتفني من وقت لآخر، ولا أخفيكم سرًا، لا يجدي كلام الهاتف نفعا، خاصة وإنني أحب أن أعيش كل لحظات حياتي "لايف"!
حين زرت ليندا في زيزينيا، كان الغروب يغتال الوقت شيئًا فشيئا. فلما اسود المكان حول بيتها، حوَّلت جلستنا المتصلبة في غرفة الجلوس الكبيرة، إلى غرفتها ذات اللون الوردي الفاتح. كانت منضدة الدرس تكتظ باللوحات الزيتية، وسعف النخيل، العملاق بالنسبة لحجم جسدينا، الأخضر والمجفف بينما وقف الصليب مستندًا بظهره إلى ظهر الأريكة التي أسندت ظهرها إلى الحائط المطل على الفراغ الخلفي لحديقة الجيران الخلفية. حاولت ترتيب الغرفة معها، لكنها أشارت إلي لكي أتوقف، ثم قالت:
هنالك مهمة أكبر من ترتيب الغرفة. أريد تعليق الصليب هنا في منتصف الحائط، عليك أن تراقبيه جيدًا حتى يصبح في المنتصف تمامًا، لا ترتاح عيناي للبراويز المنحرفة، فهي تجعلني أتوتر للغاية، هيا... الآن...ارفعي معي الصليب من هذه الزاوية قليلًا، نعم. هكذا. كفى. اذهبي الآن إلى آخر نقطة في الغرفة، في المنتصف تمامًا، تقدمي خطوتين، نعم هكذا تمامًا، هيا، ساعديني كي أجعله يستقر في المنتصف تمامًا الآن. لو انحرفت يدي قليلًا نبهيني، فقلت مقترحة بعض التعديلات:

- لم لا تعلقينه في الركن الأقصى، ذلك الذي يقابل الباب مباشرة، كي يراه كل من يفتح باب الغرفة، بزاوية 60 درجة مئوية؟ أو في تلك المساحة على يمين الداخل فيكون مصدرًا يمنح القوة للناظر إليه؟ قالت:
- انا لا أعلقه على الحائط لأنه يفتقد مكانًا في قلوبنا نحن المسيحيون، بل أعلقه لأنه يتجول في روحي دومًا، وأنا أريد له أن يستريح قليلًا. لم أفهم شيئًا مما قالته، لكنني قلت في نفسي ربما تقصد أن يستريح عقلها من التفكير بالرب. ربما لم تحسن اختيار العبارات. على كلٍ، علي أنا أن أترجم بما يتفق والمنطق. ولكن كيف يتوقف العقل عن التفكير بالرب؟ منحتني القهوة التي أعدتها هدوءً غير عادي وتركيز عالٍ فأخرجت رأسي من النافذة فرأيت الله. لم يكن الليل الحالك في الخارج سوى صوت الله الذي لم يمنحه لغير "موسى" نعم، كل هذا الصمت في الخارج هو صوت الله الذي به نسمعه في صلواتنا،أولسنا نحدثه طويلًا فنشعر بأيادٍ تضمد أرواحنا وقلوبنا، وتغلف ما انجرح فينا بفعل بعضنا البعض؟ ألم يقل لنا عز من قائل:" وإذا قُرِيَء الْقرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرْحَمُون" من الذي سيرحمنا غيره؟ إنه يحدثنا صمتًا، ويسبغ علينا رحمته صمتًا، ويدبر أمورنا صمتًا، ويسدل الليل صمتًا، ويخرج منه الصبح صمتًا. إنه يعمل في صمت.
استرجعت سؤالًا طرحه عليَّ ابني الصغير حين كنت أعلمه حركات الصلاة جهرها، سرها، وسور القرآن في كل مرة يرفع فيهاالشيخ جعفر الأذان، حين أقول له :
- سينظر الله إلى عباده، ويبحث عنهم في صفوف المصلين، فإن لم يرك بينهم يحزن. فكان يجيبني: من هو ذلك الذي تصرين أن أكلمه دون أن يرد؟ أتذكر أنني قلت له يومها إنه يحب سماع أصواتنا، فإن دعوناه استجاب، فإن استجاب كانت استجابته ترجمة لصمته. إنها لغة تحتاج إلى تفكر وتدبر. لقد منحنا الله إمكانية فك شفرات الكون من حولنا، تلك التي طبعها على عقولنا وقلوبنا منذ أن خلق آدم. إنها موجودة دومًا بدواخلنا، فإن صفت أرواحنا قرأناها وحللنا ألغازها. هكذا يمكننا أن نترجم صمت الله لغةً في كل ما حولنا من وجود. وإلا لماذا يمكن لأحدنا أن يتكلم لهجة الآخرين بسهولة بعد أن يمضي بينهم وقتًا ما؟، إنها الشفرة تعلن عن نفسها إن وجدت من يزيح عنها الستار. أتذكر أن ابني تظاهر بأنه فهم كلامي. فأنا أمه، ولا بد أن كلامي هو الصحيح دومًا. هكذا اعتقد أولادي طوال الوقت. نعم، الآن أدرك أن الصمت هو لغة الله التي يكلمنا به، يرد بها على أسئلتنا، ويحاورنا. ومن منا لم يحاوره الله صمتًا؟ ويحل علينا رضاه ونعمته صمتًا، تحل اللعنات صمتًا، ويأتينا الموت صمتًا. الصمت كلمة الله إلى الخلائق، وعليهم: بها تطوى الصحف، وبها تقوم الساعة. حتى حين يقول الله:" كن فيكون"، يكون الفعل هو الشاهد الوحيد على الصمت، وتكون النتائج هي الترجمة المرئية للصمت. لقد فهمت الآن ما الذي قصدته ليندا حين قالت: أريد أن أعلق الصليب بالقرب مني، كي أسمع صمت الرب بشكل واضح. حين يتكلم الله، يكون للصمت صوتٌ طاغٍ. أقصد حين تستريح روح ليندا. وإلا فكيف ترتاح الأرواح إن لم يتكلم الرب؟!
أتذكر الآن حين كنت أودع ابني الأكبر في المطار قبيل سفره إلى أميركا أن الحمام الذي أخذ يحط، ثم يشيل، ثم يحط في ساحة المطار الأمامية، كان يحدثني بلغة رمزية أيضًا؛ لقد حط ثم شال ثلاث مرات، وفي كل مرة يحط فيها، كان ابني يخرج من قاعة المغادرين فيخبرنا أن أسبابًا ما ستجعل الطائرة تقلع بعد نصف الساعة، وحين شال الحمام في المرة الرابعة، طار ابني، فتنبهت أن الحمام يبلغي رسالة. نعم، إن الصمت ولغة الرمز أشد الأصوات صياحًا. لقد اكتشفت أنني أجيد ترجمة صمت الله وفك رموز الأشياء من حولي. وأعتقد أنني وليندا متفقتان تمامًا حول هذا الأمر. حين فرغنا من تعليق الصليب، رتبنا على الحائط المقابل مكانًا يليق بخريطة العالم. مساكين هم من يفهمون الصليب على نحو خاطيء. الصليب هو المعادل الموضوعي للإنسان الوفي، الفدائي، والشهيد.

نبهتني ليندا أن صيامهم يبدأ في الصباح، فاستحييت أن أطلب منها بعض الحليب الدسم، واندسست تحت الغطاء في السرير المقابل للصليب، كي امنحه بعض الوقت ليستريح.
أيقظني صوت الببغاء، كان يريد الخروج من جو القفص ليطلق العنان لجناحيه في داخل البيت، ففتحت ذراعيي للبراح.
15
- لم أحب يومًا تبديل رأيي، ومواقفي يا حبيبي.
- لم لا يا أمي، لقد غير الله رأيه مرارًا، منذ أن خلق آدم، وحتى ختم الرسالات بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لقد غير الله رأيه، حين رأى بني اسرائيل يجحدون نعمته التي أنعمها عليهم، فغضب عليهم، وفي حادثة المن السلوى تأكيد لكلامي؛ لقد قال لهم: "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ اهبطوا مصرَ"، وغير رأيه حين قال:" أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم، وفريقا تقتلون"، وهذا يعني أنه بتغييره الرسل، غير طريقة التعامل معهم، وبعد أن دللهم طويلًا، تركهم في التيه، ولعنهم بعد أن كانوا شعب الله المختار، وأمر بنبذهم في كل موضع، وخلق الشيطان ملكًا مطيعًا في بداية الأمر، فلما فسق عن أمر ربه، نبذه وجعله من المنظرين، وغير رأيه حين قرر خلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، بينما رأت الملائكة أن في خلقه، تكرارٌ لوجود القتلة، المخربين والمفسدين في الأرض، فأخبرهم أنه سيخلق خلقًا مغايرًا؛ تسجد له الملائكة وتستغفر. لقد غير الله رأيه مرارًا يا أمي، بل إنه غيَّر طريقة إثبات وجوده للناس، فسخر الجن لسليمان، وأنزل المائدة، وشق البحر لموسى عليه السلام، فابتلع فرعون وقومه، وشق القمر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل لعيسى عليه السلام القدرة على إحياء الموتى بإذنه، وغيَّر وسيلة إرساله الرسل، وسيلة إرجاعهم إليه، ووسيلة ولادتهم فخلق عيسى بدون أب. ولم يخاطب الله قومًا إلا على قدر عقولهم، ويغير الله رأيه دومًا حين نغير نحن نوايانا وأفعالنا. الله جواب لأفعالنا يا أمي، ونحن من يبدأ بإحسان أو بإساءة. هذا ما تقوله آية:" لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". لقد مسخ الله الذين اعتدوا من اليهود في السبت، وجعلهم قردة خاسئين. كان أكرم يقول هذا، ويدافع عن قراءته للحياة بالحجة والبرهان، وكان علي أن أستمع إليه، كالعادة، لكي أمنحه فرصة التفكير بصوت عالٍ، ولكي أسمع صوت صمته جليًا، فليس مثل أن تسمع صوت الصمت عاليًا. كنت أحترم ما يقول، وأفكر به كثيرًا، لذا أثنيت على تفكيره، ورحت أدعو له جهرًا:
- فليحمك الله، أنا أحب طريقة تناولك للأمور، وفهمك للدلالات.
كنت ،في الواقع، أخشى عليه من الحفظة، اللذين تكتظ بهم الحياة من حولنا، ورحت أدعو الله أن يبعد عنه شر الطريق و الخونة؛ فكلامه ورؤيته للأمور ربما لن ترضي البعض، ولربما اتهموه بالخروج.
فتحت التلفاز لأخفف من توتر أكرم الذي بد واضحًا الآن، كان أولادي الثلاثة يشعرون أنهم يسبحون ضد التيار، فهل أخطأت حين منحتهم حرية اختيار طرقهم دون أن أتدخل؟ لقد علمتهم منذ نعومة أظافرهم كيف يقررون لأنفسهم، ولم أسمح لنفسي بالكذب عليهم أو أمامهم مطلقًا، فتعلموا أن الصدق أسرع الطرق إلى النجاة، واجتهدت في أن أنقش قيمة الصدق والأخلاق الكريمة في نفوسهم. والحقَّ أقول لكم، لقد بذلت قصارى جهدي مرة واحدة؛ كان ذلك حين أنجبت ابنتي الكبرى. كنت حريصة على أن ألحقها بمدرسة الراهبات فور بلوغها الثالثة من عمرها، كان لتلك المدرسة طريقتها في تعليم السلوك القويم والالتزام، وتكوين الشخصية، في الواقع، كانت مدرسة تليق بتربية الفتيات. لو كنت في مصر، لأرسلتها إلى مدرسة الفرنسيسكان أيضًا، فلم أك يومًا ممن يهتمون للمسميات دون الجوهر، وقد اكتسبت هذه المدارس سمعة جيدة في تكوين الشخصية

الصحيحة، وكأي أم، أردت لأولادي الأفضل في كل شيء دومًا. كان الفارق بين عمري ابنتي الكبرى وأخيها الأصغر أربع سنوات، والفرق بينها وبين الصغير ثمان سنوات، وفي الحقيقة، كان يكفي أن ينشأ الولدان بين أم وأخت لهما نفس المنهج في التفكير والتعامل، لذا، لم أبذل جهدًا كبيرًا في تربيتهما، وتنشئتهما، كماأعدتهما الحياة والتجارب التي مررنا بها سويًا طوال الوقت لكي يكونا صانعوا قرارات. لقد نقشت جيدًا كل التعاليم الصحيحة والمباديء القويمة وحفرت القرآن في صدرها، فكانت أمًا ثانية لأخويها في غيابي وأثناء حضوري، فقد مارست دور الأم ببراعة حسدني عليها الجميع. أتذكر الآن أنني عدت من الجورنال مبكرًا، ركنت سيارتي في الكراج الأمامي لبستاننا، وقفزت عبر طريق مختصرة فوق السور الصغير الذي يأخذني مباشرة إلى باب المنزل، فلمحت فرعًا كبيرًا من فروع شجر الأسكيدنيا، ملقىً على الأرض بشكل لفت نظري، لكني لم ألق للأمر بالًا، فقد كنت مشتاقة لقضاء ثلاث أرباع اليوم مع أبنائي. كنت أتركهم مع الخادمة السيريلانكية، التي قضت في بيتي سبع سنوات، لم تتحدث فيهم غير لغة بلادها، والإنجليزية. فوجيء الأطفال، بعودتي المبكرة إلى المنزل، فالتفوا حولي يعانقوني وأعانقهم، بينما وقفت " بولا" مرتبكة بعض الشيء، فنظر إليها وقلت:

- هالو ، كيف تمضي الأمور، هل أكل الأولاد.

- نعم ماما، كل شيء على مايرام، فقط يوسف .....مممم، وتعثر الكلام على لسانها، فسبقتها ساندرا، وهمست في أذني:

- لقد هبط يوسف من النافذة الشرقية، واتكأ في نزوله على الدعامات الخشبية التي تشكل تكعيبة العنب، ومنها إلى البستان الأمامي ليجلب لنا " أسكيدنيا"، فقد كان أكرم يبكي، لأنه يريد أن يأكل منها، فأصابني الذهول، ولمحت يوسف يقف على مقربة من باب غرفة المعيشة يرقب ردة فعلي، وفجأة قال لي:" لقد طلب أكرم حبات الأسكادنيا، كان يبكي، وأردت أن أوقف بكاءه لأنه يؤلمني، ولأنني لن أتمكن من النزول مرارًا، قلت أجلب لهم الفرع كله."

وقفت الخادمة ترتعش، وبسرعة مليون سنة ضوئية رحت أفكر في حل حكيم يحسم الأمر، ويلغي احتمالية تكراره فيما بعد، كان من الطبيعي أن أطبق ما استفدت منه عبر قراءاتي في العبقريات، وتاريخ الأدب، والفن والعلوم الإنسانية، فهنالك تسلسل منطقي يربط بين علم الاجتماع، والسياسة، والأخلاق، والأزياء والفن والأدب والحكمة، واخترت أن أقوم بدور الواعظ كي أتفادى كوارث أكبر قادمة، فقلت لهم جميعا: تفضلوا جميعا بالجلوس"، فاتخذ كل منهم مكانًا فقلت مخاطبة الكل، ولكن عيناي لم تطر لتلتقي بعيني يوسف طوال مدة كلامي:

- لن أعاقب منكم اليوم أحدًا، ولكن دعونا نتفق فيما بيننا كأشخاص محترمين، يخاف كل منا على الآخر، على دستور وقانون يحكمنا جميعًا، فركز يوسف عينيه الوسيعتين على عيني، ورحت أكلم الجميع ولم أركز نظري عليه مطلقًا، واستطردت قائلة:

- تعالوا نصنع دستورًا نتبعه جميعًا؛ يتكون من بند واحد، هو الأهم على الإطلاق، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- يقول البند الوحيد للدستور الذي وضعته: " لو رأى أي منكم، أنه سيفعل ما يخشى أن يخبرني به، فلا يفعله، حتى لو كان الثمن موته. وإن رأى أن ما يفعله، لن يغضبني، فليفعله دون إذني، لأن ما تخفيه عني سيعرضك لعقاب شديد، ولن أرحمك حينها؛ هذا الكلام موجه للكل حتى نفسي. مفهوم؟

- مفهوم.

ومن يومها، لم أوجه لأحد منهم لومًا، أو عتابًا، فقد التزمنا جميعًا لبعضنا البعض بموجب هذا الدستور واحترمناه. وحتى حين يخرج أحدهم عن الدستور لسبب فاق إرادته، أراهم يجمعون بعضهم البعض، ليتناقشوا فيما بينهم كي يجدوا مخرجًا، وبعد أن يجدوا للأمر حلًا ، تخبرني به ساندرا، وهي منهارة في الضحك، فأهز رأسي وأحمد الله أنه لم يخلقني ديكتاتورًا، وابتسم قلبي طويلًا، فليس لمعنى نزول يوسف لجلب ما يطلبه أخوه، رغم وعورة الطريق إلى شجرة الأسكادنيا، إلا معنى واحدًا لدي؛ هو أنه سيعرف فيما بعد كيف يكون مسئولًا عن عائلته.

اتجهت إلى الهاتف مباشرة، إذ كان علي أن أطمئن على احوال ريم بعد ان انتقلت إلى المدينة؛ امتدت يدي إلى السماعة، فجاءني صوتها على الفور:

- آلوووووو؟!!!!

- كيف حالك ريم؟

- فريدة؟ كيف حالك عزيزتي؟

- بخير، أردت الاطمئنان عليك، كيف تسير الأمور في مصر؟

- لا جديد، عمل، عمل، وعمل. يا الله، لكم افتقدناك جميعًا. لماذا لا تأتين إلى مصر لترتاحي قليلًا؟

- لا أستطيع ترك سليم وحده.

- وماذا عن الحمل؟ ألم تخبرك الطبيبة بعد عن سبب تأخر الحمل لديك؟

- لا، ولكني أمتلك إحساس العاقر دومًا.

- العاقر؟، لا تتفوهي بمثل هذا الهراء. ستصبحين أمًا عما قريب.

- لا يعنيني كثيرًا أن أصبح أمًا، فوظيفة الأم خطرة، وأخشى أن أكون غير جديرة بها. لا تشغلي بالك كثيرًا بهذا الأمر، أخبريني عن كل شيء في مصر.

- لا جديد، غير أننا لا نستطيع التأقلم مع الأجواء هنا، على جميع الأصعدة.

- أفهمك جيدًا، ولكن....؛.... انقطع الخط بيننا.

16

- عليك بالحمام، هكذا قالت أمي بكل حماسة، فالحمام المذبوح هو الحل المناسب للعقد، والتمائم المخبأة في جدران البيوت، وحتى في ثنايا الثياب، يقولون عندنا في القرى أن الحمام يفك الأعمال ويبطل السحر، ويحرق عن الحسود،ويدلك على المخبوء من المكائد، ويبين الخونة ويحل المشاكل ويحل الربط، لذا تحمله النساء طعامًا للعرسان الجدد حتى لا تعيق حياتهم الجديدة مكائد النسوة اللواتي يعملن بالسحر في قراهم أو في القرى المجاورة. وأنتِ لم ترتاحي في حيتك يا فريدة، لقد فشل زواجك، وتركك زوجك من اجل امراة أخرى، وانهدم بيتك، وانحرم اولادك من أبيهم. كثير هو ما تعانين يا حبيبتي. جربي الحمام.

- الحمام؟، هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًا؟

- نعم، تقول العجوزات أن نساء القرية يحشون الحمام بالفريك. أتعرفين سر الفريك يا فريدة؟، تقول القرويات أنه يصبح شهيًا فقط حين يفترش بطن الحمام، وأنه يفقد طعمه إن امتزج بطعام آخر، لهذا تقول عنه النسوة اللواتي يكرهن "مثنى، وثلاث، ورباع": أنا زي الفريك مبحبش شريك.

- هههه، تقصدين أنني بعد كل هذه السنوات التي قضيتها في الدراسة والقراءة والترجمة، سأفعل ما يفعله أهل القرى العتيقة؟

- ولم لا؟، لقد عاشوا طويلًا بهذه العادات، ولم نسمع يومًا أنها جاءت بغير ما يعتقدون.

وقلت في نفسي:" هل يمكن أن يكون إيماننا بقوة الشيء هي التي تمده بالقوة؟، أم أننا نتهيأ نفسيا للنتائج المقبلة مما يجعلنا أكثر هدوءً و يقينا بأن عقدنا ستنحل إن فعلنا ما قالته به نساء القرى البعيدة قديمًا؟"، فأردفت أم صالح؛ خادمتي:

- كل ما عليك هوالتجربة، لن تخسري شيئًا، أعتقد أن هنالك من دس اسمك في طلسم ما من طلاسم النفاثات في العقد، فوجهك دائم الشحوب، ويؤلمك ظهرك بصفة مستمرة، ويصيبك الصداع لأقل مجهود، كما أن عصبيتك تزداد يومًا بعد يوم، وتزيد خسائرك يومًا بعد يوم، - - منذ جئت إلى مصر، بعد غزو الكويت، وأنا اخرج من مشكلة لأدخل في أختها ولربما كان غزو الكويت نفسه من فعل الأعمال السفلية.

- لا شيء بعيد على الله. ربما تعود فلسطين و تسقط أمريكا في المحيط. اسمعي نصيحتي، وسترين العجب بعد ذبح الحمام.

- تقصدين أن سبب الشقاق بين العراق والكويت جاء نتيجة لأعمال السحر؟، قلت هذا وانهرت في الضحك، واردفت: حسن، سأجرب بالطبع، فلحم الحمام، هو اللحم الوحيد، الذي لم يصبه التلوث حتى الآن؛ إذ لم تلحق به الهرمونات، والمواد المصنعة، التي اعتدنا تناولها بشكل أو بآخر من هناأو من هناك؛ مازال الحمام رغم مأساته في بلادي طاهرًا، غير ملوث لم تنل منه المسرطنات."

هزني الحديث عن ذبح الحمام، وماله من قدرة على فك المربوط، وحل العقد، وكشف الخونة والمتآمرين، ورحت أسأل نفسي:" إن كان ما تقوله القرويات عن الحمام صحيح، فلماذا لم يكتشف الحمام المذبوح في طرقات البلاد، الخونةوالمأجورين إلى الآن، لماذا لم يفك عقد الصباحات التي اسودت في البهو العلوي للكون، وفي الردهات المؤدية إلى الملاجيء والمخابيء والسجون والمعتقلات؟ وعللت لي نفسي:"ربما كان حمام المدينة يتعاطى شيئًا غير التعاويذ البيضاء"؛ لم لا أجرب، لوفشل الأمر، سيكون الحمام هو الذي فشل، ولست أنا، وعن نفسي، فأنا لا أجد معنى للفشل سوى النجاحات المقبلة.

وصل الحمام من دكان الطيور مذبوحًا؛ يحمل دمه طازجًا إلينا في الأطباق الورقية التي نام فيها، كانت كل حمامة تخبيء رأسها المقطوع في صدرها وتنثني رقبتها باستسلام على طول قفصها الصدري الهش. تنعي أحشائها المنزوعة في تجويف بطنها، تمامًا كما يفعل الأطباء الشرعيين، حين يقومون بتشريح الجثث خاصةً في المستشفيات الحكومية، حيث ينزعون الأحشاء ويبدأون القطع من أول نقطة في الزور وحتى يلتقي المشرط بالعانة، لكن ذابح الطيور تعدى العانة. هكذا قالت لي جارتنا الممرضة يومًا. حين مات رئيس البلدية وسرت الإشاعات تنشر احتمال أن يكون هنالك شبهة اغتيال. لكم كان متأنيًا في ذبحه ولفه بائع الطيور هذا. كان الحمام غارقًا في دمه. وبدأت مسام أجساد الحمام في امتصاص الدم مرة أخرى، فقد تحول لون الجلد إلى لون أصفر مائل إلى الحمرة لمشوبة بالأزرق، يا إلهي لماذا يذبحون الحمام ؟ هممت بالابتعاد عن منضدة المطبخ فسألتني أم صالح:

- كيف تريدين الحمام سيدة فريدة؟، هنالك طريقتين لحشو الحمام؛ بالفريك، أم باللحم المفروم والبصل؟

في الواقع، لم يكن مهمًا بالنسبة لي كيف سيتخذ الحمام حشوته، لأنه ،بالنسبة لي،أصبح فاقدًا لمعناه الأول،السلام، حين رأيته ذبيحًا. لم يعد رمزًا للسلام، ورأيتني أفكر به طويلًا وهو طريح المائدة؛ كيف يرمز للسلام وهو أسهل ذبيح في بلادي؟، كيف يرمز للسلام، وقد فقد جناحاه البراح؟ من لا يملك جناحين والبراح؛ عاجز؛ أسير؛ لا يعرف كيف يوقف الحرب والخراب، ولا يعرف معنى النجاة. لم أعرف حمامًا يحمل غصن زيتون بمنقاره، ويقف ليلتقط له الناس صورًا يخبروننا عنها فيما بعد أنها رمزًا للسلام، ولم أر برجًا للحمام غير خاضع لقرار بالإزالة ينفذه يومًا رجال العمدة، وعصي القرية. لم أسمع يومًا أن شعبًا للحمام بعث في

القرى رسولًا يحمل راية بيضاء، ويطالب بالعدل، إلا أردوه قتيلًا، ولم أر الكلاب تطارد شيئًا في قريتنا غير الحمام، إذ يعتبرونه صيدًا سهلًا، ينشرون له الشباك دومًا، ويصنعون له الفخاخ حين يحط على عتبات الدور أو دعامات النوافذ. لكنني أقسم أنني رأيت الحمام يطير، ويحط في دوار بيت جدي؛ يلتقط الحب كعادة الطيور، ولا يقترب من الدخان المنبعث من الفرن الطيني خلف دار جدي. ورأيت حمامًا يصادق أخي، ويطيع صفيره وتلويحات يده. كان الحمام مطيعًا في بيت جدي. وأعرف حمامًا يقتله الحزن إن مات وليفه، وأعرف حمامًا طار إلى القرى المجاورة كي يتفاوض مع حمامها، على كيفية حماية الصغار من أبناء الأفاعي. وكثيرًا ما رأيت حمامًا يحلق شريدًا حين يهدمون عشاشه ليلًا، وهم يحتطبون الشجر. لقد رأيته، دومًا، يموت حرًا طليقًا. أما الآن، وقد جاء ذبيحًا، لم يعد يشكل لي إلا أجنحة مكسورة؛ لقد اكتشفت أنهم يذبحون الحمام في قرى بلادي منذ زمن بعيد، ليتخذوا من دمه تمائم تطرد الشياطين وتفك الأعمال، ولم لا؟ فلربما كانت هذه هي دلالته الأولى، وكعادتنا حين تصلنا الأشياء؛ نجردها من معناها الأصلي، ونلبسها دلالات ما أنزل الله بها من سلطان. يا الله، لقد خرجت عن شعوري، لا، بل أطلقت العنان لروحي كي تهدأ، ثم خرجت من شرودي وقلت:

- حسن، المهم الآن، أن نأكله، تعرفين أنني لا أشتهي الطعام إلا إن صار أمامي، ثم أنني لا أريد الحمام للأكل ، بل.....؛ كنت على وشك أن أخبر أم صالح السر وراء طلبية الحمام اليوم، لكني أمسكت لساني، كي لا يَفسَدُ عمل الحمام المذبوح في كشف المستور، وفك الأعمال والرصد.

تركت المطبخ، وعدت إلى حيث تجلس أمي في كرسيها الوثير، تطرز الوقت تسابيح ومفارش، كانت تضع شالها الأبيض على رأسها، فينسدل على كتفيها، وصدرها،

فيتماهى لون وجهها الثلجي مع لون الشال ، ولا يقطع الأبيض فيهما إلا لون عينيها الزرقاوين حين أدخل عليها فتترك الإبرة ، وتنظر إلى، وتبتسم، بفمٍ فقد كل أسنانه إلا اثنتين، كانت تقول لى أنهما كافيتان للتعامل مع الفتة، وتضحك، فأرى العمر وقد انفلت منها إلا قليلًا. كانت حركتها ضعيفة، لا تقوى على النهوض للوضوء، فكانت تتيمم طوال الوقت، وتجلس تجاه القبلة، وما إن ينطلق الأذان لأي وقت من الخمس حتى تفر إلى الله.

جلسنا إلى المنضدة التي لا يفصلها عن مشهد البحر إلا ثلاثة أمتار يمثلون عرض الشرفة، وجاءت أم صالح بالغداء، كنا ستة أشخاص، أنا، وأمي، وأولادي: ساندرا، ويوسف، وأكرم، وأم صالح. كانت رائحة الطعام شهية للغاية، ولكنني كالعادة أفضل الشوربة؛ تناولت كوبين من الشوربة قبل أن ترفع أمي الغطاء عن الحمام، فقلت في قلبي:" أخيرًا، وصل رمز السلام مذبوحًا، ثم منتوف الريش، مشوه الأجنحة، يضعون رجليه في فتحة شرجه، كي يبدو وقد احتفظ بأحشائه، يسيل السلام من جنبيه صريعًا، ويمضغه العدل في توزيعه بيننا، فحمامة لكل شخص، تعد كافية لأن ينام ساعتين على الأقل". كان مشهد الحمام وهو يختفي رويدًا من أمامنا، كفيل بأن أصر على رفضي لكل ما نشأت عليه من أفكار جعلت كبار الرسامين في العالم يتخذونه رمزًا للسلام، ويصوره البعض لنا وقد وضع غصن زيتون في فمه، لا أرى لما يقولون أي معنى الآن غير أنه الآن "يرقد بسلام"، ومن قبل؛ فقد السلام، ومن قبل؛ فقد الأمان، ومن قبل؛ استدرجوه إلى المذبح. أصبح كل ما يهمني الآن هو قدرته؛ التي حكت لي عنها جدتي، على كشف المستور، وفك الأعمال، وطرد الشياطين حتى أجد ما أؤمن به في هذه البلاد الثرثارة.

رفعت أم صالح وساندرا المائدة، وطلبت جدتي كوبًا من الشاي الأخضر"زردة"، فطلبت مثلها. بدأ مفعول الحمام يظهر علينا تباعًا، فماهي إلا لحظة، حتى نامت جدتي جالسة في مقعدها؛ مال رأسها، فوضعتُ لها

مخدة تحت خدها الأيمن، كي لا يهاجم الغضروف رقبتها، ثم اختفت ساندرا في غرفتها، وتمدد يوسف على الصوفا، ونظرت فلم أجد أكرم، فقد انسحب إلى غرفته، وبقيت وحدي أغالب النوم، وفجأة رن جرس الهاتف:

- هالو؟

- عمتي جيهان، مرحبًا، تليفون عزيز يا عمة، ياإلهي كم أشتاق إليك.

- حبيبتي، هل أنتم بخير؟

- على مايرام يا عمة، لاينقصنا غير رؤياكم.

- كيف الأولاد، والجميع؟

- الحمد لله، جميعنا بخير حبيبتي.

- الله يرضى عليك ويحميكم، فقط أردت ان أخبرك أن أحد أمناء الشرطة أحضر إخطارًا مفاده أنك لا بد أن تذهبي إلى محكمة إدكو لتقدمي أصل الشيك أمام القاضي؟

- محكمة؟ قاضي؟ ماهذا الذي تقولين ياعمة؟

- سأرسل لك الإخطار مع السائق لتقرئيه بنفسك، لا تقلقي، الأمر متعلق بنقود لم تسلمها لك المرأة، فأصبحت هي بذلك متهمة بخيانة الأمانة، ويبدو أن المحامي الخاص بك رفع قضية بهذا الشأن.

- امرأة؟ ليس لي مال عند أحد؟، وحتى لو استدان مني أحد، ولم يرد الدين، لن أشتكيه ولن أضيق عليه، عمومًا سانتظر السائق يا عمة؟

- لا تلقي حبيبتي، أنت الطرف الشاكي وليس هي؟

- هي؟، ما اسمها؟

- جميلة محمد مهران؟

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، أشكرك يا عمة.

- حين يصلك السائق وتفهمين المسألة، أخبريني ما الأمر، حتى أطمئن عليك.

- لا تقلقي، سأفعل بالطبع، أشكرك عمتي.

- الله معك.

وصل السائق فاختطفت الورقة من يده، وقرأتها، كان الأمر متعلق بأشخاص لا أعرفهم، ولكني لمحت اسم المحامي، أعرفه جيدًا بالطبع، كمال، زوج أخت زوجي، وكنت قد وكلته بناءً على رغبة زوجي، مممممم.....، ولكت، لقد مر وقت طويلٌ، أكثر من عشر سنوات؛ يالله، هل هذا معقول؟؛ لم أوكله عني، منذ ذلك اليوم الذي سجل لي فيه عقد شراء مزرعتي في منطقة كنج مريوط، ما هذا الذي يحدث؟، وعلى الفور اتصلت بعمتي وأخبرتها أن المحامي خان الأمانة بالفعل، وقام باستخدام توكيلي لتحقيق مصلحة شخصية، بل إنه انتحل اسمي، فأعطتني رقم محامٍ موثوق به، يتعاملون معه منذ زمن، فتكلمت إليه وشرحت الأمر، وقرات له مضمون الاستدعاء، فجاءني رده صاعقا:

- لا تقلقي سيدتي، فمثل هذه القضايا معروفة لدى الجميع، وتكتظ المحاكم بكم هائل من المدعى عليهم زورًا وبهتانًا.

- تقصد أن السادة القضاة يعلمون أنها ملفقة من البعض المحاميين؟

- للأسف، ولها اجراءات معروفة، أولها إلغاء التوكيل للمحامي، وإبلاغه بهذا رسميًا في محل إقامته، وفي النقابة، ولدى المحام العام.

- ولماذا يتم تحرير محضر بموجب صورة الشيك، ونحن في عالم احتل فيه التزوير مكانة عالمية؟.

- اجراءات تؤدي إلى اجراءات، ليس إلا، خطواتها التلفيقية معروفة، وخطوات الفكاك منها معروفة.
- وكيف يمكن لهذا الأمر أن يختفي، هذا ظلم بيِّن، وتعدٍ على الحقوق، وابتزاز لأبرياء، وربما تعريض الطرف المتهم لسجن دون وجه حق، يتبعه بالطبع تضييع أطفال وهدم بيوت.
- القوانين، القوانين بحاجة إلى تغيير بلا شك، ولكن ماذا نفعل نحن؟، لو دخلت إلى قاعات المحاكم، ستجدين أن المطروح من القضايا امور بعينها؛ غارمات وغارمين، لا يتعدى مبلغ ديونهم ثلاثة آلاف جنيه على أقل تقدير، وشيكات بدون رصيد، وطعونات بالتزوير، وإتجار بالمخدرات، وحيازة سلاح، وكلها مدبرة ويعلم الكل أنها كذلك، ولكن الورق هو الفيصل، والقاضي يحك بما تقوله الأوراق.
- ولمن نعلق الجرس إذن، ومن الذي بيده ضبط هذه الأمور؟
- النائب العام.
- النائب العام؟

وجدت نفسي أمام كارثة إنسانية بكل المقاييس، لا يملك حلها إلا النائب العام. ولكن، لا بد أنه مشغول للغاية بقضايا فسادٍ أكبر في بلادي.

كان من حسن حظي أن كان محامي السيدة المتهمة عبقريًا؛ أراد أن يستوثق عن الأمر مني شخصيًا، فلابد أن المرأة أخبرته بأنها لاتعرفني، ولم ترني مطلقًا. ولما كانت الورقة التي جلبها الشرطي لبيت عمتي مرفق بها رقم المحامي الخاص بالسيدة المتهمة، قرر المحامي الذي منحته التوكيل بعد يوم واحد من مجيء الإخطار أن يتصل به، ففوجيء الأخير بوابل من الشتائم؛ فقد حسب محامي المتهة أن المتكلم هو كمال المحامي المدلس، فلما تبين الأمر علمنا جميعًاأن كمال قام بتزوير صورة شيك بمبلغ أربعمائة ألف جنيه، وقام برفع قضية ضد المتهمة يتهمه فيه بالتبديد وخيانة الأمانة، حيث تقول الشكوى أن فلانا اعطى السيدة مبلغًا وقدره كذا، كي توصلهم إلى السيدة فريدة، ولكنها لم تفعل،فأصبحت بناء على ذلك خائنة للأمانة، ومن ثم صدر ضدها حكمًا بالحبس لمدة سنتين، واجب التنفيذ. ومنذ صدور الحكم؛ يلاحقها المخبرون في كل مكان، وعرفنا فيما بعد، أنها أم لثلاثة أطفال، وزوج يعاني مرضًا عضالا، وحماة عجوز، وان المحامي المدلس صدق لاخي زوجها، وقد اتفقا على ابتزازها لأنها الوصي على املام زوجها. ياإلهي، كيف يمكن للمرء أن ينسى وجود الله، فاضطر محامي المتهمة برفع دعوى تزوير ضد المحامي، ولولا عناية الله لما عرفنا عن الأمر شيئا.

- ماذا علي أن أفعل الآن؟.
- لا شيء سوى حضور الجلسة، وستقسمين أمام الله والقاضي، أنك لم توكلي كمال، وأنه خائن للأمانة، وأن لا علاقة لك بالأمر من قريب أو بعيد.
- بالطبع، سأفعل هذا.

ولكنني كنت غضبى للغاية من هذا ال" كمال"؛ فلم أتسبب له يومًا في أدنى أذى، ولم أك أشكل له أدنى مشكلة، وفجأة تذكرت وجهه حين نشرت الصحف صورتي مع اثنين من الشعراء المرموقين، وكان الخبر أن مؤتمرا علميا ينعقد في بلد عربي، راح زوجي وقتها ينشر الصحيفة فرحًا، ويقرأ الخبر لكل عائلته، أتذكر جيدًا أنهم رسموا الفرحة لأخيهم وليس لي بالطبع، كعادة الشرقيين؛ فزوجة الإبن مكروهة حتى النخاع من أهل زوجها.أتذكر يومها أن كمال أبدى استهزاءً ما بخبر دعوتي رسميًا في صحيفة قومية، فثار غضب زوجي و عنَّفه بشدة، بل كاد أن يطرده. ترى، هل ما زلت أزعجه رغم مرور كل هذه الأعوام؟ ورحت أتذكر عبارات محددة اعتادت دنيا زوجته أن ترددها كلما جاءت لزيارتنا:" لقد مر ست سنوات على زواجكما؛ ألا ترى معي يا إمام أن هذه هي المرأة الوحيدة التي مكثت معك كل هذه المدة، وأنا أستغرب أنكما

مستمران معًا إلى الآن"، نعم، أتذكر الآن جيدًا طريقةامتعاض وجهها البشعة، وكيف ينتقل فمها من مكانه المعتاد ليصبح في أقصى اليمين من وجهها حين يصطحبني زوجي معه إلى رحلات الصيد. ولكن، لقد مر وقت طويل منذ تركتهم، وقد مات زوجي منذ ثلاث سنوات، ماهذا الذي يحملانه لي؟، ألهذه الدرجة يمكن للمرء أن يكون حقيرًا؟.

كنت ألعنهم في كل لحظة، ليس من أجلي فقط، ولكن من أجل المرأة التي أفزعوها، وروّعوا صغارها، و قلب أمها وحماتها. حتى لو كانت المرأة مدينة لكمال أو لغيره، وعلى افتراض أنه على حق؛ لماذا يزج باسمي في أمر كهذا؟، لقد جعلني في القضية مثل " الكحول"؛ ولقد عرفت فيما بعد أن "الكحول" شخص وهمي، يتم استخدام اسم وهمي كطرف متعاقد للنصب على الغير كما يقول المحامي؛ هكذا يصنع النصابون من المقاولين حين يقومون بهدم العقارات القديمة من أجل إعادة تشييدها، حيث يزجون باسم شخص وهمي، ليكون طرفًا في التعاقد مع أصحاب العقارات الأصلية، ومن ثم، يقومون بقنص الأموال والعقارات.

هذا تمامًا، ما فعله كمال ليبتز تلك المرأة، فقررت الاتصال بالسيدة المتهمة زورًا:

- السلام عليكم، جميلة؟

- نعم،

- أنا فريدة، التي يتهمك محاميها بخيانة الأمانة.

- لم فعلت بي هذا؟

- ما الذي فعلته بك؟ اهدئي قليلًا عزيزتي، واسمعيني جيدًا، أنا أتحدث إليك الآن كي اهديء من روعك، وأخبرك أنني لم آمر المحامي بشي، وأنه استغل توكيلًا كلفته بموجبه يومًا أن يقوم بإنهاء بعض الأمور. ولكي أقول لك، استريحي واهدئي، سآتي بنفسي يوم الجلسة كي أقسم أمام القاضي على أنك لست مدينةً لي بأية مبالغ، وأنني لا أعرفك ولم ألتق بك مطلقًا، فهدات المرأة قليلًا، وبدأ صوتها المخنوق في الخروج من حنجرتها بشكل أقل توترً

قالت:

- القضية مرفوعة من مكتب كمال، ولكنني علمت أن المرأة التي تنوب عنه في المحكمة هنا هي زوجته، فهي تعمل بالمحاماة هي الاخرى.

فاجأني كلام المرأة، فقلت:

- زوجته؟ دنيا؟، دنيا؟ هل تعرفينها يا جميلة؟

- رأيتها كثيرا في أيام الجلسات، كان يبدو عليه الحمل واضحا.

- حامل؟ وتركض بممرات المحاكم كي تؤذي امرأة بريئة؟ ألهذا الحد وصل الأمر بهم، ولم لا؟ فقد اكتشفت بعد فترة من زواجي من إمام، أنه اتفق مع رجال عائلته على بيع ممتلكاتهم لبعضهم بموجب توكيلات رسمية، كي لا ترثهم النساء الغريبات، وقد كنت غريبة للغاية، شكلًا وموضوعًا. فلا داعي للاستغراب، فقد اكتشفت ،بأثر رجعي، أنهم لايصلحون لشيء جميعًا؛ بما فيهم زوجي، ذلك الرجل الذي تزوج صديقتي سرًا، بدعوى أنه أراد ان يمتحن حبي له، يالله، كيف يعيش هؤلاء القوم بهذه الضمائر الخربة؟

ربما قالت جميلة كلامًا كثيرًا لم أسمعه، لكنني قلت لها أخيرًا:

- اهدئي سآتي إلى المحكمة كي أبريء ساحتك، بلغي شكري للمحامي الشريف الذي فكر إخطاري بالأمر، وكان هذا نذير شؤمٍ لكمال بالطبع.

- هل حقا سيدتي، ستفكين قيدي؟

- اطمئني، سآتي بالطبع، أنا لاأقبل ما حدث مطلقًا، ولو كنت أسألك مال قارون، لما روَّعتُك، ولما جعلتك تنامين يومًا بين الخوف والفرار من المخبرين، اطمئني عزيزتي.
- المخبرين؟ أنت لا تعلمين شيئًا عنهم، "يمهل ولا يهمل"، لا أملك إلا الله ودعوات أمي وحماتي وأطفالي وزوجي كنت أهرب منهم أحيانًا فأنام في حظيرة المواشي، وأنتظر حتى ينصرفوا، لأعود إلى فراشي، لكم انتهكوا الفجر في بيتي، لو انني سرقت مصر، لما فعلوا بي ما فعلوه، ناهيك عن تلويث سمعتي؛ نحن قرية صغيرة، تطير الأخبار فيها مع العصافير صباحًا، ولن ينشر الناس عني سوى سيرة عفنة، وإلا لماذا يجيئني زوار الفجر، الناس لا تعرف إلا الشرف، ولا تفسر الأمور بعيدًا عن أسفل الخصر، كم كنت أخشى اللحظة التي يتمكنون فيها من الإمساك بي، كنا جميعا نرتعد من تخيل لحظة خروجهم بي من المنزل وسط عيون قريتي، ومصمصة شفاه النسوة، وحملقة عيون المتسكعين من الرجال، لن تمحو عني كل مياه زمزم عار المشهد. ولن يجدي إن علقت على داري منشورًا يقول أن محاميًا بلا ضمير اتهمني زورا، لأن "ايده طايلة"
- اهدئي عزيزتي، سترها الله من قبل، ومن بعد إن شاء الله.
كانت كل مشكلتي مع جمال أنه استخدم إسمي وتوكيلي في عالم قذر كهذا، ولربما استغله في غير ذلك، من يدري؟
وهنا اتصلت بمحامي جميلة:
- أنا فريدة ماهر، أعمل مترجمة صحفية لدى صحيفة "الخروج"
- أهلا بك.
- أشكرك كثيرًا لانك فكرت بإرسال الإخطار إلى عنواني مباشرة.
- كان حلًا قبل أخير بالفعل؛ فقد قدمت طعنًا بالتزوير، لأنني أعمل محاميًا لموكلتي جميلة منذ عشر سنوات، ونحن أبناء قرية واحدة، وكل أبناء القرية يعرفون بعضهم البعض بشكل جيدٍ، وعلى صعيد أسري، نحن هنا عائلات، لذا فإنني أعلم جيدًا أنها بريئة.
- وفقك الله، ولكن قل لي:كيف يمكن لأحدهم ان يرفع قضية خيانة أمانة بموجب صورة الشيك لا أصله؟
- الأمر أنه يرفع الشيك بثلاثة أطراف، صاحب النقود والوسيط والمستلم وانت هنا مستلم اشتكى أنه لم يصله شيء من الوسيط التي هي هنا جميلة.
- وكيف تتم إجراءات قانونية بحتة بموجب صورة؟، كيف نشوه حياة شخص بموجب صورة؟ وكيف يصبح الشخص نزيهًا، وموثوقٌ به، ومصدَّقًا لدى الدولة بموجب كارنيه" ماذا عن الذمم والأخلاق والنزاهة؟
- القضاة يعرفون مثل هذه القضايا، فهم ينظرون المئات منها يوميًا.
- وكيف ينتهي الأمر إن ثبت أن المحامي مزور؟
- أقصى شيء سيتحول إلى النيابة، وسيحاول هو بكل إمكاناته أن يبريء نفسه. ولكن إن وضع محاميك يده في يدي سنتمكن من معاقبة كمال بحبسه على أقل تقدير وشطبه من النقابة.
- وهو كذلك، ليكن هذا، سألغي له التوكيل صباحًا، وسينهي محاميَّ "علاء" كل الإجراءت الأخرى قبل الجلسة إن شاء الله.

-17

مصر- فاصلة- إتكو

يبدو أن الشتاء قد عامل هذه المدينة بقسوة، كانت المرة التي أدخل فيها هنا، بل إنني ولأول مرة، أعرف أن هنالك مدينة تسمى إدكو تقع على أطراف الإسكندرية، كانت الأراضي الطينية قد انشقت بالكاد لتكشف عن

ممر ضيق يسمح بمرور سيارة متوسطة الحجم، وكان السائق يحول قدر الإمكان تفادي الأماكن الموحلة، وكنا أنا والمحامي وولدي قد اتخذنا مقاعدنا في السيارة التي وترها الطريق. لم نكن نعرف الطريق التي تؤدي إلى المحكمة، فاتصلنا بجميلة، كان صوت جميلة يدل على أنها امرأة ريفية طيبة، أما المحامي فتدلني نبرة صوته على أنه محام مخضرم يحمل من صفات الرجولة والشهامة الكثير.

وحين دخلنا المدينة سألنا عن الجامع الكبير، حسب وصف جميلة،فلما وقفت بنا السيارة لدى باب الجامع، اتصلت بها، وما كادالجرس يرن حتى جاءني صوتها متلهفًا ومرتعبا:

- أستاذة، هل ستعتذرين لسوء الأحوال الجوية؟

- نحن هنا يا جميلة، سيارتنا تقف بجوار الجامع الكبير عزيزتي.

- حقا؟، أشكرك، سوف أتيكم بعد دقائق.

- لكن السيد صادق المحامي لا يرد.

- لا، ربما أنه لم يسمع، فالمحكمة هنا لا تبدأ قبل العاشرة، مازال الوقت مبكرًا، انتظروني.

مرت ربع ساعة قبل أن يرن هاتفي.

- جميلة، أين أنت؟

- بجواركم، هل أنتم بداخل السيارة السوداء الشيفروليه؟

- نعم، نحن.

- أنا على الناحية الأخرى من الطريق، سأعبر إليكم حالًا، ونظرنا جميعًا فرأيناها؛ امرأة قروية بسيطة، تبدو عليها علامات القلق، وبدا أنها تتوجس منا خيفةً،أيضا، لو كنت في موقفها،لشككت في الهواء الذي أتنفسه، يالها من مسكينة، لا بد أنها تخشى من المخبرين ولا بد أنهم سببوا لها فوبيا الأماكن المفتوحة.

نزلنا جميعًا من السيارة، وقابلتنا هي بترحاب شديد؛ سلمت على الجميع بروح فتاةٍ مرحة، كان تضع أحمر شفاه، وكحلًا، كانت عيونها زرقاء، فأشفقت عليها كثيرًا، وضحكت في آن معًا؛ إنها تتمسك بحريتها إلى آخر وقت، كان أحمر الشفاه يعكس رغبةً دفينةً وأملًا في النجاة.

-أين طريق المحكمة؟

- مازال الوقت مبكرًا، سنشرب الشاي في بيتي أولًا، كما أن حماتي ترغب في رؤيتك يا أستاذة.

تبادلنا جميعًا النظرات، ثم قال المحامي: لا بأس.

حشرنا جميلة بيننا في السيارة، وتلكعت بنا السيارة وهي تعرج بين الممرات الضيقة، حتى وصلنا إلى بيوت قديمة، تتراص كالأكواب بجوار بعضها البعض، ثم نزلنا أمام بوابة حديدية صغيرة، بنية اللون، وتقدمتنا جميلة.

- تفضلوا، من هنا، دخلنا ساحة وسيعة، خرج من وسطها سلم طويل، نقلنا إلى الدور الثاني، فوجدنا أنفسنا أمام باب اصطف أمامه ثلاثة أشخاص، أحدهم زوج جميلة، والآخران ولديها الصغيرين، وفي الخلفية، تجلس امرأة عجوز للغاية؛ كانت تحاول النهوض لكي تستقبلنا، عرفنا فيما بعد، أنها حماة جميلة، استقبلنا الدار بمن فيه بكل حفاوة، وقالت جميلة:

- هذه هي الأستاذة فريدة، يا حاجة.

- أهلا وسهلا، شرفتينا، لقد عرفت أن الله سيجعل لجميلة مخرجا، فهي سندنا جميعًا، هي رجل هذه الدار، وكنت أدعو الله أن ينقذها، فهي بريئة، والأمر كله كيدي، لأنها وصية على أموال زوجها، فليلعن الله الشيطان الذي جعل أحد ابنائي يتواطأ مع المحامي جمال، كي ينغصوا عليها حياتها، فتضطر هي إلى إسكاتهم بالمال.

نظر إلى المحامي نظرة فهمت منها أنه يريد للعجوز أن تسترسل، فبعد قليل سأدلي أنا بشهادة مهمة تبريء ساحة جميلة، وكان يريد ان يتأكد أن ذمتها بريئة من أية أموال طالب بها جمال في معرض شكواه ضدها.

كان الأمر يدعو للشفقة، فزوج جميلة يعاني من مرض عصبي، وبدا الأمر واضحًا، فهو يرتعش طوال الوقت، حتى حين استقبلنا،لاحظت أنه لم يتمكن من الجلوس بسهولة، وكانت العجوز تصف لنا كيف أن المخبرين هددوا أمنهم مرات كثيرة، وكثيرًا ما اضطر المحامي إلى أن يطعمهم بعض المال، كي لا يذهبوا إليها عند الفجر. كانت المرأة تتكلم وتبكي طوال الوقت، ورحت أراقب كل شيء بالمنزل، ولم يوجعني غير الأطفال، وبعد قليل دخلت طفلة ترتدي زي مدرسيًا، قدمتها جميلة لنا:" براء ابنتي، الصف الثاني الابتدائي".

لكم هو مجرم هذا المحامي الذي يروع بيتًا تقوم على رعايته امرأة. وتختبيء فيه أرواح ضعيفة، سيكون مصيرهم مروع لا محالة، إن تم إيداع جميلة السجن. رحت ألعن جمال وزوجته طوال الوقت، وكنت أسمع كلمات الله طول الوقت ترن في أذني: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين"

أصرت جميلة أن نتناول الفطور بيتها، وحتى لا نصدر لها أية مشاعر سلبية، قمنا جميعا إلى المائدة، وجلس زوجها معنا، وأكلنا جميعًاالفول والفلافل الشهية والخبز البلدي، والليمون المعصفر، والبادنجان المحشو بالثوم والشطة، ثم وزعت علينا أعواد النعناع، وبعد أن تناولنا الشاي اللذيذ، ثم اتصلت بالمحامي فقال لها يمكنكم المجيء إلى المحكمة الآن، فتحركنا جميع تتبعنا دعوات الحماة ويشكرنا ولداها، وفجاة قالت ابنتها:

- أمي، هل ستعودين اليوم؟ أم انهم سيأخذونك إلى السجن؟

- ساعود يا حبيبتي، لقد جاءت أستاذة فريدة إلى هنا كي تفك قيدي.

كانت كلمات الطفلة موجعة لنا جميعًا، يا إلهي، ماهذاالعبث؟؛ لقد خيم الظلم هنا وقبع في دار جميلة طويلًا لأن محاميًا أخل بشروط المهنة، وعاث في الأرض فسادًا بموجب "كارنيه".

وصلنا الشارع الذي تنتصب فيه المحكمة، ووقفت السيارة أمام جمع كبير من الناس، لاحظت ان الجميع يرتدون الزي الفلاحي؛ القفطان ذو الأكمام الواسعة، والصديري المكسو بخطوط فضية. كان لهم جميعًا وجوهًا جميلة، أثرت فيها الشمس بشكل واضح، وكان غالبيتهم من كبار السن، واتصلت جميلة بمحاميها الذي ظهر أمامنا على الفور، وراح يتفحصنا جميعًا، ثم سلم علي وقال: أهلا يا أستاذة، شرفنا بك كثيرًا، وبادلناه جميعًاالتحايا، وفجأة قالت جميلة للمحامي:

- انظر، هذا هو المحامي الذي يتابع القضية بدلًا من زوجة جمال، أنا أعرفه جيدً، إنه يأتي في كل مرة إلى الجلسة فيتابع الأحداث، ثم يحمل هاتفه و يخبرهم بما انتهت إليه، إنه هنا اليوم، كالعادة، لينقل إليهم الأخبار، فالتفت إليه فوجدته يتابعنا بالفعل من خلف نظارته، ثم يتكلم في الهاتف، وانتبهت إلى أنه يصف للطرف الآخر ملامحي، فقلت في نفسي، فليذهبواإلى الجحيم جميعًا.

وبعد ثوان دعانا المحامي لدخول القاعة. فلما ولجنا الباب،أصابني الذهول، كان المكان غير جيد التهوية، وبدت المنصة عالية بعض الشي؛ يجلس إليها خمسة أشخاص، التفتوا إلينا جميعا بمجرد دخولنا، فقد كنا بالفعل غرباء، كان المعاطف السوداء التي نرتديها تميزنا كثيرًا، ومن الطبيعي أن يتساءل المحامون في القاعة فيما بينهم عن سبب وجودنا، ورحت اتفحص القاعة الوسيعة، وأشفقت على القضاة كثيرًا، كانت منظر القاعة مزرٍ للغاية، لا يليق بكانة قاضٍ مبجل ومنصة تتكلم بسم الله على الأرض. وتفوح الروائح الكريهة فيها من هنا وهناك. اتخذنا مقاعدنا وجلسنا بانتظار أن ينادي الحاجب رقم القضية، ركزت كثيرًا على طريقة تعامل القاضي مع المحامين والشهود والمشتكين والمشكو في حقهم، وشكرته في نفسي كثيرًا؛ لسعة صدره، وهدوئه، وحسن استماعه للكل، ولمحته بين الفينة والفينة يرمقني هو ومن معه بنظرات خاطفة، كنت أقرأ

وجوههم جيدًا، وأعلم أنهم يقولون بينهم وبين أنفسهم: ترى،مالذي بهذه السيدة إلى هنا؟ وأي تهمة تحمل؟، شكلها يوحي بأنها ارستقراطية" كانت كل القضيا التي استمع إليها القاضي قبل أن يحين دورن تخص الخصومات على الأرض، والمياه، وتحويل مسارات لترع، وقراريط مسروقة ومحاصيل محروقةبفعل فاعل.

و

حين جاء دورنا، اتجهت كل الأنظار إلينا جميعًا، فالجميع يعرفون جميلة ويعرفون أهل زوجها، وجميعهم أيضا يتطلعون معرفة سبب مجيئها مع هؤلاء الغرباء إلى المحكمة، وشعرت بنظراتهم المتسائلة، وفضولهم ينخز جسدي حين تقدمت جميلة، وخرجت معها إلى الممر الذي يؤدي إلى المنصة،ووجدت الجالسين إلى المنصة بما فيهم القاضي يتنفسون الصعداء حين بدأ محاميي بشرح الأمر للقاضي، وكيف أنني هنا اليوم لكي أقسم بالله العظيم ثلاثًاأنني لا أسأل هذه المتهمة مالًا، ولا أعلم عن فحوى هذا الأمر برمته شيئًا، وأنني لم أوكل المحامي. لقد قرأت الارتياح على وجوه الجميع، فملامحي، وهيئتي، لا يوشيان بالتعدي، أو الجنوح. بعدها صدح محامي جميلة بمرافعته بصوتٍ عالٍ، وتكلم كثيرًا عن مطاردة المخبرين لها، كان السيد صادق بصوته الجهوري يعلن براءة جميلة امام قرية بأكملها، فبعد قليل ستطير الأخبار لتعلن براءتها. وطلب المحاميان تحويل المحامي المدلس للنيابة، وبكت جميلة من الفرحة، وعانقتني، فقد كانت شهادتي صك براءة لها، وفك رقبة من مطاردات المخبرين وقوة تنفيذ الأحكام.

كان يومًا عصيبًا للغاية، خرجت من المحكمة، وأنا مكتئبة؛ لا تنمحي من مخيلتي شكل القاعة التي يجلس إليها القاضي وبقية أعضاء المحكمة. في الواقع، كان الأمر لا يليق بهم، وكنت قد اعتدت مشاهدة منصات المحاكم في الأفلام العتيقة والحديثة، ولقد جاء الواقع هنا في هذه البلدة النائية مخالفًا لما أرتضيه ليد الله على الأرض تمامًا. وحزينة للغاية؛ لأنني عدت محملة بكلمات الطفلة لأمها: هل ستعودين يا أمي، أم انهم سيضعونك بالسجن؟. ومحمَّلَةً بجميلة التي نجحت في تخطي العقل الجمعي الذي نشأ على كره الحماة، ومحملة بالحماة التي اتخذت من زوجة ابنها ابنة فعلية، فقد سمعت في دعائها لها تضرع أم، ومحملة بجميلة الزوجة الجميلة التي تدعم زوجها المريض، وحماتها المسنة، وأطفالها، دون أن تبدي تذمرًا، ودون أن تلجأ إلى الخلع، كي تحظى بزوج قوي. ومنفعلة بالحس المرهف للجالسين إلى المنصة، ورفضهم لأن تكون هذه السيدة المحترمة، التي تتكيء على سواعد ولديها مطلوبةً تحت طائلة عقوبةٍ ما. وممتنة للغاية أن مكنني الله من فك رقبة.

ترى هل كان كل ما انكشف من أمر جمال وزوجته، وما دبراه لي ولجميلة من مكائد، وما انتهى إليه الأمر من براءة لها، ومن انقلاب السحر على الساحر، ووقوع كمال في شر أعماله ، لأنني دعوت الحمام إلى مائدتنا ذبيحًا، هل هذا من فعل الحمام؟. ورحت أسترجع أغنيات القرويات" نام وادبح لك جوز الحمام". إن كان هذا الموروث الغنائي هو معتقد أهل القرى، فلأي شيء تدعو هذه الأغنية؟، هل غنى القدماء لنا العبث؟، ولماذا زوج الحمام. لو كانت الحكمة من الذبح؛ إراقة دماء، فدماء أحد الزوجين تكفي، وإن كانت الأغنية الموروثة مجرد" ضحك على العيال"، فعلينا أن نعيد النظر في كل الموروث، وإن كان الحمام رمزًا للسلام حقًا، فإننا بذلك نكون نحن جميعا مشاركون في جريمة قتل السلام وتهيئة الأرض للحرب والخراب. ياالله، لقد كان يومًا طويلًا وشاقًا بالفعل، ولكني سأظل أدافع عن الحمام ما دمت أتنفس عدلًا.

.....

-18

استيقظت الجدة على صوت الهاتف، فمدت يدها ببطء شديد لترفع السماعة، وعلى الطرف قال أخوها مراد:

صباح الخير، أنا جاي النهاردة، متعملوش أكل، حاجيب لكم شروة سمك من اللي بتحبوها، يلا قوموا بقى يا كسلانين.
طارت الجدة فرحًا بعودة أخيها من ألمانيا، فقد كان في مهمة رسمية خارج البلاد؛ إذ يعمل لدى جهة رسمية عليا، ولا يحدثهم، بالطبع، عن طبيعة عمله، فهي من أسرار الدولة، اعتاداجميع غيابه المفاجيء وظهوره المفاجيء أيضًا من وقت لآخر. لكنهم يتوقعون منه فترات غياب طويلة كلما ساءت الأحوال الداخلية والخارجية للبلاد. وكثيرًا ما كان يطمئنهم بأن الأمور تسير إلى خير دومًا، وأن الدفة بيد ربان ماهر، وطاقم قوي، ويا" جبل ما يهزك ريح". كان رجوع أخيها يعني عدم النوم المستقر أو حتى المتقطع؛ إذ له طريقته في التعامل مع الوقت؛ يسهر طوال الليل، يعد شيئا ما، وينام ساعتين، ثم يستيقظ ليتناول قهوة الثامنة، وأخيرًا، يذهب ليلف التراك حول النادي لثلاث مرات، ويصطحب يوسف، وأكرم معه بالطبع. بعدها، يعود ثلاثتهم لتناول الفطور، ثم يجلسون جميعًا في الحديقة و يلعبون الشطرنج، والورق- لعبةالثلاث ورقات- لساعات طويلة، ولا يستفيقون إلا على صوت الشغالة:
- الأكل جاهز يا باشوات، تاكلوا هنا ولا على السفرة؟، وغالبًا ما كانوا يفضلون الأكل في الحديقة. كانت الجدة تهبط السلالم المؤدية للحديقة بصعوبة بالغة في الأيام العادية، لكنها تصبح أكثر رشاقة في الهبوط، حين تنظر من نافذتها، فتجدهم يستمتعون بوقتهم بين الضحك والضحك. كان الخال يمشي مختالًا يهز خصره يمنة ويسرة في حركة لولبية حين يهزمه أكرم ويقول مبررًا خسارته دومًا:
- اضرب خالك، يُعَدُّك.
كانوا يسمعون تلك العبارة منه دائمًا حين كانوا صغارا، ولم يسأله أحدهم يومًا عن معناها، ومأأن وصلت الجدة، واتخذت مكانهاإلى المائدة، حتى سأل أكرم خاله:
- ماذا تعني بعبارة:"اضرب خالك يُعِدُّك؟، فأجابه خاله:
- يعني لو اتعاركت مع خالك وكسبته، يبقى خالك نجح في إنه يخليك راجل صح، فاختال أكرم فرحًا، وقام ليرقص مع خاله، وأخذا يهزان خصريهما ووقفت الخادمة ترقبهما من بعيد وتقول:
- دول ولا أجدع رقاصات، صحيح البهوات دول مسخرة برضه هههه. أما يوسف، فقد كان يشاركهم بإلقاء النكات، ولا يجاريه أحد في ذلك. انهار الجميع في الضحك، ودمعت عينا ساندرا من فرط الضحك. كان يرقص بكرشه، وهو جالس، ويرفع يديه عاليًا، وهو يردد الأغاني الشعبية، فيقول بيما يرمق جدته بطرف عينيه:
- واركب الحنطور، وبحبك يا حمار، وسط استنكار الجدةالتي راحت تزم شفتيها باستياء، وكلما زاد استياؤ الجدة، استرسل يوسف في الغناء وهو يضحك بصوت مرتفع:
- حاتعورني حاعورك وابوظلك منظرك، واديك في الجركن تركن، وأديك في الحارة سجارة، كان يوسف يجيد تقليد ترديد الكلمات الرديئة، والنغمة الفوضوية، والرقصات السوقية، وكان قد اتخذ من المائدة طبلة، وبعد قليل،حضرت روح يوسف على ساندرا فبدأت في الرقص ، وراحت تغني:
- حاتجوز، حاتجوز، ومحدش حيبقى له عندي حاجة، وفجأة انخرط الجميع في الرقص والضحك بجنون، وهنا، رفعت الجدة عكازها، وحاولت النهوض من مقعدها، وهي تتوعد الجميع بالضرب، قالت:
- لوتتولي ودني يا ولاد الهرمة، بسسسسسسسس؛ كانت منفعلة بشكل حقيقي، وغضبت من تحول أخويها وأولادها إلى شلة هايفين، قالت:

- معقولة محدش في المصنفات محترم يرفض الكلام الفارغ اللي بوظوا بيه الزوق العام ده؟ حقيقي مش قادرة اسمع، فرد يوسف :
- ده كلام في الهجايص، سعات الواحد بيبقى عايز يخرج من رتابة الحياة، فيقوم مشغل شريط هجايص هههه، دي اللهجة العامية الجديدة.
- عامية هابطة.
- لأ، تقصدي لكنة ساقطة. لأن العامية الراقية هي لغة عربية فصحى ينقصها الضبط الإعرابي أحيانًا، ده اللي قاله لنا مدرس العربي في الثانوية...
- أنا عارفة إيه الخيبة دي. الناس بتتقدم ولا بتتأخر؟
- معاكي حق يا تيتا... وكلما زاد يوسف في شرح الحالة، زاد استياء الجدة، وبعد قليل، جاءت الخادمة تحمل الطعام، وهي تدندن بلهجة ريفية:
- "مين جالَّك تسكن في حارتنا، تشغلنا وتْخِلّ راحتنا"، فابتسمت الجدة، ونظرت إلى يوسف وأخيها مراد وقالت:
- شوف الكلام، مشاعر جميلة، وعتاب لذيذ، وجر شكل راقي، معقولة الشغالة تغني كده وانتوا تغنوا مهرجانات؟ العيب في مين بقى؟، يعني الفقراء عندهم زوق، وانتم وصلتم للمهرجانات؟ "لم يستطع أي منا ان يتهم جدتي بالطبقية بالطبع". وهنا، علت قهقهات الجميع، وقام يوسف ليحتضن جدته، ثم همس في أذنها بصوت مرتفع:
- أكيد كنتي مزة جامدة هههه عشان كده جدي عاش معاكي خمسين سنة من غير ما يفكر يتجوز عليكي، فضحكت وقالت:
- زمان مكانوش بيقيسوا الجواز بالمزز، زمان كان بيقيسوا بالتربية والعيلة والأخلاق، يعني العريس ده حينفع أب لأولادي ولا لأ، والعروسة دي حتنفع تكون أم تربي رجالة وبنات محترمين ولهم مراكز محترمة ولا لأ. مش مزز، فقال لها يوسف:
- قولي مزز تاني كده؟ هههه، فقالتها مرة أخرى،: فسمع الجميع " مُجَجْ، كانت أسنان جدتهم تنبيءعن اقتراب الرحيل، وتهدلت شفتاها، وتراخى خداها، وصنعت التجاعيد أخاديدَ عظيمة في العديد من المناطق بين حاجبيها، وعلى جانبي أنفها. وفجأة سكت الجميع لبرهة، وكأنما راحوا يفكرون معًا في شيء واحد في نفس الوقت، ويتساءلون بينهم وبين أنفسهم:
- ماذا لو رحَلَت؟
و قطعت الجدة عليهم تفكيرهم حين سألت يوسف:
- مش عاوز تقول لي بتخترع إيه يا عبقرينو؟
- أكرم هو اللي عبقرينو، انا غلبان، آخري اتعلم ازاي اكون هاكر.
- هاكر؟ يعني لص؟ متسلل، عيب عليك والله، طب اخترع حاجة مفيدة، فكر في حل للعنف اللي ماشي يخرب في البلاد ده.
- العنف مالوش علاج، عارفة ليه؟ عشان اللي ولد العنف ده، عنف أكبر منه، يعني مثلًا لما الضابط ياخد شاب شكله محترم تحري، ويزقه في عربية البوكس، وسط بتوع المخدرات والحرامية، الشاب ده حيعمل ايه لما يطلع من القسم غير انه يبقى عنيف، و مش بعيد يستنى أي فرصة تيجيله عشان ينتقم. ومش بعيد يفكر ينضم لشلة عاوزة تنتقم من الشرطة، لأن له تار عندهم. والغلبان اللي مش عارف يكفي طلبات بيته، أكيد

إحساسه بأنه مش قادر لازم يخليه عنيف، المجتمع اللي بيعامل المطلقة على إنها مشتبه فيها لن تثبت براءتها بيعمل فيها إيه غير إنه بيحولها لامرأة عنيفة تحاول الانتقام من كل شيء حتى نفسها، لأنها متهمة على طول الخط، سواء كانت محترمة أو منحرفة. حتى افتراض الانحراف في المطلقة عنف فرضه المجتمع على امرأة لا حول لها ولا قوة. يا جدة العنف سلسلة ابتدأت بوراثة تقاليد وعادات بقت مقدسة أكتر من القرآن.

- استغفر الله العظيم، كلامك صح، بس بلاش تجيب سيرة القرآن، لو حد غريب سمعك بتقول أن التقاليد والعادات بقت مقدسة أكتر من القرآن حيقول عيك ملحد، وبتطعن في الدين، وانت عارف المسميات كتيرة اليومين دول.

- ياجدة لازم نناقش الأمور بصراحة، لازم الناس تفهم ان كل شيء قابل للنقاش، ربنا بيقول لنا فكروا يا تيتا، فكروا، يبقى لما نلاقي العادات والتقاليد سلطتها أقوى من آيات القرآت علينا لازم نغضب ونقول بصوت عالي ستوب.

- معاك حق، معاك حق.

جلس الجميع إلى المائدة، بانتظار أن تكمل الشغالة إحضار بقية الأطباق، وما إن انتهت حتى ساد الصمت، فلم يسمع براح الحديقة غير صوت حفيف الشجر، قعقعة الملاعق في الأطباق من حين لآخر، وتمتمات لا تكاد تبين، تخرج من بين شفتي الجدة؛ لا بد أنها دعوات لأبنائها وأخيها كي لا يقطع الله لهم عادة، وكي يجمعهم دومًا على الخير، وفجأة طرحت ساندرا على الجميع سؤالا شرد الصمت:

- - لماذا أوصى الرسول خيرًا بالقائم على الأرملة واليتيم، ولم يعتبر في وصيته المرأة المطلقة؟ ولماذا ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه فيما يتعلق بالمطلقة، فلم يذكر صفتها صراحةً، فجعل المجتمعات المتخلفة تغتالها وتنتهكها؟ لماذا لم يحمها الرسول بحديث أو قول؟ ولماذا رأت الفتاوى أن الحديث عنها مغلق، طالما لم يأت على الأقل حديث ضعيف ليسند ظهرها، لماذا يبدو أن لا فصل لها في باب الاجتهاد؟ وهنا ابتلع الجميع ريقهم، وصمتوا، ولم يأتها رد.

-

-19

لم تسمح لي صحتي بحضور صلاة العيد الكبير لتلك السنة، ومع بداية التكبيرات التي صاحبت أذان الفجر، أضاءت ابنتي أضواء البهو الكبير، فتململت في سريري، وتيممت، وصرت أردد التكبيرات، وبكيت طويلا، فهذه السنة الثالثة التي تمنعني قدماي من النزول إلى الساحة الكبيرة، ولكني جففت دموعي فور سماعي صوت ابنتي تنادي طفليها كي يستيقظا لحضور الصلوات، وسعلت سعلة خفيفة كي تنتبه أنني بخير أولا، وأن بإمكانها الدخول إلى غرفتي، فقد كان غير مسموح، بناء على أوامر الطبيب، لأحد أن يوقظني قبل أن يستيقظ عقلي، وأتنبه من تلقاء نفسي، اقتربت من سريري وقالت:

- عيد سعيد يا أمي، أرجو أن تكونين دومًا بخير، وبيننا، أتمنى أن يجعلك الله من حجيج العام القادم.

- الله يرضى عليك ويرضيك دوما يا حبيبتي، هل أيقظت الشباب؟

- أيقظت الأطفال فقط، لقد أخبرني ثلاثتهم: زوجي وأخواي أن أوقظهم لصلاة العيد فقط.

- صلاة العيد فقط؟

- لقد جاءوا من العمل جميعًا في وقت متأخر، ولن يوقظهم الطبل البلدي، إن جاز التعبير.

- هل ستحضرين الصلاة أم....

- سأحضرها بالطبع، وسآخذ الأولاد، تنتظرني صديقاتي وأولادهن، سيكون الأمر جميلا، سأدعو الله لك كثيرا أمي.
- إنها الكأس، لا بد من ارتشافها حتى آخر نقطة، أرجو أن أعبرها بسلام.
- ما هذ الذي تقولين يا أمي؟ كلماتك تشبه كلمات الراهبات اللواتي علمنني أيام المدرسة الابتدائية.
- لافرق حبيبتي، نحن من صنع الفرق، يقولون الرب إلهي، ونقول ربنا الله، هي لغة عزيزتي، المضمون واحد ولا فرق، والمتلقي إما جاهل أو على دين الملك، أو مشتبه به، أو مسجل خطر.
- عيد مبارك يا أمي، لا يُملُّ من حديثٍ أنت فيه محاورٌ يا أمي، أتم الله شفاؤك على خير.
دخل الصغيران، قبَّلا يدي، فامتدت إليهما بالعيدية، في الواقع، كانا الولدان بمثابة جرعتي حنانٍ يومية بهما أصلب قلبي طوال اليوم؛ ضحكهما،وعراكهما، وحديث الكرة بين أرجلهم الصغيرة، وكلمة أوفسايد المتكررة، أشيائي التي لو أبعدوها عني أموت، وبعد قليل، جاءني صوت أكرم من بعيد من غرفته بالجناح الثاني:
- أمي، حبيبتي، كل عام وأنت حبيبتنا، وبين عيوننا، وبصحتك دائمًا، رددنا عليه جميعًا: وأنت بخير، وبعد قليل، نهض الجميع على تكرار مناداته لي كعادته:
- أمي، أحبك، أنت كل ما نملك حتى لو امتكلنا الدنيا بما فيها،أليس كذلك إياد؟ يوسف؟ وبعد قليل اصطف الجميع للصلاة خلف أكرم، كان أصغرهم، وأكثرهم التصاقًا بي وبالصلاة، كان يغني القرآن؛ لقد استجاب الله دعائي حين طلبت منه ولدًا يغني القرآن، مثل فلاح ابن جيراننا الذي كان يمر ببيتنا في طريقه من وإلى الوادي، عبر طريق مختصر سمح له بابنا الصغير بأن يكون مدخلًا لبساتين الزيتون. كان فلاح ، يدرس في الصف الثاني الثانوي، وكان يغني القرآن، يأتيني صوته رائعًا، مرتين يوميًا، فكان ن أرضاني الله ومنحني أكرم؛ نسخة طبق الأصل من أخلاق فلاح. وبعد أن صلوا جميعًا الفجر، جلسوا معي في غرفة المعيشة بانتظار صلاة العيد، وقبيل الصلاة انسحب زوج ابنتي ودخل غرفته لينام مجددًا، وتبعه يوسف الذي كنت أشك ، دومًا، في جيناته، فقد حصل على القدر الأكبر من جينات عمه المسيحي، فأولادي ينتسبون إلى أصل مسيحية عند الجد الخامس، أسلم منهم أخ فخرج فرع مسلم، واحتفظ الآخر بمسيحيته، ولكنهما أبقيا على ودهما لبعضهما البعض، وكنا نتقابل جميعًا في جميع المناسبات، ويبدو أن يوسف احتفظ في داخله بإيمان مسيحي – مسلم عميق، لا تستطيع الصلاة أن تسعه، هكذا كان يقول لي دومًا، أتذكره يقول:" لا أعرف كيف أركز في الحوار مع الله بينما أقوم بحركات الصلاة. إنني أصبح أكثر ابتهالًا وأكثر قربًا من الله حين أضع رأسي بين كفيّ وأغوص في روح الله، لم أكن أستغرب كلامه، كنت أفهمه جيدًا، وأعي ما يقوله، ولكن الناس لن يتفهموا هذا الكلام بالطبع، ولكني لم أسمح لنفسي يومًا بأن أشق عليه بالنقاش؛ هو كبير بما يكفي ليقرر ماهية علاقته مع الله. وبعد لحظات، وقف الجميع أمامي يرتدون العيد، ويقبلون يدي، ثم، خرجوا جميعًا لاستقبال صلاة العيد، كانت الشرفة تجلب لي أصوات التكبيرات، وصوت تجمهر المحتفلين، وشيئًا فشيئًا، انتشرت بانوراما العيد في شارع محمد نجيب الإسكندرية تكبيرً وتهليلًا، فلما أغلقوا الباب، عاد الدار إلى هدوئه المعتاد، بينما تصدح التكبيرات من وقت لآخر من هنا وهناك..
كنت قد غفوت قليلًا، ولم أستيقظ إلا على صوت أكرم هادرًا، كاد قلبي أن ينخلع من صدري؛ لم أتفوه بكلمة، ورحت أتفحص وجهه جيدًا، لأتمكن من قراءة الكارثة التي جعلته يقطع صلاة العيد على هذا النحو. كان يحمل سجادة الصلاة، وفجأة علقها على مقبض باب الغرفة، وقال:
- لم أجد الرسول بين المصلين اليوم، ولن أصلي العيد بعد هذه السنة.

جاءت كلماته كطلقات رشاش خرجت متلاحقة على مؤخرة رأسي، اعتدلت في جلستي، وقلت: الرسول؟، هل قلت أنك لم تجد الرسول؟

- نعم، كل اللافتات تحمل اسم "حسن البنا" ولم يستشهد الخطيب بغير كلام البنا، قلت ربما يكون هذا الرجل هو من أقام السرادق الكبير، وانتظرت أن يحدثنا عن دعوة سيدنا إبراهيم، وقصة الذبيح، والفدية وعن طاعة إسماعيل، لكنه لم يفعل. لم أجد الرسول يا أمي، فتملكني الغضب، وتركت الصلاة، وعدت. تخيلي أنني لم أسمع إلا تهليلًا يهدر من كل جانب بمجرد أن يُذكر اسم " البنا"؟

لم أسأله عن أخته وولديها، فلقد قرأت المشهد جيدًا، وأدركت أن الأمر سيزداد سوءً في البلاد في الأيام المقبلة، رحت أهديء من روعه، ولكي أبعد تفكيره عن الأمر قليلًا، نهضت من فراشي ببطء شديد، وحاولت النزول عن سريري، فخشي هو على أن فقد توازني، فركض نحوي، وسألني:

- ماذا تريدين؟ هل تريدين دواءك؟

- لا، أريد فقط أن أصنع لك كوبا من اليانسون تهديء به أعصابك قليلًا.

- أنت يا أمي، تدخلين المطبخ؟، وتصنعين لي اليانسون بنفسك؟ أرجوك يا أمي، الله يرضي عليك، أنت ضعيفة.

- أنا قوية بك يا حبيبي، قوية بك، فموقفك اليوم وغيرتك وحرصك على دينك مدعاةَ فخر لي، أنت قوتي يا حبيبي، فعانقني وبكينا طويلًا، كان الأمر لا يحتمل التجميل، فقد أدركنا أن البلد تمر بأزمة حقيقية، ولا مجال للمجاملة، لقد انسحب ابني لأنه وجد نفسه وحيدًا في الخراب؛ ليس لأنهم يذكرون اسم بعينه، ولكن لأن قومي صاروا طائفيين، الطائفية بين أصحاب الدين الواحد تعني اندلاع الكوارث التي لن تبقي ولن تذر.

- ليس من الحكمة أن تجهر بالرفض، حين يكون كل من حولك من حزب اليمين، عليك أن تستدير وتعطي ظهرك للجميع، وتوهمهم بأنك راحل، وما إن تستجمع قواك، استدر وسدد ضرباتك في وجوههم، المهم أن تكون مستعدا للمواجهة، فكر في كل شيء، ولا تترك شيءا للمصادفة، واستعد دوما لتلقي ضربة الغفلة.

- يبدو أننا إلى منحدر يا أمي.

- اللهم ولِّ أمورنا خيارنا.

- خيارنا؟ آمين.

وماهي إلا لحظات حتى انتشر العيد صاخبًا مرحًا في درانا فقد عاد الأطفال، يحملون البالونات والهدايا، والجوائز القيمة، وكتيب يحمل تعاليم "البنا" ووصايا "ابن تيمية"، فأمرت ابنتي بتحويل غرفة مكتب زوجي إلى مُصلًّى.

.....

-20

- سيدتي، النائب محمد مراد يريدك على الهاتف الأرضي، هل تسمحين بالرد؟ أم أقدم له اعتذارًا مهذبًا؟

- سأرد بالطبع، ولكن ابقي الهاتف بالخارج، سآتي حالًا.

لا أحب أن يقطع عليَ أحدهم تفكيري، ولكن لا يجوز إحراجه، فهو نائب مهذب، على الأقل هو يهتم بشئون التعليم، صحيح أنه يصفق بيد واحدة في هذا الاتجاه؛ لا يجد من يدعم مواقفه، ولكن له شرف المحاولة، فقلما تجدي برلمانيًا لا يعنيه أمر الكارنيه، والبدلة، والحصانة؛ كان يستحق مني أن أرد عليه:

- هالووو

- أستاذتنا، كيف الحال؟

- بخير طالما لم يزل من النبلاء من ينوب عنا.
- أعلم أنك لا تفضلين الحضور إلى الندوات والمؤتمرات، ولكن هنالك ندوة هامة أريد منك حضورها، عن القدس، هنالك شخصية مهمة هي التي ستتولى إلقاء المحاضرة، وأعرف أنك لن تخذليني.
ضحكت من قلبي، وقلت: سأحضر بالطبع، أشكرك لأنك تضعني بعين الاعتبار.
- أنت ثروة قومية ياعزيزتي. سنلتقي في قاعة توفيق الحكيم، مركز الإبداع الخميس المقبل السابعة مساء.
- وهو كذلك عزيزي، أشكرك مرة أخرى.
- العفو، إلى اللقاء عزيزتي.
وصلت القاعة في متأخرة قليلًا، فالشوارع هنا لا تسمح لأحد بالانضباط، إذ يعاملها المارة والسائقون معاملةً غير لائقة. كنت طوال الطريق، أشاهد فيلمًا وثائقيًا عن حياة النمل، ومدى انضباطهم والتزامهم بتعاليم المملكة، وكيف أن الطابور لديهم مغايرًا تمامًا لطوابير البشر، ورحت أقول في نفسي:" ماذا لو اصطف هؤلاء السادة بمركباتهم في طابور إجباري، وأن يعاقب كل من يخرج عن السرب، بأن يتم سحب رخصته ومنعه من القيادة تمامًا. لو تجاوز أحدهم وتعرض للعقاب العلني والفعلي والتنفيذي دون أن يجد من يفتح له درجه، لوصلنا جميعًا مبكرين، ولانتهت أزمة المرور الخانقة هذه. إن من يرى الزحام هنا، يحسب أن حادثًا مروعًا قد انتهك الطريق. وما أن تنفرج الأزمة، نكتشف أن أحدهم أراد أن يقطع الطريق إلى شارع جانبي، أو يرتد عكس السير، ولكن هل هي أزمة مرور بالفعل؟ أم أزمة أخلاق؟، ولم يخرجني من هذا المونولوج الداخلي سوى صوت سائق المركبة المجاورة وقد أقسم ألا يتحرك من مكانه لأن إحدى السيارات كانت قد تحركت في الاتجاه المعاكس له، وراح السائقان يوجهان السباب لبعضهما البعض، ورحت أدون في دفتر مذكراتي وجهًا آخر للحضارة على أرض الواقع، وقلت في نفسي: "لن يجدي نفعًا أن تدار الندوات والمؤتمرات هنا وهناك، بينما الجهل هاهنا، الجهل هاهنا في الشوارع؛ يمرح بين السيارات، دون أن يفكر أحدهم أن يقتله عن طريق الخطأ أو عمدًا في شارع البحر. البحر لا يدفع الدية لأحد؛ حين يموت الشخص أثناء عبوره طريق البحر، فلا دية له، لأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة. ويفضل الجميع أن يتركوا طريق البحر يعيث بين أرواح البسطاء فسادًا، طالما أنهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة. فلا فرق بين الجهل والتهلكة، فكلاهما يؤديان إلى نفس الممر؛ اللاطريق. وفجأة شعرت أنني أنشد حلمًا، فمزقت الورقة، وفتحت باب السيارة ووسط اندهاش الجميع، توجهت نحو السائق الآخر، ورحت أوضح له بأن بإمكانه أن يتجاوز عن خطأنا، بأن يرجع خطوتين فقط إلى الوراء، لتأخذ سيارته طريقًا جانبيًا إلى اليمين، لأننا قد تعطلنا كثيرًا، وفجأة، خرجت ملامح الرجل عن هستيريا الشتائم، وانزاح بسيارته إلى الطريق الفرعية، وعدت إلى مقعدي، وسط ذهول الجميع، فقال أحدهم بينما أمر بجانبه:
- ماذا لو كيَّل لك الشتائم، إنه " بلطجي " ليس إلا.
- نحن من نصنع البلطجي بتطاولنا، وعدم تقبلنا للآخر، لو تحدثت إليه بطريقة ألطف، أو لو عكست تعابير وجهك ملامح غير العبوس والتعنيف لتقبل الرجوع باسمًا، نحن من نخلق البلطجي ياعزيزي.
عدت إلى سيارتي، استقر السير نوعًا ما، فقال لي سائقي:
- إن الطريق لنا، وهو يعرف أنه يسير بعكس السير، ومع ذلك يصر على عدم الرجوع عن خطئه، نحن نقابل الكثيرين من أمثال هذه الأشكال الضالة طوال اليوم.
- لو رأى منك غير الزامور، وغير عبوس الوجه لما تحجر رأيه، لقد انقلب الشارع في ثوان إلى جبهة من الواعظين، وعلت أصوات أبواق السيارات، كأنها دعوة إلى الحرب، ليس هكذا يُعامَل المخطئون.

- لن تنفع سياستك يا أستاذة، فهذا شعب نمرود، لا بد أن يُعامَل معاملة المسامير العصية على الولوج إلى قطعة خشب سقاها المطر طوال فصل الشتاء.
- لم أره نمرودًا حين تحدثت إليه، لقد أبدى تعاونًا، وشعر بالخجل، وصار يعتذر.
- لقد فعل ذلك لأنك سيدة، لو تكلم معه رجل، لكان الأمر مختلفًا، ولربما تطور الأمر إلى إطلاق الأعيرة النارية، لقد انتهى عصر الحوارات المهذبة يا سيدتي، ثم سكت برهة وقال: "أوتعرفين؟ لوكان السائق امرأة، لما أرضاك الأمر، ولربما قررت الفرار إلى ليبيا، وضحك بشكل مهذب، عندها قلت: إنها دائرة يا سيد، مركزها الأخلاق، ولم أنبس بنت شفة حتى وصلنا إلى قاعة المؤتمرات.
لدى دخولي إلى الممر المؤدي إلى القاعة، تقابلت والسيد النائب، تصافحنا بحرارة، كان آخر النبلاء بالفعل، كان له جسم ممشوق، وقامة طويلة، وأكتاف عريضة، ووجه أبيض مشوب بالحمرة، وأذنان كبيرتان؛ قرأت كثيرا أن الآذن الكبيرة ترمز إلى العبقرية. كان يرتدي بزة شتوية سوداء، تبدوأنيقة للغاية يغلفها معطف أسود أكثر قتامة منها، يصل إلى ما قبل الكعبين بقليل، وحذاء أسود يكسوه لمعان يعجبني. نظرت إليه طويلًا حين التف الحضور حوله لمصافحته، فلما جلس، لمحت جوربين رماديان من الحرير يأخذان قدميه بانسيابية داخل الحذاء؛ هكذا أحب أن يكون الرجال، وتذكرت زوجي، فأعادني النائب إلى وعي المكان، وراح يقول:
- أعلم أنك مشغولة للغاية.
- نعم، لكني أثق في اختياراتك للأماكن والأشخاص، الناس هنا يضيعون الوقت ولا يشعرون بقيمته.
- معك حق، حياتك في أجواء الريف متعتك بخاصية استثمار الوقت، والأماكن، والأشياء وكل شيء.
- بالفعل، ولكن قل لي، ما الذي سيعود على القضية من جراء مثل هذا المؤتمر؟ أعني، هل من فائدة ملموسة على أرض الواقع بهذا الشأن، أم أنها للترويج للرجل، وأغلقت إحدى عينيي ورفعت حاجب الأخرى، فقهقه النائب وقال:
- أرجو ألا يكون الكرسي مخبوء في حقيبتك، أعلم أنك لن تسكتين لو أتت الرياح بما لاتشتهي السفن يا فريدة، وحاول إمساك نفسه عن الضحك بصوت عال، قلت:
- الكرسي هاهنا، الكرسي هاهنا، وأشرت إلى رأسي، وابتسمنا كمايليق بالشخصيات العامة، وبعد قليل، نقلت لنا أرضية القاعة دمدمات، وضجيج كأنما هي " التتار قادمون"، وبعد قليل تمكنت من تمييز رأس الديبلوماسي الضخم، وسط الحراسة التي أفسحت له الطريق إلى المنصة، وبعدها انتقل البرلماني إليه كي يصافحه. وتعانق الرجلان، وبدأ عريف المؤتمر في إلقاء كلمته، وأعتذر أنني غفوت مرارًا أثناءها، فقد كان صوته الجهوري ينزل كالمطرقة على غدتي النخامية من وقت لآخر، فيصيبها بالدوار، وكان مكبر الصوت في مرحلة الإعداد، فراح صفيره يوقظني من حين لآخر، وتبادل الصفير والصوته الأدوار لمدة زادت عن نصف الساعة، لو قال شيئا قيِّمًا لسمعته بالطبع، فروحي هي قارئي الجيد، والحقَّ أقول لكم:" لم أشعر أنها كانت موجودة طوال خطبته"، وبعد قليل، اختتم كلمته بتقديم مطولٍ السيد الديبلوماسي، وقد منحه من الألقاب نعوتًا غير مسبوقة، فانتظرت أن أستمع إلى ما لم تأت به الأوائل من حلول للقضية؛ اعتدل الرجل في جلسته، فتح أزرار سترته، نقى صوته، وتناول رشفة من كوب ماءٍ وضعه النادل عن يمينه، ثم افتتح الحوار قائلا:
"باسم الله، باسم جمهورية مصر العربية، وباسم العروبة، والشرف والأمانة، أبث حزني ووجعي إلى الله العظيم، ولنرجو منه جميعنا أن يجعل لشعبنا الحبيب في فلسطين مخرجا"، قلت في نفسي:" وماذا عن بقية الخريطة؟، إذ لم يتبق إلا مصر، إلى من هذا الرجل خطابه ؟. لم يكن بالقاعة جنسيات أخرى غير المصرية، وبعد قليل، حضرت عليه روح الشيوخ في المساجد حين يصورون الله ساديًا يستمتع بتعذيب البشر، فراح

يصول ويجول، ويذكِّرُنا في معرض حديثه بشهداء الأقصى، والحرم الإبراهيمي، ومذبحة الخليل، والدماء، والخراب. لقد كان الرجل بارعًا في سرد الأحداث بطريقة الفلاش باك، وكنت كالعادة؛ تواقة إلى الحل؛ هل من حلول لحقن كل هذه الدماء؟. لو حقنوها في فلسطين، لما سالت في اليمن. وأخذته الجلالة ثانية، فشعرت أنه على وشك أن يقلب الجلسة إلى حلقة من حلقات الزار، فقد تعلقت الوجوه كلها بشفتيه وما يقول، وكان صوته الجهوري يهبط على آذانهم فيتحول كل ما يقوله إلى بطولات متوقعة، وألقيت نظرة خاطفة على جميع من بالقاعة، فرأيتهم مستمتعون بطريقته في سرد الأحداث السابقة، وعبقريته في حفظ تواريخ النكبات، وأعداد الشهداء، والتوقيتات التي قتل فيها زعماء على أيدي شعوبهم، وآخر لف العرب جميعًا حبلًا أمريكيًا حول رقبته،" ألا في الفتنة سقطوا"، ولكنه لم يخبرنا بعد عن مستقبل القضية. كنت على وشك أن أقول له بصوت مرتفع:" القضية ياريس"، لكن يد النائب امتدت إلى يدي فجأة، ليمنعني من لمس الكرسي المخبوء في حقيبتي، وراح يعتذر لي بعينيه ، أعرف أنه يقول لي أنه جعلني أستمع عنوة إلى شخص كان لا بد أن يكون معلمً للتاريخ في مدرسة ابتدائية في أطراف الصحراء، بالمقام الأول، ورجعت عن رأيي، ليس لأن النائب منعني بطريقة لطيفة، ولكن لأن الديبلوماسي استخدم اللغة العربية السليمة فشفعت ذلك له عندي، فقد خلق لي توازنًا نفسيًا مع الواقع الذي خلت فيه اللغة العربية من أصولها على كل المنابر، وبدأت في الاستماع للرجل مجددًا، فلربما اقترح حلولًا للقضية، ولكنه كان قد وصل بالجمهور إلى مجازر غزة، فأدركت أن الرجل يروج لنفسه، ولمحت من بين الجمهورمن هو مثلي ممن غافلهم النعاس بين الفينة والأخرى، فقد كنت أرمقهم من وقت إلى آخر، فأجد البعض ينتفض لدى سماعه تصفيق من هنا أو من هناك، ولدهشتي، رصدت عيناي خمس رجال بعينهم يجتهدون في التصفيق ويهتفون بصوت عال من وقت لآخر، كانوا يجلسون في مقاعد متفرقة من القاعة، وعلى حين غفلة مني، وجدت صوت الديبلوماسي وقد اتشح بالحزن العميق، وأفقدته عبرة ما القدرة على إكمال كلمة" اللاجئين، وأحيانًا، "هدم المنازل"، أو "اعتقال المجاهدين"، ففهمت أنه إنما كان يمهد لإنهاء كلمته، فقلت بيني وبين نفسي:" ولكن، هل قال الرجل شيئًا بالفعل؟، ونظرت إلى البرلماني الذي لم يصفق مثلي طوال الوقت، فوجدته يبادلني نفس الخيبة، ويعتذر بزم شفتيه، وحين تكلم، خاطبني قائلًا: يمكنك إلقاء كلمة، ولكن، أرجو أن تكوني هادئة، ونظرت إلى المنصة، فرأيت بعضًا من الشعراء ،وقد تناوبوا المنصة فيما بينهم ؛ و تحول المؤتمر بقدرة قادر إلى أمسية شعرية. وكان الأمر الذي أثار حفيظتي، وأغضبني، بل و أدهشني للغاية، هو حركات صعود الشعراء إلى المنصة، كان الممسك بالميكروفون يقرأ اسم "الشاعر العبقري العظيم"، فهذا هو اللقب الذي حمله الجميع في ذلك اليوم، فيخرج الشاعر من بين الصفوف تتبعه عيون الجماهير حتى يصل إلى المنصة، التي حظيت بالديبلوماسي طوال الوقت، ثم ينحني فيسلم على الديبلوماسي الذي لا ينهض لأحد، بل يكتفي بأن يمد يده كأنه أحد الأباطرة، و يقبِّل خدي الديبلوماسي، ومن ثم يتجه إلى الميكروفون، فيمسكه حتى يملّ الميكروفون، ثم يصعد غيره، وهكذا دواليك. وبعد برهة، تحرك النائب باتجاه المنصة، وارتقى السلم إلى حيث يجلس الديبلوماسي، وهمس في أذنه شيئًا، فنظر الديبلوماسي إلى مبتسما، فلما رجع النائب، سمعت صاحب الميكروفون ينادي اسمي دون أن يمنحني لقبًا لامعًا: "فريدة ماهر"، وربما تلعثم في نطق لقب عائلتي فقال:" ماهل"، فرمقت النائب باستغراب، وذهبت باتجاه المنصة، وصعدت السلم الصغير الذي يؤدي إلى يمين الديبلوماسي، فالتفت إلي، فهززت رأسي له ترحيبًا، ولم أمد يدي، ثم تناولت الميكروفون وقلت:

غالبًا

تبدو المسايا

نصف غرقى
في بلادي
والحكايا
منذ دهرٍ
لم تزل نفس الحكايا
فالدوارُ
لم يزل
شأنَ السواقي
وارتحالُ الغيمِ
رمزًا للمغيب
رغم حر الدمعِ
في صدر الثكالى
واندلاع النارِ
في مسرى الرسول
في بلادي
ليس يرتاح الحمامُ
ليس يشدو
أو يطير
غاب صوت الناي
والراعي القديمِ
لم يعد يغوي الصبايا
والخرير
لم يعد مهد البوادي
والجرارُ
فارغاتٌ
فارغاتْ

أكملت قصيدتي، وشكرت الحضور ثم اتجهت ببصري نحو سلم النزول عن المنصة،وهنا استدار الديبلوماسي نحوي، وابتسم، وهو يصفق بحرارة، فقد كان ذكيا للغاية، فبدلًا من أن يبدي استياءه من هجائي له، وازدرائي لما حدث في القاعة من هراء، فضَّل أن يستميلني إلى جانبه، لكنني تجاهلته، ونزلت عن المنصة، واتجهت إلى مقعدي بجوار البرلماني، وبعد قليل انتهت الاحتفالية الكلامية، وفوجئت بالديبلوماسي يناديني ويطلب أن أقف بجواره كي يلتقطوا لنا الصور الجماعية، فابتسمت في نفسي، ولم أرفض بالطبع، ولكني شعرت بمدى الخطر الذي شكله كلامي على هدفه من إقامة المؤتمر، وبعد قليل قدم لي شاب مفتول العضلات وقال، هذا ابني، "مروان"، يعمل لدى جهة سيادية عليا، فقلت بيني وبين قلبي:" كلكم تعملون هناك"، فالتقط المصورون لنا صورًا تذكارية، كنت فيها أتوسط البرلماني، والديبلوماسي، ويقف في خلفية الصورة ابنه الذي لم أجد له اسما في سري سوى" القبضاي". كنت أتوسطهم في االصورة فقط، بينما في

الواقع، لم أك أمت إلى أي منهم بصلة، فقد كان قلبي معلقًا بالجمهور الطيب الذي كانت كل همه محصورًا في أن يحظى بصورة مع الديبلوماسي يعود بها لأهله كي يمعنوا النظر في نضارة وجوه النائب والديبلوماسي، والعضلات التي شكلت خلفية هائلة للصور جميعها.
رمقني النائب من وراء كتف الديبلوماسي، مستغلًا طول قامته وقصر قامة الديبلوماسي، وغمز بعينه اليسرى وزم شفتيه، كان يعتذر على طريقة الشخصيات الكرتونية حين تفشل الدبلجة في صنع التناغم بين حركة الصوت وفم الممثل، فرفعت حاجبي، واضطررت للاعتذار من الجميع، ولم أمنح أي من الموجودين رقم هاتفي بالطبع، كنت أريد أن أفر إلى ببتي، لأغوص في سريري المفروش بالكتب، وما أن دخلت إلى منزلي، وفتحت التلفاز، حتى قرأت في الشريط الإخباري أنباء المؤتمر الضخم الذي حظي بكلمة للسيد الديبلوماسي، فرحت أتذكر الوصايا العشر التي كتبها سنوبول على حائط الحظيرة في رواية" مزرعة الحيوانات"، لجورج أورويل، لتكون دستورًا للحيوانات، بعد أن تخلصوا من حكم الإنسان، ولما كنت قد نسيتها جميعًا ،أخرجت الرواية، وقررت أن أكتبها على ورقة، كي أعلقها على باب الثلاجة، ثم صنعت كوبا من الاسبريسو وعدت إلى غرفتي، ولما جلست إلى مكتبي، وجدتني أمسك بقلم الفحم، وأرسم شيئًا، فلما انتهيت وجدتني أرسم نفس اللوحة القديمة: رجل نحيف للغاية، ينحني إلى الأمام ، واضعًا كفيه على وجهه، وبجواره جريدة مطوية وبجوار ساقه اليمنى يجلس كلب ، بينما قبعت نافذة حديدية ضيقة للغاية في أقصى اليسار، فامتدت يدي إلى القلم مرة ثانية، لتصنع فوق رأس الرجل دائرة حلزونية تنتهي جميع دواماتها في الفراغ. حملقت في الدائرة طويلًا، وأصابني دوار يشبه ذلك الذي تتسبب لنا فيه النحلات الخشبية التي كنا نلف عليها خيوط الضوبار ثم نرميها بحركة نص دائرية، لتدور في الأرض الملساء حتى يرهقها الدوار. وكانت فاكهة الكاكا حلًا مريحًا للخروج من هذا الدوار، فاتجهت إلى الثلاجة ثانية، فوقعت عيناي على الوصايا فرحت أقرأها بصوت مسموع ::
- لا يجوز النوم داخل المنازل." حتى لا تلهيهم المقتنيات عن مصلحة مزرعتهم العامة.
- لا يجوز النوم في المخادع." حتى لا تنسيهم الراحة شئون العمل "
- ل يجوز ارتداء الملابس الرسمية." حتى لا تغرهم المظاهر.
- لا يجوز تناول الكحول." حتى لا ينسوا واجباتهم نحو مزرعتهم"
- لا يجوز التدخين." لأنه مكلف، ولانه يدمر الصحة"
- لا يجوز تداول النقود. حتى لا ينتشر الفساد المالي وجرائم السطو على المال العام.
- لا يجوزالدخول في التجارة. لتفويت الفرص على المنتفعين.
- لا يجوز لأي حيوان قتل أخيه. حتى لاتهون الأرواح.
- كل الحيوانات متساوين. لتبقى روح التنافس قائمة، ويبقى معيار الأفضلية للأكثر نفعًا للكل.
لم يعنيني بالطبع، ما طرأ على تلك الوصايا من تغييرات فيما بعد، فقد كنت أحب قراءة هذه الوصايا يوميًا، وفيم بعد تركتها معقة هنالك دومًا للذكرى الخالدة، رغم أنني ما زلت أحلم بالبند الأخير بها، الذي كان، ولمَّا يزل مجرد حلم.

.....

-21

لدى كلبنا البولدوج طريقته في إلقاء تحية الصباح علي، لن أصفه كثيرًا، وأبالغ في رسم صورته كما يفعل الآخرون حين يبدأون في قص الحكايا، إذ يكفي أن أقول أنه اعتاد أن يركض نحوي ويحتضنني بمجرد أن

أفتح باب غرفتي لأستقبل خيوط النور التي تنفلت هي الأخرى بطريقة ساحرة إلى غرفتي لتدلل سريري ومكتبي، وكتبي، وساعة الحائط، ولوحة رسمتها بنفسي، لرجل يجلس في حديقة محنيًا إلى الأمام، يضع رأسه بين كفيه، وقد ارتمت الجريدة على المقعد الخشبي بجواره، وبجوار ساقه اليمنى يجلس كلبه، كنت قد رسمتها حين كنت بالمدرسة الثانوية.

والحقيقة أنني أستغرب كثيرًا من نفسي حين أحدثني عن هذا الرجل، لماذا رسمت رجلًا، وكلبًا، لماذا لم أرسم فتاة؟ ولماذا رسم قلمي الكلب؟ كان الرجل يحمل الكثير من ملامح أبي، جسده النحيل، ورأسه الصغير، وشعره الكثيف المنسدل على وجهه، ولو كنت أزحت الشعر قليلًا، لرأيت الجانب الأيمن من وجه أبي، نعم الآن أعتقد أنني رسمت أبي. لماذا؟، لا أدري، وحين أمعنت النظر في الكلب، ثم الجريدة، وجدت أن لا جديد حولهما، فالكلب؛ كلب، توحي أذناه بأنه يرتقب طارئًا ما، وربما كانتا في الأصل لحمار، والجريدة؛ كالعادة جريدة! وإن اختلف ترتيب الأعمدة على جزئها الظاهر. نظرت إلى الجريدة على المنضدة أمامي فلم أر جديدًا؛ نفس كلمات المانشيت، وحرفين من الألفاظ، ولم أجد الدلالات، فقد اختلفت قراءتي للكلمة، لكنني أعرف كيف أكمل كل الحروف الناقصة لأخلق كلامًا نقول عنه دومًا:"كلام جرايد"؛ عاد، سافر، اعتذر، انشق، اختلس، هرب، احتل، استوطن، انسحب، تراجع، شجب، واعترض. لا جديد في الأمر، لذا لم أعر الجريدة اهتمامًا كبيرًا، فقهوة الصباح ومنظر البحر يستحقان مني أن أستنشق المدى، و البدء، قبل أن أدخل في معمعة اليوم التي لا تكاد تطل برأسها حتى تطل برأسها.

خرجت من اللوحة، وانا أسأل لماذا حين أخربش على دفتري في لحظات الاسترخاء، وبشكلٍ خاص، حين أضع خدي على ذراعي اليسرى، وأستسلم للاشيء، أرسم رجلًا، نحيلًا، وأجعله ،دومًا، منكفئًا على وجهه؟. لم أر أبي قط منكفئًا على وجهه إلا عند الصلاة، أو قراءة المصحف.

نهضت من سريري، ودسست قدميي في الشبشب، واتجهت نحو الباب، فجاءتني تمتمات أمي، كانت تدعو لنا جميعًا كعادتها، يا لها من بركة منحها الله لنا، لم أسمع هذه المرأة تفعل شيئًا غير الدعاء، كانت تنكفيء على لوحة كانفاه تطرزها بالدعوات والتسابيح.

فتحت الباب، فانسابت روحها في روحي، فاتجهت نحوها واحتضنتها، كانت تشمني وتمرغ رأسها في صدري طويلًا، وكأنما تستمد من أنفاسي أنفاسًا أخرى، وأيامًا جديدة، و....

دخلت كعادتي إلى المطبخ، كي أعد كوب القهوة الصباحي، ثم عدت به، وضعته على الطاولة أمام المقعد الذي تجلس عليه أمي، وغبت قليلًا، ثم توضأت للصلاة، ولم أُصلِّ كالعادة، فقد نسيت. كنت أفعل ذلك دومًا، ولا أتذكرالصلاة إلا حين ينفلت الوقت مني ويدخل وقت الظهر، فأتوضأ ثانية، وأنزل إلى المكتب، أيضًا دون أن أصلي، وظل ذلك الأمر يؤرقني كثيرًا، ولم أفلح في تجاوزه إلا مؤخرًا.

لم ترغب أمي في القهوة يومًا، بل لم يرق لها طعمها، لا أدري لماذا، لكنها كانت ترمقني بطرف عينيها وتبتسم كلما رأتني أتناول القهوة، وسمعتها يومًا تحدث نفسها وتقول: "سبحان الله ، البنتُ لعَمَّتِها"، كان الحوار عن أبي لا ينقطع بعد كوب القهوة الصباحي في بيتنا، كانت تحكي لي كيف أنه خطبها من أبيها حين كان أبوها على سرير المرض، وكيف اقتنع أبوها الذي لم يك ليفرط بها مقابل العالم بأسره لو لم يهزمه المرض. كانت تصبح فتاة صغيرة تركض بين المروج حين تتذكر تفاصيل بيت والدها العتيق، وكنت أمزحها دومًا فأقول لها: " أنا حاعمل لي فنجان قهوة، عشان تصحصي هههه"، ثم تطلب مني أن أوصلها بأختها عبر الهاتف الأرضي، فأطلبها وأتركهما للذكريات؛ كانت تلك هي وجبة إفطارهما منذ رحلت أمهما منذ عشر سنوات.

وبينما أعد نفسي للنزول إلى مكتبي، كنت أسمع ضحكات أمي الطفولية التي تستمدها من صحن بيت والدها، و فناء داره العتيقة، في حضن الحقول في قريتهما البعيدة التي تقع على أطراف مدينة" طوخ"، لكنني تسمرت حين سمعتها تقول لأختها: لقد ترك الله لنا أمنا طويلًا، فقد بلغت التسعين قبل أن ترحل بقليل؛ نحن محظوظتان لأنها بقيت بيننا طوال هذا العمر، لم تعد الأمهات يعشن طويلًا كما في السابق؛ لقد تركها الله لنا وقتًا كافيًا." وجعلتني كلماتها أنظر إليها طويلًا، وأخشى أن يخلو هذا المقعد منها يومًا، فتموت دارتنا.

لاتسألني عن الكلب والببغاء، فهما رفيقاي إلى الأبد، يبدأ اليوم بهما، كما يبدأ بوجه أمي، ومكالمة تليفونية من ساندرا تطمئني بها على كل شيء.

طلبت السائق ليقلني إلى المكتب، وقبل أن أنطلق إلى الخارج، قبلت رأس أمي ويديها، وودعني "بابسي" كالعادة، يا له من كلب، كأنه أخي أو بعض أخي، إذ لم يكن بالبيت ذكرٌ غيره.

لم يدللني أحد بعد أبي مثلما يفعل الببغاء الذي ربيته مذ كان فرخًا هو وإخوته، ولم يستأذنني أحد في عض يدي كما يستأذنني هو، كنت أكره أن يعض أحدهم يدي، وأدرك هو ذلك حين جرب حدة منقاره الشاب في إصبعي فصرخت، وقلت له: لا تعضني بشدة، لقد آلمتني، فصار يعض إصبعي بشكل أقل عنفًا، وكلما صرخت،كلما خفف من عضته، وكأنما يقول لي : تعالي نتفق على كيفية العض، وبالفعل اتفقنا؛ كان يشفق عليَّ في كل مرة يفتح منقاره كي يلمس إصبعي، وكان يضحك، نعم كان يضحك حين أضعه على كتفي خاصة إن كنت أرتدي ملابس بها ورود وألوان، كان يبعد يدي كلما اقتربت منه كي أدعوه للنزول والرجوع إلى القفص، ويظل يرفض ذلك طالما لم يقرصه الجوع، فإن جاع، صرخ، ونادى اسمي كي أنتبه، حينها ينزل بمحض إرادته من على كتفي ليحط على ظهر يدي، فأنقله إلى القفص، لقد كان الببغاء والكلب في حياتي حياة.

أخرجت وجهي من النافذة المطلة على البحر، لاستنشق ما تيسر من بدء، ثم عدت إلى كرسي الهزاز، لأكمل قراءة رواية " ذهب مع الريح"، كان تلك الرواية تعرض في سينما مترو، حينما كنت في أول سنة ليفي كلية التربية قسم اللغة الإنجليزية، كان المعيد الذي يدرسنا الترجمة والنحو الإنجليزي قد دعا كل طلاب سكشن باء لمشاهدة الفيلم، فذهبنا جميعًا؛ كنا عشرة فتيات وثلاثة عشر فتى، دخلنا صالة العرض يتقدمنا أستاذنا. كان قد تعمد أن يعلمنا درسًا عمليًا في المحادثة، والاستماع للغة الإنجليزية، وفي الوقت نفسه رأى أن يربي فينا الذوق العام، وسمو الفن والأدب الإنساني العالمي، كان لهذه الرواية على وجه التحديد مذاق مختلف حين أقرؤها في لغتها الأصلية، فأنا أعشق لغة الإنجليز الفخمة، وأرى فيها مفتتحًا يليق بالهدوء، البحر، والبراح، رغم ما تمنحه هذه الرواية بالذات لقارئها من وجع. آه، لكم شكَّلني الجرح في هذه الرواية مرات كثيرة بما يكفي لأن أطلق ساقي للريح طويلًا في الطريق الرملي الذي يمتد بطول البحر، لكنني أقرأها الآن بروح مختلفة تمامًا. ربما لأنني نضجت بما يكفي. وفجأة وجدتني أهرب من شيء ما، لا أدري ما هو، فقلت لربما منحني النبض الراكض في قلبي أفقًا جديدًا أرى منه ما اختبأ مني، فجعلني أشعر أنني لست بخير، ولكنني، أعود في كل مرة، دون أن أقف على شيء، وغالبًا ما أعود مرهقةً، فتهرب الأسئلة مني والأجوبة على كل شيء، فألجأ إلى حمَّام بارد، وما أن أنتهي حتى يغلبني النوم.

حين أستيقظ، يركض الكلب نحوي ويغني الببغاء فرحًا، وتبتسم أمي حين أدخل عليها غرفتها، وتعلو الفرحة كل تعابير وجهها وكأنها تراني للمرة الأولى بعد طول غياب، لا يمكن لأي إنسان أن يفوت مثل هذا الحب، كل هذا الألق في حياتي فما الذي يجعلني أشعر بالقلق؟ لا ينقصني بالفعل غير سلحفاة تجول حولي فتجلب الحظ.

كنت أحمل توترًا ما بداخلي، لا أدري له سببا؛ ربما أكون على وشك كتابة قصيدة ما، أو رواية مثلًا، لا أدري. قطع صوت أمي علي تفكيري : أرى أنك على وشك كتابة شيء ما، فملامحك مرهقة للغاية، ويبدو الارتباك على طريقة حملك لفنجان القهوة، أعرف ملامحك جيدًا حين تكونين على وشك الكتابة، لا سيما وأنك لا تقومين بشيء غير القراءة في هذه الأيام، لقد قسوت على نفسك كثيرًا في الأيام الأخيرة، وأرى أن القراءة لا تفارقك.

- نعم، ستستغربين لو قلت لك أنني أقرأ كثيرًا دون أن يعلق بذهني شيء مما قرأت ، أعتقد أنني أوهم نفسي أنني منشغلة بالقراءة، بينما ذهني مفرغ تمامًاإلا من كل شيء. وأحيانا أطفيء نور الغرفة، لأغوص في الظلام، وكأنما أهرب من النور، لأنه يوقظ ذاكرتي، ولكنني أصبح أكثر تحديقًا في الذكرى حين ينطفيءالنور، ماذا على أن أفعل يا أمي؟

- أعلم أن موت والدك لم يمر هينا على أي منا، لقد حلمت به البارحة؛ أخبرني أنه سيراني عما قريب، وقد اتفقنا على موعد نسيته، لكنه فجأة تركني، واختفى وراء سور لم ألمح من خلفه إلا السماء مفتوحةً على مصراعيها، وحين حاولت النداء لم يسعفني إلا البكاء، كان لأمي حاسة عاشرة، يمكنها بها أن تقرأ ما يدور في غرفة الطعام في أول البيت، بينما تكون هي في جناحها في آخره، وكان لها نظرة تتفحصني بها بينما أتكلم، تقرأ بها روحي جيدًا، كانت تقول لي:

- لا تقلقي يا فريدة، هذا عقلك الباطن ليس إلا عزيزتي، أنت تشتاقين له، ولقد أشفق الله عليك وجعلكما تلتقيان، كي يخفف عنك ألم غيابه قليلًا، أواه ياأبي، لاطعم للحياة بدونك، أحيانا ألمحه جالسًا في مقعده يدخن، وحين أدخل إلى غرفته تتغلغل في رئتي رائحة دخان سجائره.

- هل تصدقيني لو قلت لك أنني أحاوره الآن أكثر مما كنت أفعل حينما كان بيننا؟؛ يمكنني أن أستحضره، وأحاور روحه، وأشاوره في الأمر، وأرتاح لحلول أشعر أنه يرتاح إليها أيضا.

- نعم أصدقك، فهو الآن ليس بوسعه إلا أن يستمع إليك فقط، هههه، فضحكت أمي حتي احمر وجهها ونزلت دموعها، وهي لا تلبث تتذكره:

- نعم، لقد كان يتركني أتحدث إليه وحدي، بينما ينهمك هو في قراءة الجريدة، عاقدًا المسافة بين حاجبيه، ثم يرفع حاجبيه فجأة؛ ويحملق في نقطة ما في الصحيفة، فأراه كالذي خرج له الأقرع من نقطة ما أمامه؛ فيمارس دهشته أو صدمته بخبر ما، فأتوقف أنا عن الكلام ليبدأ هو حديثًا لا ينتهي عن السياسة والاقتصاد والجريمة والحروب وأعداد القتلى والغرقى، وبلادٍ طردتها الخرائط؛ كان يرى أن علي أن أكون هادئة دوما كالقطط، أدخل وأخرج إلى غرفتنا دون ضجيج. أتذكر أنه قال لي قب موته بحوالي عشرة أيام أنه لم ير في الأخبار شيئًا مختلفًا عما قاله له والده يومًا منذ أكثر من ستين سنة، وأنه يرى أن والده محق، ونصحني ألا أشغل نفسي بالأخبار. يقولون أن الإنسان ينطق كلامًا مهما قبل موته بأربعين يومًا، لأنه يكون قد انتقل بالروح قبل الجسد. لقد كان يفكر بأمر طلاقك كثيرًا، ويخشى عليك الوحدة في الكبر، لن نحيا لخمسين سنة أخرى، هل استوعبت الأمر؟

- نعم، هو محق، لكنني لا أريد الارتباط بأحد الآن، لا أريد لأي رجل أن يعكر علي صفو حياتي مرة أخرى؛ الرجال يدخلون حياة النساء فيربكونها، ويتحكمون بها، وأنا لي طقوس لن يتحملها رجل، إلا إذا ذاب في حبًا، ولا أظن الشمس ستشرق على رجل بهذه المواصفات يومًا.

- عليك أن تخرجي للحياة، يومًا، ستقابلين رجلًا يقنعك بالشراكة الروحية.

-لا أفكر بلأمر يا أمي، لا أملك استعدادًا نفسيًا أو عصبيًا أو خياليًا حتى...

- حين كنا صغارًا كنت أسمع جدتي تقول:
إوعى تفكر إنك لما تلمعي لوحدك حتتنوري، نورك مش حيبان غير وسط شلل النور التانية، غير كده إنتي مش أكتر من نور مطفي...
- نعم، إنني أفتقد إلى النور البهي، لقد قرأت أمي ما بداخلي، فرأت أن النور بداخلي يتلعثم، فراحت ترتبه لي، كي يخرج صحيحًا على يد كلمات جدتي، نعم، لقد كانت مشكلتي الوحيدة هي أني أحب النور، فلما أنهت جملتها قلت: نعم، بعيدًا عن نور الآخرين يصبح كل منا نور منطفيء، أنت محقة، ولكنني لم أصادف ذلك النور الذي يمكنه أن يخطفني مني، حينها سأعود إليك مضيئة ما يكفي لطمأنتك علي، وحينها يمكنك أن تثرثرين مع أبي حول هذا الأمر دون توقف، فهو حتمًا سيحب ذلك.
كان كل ما يشغل أمي أن أجد رجلًا يجعلني أثق مرة أخرى بالشراكة في الحياة، بينما لم يشغلني سوى عملي وكتاباتي، كانت تتحدث عن النور المنطفيء في، والذي لن يظهره إلا فارس على حصان، بينما كنت أفتقد النور في كل حولي؛ زحمة المصالح، والمقالب، والمكائد، التي تواجهني ككاتبة صحفية.
لقد أعادتني عبارة أمي إلى أحداث مرت بي أثناء عملي كمترجمة في إحدى الصحف العربية في بلد عربي، كنت، في ذلك الوقت، أكتب الشعر، والنقد، وأترجم الإعلانات والتقارير الإخبارية عن المجلات، والصحف العالمية الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية. كنت أنشر، أسبوعيًا، في الصفحة الأخيرة حلقات من ترجمتي لكتاب " حياة ديانا تشارلز"، بالإضافة إلى المقالات، كان لي قراء رائعين، وكان هاتفي لا يتوقف عن الرن؛ تأتيني طوال الوقت مكالمات القراء التي تعبر عن آرائهم فيما أنشر ، ويزروني أصدقائي من الكتاب والرسامين، كنا نشع نورًا ككتاب، وكأدباء احترمنا جميعًا إبداع بعضنا البعض، وكثيرًا على ما رقصنا على نغمات عَروضِ أشعار بعضنا البعض، ومنحنا أنفسنا أسماء فنية استقيناها من أسماء بعض قصائدنا، بل كنا نحفظ أشعار بعضنا البعض، كنا نضيء جميعًا في الندوات والأمسيات ضوءً جماعيًا براقًا.
تذكرت كم كنت غضبى للغاية حين رأيت مقالي منشورًا بشكل مشوه، ومفرغٍ من فحواه، فقد قصوا منه بعض الأجزاء ليبدو معها المقال كأنما كاتبه معتوه لا أكثر، كي يضعوني في حرج مع قرائي؛ تكرر هذا الأمر مرتين، وفي كل مرة كنت ألتمس الأعذار للموظف الذي يصف المقال في المطبعة، كنت أذهب إليه وأعتب عليه، فيعتذر، وأتقبل الأمر بكل براءة، حتى أخبرني زميل لي أن إحدى الصحفيات تدفع للموظف كي يشوه مقالي، إذ أنها لم تك تملك سلطة منعي من كتابة المقال. جاء الخبر صادمً لي بالفعل، فتلك المرأة التي تشبه الرجال إلا قليلًا، كانت لا تتناول قهوة الصباح إلا معي في مكتبي، وكانت تناقشني كثيرًا في كل الأمور حتى أنها تحكي لي مشاكلها مع ابنها وزوجها، هل وصل الأمر إلى هذا الحد من الكراهية؟، آه، تذكرت أننا تقابلنا يومًا في اجتماع أقامته السفارة المصرية، وأمرها السفير المصري أن تترك صفحة"أخبار مصر" لي، وقالت لها زوجه بالحرف: "خلاص بنتنا موجودة في الجورنال هي أولى بأخبار بلدنا"، لقد قالا ذلك وهم فخوران بي، ولم يقصدا إغاظتها، وفي الواقع، لم يكن لدي، حينئذٍ،أدنى فكرة عن الكره، لكنني الآن أملك حاسة شم قوية جدا يمكنها أن تميز الكره حتى لو أخفى نفسه بعيدًا عن مرمى الرياح.
وقطع علي تفكيري صوت أمي يقول:
- لا تحزني يا فريدة. حين ينفض الناس من حولك، اعلمي أنك في الاتجاه الصحيح، طالما كانت لغة الفساد هي سلعة العصر. كانت أمي هي المرأة الوحيدة التي تعرف كيف تخرج الطاقة السلبية من رأسي.
عدت متأخرة إلى البيت، فوجدت ضوء غرفة أمي مطفأ، وأخبرتني الخادمة أنها بخير، وأنها قضت اليوم كله كعادتها بين أعمال الإبرة، وأنها تناولت عشاءها، والدواء، واستسلمت للنوم، فأخبرت الخادمة برغبتي

الشديدة في النوم، وأشرت عليها أن تستريح هي الأخرى، فلربما أيقظتها أمي أثناء الليل كالعادة، من أجل كوب حليب، أو بعض الماء. دخلت غرفتي، وألقيت بنفسي على السرير، فبدت لي لوحة الرجل المنكفيء على وجهه، وكأنما أراها للمرة الأولى، وتذكرت ريم ابنة خالتي، التي أخذتها الغربة منا، ترى! هل تشعر بالوحدة مثلي؟

لا شيء يسعدني بالحياة سوى تحقيق حلم عتيق أو قيام الصبح في بيت أبي، وكلاهما أصبحا بعيدان عني الآن، أما ما تبقى من حياة، فهو مرتبك للغاية ومليء بالخوف من ذلك اليوم الذي سيفرغ فيه مقعد أمي إلا من خيوط الصوف والإبر، وما شكلته التسابيح والخيطان في صحن البراويز المعلقة على جدران غرفتي.

.....

-22

- بيتنا مات.

هكذا قال ابنها يوسف حين جلسوا إلى مائدة الطعام لتناول الغداء، بعد مرور شهر على زواج ساندرا، فجزعت فريدة، وجاءتها عبارته كرصاصة استقرت في قلبها، فنظرت إليه وهزت رأسها بينما تكتم صرخة انفلتت إلى أحشائها لتعصف بما تبقى لها من شهية للبقاء في الدار، فطارت بهم الذكرى جميعًا إلى دراهم العتيقة بالكويت؛ إلى أيام الجمع في حديقتهم، وتحديدًا إلى حيث يلتفون حول أبيهم الذي كان ينهمك في إعداد اللحم المشوي، وتسيل دموعه من أنفه بينما يقطع قرون الفلفل الحار كي يصنع لهم سلطة المشاوي اللذيذة، ويطرز اللحم وحبات البصل والطماطم وقرون الفلفل الرومي في سيخ الشواء. يتذكرون جيدًا كيف كان يطعمهم بيده، ولا يتذوق الأكل إلا بعد أن يتأكد أنهم جيمعًا قد استمتعوا بغدائهم؛ كان يعرف كيف و متى يشبعون، ثم يبدأ في تناول الخبز المحمص، وما تبقى من طعام. لم يستطع أي منهم أن يغير له عادته في إطعامهم، ولم يره أحدهم يومًا وقد تناول كسرة خبز قبل أن ينظر إلى عيونهم فيرى الشبع، وتذكروا اليوم الذي عاد فيه أبوهم من العمل مبكرًا، فلما دخل المطبخ، لم ينتبه أن من كانت تغسل الصحون هي ساندرا إذ كانت ترتدي رداء أمها الوردي، فاحتضنها من الخلف، ظنًا منه أنها زوجته، فلما استدارت طار عقله، وغضب غضبًا شديدًا؛ لم يره أحد بهذا العنف من قبل، وعلى الفور نادى أمهم صوت هادر، وأمرها ألا تجعل ساندرا ترتدي ملابسها، فقد صارت صبية، لها نفس هيكل ظهر أمها. كانت تلك المرة الأولى التي انتبه الجميع أن ساندرا أصبحت صبية ناضجة، وبعد أسبوعين، زارتهم جارتهم اللبنانية، وفيما بعد، فهم الجميع أنها كانت تطلبها زوجة لابنها الذي يعمل مهندسًا بأمريكا، فرفضت فريدة معللة ذلك بأن العادات في مصر لا تسمح للفتاة بالزواج قبل إتمام دراستها الجامعية. وفجأة قال الإبن الأوسط وهو يضحك ضحكة هستيرية وق غلب على صوته نبرة القهر الذي ارتسم على وجهه خطوطًا زرقاء تقسم عضلات وجهه بحدة إلى خطوط طولية تنم عن ألم مبرح :

- كيف تحول هذا الرجل من أب بدرجة ملك، إلى زوج لأرملة تكبره بخمسة أعوام، ولها ثلاثة أولاد أيضا؟، مالفرق الذي صنعه؟ مالذي حل محل عقله؟. كان يوسف قد بلغ من العمر ثمانية عشر عام حين قال عباراته تلك، فكان لزامًا على فريدة أن تبدو صلبة ومتماسكة أمامه، كي تساعده على تحقيق التوازن النفسي، الذي به، سيتمكن من تكملة مسيرة حياته دون عقد نفسية، أو تداعيات لا سبيل للشفاء منها، لا سيما أنها خططت له أن يلعب دور الأب في حياة أخيه الأصغر الذي لم يلحق من حنان أبيه ورعايته إلا قدرًا يسيرًا لا تنمحي به عنه لفظة " يتيم". اعتدلت في جلستها، وتفحصت وجه يوسف جيدًا، ثم قالت:

- ليس مسموحًا لك أن تتحدث بما يليق عن والدك؛ سيظل له وشمٌ على قلبك ما حييت، شئت هذا أم أبيت.

-23
كان قد مر أسبوعان على أكرم، الإبن الأصغر لفريدة، وهو طريح في فراشه، لا يخرج من غرفته إلا لقضاء حاجته، كان يعاني من حمى ما لا تبرح جسده إلا حين يحمله "يوسف" و"فريدة" إلى البانيو. كان طقس يناير أكثر حنانًا عليه من أبيه، الذي وضع رقم هاتف فريدة في " البلاك لِسْتْ". لم تجد فريدة سبيل غير الماء كي تطفيء به الحمى التي راحت تفتك بقلب ابنها يومًا بعد يوم؛ لم يعد لديه أية رغبة في الكلام، لقد كان مختلفًا في قهره، وذهوله من ترك أبيه لهم، دون مبرر سوى أن أمه امرأة ناجحة، فكثيرًا ما رأى أباه يمزق لها كتبها وأوراقها، ويحطم قوارير الورد، ونباتات الظل في تلك الغرفة التي للقراءة والكتابة، للنباتات والعصافير، وكيف كسر لها البيانو الذي يعشقونه جميعًا، وبينما كان روح "أكرم" يخفت في أجواء المنزل، و بينما فقدت ذرات الهواء كلماته منذ أكثر من خمسة عشر يومًا، نظر "يوسف" إلى أمه وقال وهو يرتعد:

- تعالي كي نطمئن على أكرم، أعتقد أنه سيفارق الحياة فقد أوجعه فراق أبي وآلمه غدره بنا وزواجه، لم نتوقع من هذا الرجل أبدًا أن يتزوج امرة غيرك. جاءتها كلماته كنصل سيف ضرب عنقها، فترنحت، ثم استندت إلى يد الفوتيه، وشالت نفسها بصعوبة حتى استقام ظهرها إلا قليلًا، فمد يوسف يده لها كي تنهض، فلما دخلا على أكرم غرفته، وجدوه ممددًا على السرير كأنه ميت؛ فقد كان شديد النحافة، فلماالتحف الغطاء لم يبن منه شيئًا، كان المنظر يوحي تمامًا كما لو كان الولد قاب قوسين أو أدنى من أن يحمله الرجال من الدار إلى مثواه الأخير. جلست فريدة بهدوء بجوار رأسه، واتخذ يوسف مكانًا له عند قدميه، وأخذ يدلكهما؛ كانتا تصارعان الحمى أيضًا، لم يُبْد " أكرم" اعتراضًا على تدليك قدميه، ولم يحرك ساكنًا، فأزاحت فريدة الغطاء بهدوء عن رأسه وهي تنادي اسمه بصوت خفيض:

- أكرم!، قم. اجلس يا حبيبي بيننا. لن يجدي الحزن شيئًا. قم أنت لست بمريض. لديك جسد سليم. لا أريد أن أراك مستسلمًا. سيزداد قهرنا إن لم تقم. لم يعد بالبيت سوانا، وأنا أريد أن ننجح جميعنا، أفهمت؟ نريد أن ننجح جميعًا؛ ننهض مرة ثانية، أعلم أنك في ذهول مما حدث، وأنك تفتقده بقدر ما تستنكر فعلته، ولكنه سيظل أبوكم مهما حدث. لم أسمع يومًا عن أبناء شطبوا أب من أرواحهم، ولكنني سمعت عن أبناء تجاوزوا محنة كمحنتنا، عليك أن تتجاوز الأمر، من أجلنا، لن احتمل أن أرى غرفتك خاوية منك أنت أيضا. قم، فرفع أكرم نظره إلى أمه بضعف شديد، فاحتضنت رأسه طويلًا، فراح يبكي بشكل هيستيري، قالت:

- ، قالت:

- لن أمنعك من البكاء، بالطبع، اذرف ما شئت من دموع، اغسل تلك المنطقة جيدًا، اخل هذا المكان المشبع بالوجع تمامًا إلا من رضانا بقدر الله، هل تتذكر المعبر؟

- أي معبر؟

- "رفح".

- نعم.

- نحن الآن على المعبر؛ نمسك بأوراق هويتنا، وننتظر هناك، ربما في " أريحا" أخرى، أن ينادي أحد الجنود أسماءنا، ليمنحنا حق العبور إلى الطرف الآخر من النهر، نحن الآن على المعبر، فلندعم بعضنا البعض، كي يكون عبورنا آمنا.

فأجابه يوسف:

- ولم لا نكون على معبر آخر غير معبر رفح؟

فردت عليه :

لكل واحد منا معبر، كمعبر رفح، ليست العبرة في اسم المعبر، ولكن العبرة في مدى مهارة كل منا في التجهيز للعبور، دعونا نستعد للعبور بشكل يرضي الله عنا، ثم ضمت رأس أكرم كما لو كانت تضمده، وقالت بصوت قوي: قم، قم، إنه لن يعود، وأمامنا فرصة كبيرة للعبور بسلام؛ كلنا. قم، فترك يوسف قدمي أخيه، ووضع يده على رأسه، وقال: قم، أنا أبوك، أنا أبوكم منذ اليوم، ثم احتضن رأسيهما وضمهما إليه طويلًا، ولم يقطع صمت الغرفة إلا صوت أكرم يسأل والدته بلهجة مصرية:

- هو اللي بباه بيموت بيكلمه ازاي؟

- بيقرا قرآن كتير ويبعتهوله، وبيترحم عليه دايمًا، تقوم روحه مزقططة من الفرح وييجي يزوره في المنام.

- واحس بحضنه وطيابته؟ طب ممكن آخد رأيه في حاجات ويرد علي؟

- ممكن قوي، ناس كتير حصل معاها كده..دي كرامات بقى..وانت ونيتك.

- طيب واللي بباه طلق مامته و"طفش" وسابهم، ومحدش عارف عنه حاجة ابنه يكلمه ازاي؟... اقصد بيقوروله سورة إيه؟

كان هذا السؤال كفيل بأن يحرك البيت من مكانه، لكن الصمت كان أصدق قيلاً.

-24

كان كل ذنبها أنها تعاني من عقدة أمبيدوكل، إذ كانت هذا الشخص الذي يهلك نفسه في سبيل سعادة الآخرين ، ويرى أن عليه ان يقضي بقية حياته كشمعة تذوب لتضيء حياة الآخرين؛ تصنع في كل يوم نجاحًا جديدًا لعائلتها الصغيرة، بينما يغار زوجها من نجاحاتها، ويسعى بكل طاقته لأن يجعلها مجرد أَمَةٍ، لا أكثر؛ يخونها، ويتفنن في إهانتها طوال الوقت، ولقد قرأت في تقرير ترجمته يومًا عن مثل هذ النوع من الرجال أنه يعاني من عقدة النقص، حيث يصيبه نجاح الآخرين بتقلص ذاته، مما يخلف لديه شعور بالتعالي والزهو، والتفاخر الكاذب، وحب الظهور، وتكبر عقدة النقص هذه بداخله تدريجيًا إلى أن يصبح شخصًا عدوانيًا، يصل به الأمر إلى حد تدمير كل شيء حى أقرب الناس إليه. كان أكرم ينظر إلى أمه، ويعصره الألم على تلك الشابة التي ضربها في مقتل كل من حسبتهم أركانًا آمنة؛ يتذكر بكاءها كلما تذكرت إلهام؛ زميلتها التي كانت تعمل محررة في نفس الجريدة التي تعمل بها، والتي اتفقت مع المدير على الإطاحة بها، لتأت بابن أختها ليحتل مكانها؛ كان نوع من الاستيطان الناعم. في باديء الأمر، كانت إلهام تستغرب من مديرها الذي يأتي بالورود من حديقته كي يضعها على مكتب فريدة قبل أن تصل بقليل، وتستغرب من رئيس التحرير الذي كان يأتي إلى جناح الدراسات والبحوث كي يشعل ضوءالمكتب لفريدة التي تنسى أنه منطفيء في غمرة انشغالها في الترجمة. ولم تجد إلهام وسيلة للتخلص من فريدة سوى الاتفاق مع المدير الذي كان يعاني من عقدة "ليليت" إذ كان يسعى دومًا لإغواء النساء، يسمونه في مصر "زير نساء"، كان كل حلمه أن يحظى بتلك المصرية الجميلة التي لم تعر وروده يومًا أدنى اهتمام، يتذكر امه وهي تحكي كيف كانت الأيادي القذرة تمتد إلى مقالاتها فتتفاجأ بها مشوهة بلامعنى في الصبح التالي كأنما كتبها معتوه، وكيف هددتها زميلتها تلك الصحفية المصابة "بعقدة برجوديس"، وهي عقدة يضمر صاحبها حقدًا عميقًا، و كراهية لكل ما هو مختلف عنه، وهو شخص عدواني مصاب بهوس التعدي على الأشخاص المسالمين دون وجه حق، بالترحيل إلى مصر حين أخبرتها فريدة بكل برءاة أن جواز السفر الخاص بها وبأولادها كان جوازًا جماعيًا، وأن زوجها أخذه وسافر إلى مصر، وتركهم كي يتزوج من امرأة أخرى، وأنه لم يعد لدى فريدة وأبنائها أية أوراق ثبوتية غير كونها شخصية عامة معروفة لدى السلطات المحلية والسفارة المصرية، الأمر الذي أتاح لها فيما بعد، التخلص من تهديداتها لها بالترحيل، فقد سمح السفير لها بحمل جواب تعريف مختوم من السفارة، وفيما بعد

أتاح لأولادها حمل وثائق سفر حتى تتمكن من إرسالهم إلى مصر. يتذكر جيدًا كيف كانت أمه تعتبرها صديقة مقربة وتحكي لها كل أسرارها، وأخبارها غير السارة، ولكنه يعود ليحمد الله كثيرًا، فموقف تلك الصحفية القذر من أمه، علمهم جميعًا، فيما بعد، ألا يمنحوا ثقتهم لأحد مهما بلغت درجة براءته. يتذكر كيف كانت أمه تنهار من وقت لآخر، كلما تذكرت كل ما مر بها من خيانات، لأنها لم تتوقع أن يكرهها احد إلى هذا الحد، ويتذكر جيدًا كيف عادت منهارة إلى المنزل، وهي في حالة إعياء تام من شدة ما أصابها من حالة قيء مفاجيء، وإسهال، فور إعلامها بأمر إنهاء تعاقدها مع الجريدة، وسمعها تقول لساندرا:

- تخيلي، قال لي سكرتير التحرير أن امرأة اتصلت برئيس التحرير هاتفيًا وقالت له أنني سيئة السمعة، لا أعرف امرأة تكرهني إلى هذا الحد، وليست هذه معضلتي، إن صدمتي الكبرى هي في رئيس التحرير، أخي وزميلي، ومشوار طويل من الإبداع والحكايا، نحن عائلة واحدة، نقضي جميعا بالجريدة أكثر من ثلاثة أرباع اليوم، حتى أنني أنزل إلى الجريدة في أيام الجمع، كيف يحدث هذا، إنهم يعرفونني جيدًا، كيف يفعل هذا، وفي مثل هذا التوقيت بالذات، لقد جردني أبوكم من كل شيء، وكذلك فعل رئيس التحرير، سيكون هذا آخر راتب لي هنا، "ربَّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين".

كان هذا الحوار المُرّ لا يغيب عن مخيلة أكرم، لكنه لم يك يملك شيئًا حينها، فقد كانت سنواته العشر أقل بكثير من العواصف التي اجتاحت سفينتهم التي أصبح الربان الوحيد فيها أمه، بعد أن أصبحت تعاني من "عقدة ديانا، وهي عقدة نقص تصيب النساء، تدفع بهم إلى التفوق، وتجعلهم يتصرفون كالرجال، ويرتدون ملابس الرجال. و لم يفارق مخيلته يومًا مشهد وداع أمه لهم قبل سفرهم بمفردهم إلى مصر، كانت ساندرا قد بلغت خمسة عشر عامًا إلا قليلا، يذكر جيدًا كيف انغلق باب الباص الذي سيقلهم إلى الطائرة ليحجب عنهم وجه أمهم إلى أجل لا يعلمه غير الله، يتذكر جيدًا كيف التف حولهم الضباط في المطار، وقد أذهلهم نزول ثلاثة أطفال بمفردهم إلى مصر، أرسلتهم أمهم لأبيهم، لأن عليها أن تنهي أمورًا معلقة؛ أولها قضية الطلاق الذي اختارته رغمًا كمكافأة إنهاء الخدمة عند سن الثلاثين.

لم تنطفيء في روح أكرم مشاهد لقائهم بأبيهم. فهو لمَّا يزل يسمع أحد الضباط يعنفه بشدة لأنه تركهم للمجهول، في بلد غريب، ويتذكر كلماته عن أمهم:" منها لله"، لم يرد أي منهم على كلماته، إذ كانوا ضعافًا، يقصم ظهورهم مشهد فراق أمهم، التي لم تخبرهم كيف مر عليها شهر كامل قضته في "الواي".

وفي طريق عودتهم، سمعوه يتحدث إلى امرأة ما عن قرب وصوله، ويطمئنها من وقت لآخر، وكان يبدو أنها متلهفة للقائه، فلما جاوزوا منطقة البوابات، كلمها مرة أخرى، فسمعه "أكرم" يقول همسا:

- "خلاص وصلنا، حاوصَّل الولاد عند عمتهم، وأجيلك، أمهم بعتتهم لي عشان يفضالها الجو هناك".

منذ ذلك اليوم، أقسم "أكرم" بالله أنه يومًا ما سيثأر لشرف أمه، ثم سأله:

- لماذا تركتنا وتزوجت بامرأة أخرى؟

- لأنها أرملة، ولديها ثلاثة أطفال، وليس لها من معيل، إنه ثواب يا حبيبي، ولقد أوصى الله بالأرملة واليتيم.

وتذكر أكرم آخر كلام قالته لهم أمه بينما هم يجلسون إلى مائدة العشاء قبل سفرهم بيوم واحد، حين ناقشوها جميعهم حول مسألة ترك الرجل زوجته، ومعاملته السيئة لها، واستهانته بوجدها في حياته، ومحاربته لنجاحها، وكيف أنها اختارت أن ترد علينا كباحثة، فاعتدلت في جلستها، وقالت:" حين يفشل الرجل في قراءة زوجته بشكل رائع، علينا أن نلوم المرأة التي قرأت له الحواديت يومًا، لأنها لم تحدثه كثيرًا عن الأميرات، لو أخبرته كيف على المرء أن يعامل الأميرات، لتحول فورًا إلى ملك، مازلت أعيب على الحواديت. كما يجب أن تتصرف المرأة أيضا كالأميرات، كي تمنحه فرصة لعب دور الملك، لكننا تربينا جميعًا على حكايات

سندريلا، وزوجة الأب الشريرة، وأمنا الغولة، والعنزات الثلاث وكيف أكلهم الذئب، تربينا على أن المرأة فريسة، والرجل قناص، ثم انتقل المتخيل إلى محسوس ومرئي، فلم تحدثنا الأفلام أو المسلسلات إلى عن الساقطات والمغتصبات والخائنات، وإن أنصفت المرأة يومًا، صوَّرتها لنا رخيصة طالما حملت لقب " مطلقة" ، يلفها الدنس من كل الجهات، فهي موضع شبهة وعار. على المجتمع بأسره أن ينتقص من قدرها، وكرامتها، فهي متهمة ومحكوم عليها مسبقًا، ولا تنتظر العكس، حتى لو ثبتت براءتها. الرجل الفاشل ليس إلا امرأة أخفقت في أن تربي عقلًا جمعيًا متوازنًا، يحترم الرجل ويبجل المرأة في آن معًا."

...

25

دخلت مكتبها وماإن جلست حتى جاءها أحد الموظفين وأخبرها أنه يريدها في أمر مهم للغاية، فدعته إلى الجلوس:

- أولا، عديني ألا تخبري أحدًا أنني أنا الذي نقل لك الحوار الذي سأرويه لك الآن.

- اعدك، ما لأمر ؟

- احترسي من الزملاء حولك، كلهم.

- كلهم؟، لماذا؟ أنا أعامل الجميع معاملة جيدة، ولا أحمل لأحد ضغينة ما، ولا ناقة ولا جمل في موائدهم ، ما هذا الذي تقول؟

- لقد سمعت حوارًا بين مدير الشركة ونائب المدير أثناء جلوسنا جميعًا في أحد المقاهي وكنت أنت محور الكلام.

- ماذا قالا؟

تابع الموظف وهو ينقل عنهما:

- "طب وبعدين، البت دي صوتها علي قوي، وحتفضحنا عند المديرالعام لو عرف إنها كمان بتعزف بيانو وبتتكلم لغات و مش بعيد يحبها وناكل إحنا هوا.

- والجديد بقى انها فتحت مكتب استيراد وتصدير، يعني حتنافس على كل حاجة. دي زي الولد بتقش، وساعات بتبقى ولد وكومي في بعض، المصيبة الأكبر إنها حطت قوانين متخليش حد فينا يتنفس للشركة، والريس وقع عليها، دي حتمشيها ميري مع الكل.

- طب وبعدين؟ البت دي لازم تغور من هنا بسرعة.

- اهدى شوية، دي بنت كلاس قوي و لازم نستخدم الذكاء معاها، مممم، أنا باقول نبعت لها عميل شيك كده يجيب داغها.

- لالالا، دي مش بتاعة الكلام ده، ولا بيهمها فلوس ولا مظاهر ولا أي حاجة، دي لازم نتخلص منها زي عم هاملت ما اتخلص من هاملت عشان يفضى له الجو مع أمه.

- يعني ايه؟

- يعني يا نسفرها، يا نفسحها، يا حانفخك!"

استمعت فريدة لكلام الرجل بكل دهشة وذهول العالم، وتفحصت عيني الموظف جيدًا، وقالت بحدة:

- أنا هنا شريك، أي أنني لا أنافس أحدًا على مقعده.

- نعم، ولكنك تنقلين ثقافتك لرئيس مجلس الإدارة وهو يعمم على الجميع قرارات أنت منبعها، وهذا يضيق الخناق على الجميع، يقولون أنك ستخلقين من المكان كتيبة عسكرية، على كل فرد فيها أن يتبع التعليمات بدقة، ومن يخرج عنها، سيكون عقابه وخيما.
- أضيق الخناق؟، وكيف ذلك؟
- بمعنى أنك وضعت قوانين صارمة للتعامل بيننا وبين الشركات الأخرى، وأصدر رئيس مجلس الإدارة أوامرًا تقضي بأن تمر كل الأوراق الخاصة بالاتفاقيات والمناقصات بك أولا، وأنك اتخذت مستشاريكِ من العسكريين السابقين، كما أن وضع الكاميرات في كل الزوايا يعيق المنتفعين، وهنا ستبرز الاتفاقات الخارجية، وتصبح حربك مع جهات مجهولة،انتبهي جيدا، هنالك محاولة للتخلص منك.
- لا يشغلني الأمر، طالما أنني أنفذ خطة عمل وضحة، وأتبع سياسة عسكرية كما يقولون، ولا يهمني رضاهم عني بقدر ما يهمني نجاح هذه الشركة.
"من الغبن أن يقع كل بياض العالم تحت طائلة الظلم،" هكذا قالت بينها وبين نفسها،وانقطع تفكيرها حين دخل زميل لها إلى المكتب يقول:
- صباحك سعيد.
- سعيد؟ طيب سعيد ازاي يعني؟

.....

-26

أنا ممكن أوصف الأماكن والشخوص وكل حركة وساكنة حتى الصمت ممكن أوصفه، بس مش عاوزة، عاوزةاخليك تتخيل كل حاجة بطريقتك، وعايزاك تحط نفسك مكاني، هو ليه لازم ارسم لك خط عشان تمشي عليه؟ أنا في البيت وبس! البيت اللي باحبه، قاعدة على الكرسي اللي بحبه، جنب اللامبدير اللي نوره بيسندني، وتقريبا حاكتب، أو حاقرا، لسه مش عارفة، أيوة كده، أقول لك سر:" مش انا اللي باكتب الحاجة، الحاجة هي اللي بتكتبني، ولا باقرا حاجة، النص هو اللي بيقراني، أصلي مش باعرف نفسي قوي غير لما نص يلمِّس على روحي، ويصدقني، واعيط على كتفه، بجد، أنا شفت النصوص بأكتاف عريضة وطيبة، وبتتحمل تفاصيلي المرهقة، مش مصدقني، والله انا لما باعدي جنب الكتب بالاقي كتاب معين بيبص لي ويشدني كأنه قطة شقية، أو كلب لولو بيبص لي وكل ما ابص ورايا الاقيه متابعني، اروح مغيرة خط سيري وراجعاله، أيوة الكتاب القيم بس هو اللي بارجع له وانا مغمضة، لكن انت مش حارجع لك، مفيش فيك حاجة يترجع لها، لا فيه، مكتبتي اللي عندك، بجد انت تكرم عشانها، استناني انا راجعة، عاوزة مكتبي وكتبي، مترميش يمين الطلاق دلوقتي، استنى لما أخرج نهائيًا من بيتك. مش عارفة ليه حاسة اني لقيتني فجأة، باتنفس بعمق، الهوا في رئتي طاير، ووشي هادي جدا، شكلي حاكتب رواية مهمة. ليه لازم تكون مهمة؟ ليه ماتكونش انت اللي مش مهم لأنك مش فاهم انها مختلفة؟ تعرف ان اللي مش مهم ومش متعارف عليه والمرفوض هو اللي بيفاجئنا بالروعة دايما؟ تعرف ان كل شخص همشناه في حياتنا، وأهملناه، كان هو الشخص الصح جدا، واحنا من كتر جهلنا ضيعناه بايدينا؟ أنا فاكرة مثلا، ان مديري في الجورنال كان بيجيب لي الورد كل يوم الصبح ويحطه على مكتبي، ويشغل أم كلثوم، سيرة الحب، وكاظم الساهر، أشكيك لمين، وانا كنت دايما اهز راسي وابتسم له ابتسامة صفرا، واقول ميرسي. بس، لما مشي من الجورنال وسافر على قطر، افتقدته جدا، مش عارفة ليه، رغم اني مكنتش باستلطف اللي هو بيعمله، لما بافتكره دلوقتي بازعل قوي اني معشتش معاه جو عمر الشريف وفاتن حمامة. تخيل دلوقتي انا شايفاه أروع حد شفته في حياتي، و"

ساري" ابن جيراننا، كان مبيفهمش الألف من كوز الدرة، ده كان رأينا كلنا فيه، ولما درِّست أخته وأخوه اللغة الانجليزية والفرنسية، كان تور الله في برسيمه، ولما وصل أولى ثانوي بالعافية نفر مننا كلنا، وقرر انه ما يكملش دراسة، ومامته اتصلت بخاله في ألمانيا عشان يسفره، قبل ما يفضحهم، أحسن البلد تاكل وشهم؛ ازاي ابنها ميكملش تعليمه، وبعد سنة ونص بالضبط، سألت عنه، قالو لي اتجوز ألمانية، وبيتكلم ألماني لبلب، وفتح شركة استيراد وتصدير، وعمار ابن عمتي كان بيعشق حاجة اسمها ويب "ديزاين"، وجرافيك، كلنا استغربنا إنه كان بيقضي اليوم كله على الكمبيوتر، أيام ما كان "صخر"،و "أبل" من معجزات القرن ومقتنياته الثرية، ولما مامته وبباه كانوا بيراقبوه أحسن يكون بيتفرج على الافلام اياها، أو منتمي لتنظيم كده ولا كده، كانوا بيدخلوا أوضته فجأة يلاقوه بيتعلم تصميم وبور بوينت وفلاش وكده، عمار ده لما التحق بأولى جامعة وحضر أول محاضرتين، لقى الاستاذ بيشرح برنامج" دوس"، ولقى نفسه خمس أساتذة في بعض، وفاكرة كويس يومها سألته مامته عن الجامعة وجمالها، قال لها انتي عايزاني اقعد اسمع ايه؟ الشرح هايف والاسئلة أحلها بصوبع رجلي، وبعد سنتين خطفته شركة برمجة أجنبية، وبقى سنيور مبرمج زي الفل، أنا بصراحة حاتكلم كلام مش مهم، وحاكتب رواية مش مهمة، ومش عاوزة حد يقراها، فمتسألنيش عن تفاصيل المكان، والزمان، هو مينفعش يبقى فيه حكاية في اللازمان واللا مكان؟ اعتبرني هربت من البرواز، ايوة يا سيدي انا باكره البراويز، ألا صحيح هو قبل ما يبقى فيه برواز، كان الكلام والصور والأحلام شكلها ايه؟ طيب قبل ما واحد زي يهرب من التفاصيل، مين اللي حبسنا فيها؟ أيوة، أنا حالتي النفسية بقالها يومين مستقرة. مستقرة؟ طب يعني ايه مستقرة؟ مستقرة يعني معنديش مشاكل؟ لا طبعا فيه. طب مستقرة يعني مبسوطة وانا عايشة لوحدي؟ لا طبعا. طب مستقرة يعني مش عاوزة اشوف ناس؟ لا طبعا. آه، تقريبا مستقرة عشان قربت ألاقي اجابات لأسئلة كتيرة حيرتني، آه ممكن. يووووه، أنا مش بحب المرايا تكون دائرية، حابقى اشتري مراية بيضاوية بس من غير برواز، مش عاوزة اشوفني جوة برواز حتى لو كان برواز المرايا، طيب وايدين الكرسي؟ ممم، حاقعد على الأرض، كام تربيعة وافرش الكتب على الارض زي زمان، وانام على بطني وأضرب غطس في الكلام، وأحسن ان النور بيتسحب وبيص من بعيد أو من قريب، مش مهم، لا ممكن اقرب الأباجورة شوية، عشان الضوء ميتكسرش على عدسة عيني ويتعبها، أيوة، كده، شوية نيس كافيه بقى، وحبة بيتي فور، وازازة المية وكوباية فاضية، أصل الكوباية الفاضية اللي بتبرق دي مغرية جدا، بتغريني أصب فيها المية للنص، مش مهم اشرب كل المية اللي فيها، الكوباية وهي نص مليانة، مش شيء مهم، لكن لو انقطع النور فجأة ووقفت مواتير المية، حتبقى الكوباية دي كل حياتي، هي والكلام اللي منتور في الكتب، على فكرة الكلام برضه مش مهم، عارف امتى يبقى مهم؟ لما يكتب على روحك بطريقته حكايتك، أو حكايتي، وعلى فكرة الحكاية كمان مش مهمة، عارف ليه؟ لان اللي انت بتقوله للرواية هو الأهم. فهمتني؟ والنبي متخليني اتكلم في تفاصيل. كفاية انك تعرف اني فريدة. فريدة وبس.

...

-27

نهضت من سريري وناديت:

- أم صالح.. أم صالح؟

لكنها لم ترد، فخرجت من غرفتي واتجهت نحو المطبخ، وكلما اقتربت من المطبخ اقترب صوت أم صالح، كانت تحدث شخص على الهاتف تقريبًا،ولأنها كانت تغسل الصحون فقد علقت الهاتف المحمول بسلسلة تدلت من عنقها، وكان وضع الميكروفون يمكنني من سماع حوارهما، كانت عصبية للغاية، قالت:

- مش كل حاجة تقول لي الظروف الظروف، ابوك كان عايش في ظروف اسوأ من كده، وقدر عليها، بالعكس انت عندك أوضة لوحدك، وبتاخد مصروف، هو كان بيمشي بالجزمة مقطعة، ويختشي يقول لابوه هات عشان اصلحها.
- زمانكم غير زماننا، انا اصحابي كلهم بييجو الجامعة بعربياتهم، آخر موديل، أنا مش باطلب حاجة كبيرة، زوديلي المصروف بس، صحابي بيروحوا ياكلوا فاست فود، وانا بابقى جعان وبقول صايم، مش بقدر اجاريهم.
- بص بقى، كلها سنة ونص وتتخرج، وتلاقي شغل، حاكلمك محمد محروس بتاع مجلس الشعب واخليه يشوف لك واسطة حلوة كده بمرتب كويس يساعد على الحياة دي. كل حاجة غلت والمعاش زي ما انت شايف، شوية خزين ميكفوش لنص الشهر ودوايا وكان الله بالسر عليم، وممكن ربنا ينفخ في صورتك ويجيلك عقد عمل ينعنشنا شوية، وتتجوز وتفتح بيت وافرح بولادك.
- ولادي، لالالا، انسي الموضوع ده خالص، تاني؟ اجيب روح تتعذب ومعرفش اربيها واكرمها، طب انا عديت، لالالا ولاد ايه بس.
- يابني ده فرعون بجلالة قدره وكل الخير اللي عنده لما شاف ان مراته حتتجن عشان يبقى عندها ولد ،اترجته يخلي موسى يكون ابنهم مترددش لحظة، الولد سند وضهر برضه، ومين عارف مش يمكن تخلف 11 وتعمل فريق كورة.
- ياسلام، ضحكك قوي الحلم ده؟ طيب ليه قلتي فريق كورة، كنتي اتمني اكون زي سيدنا يعقوب، وييجي ابني يرفعني انا وانتي على العرش. يصلح احوالنا، حتى في الدعا على أدك؟، وبتبصي تحت رجليكي، باصيها كويس ياما الله يرضى عليكي.
- على أدي؟ أنا زعلانة منك، على فكرة بقى انا مش على أدي، الست اللي تربي راجل مؤدب زيك في حارة فقيرة كل سكة فيها واقف بتاع مخدرات متبقاش على أدها. الست اللي الناس تنادي ابنها باسمه الحقيقي من غير اسم حركي يهزأوه بيه زي ما بينادوا " الكَنِّي، والتِيتِي، ويقوموا له لما يعدي عشان هو مش بيشرب سجاير تبقى مش على أدها، انت صحيح مش بتصلي الوقت بوقته، لكن في الزمن ده انت الادب كله، وان جت على الصلاة متقلقش خالك التزم لله وصلى وهو في الاربعين، قعد كام سنة وبعدها ربنا خد وديعته، الناس نسوا له كل غلاسته وعصبيته عليهم ساعة الموت وافتكروا له بس انه كان بمبيسيبش فرض ولا بيطلع من الجامع، وانه كان بيمسح الحمامات ويغسل الحصير كل يوم بعد المصلين ما يمشوا، وكل يوم الفجر يحول في أزايز المية ويسقي الزرع اللي حوالين الجامع، العبرة بالخواتيم، الله يحسن ختامنا، والولد لخاله، المهم الأخلاق، ربنا يهديك مش فاضل لك غير الصلاة يا حبيبي.
- بتتكلمي على أساس إن الجامع فاتح ابوابه طول اليوم، الدخول بقى بالبطاقة يا حاجة، وانا بطاقتي اتكسرت، لما اجددها بقى دعواتك.
- بادعيلك بدمي يا حبيبي.
- ألا قوليلي، حتديني مصروف كام بكرة؟
- حاديك فلوس المواصلات، يا تاكل وتيجي مشي، يا ترجع مواصلات وتستنى اما تيجي البيت، انا عاملة كفتة رز حاطلع أربع حبايات على ادي وادك.
- ماشي ياما، كتر خيرك.

أذهلني حوارهما كثيرًا، فلم يختلف حال أم صالح عن حال فريدة كثيرًا، ولم تنجح خانة الوظيفة في إثبات أفضلية فريدة على أم صالح، قد حملت كل منهما لقب مطلقة في خانة الحالة الإجتماعية، يا إلهي، ما هذا الجنون، ماهذا الذي يفعله بعضنا في بعضنا، وتظاهرت بالنوم، وطلبت من المرأة- الرجل أن تصنع لي كوبين من اليانسون، ثم وجدتني أنهض من سريري، وأجلس إلى مكتبي وأمسك بقلمي الرصاص، ورحت أرسم رجل يجلس في حديقة محنيًا إلى الأمام، يضع رأسه بين كفيه، وقد ارتمت الجريدة على المقعد الخشبي بجواره، وبجوار ساقه اليسرى قبع كلبه الذي استسلم لنوم عميق.

.....

28

رن جرس الهاتف في بيتي مبكرًا في ذلك اليوم، وأزعجني للغاية، وكنت قررت ألا أرد، ولكن تكرار المتصل ورنات الهاتف المزعجة، جعلني أنهض غاضبة وأرد:

- هالو!

- صباح الخير، هل يمكني التحدث مع فريدة ماهر من فضلك؟

- أنا فريدة.

- أنا دكتور معاوية، من الشركة الوطنية للترجمة يا أستاذة.

- أهلا بحضرتك، تشرفنا سيدي، وبدأت أخفف من حدة صوتي قليلا، فقلت، أهلا بحضرتك مرة ثانية.

- هل باستطاعتك زيارتنا في القاهرة في مكتبي؟ أن مسئول سلسلة التراجم، والواقع، لقد سمعنا عن جهودك الطيبة في مجال الترجمة، ونريد أن نستفيد منها، ونريد منك ترجمة رواية حصلت على جوايز عالمية.

- بالطبع، لا مانع لدي، أشكركم لاختياري.

- إذن اتفقنا، يمكنك تحديد الموعد الذي يناسبك كي نلتقي بك هنا، سجلي أرقام هواتفي، وأبلغيني، نحن ابنتظارك. قال هذا بأدب جم، وقلت في نفسي: لو كرمتك بلاد العالم ولم تحصل على تكريم من بلدك فلا قيمة لك. وحمدت الله كثيرا أن أتاح لي فرصة كنت أحلم بها طوال حياتي، فمنذ ترجمتي لقصة حياة "ديانا تشارلز"، التي قمت بنشرها على صفحات الجريدة، وأنا أتوق إلى القيام بعمل يحمل ختم النسر، كنت أريد أن أقول لمصر أشياء كثيرة، و ربما حان الوقت، وقطع علي تفكيري صوت السيد معاوية:

- يمكنك استقبال الرسائل الإلكترونية التي سأرسلها لك عبر الميل.

- حسن، سأفعل، سأرسل لك عنوان البريد الخاص بي بعد قليل.

- أشكرك، اتفقنا، إلى اللقاء.

- تحياتي.

كان لهذه المكالمة وقع جميل في نفسي، فأخيرًا تتوجه إليَّ جهة ما بمصر بالتقدير، لا أدري لماذا تذكرت حينها أحد قرائي وهو يقول لي: "استمري، إذا ضربك الناس من الخلف فاعلمي أنك في المقدمة، كنت أعلم أنهم لن يتركوك، وكنت أقول لنفسي، لقد تأخروا عن تنفيذ خطة تهميشك، استمري، أنتِ ما ينفع الناس، انتِ عمل صالح"، ولكني لم أشأ أن أتذكر الموقف الذي جعله يقول ذلك.

.

جلست إلى مكتبي أتصفح البريد الالكتروني، حتى جاءتني رسائل الشركة لوطنية للترجمة، كان المطلوب مني أن أجد معلومات عن الكاتب الذي سأترجم له، فرحت أقرأ عنه كثيرًا، وأترجم كل ما يصلني من أخبار عنه إلى اللغة العربية، وأرسلها للسيد معاوية، وبعد أسبوع من البحث المتواصل والترجمة، حسم الرجل

الأمر، فتوجهت إلى القاهرة حيث مقر الشركة، وقادنا أحد رجال الأمن إلى حيث غرفة السيد معاوية، فلما دخلت، قابلني بحفاوة أبهجتني، وأستحقها، ثم قال:

-أتشربين القهوة؟

- يمكنني احتساءها من الآن.أشكرك

وأمر لنا بالقهوة، ثم أعطابني الرواية، كنت فخورة للغاية أن أقوم بترجمة عمل عظيم كهذا، وفرحت للغاية، كان العرض عاديًا من الناحية المالية، ثلاثون ألف جنيه مصري فقط لا غير؛ قدم لي العقد، قرأته ثم وقعت اسمي فريدة ماهر.

كان العقد ينص على أن أقدم الترجمة في مدة أقصاها ستة أشهر، وحملتني السيارة إلى بيتي، وما إن دخلت البيت، حتى اعتكفت لمدة أربعة أشهر، لم أخرج فيها من مكتبي إلا مضطرة، وكانت خادمتي تصرخ من قلة تناولي الطعام بانتظام، وكانت تشتكي لأمي وتقول أنني أطلب الشاي والعصائر ولا أشربهم، وكانت تدخل لي من وقت لآخر كي تقنعني بأن أرتاح قليلاً، فانظر إليها محذرة، فتفهم أن عليها ألا تقطع علي تفكيري، كنت قد تفرغت تمامًا للعمل، و الواقع أنني وبكل إخلاص، بذلت فيه جهدًا جبارًا، ومن وقت لآخر يتصل السيد معاوية كي يستطلع الأخبار، وأخيرًا انتهيت من إعادة الصياغة، ومن المراجعة اللغوية، ولم أترك حرفًا دون أن أمنحه علامة إعرابه المناسبة، بعدها خرجت من غرفتي، وتمددت على الأريكة في غرفة المعيشة، ورحت أتابع قناة الكارتون في التليفزيون، فأطلقت خادمتي زغرودة وقالت:

سأتصل بالجدة كي أبشرها، وضحكت طويلًا، كانت أسنانها المتفرقة في فمها تبعث في قلبي الشفقة عليها، فقلت لها:

- حين أعود من القاهرة، سآخذك إلى طبيب الأسنان ليجد لك حلًا مع هذه الفراغات التي تملأ فمك، فصارت تدعو لي بطول العمر والتوفيق وكل ما حفظت من دعوات طيلة حياتها، ولما أعدت الغداء قلت لها:

- أين الأولاد؟

- في النادي.

- سأنام قليلًا، أخبريهم أننا سنحضر جميعًا حفل الأوبرا اليوم، لقد قرأت في الشريط الإعلاني على شاشة التليفزيون أن حفلة اليوم يتخللها عزف منفرد على آلة الإكسليفون؛ الماريمبا، وهي آلة من آلات الإيقاع الغربي مثل الجلوكنشبيل، ولكن الإكسيليفون هو الأشهر من بين هذه الآلات، وأنا من عشاق هذه الآلة.

- حالا، سأتصل بهم، أرجو ألا تكون هواتفهم مغلقة.

في الأوبرا، رحت أغسل روحي وأطير إلى عوالم خرافية، كان شيء ما في داخلي يغتسل في مصب الخلود.

في اليوم التالي، انطلق بي السائق إلى مقر الشركة، دخلت مكتب السيد معاوية، سلمت عليه، وسلمته الفلاشة التي تحمل نسخة أولية من الرواية مترجمة إلى العربية، كي يطلع عليها، كان قد مر على توقيع العقد بيننا أربعة شهر إلا قليلًا، تفحص النسخة جيدًا، وقرأ مطلعها، وأعرب عن إعجابه الشديد بها، وأثنى على سرعة الإنجاز، وأخذ نسخة من الرواية ورقية، كنت قد حملتها إليه أيضًا، واحتسينا القهوة المصرية على حد قوله، وألقيت عليه تحياتي، وخرجت، والتهمت السيارة الطريق إلى الإسكندرية، كنت خلالها أُقرأ الرواية بالإنجليزية للمرة الخامسة، كي أطمئن إلى أنني نقلت روح كاتبها على الورق،وأنني لم أتدخل بروحي ولو بإبدال علامة ترقيم واحدة أو اختلاق أخرى، ولما ارتحت للترجمة، استرخيت في مقعدي الوسيع في غرفة المعيشة، ورحت أقلب قنوات التليفزيون، فلاح لي عنوان فيلم كارتوني قديم: " علي بابا والأربعين حرامي"، فانقبض قلبي، ولم أدر لماذا، وقررت متابعة الفيلم، ولكني لم أستطع فقد غلبني النوم، ولم أستفق إلا على

مشهد خادمة علي بابا وهي تصب الزيت المغلي في الجرار التي اختبا بداخلها اللصوص، ورغم أنهم مفسدون، أشفقت عليهم للغاية، ووجدتني أردد:"أفيحسب الإنسان أن يترك سدى"، ولما استيقظت في الصباح التالي وجدت قلبي يردد آية بعينها ولم يتركها لمدة أسبوعين على الأقل: "يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"، شعرت بضيق شديد، لا أعلم له سببًا، وبعد قليل رن جرس الهاتف، وجاءتني الخادمة:

- هل أجيب على الهاتف سيدتي؟

- نعم، لا رغبة لي في محادثة أحد اليوم، لو سألك أحدهم عني، قولي أنني نائمة.

- لا عليك سيدتي،سأفعل.

وفجأة قالت بصوت مرتفع، وهي تنظر إلي:

- حضرتك أستاذ معاوية؟، فأجبتها بإشارة من يدي:

- أحضري الهاتف، فقالت:

- لحظة سيدي، سأخبرها حالًا

- هالووو

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل أنت على مايرام؟

- نعم، أنا بخير.

- هل يمكنك زيارتنا في الشركة؟

- متى؟

- يفضل أن يكون بعد يومين على الأكثر.

- وهو كذلك، سآتي غدا إن شاء الله، هل هنالك أمرًا بعينه بخصوص الترجمة؟

- نعم، سنتناقش في بعض الأمور.

- إذن نلتقي غدًا إن شاء الله.

كان العقد ينص على أن أتقاضى مبلغًا وقدره ثلاثون ألف جنيهًا مصريًّا، وكان من المفترض ان أحصل على نصف المبلغ قبل أن أشرع في الترجمة، هذا ما يقوله العقد، ولكن لأنني لا أملك سابقة في النصب على أحد، ولا أتوقع النصب من أحد أيضًا، لذا لم أدقق في مسألة النقود، فهذه جهة حكومية، ولن ينقصوني حقي بالطبع، فأنا أتعامل معها بنص عقد ملزم لكلينا، كما أن السيد معاوية يبدو مهذبا للغاية، ولم أشغل بالي كثيرًا بالأمر، وكان العقد المبرم بيننا في حقيبتي طوال الوقت، رحت أضرب أخماسًا في أسداس لمزيد من التوقعات التي دعت السيد معاوية يصر على مقابلتي، لقد تركت له العمل ليراجعه مختص ما بفنون الكتابة باللغة العربية، وأخيرًا وصلنا، دخلت المكتب، فقرأت الغدر، كان وجه السيد معاوية مسودًا، عابسًا، ويجلس على المقعد الأمامي له من ناحية اليسار رجل له شعر أبيض مجعد، ووجه غير مريح، وكأنما عرفني من فرط ما حكى له معاوية عني، استقبلني هواء الغرفة محملًا بالخيانة، لا أدري لماذا انتابني هذا الشعور القميء الآن، قام معاوية ليصافحني، ثم عرفني على الرجل الجالس، قال:

- السيد .....

- مرحبًا، قلت له وأنا أحييه برأسي، ولم أمد له يدي لأصافحه ولم يفعل هو، كانت عيناه تدوران في المكان، غير مريحتين تمامًا، وقطع الصمت كلام السيد معاوية:

- حمد لله على سلامتك.
- أشكرك
- في الواقع، لقد قام السيد"س" بمراجعة الرواية... إنه يعمل رئيسًا لتحرير مجلة ...وله بعض الملاحظات .
- وهل هو على علم بأصول اللغتين الهدف والمصدر؟
- هو ضليع باللغة العربية.
- أفضل أن أحاوره بنفسي.
- أرى أنه من الأفضل أن نضع إسمه على الغلاف بجوار إسمك كمراجع.
- لماذا؟
- لأنه راجع الرواية ووجد بها بعض الأخطاء.
- اخطاء؟ ... مراجع؟، أعتقد أنك تقصد بوصف "مُراجع" أنه مدقِّقٌ لغويّ. مممم...لا أدعي بالطبع أنني أملك من علامات الترقيم" النقطة"، ولكني متمرسة في عملي للغاية ويشهد لي الجميع من أهل اللغتين بذلك، وبناء عليه، اختارتني شركتكم الموقرة، ولكن، أرى أنه يجب أن يناقشني أولا، هذه الترجمة حصاد جهد شاق، ولقد أمضيت أربعة أشهر متواصلة حتى انتهيت منها.
- حسن، هذا السيد الجالس أمامك هو المراجع... أقصد المدقق.
وهنا أدركت لماذا كانت رائحة التواطؤ تملأ الغرفة، فقلت له: أهلا بك، هلا أخبرتني عن ملاحظاتك؟
- لقد بدأت الرواية بقولة" انفتح الباب"، فهل يوجد في اللغة العربية كلمة كهذه؟ هذه ليست من اللغة في شيء؟
- وماذا عن "انفعل" سيدي؟
لم يكن الرجل يستمع لكلامي، ولا يترك لي مجالًا كي أحدثه، بل ستأنف جهالته فقال:" لماذا تقولين هنا مثلًا: " غاص العجوز في كرسيه حتى لم يبن منه إلا طاقية أخفت معالم رأسه تمامًا، فاستبان للآتي من الخلف رأس نعش مصري كالذي يضعونه في مساجد الأولياء"، بينما الأدق أن تقولي:" لم يظهر بدلًا من لم يبن، ولاح بدلًا من استبان"، هنا وجدتني أقول له:
- أين اختراقي للغة، أنت كمن يستبدل الماء بالماء.
كانت كل تعليقاته من هذا النوع، كان يبحث جاهدًا عن" سبوبة"، ولم يناقشني في ترجمة خاطئة أو تدخل أجبرتني عليه اللغة كي لا أخرج عن النص الأصلي. ومن وقت لآخر، كان الرجلان يتبادل النظرات الخفية، فعرفت أن أمرًا قذرًا قد أخفته الكواليس وأنه بدا واضحًا الآن، فوجهت كلامي لمعاوية:
- أنا لا أهتم للنقود التي سأحصل عليها مقابل هذا العمل، لكنني أكترث كثيرًا لإسمي، فرد ببرود:
- بالمناسبة، إن ظهر اسم المراجع مع اسمك على الغلاف، ستحصلين على نصف المبلغ المنصوص عليه بالعقد.
- نصف المبلغ؟ كيف؟
- لأنه سيبذل جهدًا في المراجعة كبير.
- جهدًا كبيرًا، ماذا تقول أيها السيد؟! لقد قمت بالتدقيق اللغوي مرارًا. حين يتعلق الأمر بالتدقيق اللغوي لأحد الأعمال المترجمة، فإن علينا أن نجلب له من يجيد التعامل مع اللغتين؛ الأصل والهدف، ومن خلال حديثي مع السيد " المراجع" فهمت أنه لاعلاقة له بالأنجليزية، ناهيك عما أبداه من قصور في فهم عملية التدقيق. لا اعتراض لي على أن يكون هنالك مدققًا لغويًا بالطبع، ولكن، هلا أتيت بمن هم أهل الاختصاص؟ حتى أنت، كما قلت لي من قبل، لا علم لك إلا باالألمانية، فكيف يتسنى لكما الحكم على العمل؟

- عزيزتي، أنصحك ان تقبلي بعرضنا هذا، وفجأة رد رئيس التحرير، المراجعة تعني أنني سأعيد صياغة العمل من جديد.
- المراجعة تعني أنك ستضبط اللغة الهدف- العربية- من جهة الإعراب فقط، وليس لك أن تتدخل في متن الترجمة، المراجعة هي أن تقوِّم إعوجاج الجمل أو العبارات، وفق ما تقوله اللغة العربية بعيدًا عن كونها صدى لنص موازٍ، أما إعادة الصياغة فتسمح لك بأن تلعب في التركيب اللغوي، وربما في المضمون، وبذلك تتوزع روح النص بين مستويين للكتابة، ومن هنا يخرج العمل مشوهًا، وهنا تدخَّل معاوية:
- أرى أن يوضع اسمك واسمه على الغلاف، لن تخسري شيئا.
- بل، سأخسر، لأنني تعبت في هذا العمل، هذه ملكية فكرية عزيزي، ترجمتي للرواية تعكس ملكية فكرية مزدوجة للروائي والمترجم معًا. أنا غير راضية عن هذا الأمر. ماهذا الذي يحدث هنا؟ إنه مجهودي ، وقد قمت بالمراجعة اللغوية.
- يمكنك أن تختاري حلًا من اثنين،إما ان يكون اسم الأستاذ" فلان" الذي تبين من مناقشتي معه أن لا علاقة له من قريب أو بعيد باللغتين، ولكنه فقط يحمل لقب رئيس تحرير،وتربطه علاقة حميمة بمعاوية، وأن يوضع اسمه مع اسمك على الغلاف، ويذهب العقد بينكما مناصفة، أو نعطي ترجمتك لمترجم آخر ليمنحنا رأيه.
- مترجم آخر؟ لا بأس، على ألا يطّلع على ترجمتي، و على أن يكون أكفأ مني من فضلك؟، لقد قضيت طوال عمري أدرس وليس من العدل في شيء أن يراجع ترجمتي من هو أقل مني علمًا.
- لا تقلقي، سنختاره من هنا في "المصلحة." ثم ألقى نظرة خاطفة إلى رئيس التحرير فالتقت عيناهما بشكل خاطف له مغزى فهمته لاحقًا، وقال:
- أين العقد سيدة فريدة؟ هل تحملينه معك؟ وبكل براءة، أخرجت العقد بكل احترام من حقيبتي ووضعته على مكتبه، ولصدمتي، قام بتمزيقه، وقال:
- اعتبري أن الأمر لم يكن.
انعقد لساني من الصدمة ولم أجد كلامًا أرد به عليه، وكان الرجل الجالس على المكتب المقابل لمكتب السيد معاوية يتابع كل ما يجري بيننا نحن الثلاثة دون أن يحرك ساكنا، وكأنه ليس موجودًا، أغضبني الأمر للغاية، فخرجت أبحث عن غرفة المدير العام "للمصلحة"، فلما عرضت عليه الأمر، زم شفتيه وقال: معاوية مرة أخرى؟، وأجرى اتصالًا هاتفيا بأحدهم وسمعته يقول همسًا:
- لقد فاحت الرائحة عفنة من مكتب معاوية سيدي، ماذا أفعل، هنا أستاذة مترجمة يبدو أنها من ذوي الكعوب العليا، أو أنها متمكنة للغاية،هذا يبدو واضحًا في طريقة حديثها، ويبدو أننا في مأزق ما، كان ظهر المقعد يخفي عني بعض الكلمات أحيانا، فلم أسمع بقية الكلام، لكنه استدار بكرسيه، وقال لي:
- ساحوله للتحقيق حالًا، ولكن هل معك مايثبت أن بينكما عقدًا رسميًا؟، لحسن الحظ، كنت قد احتفظت بالعقد الأصلي معي، فقلت: نعم، سيدي، فأجاب باندهاش بالغ:
- ألم تخبريني أن معاوية مزق العقد؟
- لقد مزق النسخة التي تم تصويرها بماكينة الليزر سيدي، فبدا التوقيع بقلمك واضحًا بلونه الأخضر الزاهي، فارتبك الرجل، واحمر وجهه، ثم أجرى اتصالًا ثانيصا، وبعد قليل، أخبرني أنهم بانتظاري في غرفة المحققين الإداريين، وهناك، وجدت رجلين، استمعا إلي بشكل جيد، وقمت بتحرير شكوى بالواقعة، وأرفقت صورة العقد مع الشكوى، وصورة لترجمتي، وبالفعل تم تحويل معاوية إلى الشئون القانونية. تفهم الرجلان

موقفي تمامًا، وأكدا لي أن الأمر سيتم وفق ما يقتضيه القانون، فشكرتهما، وبينما أنا في طريقي إلى الخارج رأيت الرجل الذي يعمل سكرتيرً لمعاوية يتبعني، وكنت قد خرجت يجتاحني الغضب ولا أملك لمعاوية هذا شيئًا غير لعناتي له طوال الطريق، ولكني لم أعد إلى الإسكندرية، بل توجهت إلى بيت ابن عمة لي يسكن في التجمع الخامس، الذي يمتلك جريدة ويعمل رئيسًا للتحرير أيضا بها. وقضيت في بيته ثلاث ليال ويومين. لا أذكر أننا تكلمنا في شيء غير معاوية ومحاولته الرخيصة، فأجرى ابن عمتي عدة مكالمات. أخبرني بعدها أننا سنقابل رئيس مجلس إدارة شركة الترجمة شخصيًا في اليوم التالي، وبالفعل قابلناه، كان واضحًا من استقباله الحنون لنا أنه على علم بكل القصة، ويبدو أنه تعاطف معي لأنه قال:

- اهدئي عزيزتي، سأساعدك في الحصول على حقك، لكني لم أتأثر بكلامه فقلت:

- هل تعلم أن العقد الخاص بترجمتي للرواية مبرم بيني وبينك شخصيصا؟ أي أن القانون لا يعرف معاوية، وفي حالة مقاضاة الشركة مدنيًا، سأختصمك شخصيًا، فبُهت الرجل، وعقد بين حاجبيه، فتوقيعه على العقد لا يوقع معاوية في أية مساءلة قانونية بالفعل، ولما رآني لا أتنازل عن ثورتي في الكلام طلب ان يحدث ابن عمتي على انفراد، ثم تركاني ودخلا مكتبًا جانبيا ينبثق من مكتب الرئيس الرئيسي، وبعد ربع ساعة تقريبًا، عاد ابن عمتي ليقول لي:

- اهدئي الآن، سوف يتابع حاتم بك الأمر بنفسه، ووعدني إن لم يوقف نشر الرواية سنضطر لنشر الأمر على صفحات الجرائد، وهذا أمر يمسه هو بالدرجة الأولى، لنخرج الآن، فقد وعدني الرجل، ولأنه ليس من اللائق أن أرد كلام ابن عمتي، وافقت، ولكني لم ألقي تحية ما على الرئيس، في الواقع، كان قلبي يحدثني أن الكواليس عميقة وقذرة للغاية.

عدت وابن عمتي إلى داره في التجمع الخامس، وفي الصباح التالي رن جرس هاتفي المحمول. ظهر اسم معاوية فبصقت على الهاتف. ولما عرفت زوجة ابن عمتي أنه هو قالت:

- ردي عليه، لعله خيرًا، وقبل أن يخرس الجرس الأخير، قلت:

- أفندم!

- هل قدمت شكوى ضدي؟

- لا، إطلاقا.

- لقد حولوني إلى الشئون القانونية بسببك، أرجوك اسحبي الشكوى، هذا الأمر يسيء إلى كثيرًا، لو سحبتها، سأبرم معك عقدًا آخر، فهذه ليست الرواية الأولى كما أنها ليست الأخيرة.

- هذه حصاد أربعة أشهر من العمل المتواصل، هذه دمائي على الورق.

- تعالي إلى الشركة غدًا. سأبرم معك عقدًا آخر بمكافأة أكبر.

- لا تعنيني النقود عزيزي، كل ما يعنيني هو اسمي، ومجهودي.

- أرجوك، اسحبي الشكوى، أرجوك.

قلت له حسن، سأفعل هذا غدًا. ولم تزدني مكالمته إلا إصرارًا على موقفي، وبعد قليل طلب ابن عمتي رقم هاتف معاوية، فأعطيته له، فاتصل به، فرحت أراقب وجه ابن عمتي كي أقرأ الحوار الدائر على الطرف الثاني، كان ابن عمتي ينصت باهتمام ويرمقني بطرف عينيه من وقت لآخر فاستشعرت المؤامرة، ولما انتهت المكالمة، قال:

- اهدئي عزيزتي، عليك أن تنهي الأمر بشكل ودي، نحن في بلد يمكننا من شراء كل شيء بالنقود، بإمكان الرجل أن يفعل كل شيء ، ليثبت أنه على حق ليدافع عن نفسه،، فأفقدتني الدهشة توازني بعض الشيئ، فقلت: لدي النسخة الأصلية، والقرص الإلكتروني؟

- من السهل جدا تبديل الأشياء عزيزتي، سيقول أن ما وصله هو النسخة غير الجيدة، وأن التي معك نسخة لاحقة على الأولى؛ كل شيء مردود عليه يا عزيزتي.

- تبديل؟، تشويه؟، لم يك من العقل أن أكمل نقاشي معه هو أيضا، وبعد قليل طلبت

من السائق ان يعود بي إلى الاسكندرية، ولكني تعمدت ألا أخبر ابن عمتي قبل أن يأتي السائق، وتحاشى هو النظر إلى عيني، وحين وصل السائق، ودعتهما سريعًا، وحملني المصعد إلى الكراج، ومنه إلى الإسكندرية، وافترشت المقعد الخلفي، وشعرت بدموعي تسقط في حلقي، لم يؤلمني في كل الأمر إلا حديث ابن عمي الأخير، كانت الكواليس قذرة للغاية.

قلت في قلبي:" أحيانًا يكون الخروج دخولًا، كم قالت لي ريم ذات يوم. لكنني أراه دومًا مفتتحًا للبراحً. رأيت أن أخرج خروجًا بهيًا كخروج يوسف. ففي بلدٍ تفوح صباحاته بالوشاية، والنميمة، ويبيت على الفضائح، وتجريح الوطن، و تنقلب فيه كل الموازين، ويتولي أموره شراره، يعجز قلمي عن الكتابة، ويتجمد تفكيري إلى حين....

رحت أتخيل ردود عائلتي على كل ما مر بي في تلك التجربة، وتعالت أصوات جدتي وأمي، ريم:

- الحياة أقصر مما نتصور، كلنا على سفر، نمكث هنا قليلًا ثم نرحل إلى حيث مقامٍ كريمٍ أو مقامَ إهانة، "ألا ليت قومي يعلمون"

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

- لا تحزني عزيزتي، للأسف، بعض القراءات تفسد الجوهر، وأرجو ألا تعتبري رد الفعل الحيادي ، أو الأبله ،أحيانًا، خيانة أو جبن فعدم علمنا بالحقيقة أو تعدد مصادرها يجعلنا نختار أقل الخسائر!

- أرى أنه من المستحيل بمكان، أن ينعقد لسان الحق، لمجرد أن من يتحكم في مصير العارفين جهلاء الأمة، وأثق في قول الله سبحانه وتعالى:" إن عليك إلا البلاغ".

فجأة تذكرت ابن عمتي وهو يلتقط لي معه ومع زوجته صورة سيلفي للذكرى، فقلت بيني وبين قلبي:

صحيح احنا بنتصور "مع بعض" سيلفي

لكن أول ما بتطلع الصورة

كل و احد بيبص على "نفسه".

29

كان "يوسف" يجيد الصمت، فلم يعلق كثيرًا على الأحداث التي مرت بالعائلة، ولم يبد رأيه في انفصال أبويه، ولم يبد على ملامحه تعابير تليق بالحدث، حين تلقى نبأ هروب أبيه إلى مصر من أجل امرأة متزوجة، كان ينام حتى يقولون ربما مات، ويسهر حتى يظنون أنه أحد أفراد الجن. ولم يدر بخلد فريدة يومًا أن تراه يتابع أخبار " كتائب العصف المأكول"، ويثني عليهم في الاجتماعات العائلية جهرًا، حين تلتم العائلة في البيت الكبير، لم يهتم كثيرًا لكل أخواله الذين حاولوا تغيير مفهومه عن تلك الكتائب، كنت أرى في كثير من الأحيان أنه ينفث عن ألمه حين يمنحهم بعض الوفاء عن بعد، فقد مات صديقا طفولته أثناء زيارتهما لنابلس؛ أوقفتهما دورية للشرطة الاسرائيلية، وقيل فيما بعد، في شريط الأخبار، أن الضابط لم يعجبه أنفيهما المعقوفين إلى

أعلى، فأشار بيده فجاءتهما الرصاصات من الخلف، فتكوما على الأرض ونقلت الصحف صورتهما شابين تحتضن ساق أحدهما اليمنى الذراع اليسرى للآخر، تمامًا على نفس الهيئة التي اعتادت فريدة أن ترى فيها يحي وأكرم أثناء نومهما حين يصطحبها الفجر إلى غرفتهما كي تمنحهما دفء روحها، ورفرفة دعواتها على رأسيهما، وهي تلف حولهما الأغطية.

لم تنم فريدة في تلك الليلة، فقد شغلها كثيرًا أن يضل ولدها وتخطفه الحياة السياسية، فلا طاقة لها بذلك، لكن ملامحه البدوية المختلطة بالجرح الفلسطيني الذي اختزنه في دمه من المكان ومن أصدقاء عمره الذين لم تنجح المسافة في تفريقهم،أنبأتها أن أمرًا جللًا سيجثم على دارهم عما قريب. فقد كان يوسف يقضي الساعات الطوال يتحدث بلهجة بدوية ممزوجة بالفلسطينية. كانت تعلم أنه يعوض الفقد الذي أصاب روح الدار بالخراب بالتحدث باللهجة التي يتكلم بها الطبيب الذي شق عنه بطن فريدة يومًا كي يشعر بدفء منحه إياه أبوه يومًا قبل أن يفقد عقله بسبب امرأة فلعله يبقى على ملامح الوطن الذي تسلل إلى روحه دون أن يأذن له.

كانت فريدة تدخل غرفة يوسف يوميًا، كالمجنونة؛ لقد علمها قضاء ابنها حوالي 15 ساعة متواصلة أمام شاشة الكمبيوتر استحالة أن يكون هذا العالم افتراضيا. لا بد أن أمرً ما يحدث لابنها. كانت تخشى أن ينضم إلى إحدى الجماعات أو التنظيمات التي تملأ أركان الإنترنت، وتمنت لو انها استطاعت الحصول على كلمة السر التي بها يتجول ابنها في هذ العالم حتى ترى الرسائل الصادرة والواردة. كانت تريد أن تعرف أين يقع ابنها من هذا العالم، وإلى أي جناح ينتمي، لكنها تعود لتلوم نفسها، وتهمس :" ولا تجسسوا". وتمنت لو أن أحدهم اخترع وسيلة ما يمنكها معه من ترجمة لغة الصمت التي اكتنفت عالم ولدها. كانت تقدر حزنه النبيل، حين ترى الغضب في عينيه كلما أتى ذكر فيصل وعمرو صديقيه الشهيدين، ولكم تمنت لو أن أحدهم اخترع آلة ما لتسجيل المونولوجات الداخلية للإنسان، كي تعلم ما هو آت في حياة أسرتها المنكوبة.

لن تجدي الكاميرات نفعًا لإنها تسجل الصوت والحركة ووتخبرنا بالحقيقة بعد حدوث الجرائم. بينما تريد هي تسجيل صمت ابنها، وتترجمه، تريد فك شفرة مونولوجه الداخلي. كانت تقول:

- أرجو أن يجيء اليوم الذي يخترع فيه أحدهم آلة لتسجيل الصمت، وأخرى لرصد العبارات والخطط التي يحيكها العقل في الخفاء. نعم، فالخطط التي تتم في غرفة عمليات العقل أشد خطرًا من كل الخطط التي تم الكشف عنها إلى الآن، ماذا لو استطاعت آلة ما ان تكتشف الخطط التي تدبرها عقول رجال العصابات او الجماعات الإرهابية مثلًا حين تكون قيد الإعداد؟ لن يجدي الأمر شئيًا إن اكتشفوا الصناديق السوداء، وأجهزة التسجيل المختلفة بعد تحطم السفن أو الطائرات. ماذا لو أفلح أحدهم في رصد الكلمات التي تحملها ذرات الهواء في غرفة أحد الأزواج الخائنين مثلًا كي تتمكن زوجته من تقديم دليل قاطع على خيانته لها، دون أن يؤجل القاضي جلسةالنطق بوجوب التفريق بينهما للضرر النفسي إلى إشعارٍ آخر. و دون أن تحمل نظراته، ونظرات مجتمع بأسره لها اتهامات باحتمالية التقصير في واجباته، ثم لماذا يفترض القوم أن التقصير دومًا هو سلعة المرأة، التي يروج الرجال لها كلما اشتهت أنفسهم صيدًا جديدًا؟ لماذا لا يخترع أحدهم جهازًا يرصد السكون، ويسجله كما يتم تسجيل درجة احتمال حدوث الزلازل، ومن ثم يوفر على الإنسانية كم الجرائم التي لا سبيل لإثباتها لانعدام الأدلة في معظم الأحوال فإن لم يكن ذلك من باب إيقاف الأذى قبل وقوعه، فليكن من باب الوقاية خير من العلاج؟ لماذا لا يخترع أحدهم جهازًا ما يقيس به مدى نصاعة الضمائر، وينذر بمكر النفوس، ويرصد نزعات الظلم والشر، ويحذرنا الخيانة والمؤامرة قبل أن تحدث الكارثة بوقت كاف كي نتدارك الأمور؟ لو فعل أحدهم شيئًا من هذا القبيل لما حيرها أمر ابنها ولانكشف لها من صمته الكثير، ولأراحته من عناء الغياب في اللامكان.

تكفل الليل لها بالتوقف عن التفكير، فقد تسلل إليها النوم ناعما، ولم يوقظها إلا جرس الهاتف آتيا من غرفة أمها، فنهضت لترد، لكنه كان قد سكت.

كان ليوسف طريقة غريبة في إضفاء إرادته على الآخرين، بل كان يجيد تحجيم رغبات الآخرين وفق مايرى، فلقد رأيته مرارًا، وهو يتحدث إلى زملائه حين كانوا يأتون إلى المنزل لتلقي الدروس الخصوصية في الرياضيات. كان دائمًا ما يقترح عليهم اختيارين، فيضعهما في مأزق استحالة وجود اقتراح اختيار ثالث، فحين تأخر أستاذ الرياضيات عن وقته، قال:

- دعونا نقضي الوقت في عمل مفيد، هل تتفرجون علي وأنا أقتل الوحش، أم أشرح لكم كيف تطبقون نظرية فيثاغورث؟، وكنت أجد زملائه، يوافقون دومًا بالحل الذي يوقف عقلهم عن التفكير، ووجدته وقد اختاروا أن يراقبوه بينما ينهي مراحل اللعبة ويقتل الوحش، وحين يتحدثون عن غلاظة مدير المدرسة ويبدأ كل واحد منهما ينفث عن غيظه منه ويسقط عليه روح الاستهتار، يقول:

- إن مر عام ولم تتم عمليات الصيانة في غرفة المدير، فإنها ستسقط فوق رأسه، فيتحول الموضوع بينهم جميعًا من الغيظ من المدير، إلى مدى تردي حالة السقف في غرفته، وكيف أن الرطوبة أكلت الجدران، و كيف كانت عاملة النظافة تشكو من ازدياد التراب الذي يتكوم بجور أركان عتبات الباب، وانتشار سوس الخشب في المكان.

وحين رسب صديقه في مادة الكيمياء، وجاء يشتكي له صعوبة الأسئلة وضيق الوقت، وأن المراقب خلق له جوا متوترًا لأنه كان يقطع الغرفة ذهابًا وجيئة فيقطع عليه تفكيره، أجاب يوسف:

- انا لا أرى في ذلك عيبًا، فلو أنك نمت جيدًا، لرأيت الأمور بشكل أفضل، ثم أردف لائمًا إياه:

- كما أنك لا تتوقف عن شرب القهوة، ولقد قرأت تقريرًا عن المضار التي تلحق بالجهاز العصبي والعضلي إن شرب الفرد أكثر من ثلاثة فناجين، ولقد صنعت لك الخادمة ثلاثة فناجين حتى الآن ولم تنته الساعة بعد، إنها القهوة يا صديقي، وهنا تحول الأمر من الكيمياء إلى باب القهوة، فصل النت. وبعد قليل رأيتهما يطبعون مقالًا عن القهوة- المنافع والمضار، ثم رن جرس الهاتف، كانت أم صديقه تنتظر ابنها كي يذهب معها إلى الطبيب.

حتى في حوارتنا العادية، كان يوسف يحجم تفكيرنا بطريقة ذكية فيضعنا دومًا أمام خيارين أو يضع سيناريو ما ننقاد إليه تلقائيا فإن حدث، اعتبرناالأمر برمته قد نجح، وإن جاءت الأمور بعكسه، فقد الأمر برمته قيمته، لكم كان ماهرًا في ممارسة الهندسة الاجتماعية.

كان يجيد فرض الاقتراحات، فيوقف الجميع عن التفكير إلا ضمن دائرة حددها بنفسه، ووضع الآخرين فيها، بمعنى آخر، كان يجيد تحريك الجهاز اللاإرادي لدى الآخرين بمهارة،فقد كنا جميعا نفعل ما يريده هو، دون أن نشعر نحن.

حتى حين أخبرته زوجته بأنها فقدت خاتم الزواج، وأن لا أثر له في أي مكان ذهبت إليه، وأنها تستغرب كثيرا لضياعه، فهو لا ينخلع من إصبعها بسهولة، استشاط يوسف غضبا ثم رد بلهجة حادة وهو يرفع حاجبه الشمال:

- فتشي في الحقائب جيدًا قبل أن تأتي العربة التي ستقل الأثاث إلى القاهرة،، فأومات برأسها موافقة، فانصب تركيزها على ضرورة عدم التأخر في إعداد كل شيء قبل مجيء عربة الأثاث، لقد حول يوسف المسألة من البحث عن الخاتم، إلى ضرورة إعداد كل شيء قبل أن تأتي العربة، فصارت عروسه تصارع الزمن كي لا تتسبب في أي تأخير، وفي الوقت نفسه قلبت البيت رأسا على عقب فعثرت الخاتم.

أتذكر جيدًا ردوده، حين جاءت ابنة عمه تشكو إليه زوجها؛ خياناته المتكررة لها. أخبرها أنه يخشى العواقب الوخيمة للطلاق، وراح يعبر عن خوفه من ضياع البيت والأولاد، خاصة وأنها ربة منزل. ليس لها دخل مستقل ثابت. وأن الجميع سيتخلى عنها. وأن المحامين لا يعملون لصالح الموكل بل يجدون في موكليهم مادة جيدة للحصول على معاشات ثابتة، ولربما تواطأ المحاميان على طرفي الخصومة، وأن المرأة المطلقة في الشرق لاتحظى بالشفقة مثلما تحظى الأرملة، وأن أولاد المطلقة يضعهم المجتمع في قفص الاتهام دومًا، فهم إما متسترون على علاقات مشبوهة تقوم بها أمهم، وإما مدلسون ينافقون الأب والأم للحصول على احتياجاتهم، بعكس الأرملة التي يحث الدين والعرف والتقاليد على الانحناء لها، ويحظى أولادها بكل الرعاية والحب، ولا تنخلع عنهم كلمة اليتامى حتى بعد موتهم، فالناس لمَّا تزل تذكرهم فنراهم يقولون:
كان رحمة الله عليه يتيمًا، مات أبوه قبل أن يولد، وماتت أمه قبل بلوغه سن الرشد.أما ساندرا فقد تدخلت بكل قسوة، وراحت تحثها على طلب الطلاق، فكانت تقول:
- لماذا ترضين برجل يهينك في كل لحظة؟، لماذا تعيشين مع رجل منحك الله حق الخلاص منه ما دام لا يتقيه فيك؟ و...و...و....
ووسط كل هذا الهجوم الشرس الذي شنته ساندرا على زوج لبنى حول مسألة الطلاق، بات اسم الطلاق بالنسبة للبنى معناه خلاصها، فقد كان لساندرا قوة رهيبة على الشحن. فلما عادت لبنى إلى المنزل، واحتدم النقاش بينها وزوجها حول مسائل عدة، إلى الحد الذي قال معه:
- لو تفوهت بكلمة أخرى فأنت طالق فردت:
- أنت خائن، فوقع الطلاق بالفعل، وسقطت لبنى نفسيًا، فسيولوجيًا، وعصبيًا في فخٍ لا طاقة لها به وانهارت معنوياتها، وفقدت كل قدرة على النهوض بأسرتها مرة أخرى، وحين تحدثت إلى ساندرا لتخبرها، ردت ساندرا بجبروت غريب:
- لا تعطي المسألة أكبر من حجمها، إن كل ما حدث هو أنك أصبحت تسكنين الدار مع أولادك دون أبيهم لبعض الوقت، كما لو كان في سفر بعيد، أو كما لو كان يعمل لدى جهة رسمية عليا، ولا يأتي إلا قليلا، فرد يوسف:
- الطلاق ليس بالمعركة الأخيرة، الطلاق يعني إثبات فروق التوقيت، والتأكيد على ضرورة الإقلاع والهبوط الآمنين في الوقت المناسب، والمحافظة على سلامة أرواح الركاب، فإن تحققت هذه الضمانات، فلا داع له، فرفعت لبنى رأسها، وأمسكت بهاتفها المحمول، وقالت:
- محمود، تعالى كي تأخذني إلى البيت، لا أحتمل العيش في أجواء المصحات، أظنني بخير الآن، ولتذهب أنت وعشيقاتك إلى الجحيم، ولا تنس أن تجلب غداء جاهزًا لليوم، فلا وقت لدي للطهي ، فكتب يوسف في مذكراته:
- "لقد ترقبت لبنى حدوث الطلاق فوقع، فلما وقع، وقعت, أما ساندرا، فقد كان لها قدرة هائلة على الشحن."، ثم رمى النوتة على المنضدةو التفت إلى لبنى وقال منبها:
- حين تتوقعين سقوط الكأس من يدك، تسقطان معًا.
-30
همست فريدة في أذن أكرم خوفها حول صمت يوسف وقضائه كل الوقت أمام شاشة اللابتوب قالت:
- هل تحدثت إلى أخيك مؤخرًا؟

- كالعادة نتناقش وقت الغذاء قليلًا حول آخبار كأس العالم، أو حول بعض برامج التصميم، والهاكرز، و نتشاحن أحيانًا حول من سيقود السيارة في الصباح، ثم يتركني ويخرج إلى الشرفة ليددخن كعادته، وحين يدخل الغرفة أكون قد نمت. لماذا أنت قلقة؟

- أراه ينتمي بشدة إلى سماع خطب كتائب "العصف المأكول"، ويشاهد أفلام عن الانتحاريين، و الشهداء، ولا يستمع إلا لخطب الشيخ قاسم، ألم تلحظ ان الحوائط في غرفته لا يكاد لونها الأصلي يبين من فرط ما ألصق عليها صفحات الجرائد التي تقص القصص عن المجاهدين وعن الشهداء المبتسمون؟

- لا تخافي، كلنا منبهر بهؤلاء الراحلين ابتسامًا، كما أن الشيخ قاسم هذا شخص مسلم ملتزم وليس بإرهابي. لقد مات وهو يجاهد ضد اليهود، مابك يا أمي، هل من العيب أن يؤاز يوسف أو أنا هذا الشيخ بالروح والدم. ثم لا تقلقي، يوسف عاقل ويعرف ما يفعل،أنت تعرفين أن أخبار فلسطين تهمنا كثيرًا فكل أصدقائنا فلسطينيون، اهدأي، ليس هنالك ما يقلق. كما أنه لا يخفي عني شيئًا. هيا لنأكل شيئًا، ماذا طبخت أم صالح لنا اليوم؟

- مقلوبة.

- حسن، سنعد المائدة سويًا.

- فأم صالح ليست هنا، ذهبت لتزور ابنها. تعود غدًا.

وبينما ينقل معها الأطباق والملاعق، شغله حديث أمه فانتقل إليه توترها، فأخرج هاتفه، وطلب رقم أخيه، وسأله:

- هل أنت بخير؟

- أنا بغرفتي يا عبقرينو، ماذا بك؟، فقهقه أكرم وركض نحو غرفة أخيه، ولما فتح الباب كانا لايزالا يضعان المحمول على أذنيهما، ويقهقان، ثم قاما إلى المطبخ ليساعدا أمهما في إعداد المائدة، وبينما يتناولون الطعام قال يوسف لأمه: لماذا لم يدخل في قناعة القاضي الذي باشر قضية طلاقك من والدي كلامك عن فراره إلى مصر، وأنه كان قد مضى على فراره أكثر من ستة أشهر؟، فاقتضب وجه فريدة وردت دون تفكير:

- لأنه رجل بالمقام الأول، ولأنه لم يسمع دفاع أبيك. كان يريدني أن آتي له بأبيك كي يسأله إن كان قد فر بالفعل أم ان هذا من اختراعي. قلت له لقد تركنا الرجل وفر، فمن أين آتي لك به؟ ذكرني القاضي يومها بالوسيط الذي يفرض على الموظف أن يدفع له عشرة آلاف جنيه قدمًا كي يستقدمه للعمل في أحد البلدان العربية، لو كان معه عشرة آلاف لما استجدى عقدًا يخلصه من الفقر. ولكن مالذي جعلك تتذكر هذا الأمر الآن؟ لقد حبست ذاكرتي عن تلك المواضيع يا يوسف وألقيت بها في البحر في اليوم الذي عدت فيه إلى مصر بمفردي، في المرة التي سبقت الحكم بالطلاق.

- ممم...آسف لو كنت أزعجتك، لكنني لن أنسى بكاءك ما حييت، ولا تبرح ذاكرتي صورة رأسك التي كانت تضرب حائط باب قاعة المحكمة الرئيسية، ولم أنس التفاف الناس من حولك يسألونك عن الأمر، ولم أنس أنك قلت للقاضي:" من يحمي المرأة حين يتركها زوجها من أجل امرأة أخرى إن لم يحمها القضاء؟ ومن يحمي أبناءها من استهتاره؟ من يحمي المرأة إن وقعت في حب رجل آخر وهي في رحلة البحث عن مخرج تثبت فيه أن زوجها رمى عليها سبعة عشر يمينًا بالطلاق؟ لو كان هو على حق، لما هنت نفسي بالدخول إلى المحاكم فهذا أمر مشين في عائلتي،" لم أنس أنه كان ينصت إليك باهتمام طوال الوقت. لقد لاحظت أن القاضي تألم، فلقد رأيته يركز عيناه على تعابير وجهك طويلًا و زمَّ شفتيه ونظر إلى الورق أمامه طويلًا، ثم تنفس بعمق وقال:

- تأجلت إلى جلسة يناير 1999.
- وحين صرخت قائلة: "يناير؟، شهر آخر من الانتظار؟ إنها مهزلة،" رد عليك مستنكرًا اللفظة:" مهزلة؟ تنعتين القضاء بالمهزلة؟ من أنت لتقولين هذا؟" لكنك عالجت غضبه بكاءً فقلت له: لا أقصد القضاء بالطبع، بل أقصد طول الوقت الذي سأنتظره ليقول القضاء كلمته،" فرأيت مسحة إشفاق منه عليك، كان بارعًا في تمريرها بسرعة فأمر الحاجب أن ينادي على القضية 2016.
- نعم، ولكن كيف احتفظت طوال الوقت بتلك الذكريات؟
- لأنها جعلتني أنعصر ألمًا لك وعليك. لأنني لم أتمكن من مساعدتك في إثبات صدق روايتك، لقد كنت صغيرا للغاية.
نظرت فريدة إلى ابنها تتفحص فيه الشارب الكثيف واللحية الدوجلاس، والكتفين العريضتين، والملامح الدقيقة لوجهه، وشعره المسحوب إلى الوراء، والشريطة الخضراء التي يربطه بها، كان له لون بشرة أبيه، وقوامه الممشوق. أما روحه فقد حلت عليها روح أبيها رحمه الله ثم قالت بينها وبين قلبها:" لا بد أن أقرأ في أمر استنساخ الأرواح، وتحضيرها، فلا بد أن لها قدرة ما على حماية من تحب."
- هل تعتقدين أن هنالك فرق كبير بين اليهود وبين أي شخص انهتك لك خصوصية، أو هدم لك بيتًا، أو شتت لك شملا؟ هل تعتقدين أن لفظة "مسلوب" لا تطلق إلا على الأرض المغتصبة؟، لن أنسى ما حييت ما فعله هذا الرجل؟

-31

حين عادت من طولكرم" نابلس"، لم يبد على وجهها أية تعابير. لم نستطع قراءة الأخبار في شريط عينيها. كانت صامتة تمامًا. ولم يعكس بياضها المائل إإلى الصفرة أية مشاهد حين استقبلتنا لدى الباب. كنا خمس جارات: ربى، رزان، أنسام، ريهام، وأنا. افتقدناها جميعًا بالطبع. وما أن فتح الصباح نافذته فوق منطقتنا- جبل الحسين- وانصرف أولادهن إلى مدراسهم حتى توجهنا جميعا إلى منزلها.
قالت رزان:
- يبدو عليك الإرهاق الشديد، لابد أن الطريق مارس قسوة ما عليك.
وردت ربى:
نعم يكفي أن نقف على الجسر إلى أجل غير مسمى لننتظر ختم الجوازات، والسماح لنا بالعبور، لقد انتظرنا تسع ساعات قبل أن يسمحوا لنا بعبور الجسر حين زرنا الضفة العام الماضي.
أما ريهام فبقيت صامتة تمامًا، ترقب تحركات ديالا وهي ترحب بالكل، ثم تغوص في قاعة الطعام لتأتي تتقدمها الخادمة تجر العربة التي تحمل صينية القهوة. كانت عيناها منطفئتين، هكذا لاحظت أنسام، وراحت تحدث نفسها:"لابد أنها تحمل أخبارًا مروعة، ولكن مالجديد في الأمر؟ لم يذهب أحدهم إلى هناك وعاد بغيرها، مرّ الوقت ثقيلًا قبل أن تتخذ ديالا مقعدها قبالتنا. كانت ترحب بالجميع بعينين غائرتين، تخفيان وراءهما وجع ما، وحين سألتها عن الأخبار ردت بقهر:
- لقد دفنت ولديي هناك.
- ولديك؟، ماهذا الذين تقولين؟ لقد رأيت حمزة وجهاد يقفان بالحديقة بالأمس، مابك؟
- لقد دفنتهم جميعًا، وجئت. لقد انهدمت دارنا، ولم أجد أثرًا لأي من أهلي، هدموا الدار على رؤوسهم لأنهم رفضوا إخلاء الدار.

طأطأت الجارات رؤوسهن حزنًا وهلعًا، لم تدر أي منهن كيف تعلق على ما سمعت، لم يكن الأمر يحتمل أية تعليقات، لن تكفيها تعليقات العالم، كانت رؤسهم المنكسة تحمل أكثر من مجرد المواساة والعزاء ولم يكن هنالك أبلغ من تنكيس الرؤوس. لم ترفع إحداهن رأسها، ولم تتكلم هي عن الأمر طوال الجلسة، ولم تحتس النساء قهوتهن الصباحية، ومر الوقت ثقيلا. كان مشهد الهدم يتكرر في مخيلة كل منهن بطريقة مماثلة تقريبًا، تخيلن البلدوزر، ومكبرات الصوت تحاصر الدار، وتهدد بهدمه على رؤوس ساكنيه لو لم يخرجوا خلال النصف ساعة التي يمنحونها للمقيمين بالدور قبل هدمها. ولم يخرج أحد، ولم يأتهم رد. كان كلام ديالا حول دفن أولادها قد قصم ظهور النسوة الخمس، فلم تجرؤ أي منهن على التفوه بأية كلمة، انسحبن من القاعة واتجهن نحو الباب في هدوء يشبه هدوء المقابر ليلًا، وعادت كل منهن إلى دارها، تجر الخيبة، وقد انطفأت روحها، وتنكست رأسها، لم يصبهن الدوار أو الصداع، بل أصابهن القهر على ديالا، وحالها الذي لم يحك إلا حالهن جميعًاوإن اختلف المشهد.أما أنا فقد ركلني الوجع في كل مكان من روحي، وانعكس وجعهن على قلبي، فأحسست بملك الموت يصارعني إل قليلا. كان الأمر شديد الوطاة على الجميع، وسرعان ماتناقلت النساء أنباء انهدام دار أهل ديالا، وموتهم جميعًا. وباتت كل منهن تتذكر الأحداث الرهيبة التي مرت بدورأهلها طوال السنين التي فصلتهن عن ديارهن بالضفة:

قالت ربى:

حين زرنا الخليل قبل سنتين، أخبرونا أن سلطة الإحتلال لا تسمح بإغلاق الأبواب بالمزاليج، وكانوا يفاجئونا بزياراتهم؛ يركلون الأبواب ويدخلون علينا فترتبك الدار، فيفتشون عن الشباب. لا أنسى جملتهم الشهيرة" وين الشباب"، وياويلنا لو أنكرنا أماكنهم. حين أنكرت جارتنا أم أويس وجود أبنائها، فتشوا الدار، فلما وجدوا ولديها في التسوية بالطابق السفلي، أطلق أحدهم على نضال طلقة من بندقيته فأصابت فخذه، وأصيب لؤي بعيار ناري في عموده الفقري. هم لا يقتلون شبابنا، هم يتركوهم لنا بين العجز والعجز. يتركوهم أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، يتركوهم بلا أمل. لنا الله! لك الله يا فلسطين!

كان النساء يصغين إليها وقد ارتفع صوت نحيبهن، وأغشي على اثنتين منهن، وانهمك الجميع في مواساة بعضهن البعض. وأحسست بقلبي ينخلع من مكانه. كان كل شيء حولي يسحب الهواء من رئتي. رجعت إلى بيتي محطمة أجر غربتي وعجزي. لم تفعل لها صداقتنا شيئًا،لا أجد معنى لزيارتنا لها سوى أننا فتحنا الجرح ثانية ورحنا نشاهد النزف ونسقيها المرارة.بل لم تمنحها جيرتنا لها سوى المزيد من الغربة. فلقد تركناها تعاني الفقد، وعدنا إلى بيوتنا وحيواتنا. شغلتهم أولادهم، وشغلتني أحلام وأماني وسهير، لكنني أقسم أن آلام ديالا ثقبت قلبي، ولم تزدني حكاياها إلا شعورًا بالغضب.

لم نفعل جميعنا إلا الثرثرة. لم نقترح حلًا، وحتى لو اخترعنا حلًا، لن يجدي نفعًا. لو ذكرتهم بمعاهدة السلام وأيام السادات لخرج من بينهن من يتهمني بالتواطؤ مع اليهود، ولربما اتهموا جدتي بأنها يهودية لأنها من عرب 48. لم نجرؤ على اقتراح الحلول لأن مشاعرنا تبلدت، واكتفينا بأن تعكس وجوهنا جميعًا "ساد فيس"، أو مجرد صخور منقوش عليها" هاف هيومان آند هاف آنيمال". فقد أصبحت أخبار الطلول والدماء تشكل أبجدية المكان والزمان والماوراء. لقداعتدنا الألم حتى فقدنا السمع، الأبصار، والأفئدة. وفجأة تذكرت أماني. لقد قالت لي الفتاة حين زارتني:" لقد اعتدنا كل ما يفعله خالنا. شيء واحد فقط هو الذي تغير، البكاء. لم نعد نبكي كما كنا نفعل من قبل." ياللألم! لم يكن الأمر يحتمل ظهورك الآن يا ديالا.

تمنيت لو أن الله مسخني جملًا، حتى يسلبني المرارة ويمنحني مزيدًا من التحمل في عالم استوطنه الخنازير، وفرت منه قدرتنا على الفعل.

أدارت سهير التلفاز، فطالعنا وجه المذيع يلقي نشرة الأخبار المعتادة وهو يقول بكل ثبات وصوت جهوري كأنه فتح عكا للتو:

حملات اعتقالات واسعة تشنها قوات الاحتلال في بيت لحم والخضر ومخيم العزة واقتحام منزل في منطقة البالوع في الخضر وتواجد لقوات الاحتلال في بيت جالا".
في الواقع، كانت أخبار الضفة، والقطاع، والقدس والحرم الإبراهيمي، متشابهة للغاية، لا جديد يسر، أو ينبيء عن حل لمعاناة يومية لشعب يغوص لركبتيه في الدم، وبالطبع تخللت الأخبار الكثير من الحوارات حول السلام في المنطقة، كان الأمر كله مجرد كلام، وحين أسمعه هنا أو هناك أسترجع عبارة أمي التي كانت تعلق بها كثيرًا على أي كلام بدون فعل:" ده ضحك على الدقون، فض مجالس يعني" فأبتسم قهرًا، واسترجع ملامح اليأس على وجه أمي لحظة التعليق، فقد عاشت طويلًا، وبلغت بها الحكمة مداها. ورغم ذلك كان وجهها هو الشيء الوحيد الذي يهون قليلًا وقع كل تلك الأخبار السلبية التي تأكلنا أحياء تدريجيًا على مدار اللحظة. ثم تذكرت حزن جارتنا على أهلها، فانهمرت دموعي رغمًا، وتناولت قرص الضغط، كي يمنحني قليلًا من التوازن، ثم خرجت إلى الشرفة أبحث عن هواء مختلف يحمل رائحة غير ممزوجة بالفقد.
ثم عدت لأجلس إلى مكتبي؛ استندت إلى ظهر الكرسي، ووضعت قلمي مستعرضًا بين أسناني، ثم سحبت ورقة بيضاء ووجدتني أرسم زحامًا شديدًا لأشخاص لا رؤوس لهم، تتجه أكفهم إلى أعلى لتشابك فتظهر على هيئة فم ضخم فقد أسنانه وقواطعه، تطل من جوفه العتمة.
كانت صوت المذيعة لم يزل يردد بقسوة على مسامعي:

" قالت صحيفة "جورزاليم بوست" الإسرائيلية أن هناك تحركات جارية على قدم وساق تقودها فرنسا لجمع قادة فلسطين وإسرائيل سعيا لإحياء عملية السلام المحتضرة بالفعل.
وأضافت الصحيفة نقلًا عن التليفزيون الإسرائيلى أن الحكومة الفرنسية قدمت خطتها الدبلوماسية إلى أعضاء مجلس الأمن الدولى، داعية لاجتماع قمة دولى بحضور دول عربية وممثلين عن اللجنة الرباعية التى تضم الأمم المتحدة والولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبى.
وأشارت الصحيفة إلى أن جدول أعمال المؤتمر الذى سيعقد فى شهر أبريل المقبل، يتضمن تمهيد الطريق لعقد اجتماع بين المسئولين الفلسطينيين والإسرائيليين خلال الصيف القادم."
كنت أسمع كل هذه الأخبار من منطلق" لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم" فأصبحت أبكي:" حسبنا الله ونعم الوكيل" ولدهشتي تمكن عقلي ببراعة شديدة أن يستبدل اسم دولة " فلسطين، بأسماء كل الدول العربية الأخرى...تقريبًا.
-32
كان البيت يستعد لصلاة الجمعة، الأم والأب والولدين والبنت الوحيدة، التي فاق جمالها جمال كل فتيات البلدة، التي انحدر معظم سكانها من أصول غربية، اختلطت يوما بعروبة البلدة، فمنحتها الكثير من جيناتها الوراثية.
كان الصغيران على وشك الخروج من المنزل، فلحقتهما أمهما بالمعطفين الحمر المنفوخين كي تقيهما برد شهر جانفير القارس، فاستطرد يوسف قائلا:
- لا داعي له، فهو ضخم للغاية، ويعيق حركتنا في الركوع والسجود. فأجابتهما بنظرةآمرة أن ارتدوا المعاطف، واخلعوها في المسجد، وضعوها بالقرب من رأسيكما في الجهة الأمامية، فانصاع الولدان لها، وما

إن فتحت باب الدار الامامية حتى تسمرت عيناه ساحة الدار والحديقة العتيقة المترامية التي تلف الدار من جميع جهاته، ثم شالت نظرها نحو المئذنة، تلعثمت كثيرا كي تنقل لهما نبأ انتشار الجنود في الحديقة وفي كوة المئذنة، ركض الجميع نحو باب الدار لاستقصاء الأمر، فلاح جارهم " تيسير" من بعيد، كان يركن سييارته كالعادة تحت شجرة التين العملاقة التي احتلت أجواء المكان بشكل يدعو للرهبة، ثم اقترب منهم، فقد كان يقصد بيت عمه بالجوار، ولكن الجيرة الطيبة تحتم عليه أن يلقي تحية الصباح على جيرانه، لا سيما أن "فريدة" كانت المعلمة التي تعلم كل أبناء القرية الانجليزية والفرنسية، كانت معلمة ابنته في المدرسة الثانوية التي لا تبعد عن الدار إلا بمقدار ماتبعد البوابة عن الشارع العريض الذي بلغ عرضه تقريبًا عشرة أمتار، فلما اقترب تيسير، سأله الجميع بصوت خفيض:

- لماذا ينتشر الجنود في ساحاتنا حتى بلغوا المئذنة؟، فأجابهم بفخر وبصوته الجهوري: سيصلي الملك الجمعة في مسجد المدينة. اندهش الجميع بالطبع، فلديهم مسجدًا مشهورًا يأتي إليه الملك بنفسه ليقف وراء الإمام. كان الإمام جارهم الذي يعلم أبناءهم خاصة كيفية تجويد القرآن، فقد كانت فكرة الكتَّاب غير معروفة لدى سكان هذه القرية إلا من خلال المسلسلات والأفلام المصرية، وبحكم النشأة المصرية العتيقة لفريدة، الأم، التي تربت على تجويد القرآن على يدي شيخ قريتها، أصرت أن تجعل من بيتها " بديلا عن الكُتَّاب لأولادها الثلاثة، ولها أيضا، فالجو المهيب الذي يفرضه مجيء هذا الشيخ إلى المنزل، وصوته الجهوري وهو يحفظ أبناءها " جزء عمَّ" يجعل من غرفة الاستقبال مكانًا أكثر اختلافًا عن كل الأماكن التي تفننت القرية في تزيينها داخل منازلها، الشيخ الذي يحتل كرسيًا قرب النافذة ولا يشرب غير اليانسون والحلبة الحصى سيؤم اليوم قافلة الملك، وكبار الدولة، لحظات من الفلاش باك جعلت فريدة تنتقل في طرفة عين إلى بيت والدها وتعود، لترى أولادها قد خرجا من الباب الخلفي للحديقة المواجهى لباب المسجد، ثم تبتلعهما بوابة المسجد الخشبية العتيقة، غير عابئين بالم الهائل من الرهبة التي أضفتها أسراب الجنود المنتشرة في أرجاء البساتين الأمامية والخلفية للمسجد، فلما ألقت نظرة أخرى على البوابة الخلفية، أدركت ان الفضول في الصلاة في معية الملك، ألهى ولديها عن إغلاق البوابة، فسارعت إليها لتغلقها، فلما استدارت عائدة، هالها وجود الجنود فوق سطح منزلها والمنازل المجاورة، فامتقع وجهها، ودخلت إلى دراها، وأطبقت الباب، فاستقبلها زوجها الذي تعمد ارسال الولدين للصلاة دون أن يصطبهما ليصبحا مثل الرجال، كان ينهي وضوءه، ويتمتم بذكر الله، فبادرته قائلة:

- لماذا يصر الملوك على اصطحاب الجنود بتلك الطريقة المروعة، حين فتحت الباب اعتقدت أن اليهود عبروا النهر إلينا، لا يفسد على الملوك إلا صحبة الجنود، رغم فرحتي بزيارة الملك لقريتنا، وقرب المسجد من دارنا، أصابني رؤية الجندين فوق حرم المئذنة بغصة لا أجد لها تفسيرًا.

- وماذا عليهم أن يفعلوا غير ذلك؟ لا مفر من حمايته، البلد لا تطيق أن يحدث لمليكها مكروه.

- ترى هل يوجد من يكره الملك هنا، يقول تيسير أن الأميرة روعة سيدة فاضلة للغاية، وتعامل الحرس باحترام وتقدير، فمابالك بأبيها. لكن الأمر كما قلت أنت. فهذا البلد لا تحتمل أن يحدث مكروهًا لمليكها، ونحن أيضا لن نحتمل هذا.

ودعت زوجها لدى الباب، وألقت نظرة أخرى على الجنود الذين كثر عددهم مع توافد المصلين إلى المسجد، وبعد برهة، نما إلى سمعها صوت الصخب وزغاريد النسوة، فقد جاء موكب الملك، وبعد برهةارتفع صوت الأذان عميقًا، كأنها لم تسمعه من قبل، فحدثت نفسها:

- لماذا اختلف صوت المؤذن اليوم، أراه يجود الأذان وينغمه وقد اختلفت نبرة صوته قليلا، هل هو الشيخ " جعفر" أم اختصوا هذا اليوم بمؤذن آخر، ركزت فريدة في صوت المؤذن وهو يؤدي" قد قمت الصلاة قد مقات الصلاة"، وقالت:
- نعم، إنه هو " الشيخ جعفر، يبدو أن اليانسون الذي شربه اليوم من نوع فاخر.
-33
انتهت الصلاة، ولم يعد الولدان إلى الدار، قلقت فريدة، واصطحبت ابنتها الكبرى لترى إن كان المصلين قد انفضوا أم ان أمرا أصاب ولديها، كانت بوابة المسجد الخلفية مغلقة تمامًا، كأنها فرت من يوم الجمعة، وقطع تفكيرها في الولدين، ظهور الجنود بكثافة في الحديقة الأمامية، وحول سور النادي المجاور، فقررت أن تسأل أحدهم، اقتربت منه، لكنها اخترقت السياج الذي أحاطو به باب المسجد، فوضع يده على سلاحه متأهبا، لكنه لم ينفعل، فصاحت:
- هل انتهت الصلاة؟، أم أن هنالك خطبة للملك لم تنته بعد؟
- انتهت.
- لم يعد ولداي، وأبوهما.
- سيعودان حتمًا، لا تقلقي.
- إذن لماذا مازلتم هنا؟
- إنها مهمة رسمية، أوامر. يمكنك الذهاب الآن.
عادت فريدة أدراجها إلى المنزل، ثم قررت الاتصال بجارتها، رفعت سماعة الهاتف، فلم يأتها رد، وما إن وضعت السماعة حتى رن جرس الهاتف، ردت بسرعة البرق، فجاءها صوت جارتها يسأل :
- هل عاد رجالك من الصلاة؟
- لا. هل عاد رجالك؟
- لا، وقد مر على التسليم نصف الساعة أو أكثر، الجنود بساحة المسجد، وبالشوارع المؤدية للمسجد وفوق أسطح المنازل، ولا يمكنني الخروج، لماذا يصلي الملك في مسجدنا؟ لماذا يروع الملوك البلاد بجنودهم؟، لماذا يزعجنا الملك وجنوده، إنها جمعة مختلفة بالفعل.
- هل تدوين رقم تليفون زوجة الشيخ جعفر؟ لقد كتبت الرقم في أجندتي، لكني لا أعلم أين وضعها الأولاد.
- نعم لدي، ولكن ربما لن ترد علينا، الملك هنا، ولا بد أنها في قمة الزهو الآن إذ يؤم زوجها ملك البلاد. وربما لن تكلم أحدا لمدة أسبوع.
- انتظري لحظة.
من بعيد جاءها صوت أكرم ولدها الأصغر هادرًا بغضب، فهُرِعت إلى الباب كي تستفسر الأمر، فوجدته يخلع معطفه ويضعه على كتفه، يتبعه أخوه الأكبر، استجمعت أنفاسها الخائفة، وفتحت ذراعيها لهما، فلم يلج الصغير بين أحضانها كعادته، بل دخل سريعًا وارتمى فوق سريره، وهو يقسم بالله أنه لن يذهب إلى الصلاة مرة أخرى، فسألته:
- ماذا حدث؟، لماذا تأخرتما؟، ألم يغادر الملك بعد؟
- لماذا يأتي الملك إلى مسجدنا مع جنوده؟ لم أركز في الصلاة، بل لم يركز أحدنا، كان الجميع يريد الصلاة في أقرب مكان يمكنه من رؤية الملك شخصيًا، كي يباهي الكل بأنه صلى بجانب الملك. لم نركز في الصلاة

بالفعل، حتى الخطيب، لم يتكلم إلا عن الملك، وصفاته الحميدة، وذكائه، وكرمه بالتفضل بالصلاة في مسجدنا، هنا أردف الاخ الأكبر الذي لم يكن قد بلغ من العمر عشر سنوات قائلًا:
- اهدأي، هو غاضب لأنهم فتشوا المعاطف وحجزونا في الحمام حتى تنتهي مراسم توديع الملك.
- ماذا؟ فتشاكما؟
- نعم، كان يفتشان المعطفين كأننا مجرمين؟ ولم يسمحا لنا بالخروج إلا الآن.
انتابت فريدة غصة فلم تستطع الرد لبرهة، لكنها عادت لتقول:
- هذه اجراءات لا بد منها لحماية الملك، ربما هنالك من يتربص به، لقد أدى الجنود مهمتهم على الوجه الأكمل. لا تغضب.
- ولماذا ياتي الملك إلى مسجدنا طالما أنه يتوقع سوءا؟ ولماذا يحمل له أحدهما السوء؟ أقسم بالله لم يصل أحد من جيراننا اليوم من قلبه، جميعهم تعلقت عيونهم باتجاه المكان الذي يقف فيه الملك، لم يتجه اليوم أحد إلى القبلة، إلا الأمام، وأقسم أنه كان ينظر إلى الخلف بطرفي عينه من حين لآخر، كي يؤكد لنفسه أنه بالفعل يؤم الملك.
ضحك الابن الأكبر طويلًا، ثم قال:
- لم يلفت انتباهي في كل هذا الأمر غير العم تيسير، كان يحاول أن يبدي ثقافته الانجليزية من وقت لآخر بين الجنود. إذ راح يقول من حين لآخر "إيفري سنج إز أوكيه، فري فري جود"، بلكنة بدوية ثقيلة تلفت انتباه البنادق، ومن حين لآخر يرفع رأسه بطريقة مضحكة كي يوحي للآخرين بمدى أهميته كونه حارسًا للأميرة روعة. وحين تهيأ موكب الملك للخروج، طأطا الإمام رأسه مودعًا، وأسرع المصلون باتجاهه علهم يحظون منه بابتسامة، كان كل من نظر إليه الملك وابتسم يظن أنه يبتسم له، لكنني أجزم أن للملك عضلات وجه منبسطة وهادئة ترسم ابتسامة دائمة على وجهه، وأنه لم يخص أحد بالابتسام في هذه الجمعة سوى نفسه.
ضحكت فريدة وحاولت تهدئة صغيرها الذي يبلغ من العمر ثمان سنوات فقط، لكنه كان واعيًا بما يكفي ليستقر في وعيه موقف تفتيشه وانتهاك معطفه، وترويعه، ومعاملته كأنه مجرم، سكت برهة ثم قال:
- الآن شعرت بمدى الرعب الذي عانى منه جان فالجان حين أمسك به صاحب المنزل متلبسًا بسرقة الرغيف. لن أذهب إلى المسجد مرة أخرى، سأصلي بالدار. وهنا سأل الولد الأكبر أمه:
- لماذا لا تصح الصلاة في الأماكن العادية، أقصد لماذا لا نصلي في بيوت بلا مآذن؟ هل المئذنة شرط لقبول الصلاة؟
ارتجفت الأم لدى سماعها هذا التعليق من طفلها، وقالت في نفسها:
- يبدو أنني نجحت في تثقيف هذين الولدين، أرجو أن يسفر الأمر عن الخير لهما، لقد علمتهما كيف يقرآن القصص، ويستمعان للموسيقى، ويحاوران كل ما أرسمه من لوحات، وألا يعتبران أن كل ما تقوله الكتب حقية مسلم بها، وعلمتهم العمل البحثي مذ كانوا في الابتدائية، وان لك قول ماخوذ منه ومردود عليه، وآخذ برأيهما حين لا تعجبهما مفردة في قصائدي، ترى هل أفرطت في تعليمهما كيف يتناولون الأشياء بالنقد؟
لم يعترف أكرم يومًا بتلك الشهادة التي تمنحهاالمدرسة لهم شهريًا، وفصليًا، وسنويًا. وكان يقول لها دومًا، إنها مجرد ورقة كتبها إنسان يخطيء ويصيب. وأنها لا تصلح لأن تكون حكمًا على عقله. فكثيرًا ما أنقصه معلمه درجات في مادة الرياضيات لأنه توصل إلى النتيجة بطريقة أخرى غير الذي علمها لهم. وكانت تراه محقًا. لقد تعلم على يدي أخيه الأكبر كيف يتعامل مع الكمبيوتر، كيف يشغل البرامج، وكيف يضغط زر" بوز" في الرابعة من عمره. لن تنسى فريدة أنها رأته بنفس ملامح وجهه وبنفس جبهته المضيئة في تلك الرؤية التي

عقبت صلاة الاستخارة التي استشارت فيها الله في أمر حمله. رأته مولودًا للتو، واستغربت جلوسه إلى منضدة طعام يتناول الأرز بكل حرفية فأيقظتها الدهشة. بعد أربعين يومًا أخبرتها طبيبة بأمر حملها.

هذان الولدان والبنت هم كل ما تملكه فريدة في حياتها من ثروة. ولقد أرسلتهم إلى الحضانة عند سن الثالثة، وكان المعلمون في تلك الحضانة التي دخلها أبناؤها الثلاثة تباعًا، يجيدون النقش على عقول الأطفال؛ يعلمونهم الرسم، والموسيقى، والكتابة، والأناشيد. يشاهدون معهم أفلام الكارتون القيمة، وكان أولادها يعودون من الحضانة محملين بلغة عربية زاهية، ومفردات انجليزية وفرنسية تعكس مقولات لمشاهير الكتاب، والفلاسفة، لم يكونوا يعلمون الكثير عن معناها حينئذ لكنهم امتلأوا بالمعلومات القيمة بالفعل. كانت حكايات " جان دارك، وساندي بيل، وصاحب الظل الطويل، ومازنجر قد شاركت في تشكيل وجدانهم الرضيع بشكل كبير للغاية، وبخاصة حكايات "نحول" وبكائه وهو يبحث عن أمه وأبيه طوال الوقت بين الحقول. كانوا يطرحون أسئلة تعجز عن إيجاد المدخل المناسب للإجابة عنها. ترى هل أخطأت بحقهم حين أخبرتهم عن هواجسها عن العالم؟ وعن الزيف الذي يحيط بالأشياء من حولها؟ لقد كانوا يستمعون إليها حين كانت تعلم طلاب الثانوية العامة الانجليزية، وكثيرًا ما كانوا يسمعونها تشرح لطلابها رواية" مزرعةالحيوانات" التي كانت مقررة على طلاب الثانوية العامة في ذلك الوقت. ويجلسون مع الطلاب لمشاهدة الفيلم الكارتوني الذي يجسد الرواية. كانوا يسمعونها وهي تناقش طلابها حول أهمية الرواية، وكيف أن الاعتراض والرفض أمران ضروريان كي تتحول الأمور إلى الأفضل.

ترى! هل وضعت أبناءها في مأزق حين سمحت لهم بان يكبروا قبل الأوان؟ هل أخطأت حين فتحت لهم الباب على مصراعيه كي يناقشونها في كل كبيرة وصغيرة؟ لقد كانت في موقع القائد طوال الوقت منهم، لذا كانت حريصة على أن تفعل كل ما تقول. أعادها صوت ابنتها الكبرى من عالمها الذي كونته بعناية دون أن تدري أنها كانت تعدهم لحرب طويلة مع الجهل، ومع مفاهيم مغلوطة، وعادات بالية، وشخوص أعماهم حب المظاهر عن الحياة بالروح.

أخرجها همس ساندرا في أذنها اليسرى، فسألتها:

- ما الأمر؟

- لقد تسلمنا الشهادات بالأمس؟

- فعلا؟ أين هي؟

- أنا وأكرم لدينا شهاداتنا. لحظة، آتيك بهما.

- وأين شهادة يوسف؟، امتقع وجه يوسف دون أن تلحظ الأم ذلك، لكنه أجابها بذكاء مفرط:

- لم أتسلمها بعد، ربما الخميس القادم.

أمسكت الأم بقلمها الذهبي، وراحت تتفحص الدرجات والتقديرات التي حصلت عليها ابنتها المتفوقة، ثم وقعت بكل فخر اسمها، فريدة رمزي. ثم ألقت نظرة على وجه ابنها الأصغر المعترض دوما على استلام ورقة تقول عنه أنه جيد، وأنه ناجح، ومنقول للصف الثاني، فيتساوى هو وزميله" البليد" الذي لا يحمل لقبًا سوى " ابن المديرة" في نفس الشهادة، بل ويتفوق هو عليه دومًا بوضع اسمه في لوحة الشرف المعلقة على يمين باب غرفة المديرة، ثم قالت:

- يكفيك أنني أعلم تمامًا أنك ممتاز، كما يعلم الشيخ جعفر أيضا أنك ممتاز وأنك أتممت حفظ " جزء عمَّ" في وقت قصير مقارنة بما هم في مثل سنك. أنا فخورة بك، وأعلم أن لك مستقبلا باهرًا، ثم توجهت لابنتها

وقالت: أما أنت فسترثين عني إرثًا شاقًا، ستكونين " كاتبة"، وعلي أن اعتذر لأني فعلت ذلك بك، فابتسمت الفتاة التي كانت تراقب كل هذه الأحداث صمتًا، وهزت رأسها، ثم قالت:
- لماذا يصلي الملوك في مساجد العامة؟، هل ينتظرون منا تمجيدًا جديدًا؟ لماذا يزاحموننا حتى في المساجد؟ ولماذا يصطحبون الجنود أينما ذهبوا، زمت الأم شفتيها وقالت:
- سأجيبك يومًا، وستكون إجابتي مطولة، وفجأة لمعت عينا الفتاة واقتربت من أذن أمها وهمست:
- هل تعلمين أن يوسف قد استلم شهادته أيضًا؟ وأنه يخبؤها في جارور مكتبه خشية منك، لأنه راسب في الدين؟
- في الدين؟ في الدين؟ ثم بكل ما أوتيت من قوة نادت :
- يوسف! أنا أعلم مكان الشهادة، هاتها، فاعتلت وجهه ابتسامة ثعلب، وطأطأ رأسه، وغاب لبرهة، ثم عاد وهو يخبؤها خلف ظهره، فضحكت أمه ضحكة من أتى بما لم تأت به الأوائلُ، وقالت:
- لا تخف من الفشل لإنه المعلم الأول والكبير للإنسان، حين تفشل اعلم أنك ستكون الناجح الوحيد فيما بعد، ثم سألته مستنكرة:
- الدين؟ الدين؟، لم أمنح اهتمامًا لأي شيء غير الدين. هل لديك سبب يقنعني بسر الكعكة التي تزين مادة الدين هنا في هذه الورقة؟، لا أريد حجج، لقد دربتك جيدًا على الإجابات، وعلمتك جيدا كيف تحفظ الأجوبة النموذجية، ولم أنم ليلة الامتحان إلا بعد ان تأكدت أنك بخير، ماذا حدث لك؟
- لا شيء، لقد نسيت الإجابات، فكتبت ما فهمته، لم ابتعد عن كل ما درسته. لكني لم أتذكر الإجابة النموذجية.
رفعت الأم جاجباها في دهشة، فقد كان عليها أن تلتزم بالإجابات النموذجية، وأدركت أن أولادها سيواجهون متاعبَ كبيرة إذا ما استمر تفكيرهم على هذا النهج، وأخذت تفكر طويلًا، هل أخطات حين علمتهم في كل مرة تقرأ عليهم شعرها كيف ينقدون بعقولهم ما يسمعون، وألا يستحسنوه لمجرد أنها أمهم؟ هل كان عليها أن تترك عقولهم خاوية إلا مما يفرضه العقل الجمعي حين الحكم على الأمور هنا؟ هل ستكون هي السبب في اصطدامهم بالواقع من حولهم، هل نجحت في الخروج أخيرًا من الدائرة بأولادها، أم ان الدائرة ستضيق شيئًا فشيئًا؟

-34

مرت خمسة عشر عام على زيارة الملك لبلدتنا الصغيرة، لم تحظ خلالها المئذنة بأي تجديد يذكر للونها الأصفر العتيق، ولاحظ المصلون في مصلى الرجال أن السجاد لم يتغير، وأن معظم المكيفات تحتاج إلى صيانة، وأن العم جعفر فقد صوته إثر عملية جراحية، فاستبدلوه بالشيخ جهاد، وأن حلقات الذكر توقفت لأن الجماعات المتطرفة تكاثرت في البلد، وأن لناس أصبحوا يتوجسون خيفة من الشباب المتدين. أما فيما يتعلق بمصلى النساء، فقد تبرعن لتغيير السجاد وإصلاح المكيفات، وشراء بعض الثريات الأكثر إضاءة، لأن الضوء الخافت جعل من المسجد مكانًا باهتًا يبعث على النوم، فنجحن بذلك في إحداث تغييرات كبيرة. بعدها، اشترك الشباب في طلاء الحوائط الداخلية، والخارجية، ولونوا المئذنة باللون الأخضر الفسفوري، واستعاد الهلال لونه البهي الأول فصار أصفر ذهبيًا، وراح الإمام ورجال البلدة يتشاورون فيما بينهم على إحياء تجربة " الكُتَّاب" التي اشتهرت بها أحياء مصر في فترة الخمسينيات والستينيات. وبالفعل، نجح الشيخ المعلم في إقناع الجميع بضرورة الكُتَّاب للأجيال الناشئة، واقترح عليهم استقبال الأطفال من سن أربع سنوات كي يحفظوا سور القرآن، ولما علمت أم عمران- زوجة الإمام- بالأمر، أعلنت عن استعدادها لمنح الجوائز للمتفوقين في التجويد، والتفسير، ورواية الحديث.

اعتلى أبو عمران المنبر، وراح يخطب في الناس، كان صوته جهوريًا للغاية، وخلت أنه على وشك أن يخلع حزامه" ويدور في الناس الضرب"، كان يتكلم في كل شيء بنفس الحدة. كنت أختلق له الأعذار حين يتحدث في أمور النساء والرجال، والعلاقة الحميمة، والولادة والرضاعة، ولكني لم ألق له أي حق في أن يتدخل في اقتصاد الدولة. كان يدافع عن البنك المركزي تارة، ويعدد مصادر الدولة تارة أخرى، ويأمر الناس "بلقيمات يقمن صلبه"، ويتكلم في تحريم بيع الأعضاء حتى لو رغب في ذلك أهل المتوفي، فقلت في نفسي: لماذا يتكلم رجال الدين في كل شيء، ثم يغضبون لو تكلم غيرهم في الدين؟

...

-35

خمسة عشر سنة لم تمر بالطبع، على فريدة مرور الكرام. كانت قد انفصلت عن زوجها لأسباب لم ترد الإفصاح عنها يومًا، لكنها قالت يومًا لأختها حين عادت إلى مصر:

- لم أعد أرغب بشيء غير أولادي، أولادي فقط، وأدعو الله في كل لحظة أن أكمل رسالتي تجاههم على أكمل وجه، وقلَّما سألتها أختها عن سبب الانفصال، لكن الحوار كان يدفعها دومًا للحديث حول حالات الطلاق التي زادت بشكل ملحوظ في الأعوام العشرة الأخيرة خاصةً بين الأزواج الذين اختاروا بعضهم البعض بعد قصص حب أسطورية، فما كان من فريدة إلا أن تتنهد بعمق، وتنظر لأختها فاتيما بنظرة تملؤها الخيبة، ثم تقول بصوت خفيض:

- إنه النصيب. لا أكثر.

- من الخطأ أن نعلق كل شيء على القدر، إن الله لا يقوم بالفعل قبل أن نقوم به نحن البشر، لا تقنعيني أنك بعد تسعة عشر عام من الزواج، استيقظت فجأة لتطلبي الطلاق لأنك فجأة تشعرين بعدم رغبة في الاستمرار، والاستغناء عن الترف التي تعيشين فيه وزوجك المليونير لمجرد أنك تعلقين الأمر برمته على شماعة القدر. نحن من نصنع القدر. لم أدرس في دار العلوم كي أجد نفسي في نهاية المطاف أقول ما يقوله أهلنا في المندرة عن الزواج والطلاق، وإلا وجدنا أنفسنا في نهاية المطاف نتحدث عن جواز الجن والإنس أو عن الأعمال السفلية والسحر بأشكاله. أرجوك احترمي عقلي، أنا أختك، ربما لو تحدثت معي لخرجنا سويًا من صدمة خروجك من حياة رجل حاربتما معًا لكي يظفر أحدكما بالآخر. على الأقل لكي أخرج أنا من صدمة ارتطام رأسي بالحقائق المزيفة. لا تبكي، كل ما عليك فقط هو أن تتحدثي. حسن، لن أنظر إلى عينيكي. سأدير وجهي عنك ظهري. لقد مر شهران على صمتك هذا. حتى أبناؤك لا يتحدثون عن الأمر إلا بطأطاة رأس أو دمعة حائرة لا تنحدر إلا لتعود إلى منابتها، مالأمر؟

- لا شيء، لا شيء، كل ما في الأمر أنني اكتشفت الآن أنني أسأت الاختيار، وأن علي ألا أقبل به زوجًا، لكنني سأُبْقى على أبوته لأولادي، فهذا حقه وحقنا. ولن أخوض في أمر طلاقي منه ماحييت. وفجأة ناداها ابنها الأصغر، فأشارت فريدة لأختها كي تلتزم الصمت، حتى لا يجرح أكرم حوارهما، فقد كان لا يحتمل الكلام حول هذ الأمر، ثم قامت لتعد الطعام لابنها. وحين عادت أختها، وجدتها غارقة حتى أذنيها في رواية "الضحية" لجابريل جارسيا ماركيز، فانسحبت بهدوء، ودخلت غرفتها، وارتمت على السرير. لم تذرف فريدة دمعة واحدة، إذ كانت غرف الدمع قد انتقلت إلى قلبها منذ أن عادت إلى بيتها منذ خمسة عشر عامًا لتجد صديقتها في سريرها وقد استوعبت مساحة سرية للغاية من جسد زوجها. كانت تلك صدمتها الأولى. لم تتخيل أن يحدث لها شيئًا في مثل هذا القبح. كانت قريبة منها للغاية وتعلم مدى حبها لزوجها، وكان هو قد اعتاد أن يباهي الناس بحبه لها. لم تتوقع أن يخونها زوجها وصديقتها. لم تجد وقتها إجابة ناسوتية أو لاهوتية

على أسئلتها. فهي أم رائعة، وزوجة رائعة. وكاتبة رائعة أيضا، ماالأمر إذن؟ كانت صديقتها امرأة يونانية، متزوجة، كل ما تملكه هو جسد أكثر بياضًا، وكثير من العري، يكاد لا يستر منها شيئًا. حصلت على الطلاق للتزوج من زوجها. ربما يكون العري هو الذي أغراه فجرأه على تحطيم عائلته. هذا ولو افترضنا أن فريدة كانت تهتم بشئونه كرجل من وراء حجاب. ماالأمر إذن؟. لم يكن يخاطب في اليونانية عقلها بكل تأكيد. فهي لا تمتلك عقل المفكر الذي تمتلكه زوجته، اعتدلت في جلستها على السرير، ثم قالت:

- في الواقع، هو لم يؤلم أحدًا غير نفسه. ولم يحطم أحدًا غير نفسه. أناأعيش طوال الوقت مع أولادي؛ أراهم يكبرون أمامي لحظة بلحظة. أمسح بنفسي كل الدمعات التي ذرفوها حزنًا على غيابه. أجلس بجوار كل منهم على حدة كي أعلمهم اللغة الانجليزية والفرنسية والعربية، والتاريخ، والجغرافيا، والدين، ولتربية القومية. كانت الرياضيات هي المادة الوحيدة التي أخذتهم مني، فقد تولى أمرها أساتذة غيري في كل مراحل عمرهم. رأيتهم يمرضون ويشفون، ويلهون ويضحكون ويغضبون. رأيتهم يجمعون أصدقاءهم كي يتبعوا جنازة العصفور الذي مات رعبًا في قفصه، حين هاجمته قطة الدار. ورأيت يوسف يأتي إلي مذعورًا حين استيقظ ذات صباح فرأى قطته ترقد بجواره في السرير وقد فارقت الحياة. سمعته يقول لأخته: "إنها فقدت النطق" ورأيت ابنتي وهي تلعب مع عشرة صيصان وفي كل مرة ينخنق منها أحدهم تأتي إلي وترميه على أرضية المطبخ وهي تقول بلامبالاة:" خذيه، لم يعد يعمل". إنه ينال عقابًا خطيرًا لأنه لم يسمع كل هذه العبارات الجميلة. ولم يفهم كل ماقالوه كما فهمته. لم ير الرعب في عيني يوسف حين ذهب إليه خاله ليحضره إليَّ بعد رحيله بيومين، فوجده وحيدًا خائفًا في منزل مساحته ثلاثمائة متر مربع. لم ير الثقة التي أجابني بها يوم سألته:" أين ذهب أبوك؟"، فرد: " لديه عمل هام، وسيعود، لا بد أن يعود ليأخذني، فهو لا يحتمل الحياة بدوني"، فسأله خاله: منذ متى؟ قال:" منذ فجر أول أمس. رأيت ابني حين عاد به أخي من منزلي الضخم. كان بطنه منفوخًا، وعيناه غائرتين خوفًا. رأيته، ينظر إلي بعينيه الواسعتين. ويسألني أسئلة كثيرة، فهمناها سويًا، ولم ننتفوه ببنت شفة، سمعته جيدًا حين قال لأخته وأخيه: لقد أصبحنا مثل "نحول" نبحث عن أبي الحبيب. رأيت ابنتي تموت موتًا بطيئًا لأنهافقدت صاحب الظل الطويل الذي مكث بيننا أربعة عشر سنة ثم رحل في ظروف غامضة، وكأن شيئًا لم يكن. كأنه لم يسمع عنا يومًا. وسمعت معهم أخبارًا تقول أنه عبر بوابة آلة الزمن. وأنه يعيش في مكان آخر، مع امرأة غير صديقاتي اللواتي اعتدن زيارة بيتي في غيابي. سمعنا أنه يستمتع بالعيش مع امراة غريبة في جو غريب، وأنه صار جدًا لأحفاد ليسوا من صلبه. سمعنا أنه يجيد التمثيل. وأنه ارتضى لنفسه دور المخلِّص لأرملة لديها ثلاثة أولاد أقلهن بلغ العشرين عامًا. ترى! ما الجديد لديه؟ سمعنا أيضًا أنها كانت تجيد الإمساك بالسيجارة، وتلعب الثلاث ورقات، وتنفث دخان النارجيلة على نحو مثير. سمعنا أخبارًا متفرقة عن ارتدائه بدلة العرس السوداء. وأن الناس يباركون له ويتمنون له حياة مليئة بالرفاه والبنين. سمعنا عن عن قلوب مقلوبة. وقلوب، سوداء. وقلوب لا تعرف الحب. ولكننا لم نسمع إلى الآن عن قلب صناعي سار بصاحبه أكثر من عشر سنوات. لذا قررت أن أصرف نظري عن تلك الرواية، كي أكتب الفصول المهمة في حياة أبنائي.

-36

جلست إلى المنصة، وما أن تحدثت حتى ساد الصمت، فاسترسَلت بكل ثقة تلقي بفوضى الشعر فوق رءوسهم، كان لها خروجًا بهيًّا على الجمهور، فلما انتهت، قام من بين الحضور شاب نحيل له عيون بنية وشعر ناعم إلا قليلًا تعمد تصفيفه إلى الخلف فبدا يشبه جبران، فحيته برأسها، فلما نزلت عن المنصة وانتهت الأمسية، جاءإليها ليعبر لها عن سعادته بفكرها وطريقة إلقائها الشعر، ولغتها الصافية، وأخبرها أنه ناقد أيضا

ويسره لو كتب عن أي من أعمالها، مر اليوم عاديًا للغاية، ولكن على غير عادتها، ولأول مرة في حياتها، عادت فريدة وهي تحمل في روحها روح هذا الشاعر، حاولت أن تبعده عن طريقها طوال الوقت، لكنه أغلق عليها تفكيرها. حاولت قمعه بداخلها ففشلت، كلما أحكمت قبضة روحها عليه لتخنقه تجسَّد واضحًا ليمسك بروحها بقوة؛ هزها ثم ضمها إلى صدره، ولما يزل كذلك حتى غلبها النوم.

في الصباح التالي، جاءتها السيارة التي تقلها إلى مقر الجريدة، دخلت مكتبها، وجدت مديرها كالعادة يضع الورود على مكتبها، كان يخبرها طوال الوقت أنه ينزل إلى حديقة منزله خصيصا ليختار لها الورد، فتشكره بخجل، وتتحاشى نظراته التي تحملان إعجابًا ممزوج برائحة الرجل الشرقي طوال الوقت. كان يستأذنها لتغلق باب المكتب لأن التكييف لا يمنح الغرفة دفئا كافيًا في النهارات الباردة، فترفض أحيانًا وتقبل حينًا. لكنها كانت طوال الوقت قلقة، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ لقد فرضت عليها طبيعة العمل أن يكون مديرها معها بنفس الغرفة. كان جو الترجمة يسمح لها بأن تسمع السيفونيات فقط. لكنه كان يسمعها دومًا أغاني أم كلثوم من مسجل صوت بجوار مكتبه. كانت تعرف أنه يبعث بكلمات الأغاني إليها. كان متزوجًا، وكثيرًا ما يحكي لها عن زوجته وكيف أنها تنتظره بفارغ الصبر وتصنع له طعامًا شهيًا، ولكنه يرى في فريدة المرأة الجميلة المثقفة، وكثيرًا ما كان يقول لها:

قلَّما يجد المرء كاتبة جميلة، فكلهن دميمات ما دمن مبدعات. أما أنت فنموذج للمرأة المثقفة والجميلة في آن معًا، وهذا الأمر يشدني إليك كثيرًا حتى أنني لا أرغب أحيانًا في العودة إلى المنزل حتى لا أفوت فرصة الوجود في مكان يجمعني بك.

كانت فريدة تهز رأسها ممتنة له، تثني على زوجته التي تنتظره، وتحثه على الاهتمام بها، وتعود لتنهمك في الترجمة.

كانت تتعثر أحيانًا في معالجة مصطلح ما فتضطر إلى سؤاله، فيبدأ في استعراض مهاراته اللغوية أمامها، كان لا يفوت أي لحظة كي ينظر مباشرة إلى عينيها، ولكنها لم تهتم له يومًا من قريب أو بعيد. كانت تترجم الإعلانات من المجلات والصحف العالمية؛النيويورك تايمز أو الاندبندنت، ثم تكتب مقالها لليوم التالي، وتعيد صياغة ما ترجمته من " حياة ديانا تشارلز"، ثم رن الهاتف، فجاءها صوت صالح:

- كيف الحال، أعرف أنك تستغربين محادثتي لك على رقم الجورنال، في الواقع، أخذت الرقم من زميل مشترك في الرابطة، إن لم يك لديك مانع ، أكمل حواري معك ...

- لا بأس، حياك الله على كل حال، جميل أن تتصل بي على كل حال، أنت مبدع رائع، أدهشني تفسيرك لقصيدتي، وطريقتك في تحيتي أيضًا.

- تعلمين أننا نعيش بين أدعياء. والواقفون بباب الثقافة ما زالوا هناااك عند" الخيل والليل والبيداء تعرفني...

- وياليتهم وقفوا هناك طويلًا فأخذوا ونهلوا من الخيل والليل والبيداء، لكنهم وقفوا عن حدود كل شيء، ثم لوحوا بأيديهم للا شيء.

- نعم، كان عريف الحفل يشيح بوجهه عنك كلما قرأت قصيدة نثر، فهو لا يرى الشعر إلا عموديًا، وتقليديًا، ولا يريد أن يتحول عنه قيد أنملة، بدعوى أنه التراث وأنه الأصل، وما خرج عن ذلك فهو تشويه للموروث وتضييع للغة ونسخ للدين الإسلامي.

- نعم، سمعت تلك العبارات طويلًا ، منذ ألقيت كلامي المنثور.

- أخشى أنني أخذت من وقتك طويلًا، نتحدث لاحقًا إن كان لديك وقت. يمكننا أن نلتقي مثلًا في مقر الاتحاد اليوم مساء. إن أحببت.

- حسن، سأتصل بك هاتفيًا إن كنت سأفعل، هل يمكنك منحي رقم هاتفك؟
- بالتأكيد.
سجلت رقم هاتفه، وانتهت المكالمة. ما إن انتهت حتى لمحت تعابير وجه مديرها وقد استشاطت غضبًا، وقبل ان تمسك بقلمها ثانية سألها:
من هذا؟
أربكتها الدهشة لكنها أجابت : " زميلي ، صالح."
-لاحظت أن مكالمته أبهجتك
- ليست المكالمة، وإنما الحوار، لقد اتفق معي فكريًا حول نقطة مهمة، لم يتفق معي فيها أحد من قبل، لقد فهم معي معنى "الخروج عن النص"، وكيف أن الخروج المبرر يثري النص ولا يقلل من قيمته.
الخروج عن النص؟ ، أي نص؟
نظرت إليه فريدة بأدب شديد، وقالت: يومًا ما سأحدثك عن هذا الخروج، سأذهب إلى غرفة التحرير لأسلمهم مقالي ليوم غد، وكذلك التقارير المترجمة، ثم أردفت: يا إلهي، أكره التقارير الاقتصادية، لم لا يأتوا بمترجم لأخبار الاقتصاد؟
سأحادث رئيس التحرير في الأمر، غدًا، أثناء الاجتماع الأسبوعي.
جمعت فريدة أشياءها، وأغلقت جوارير مكتبها، وحملت حقيبتهااستعدادًا للخروج فقد دقت الساعة الخامسة، ثم حيت مديرها بأدب، واستأذنته وخرجت.
في الممر المؤدي إلى صالة التحرير، لمحتها "الصحفية الأولى في البلد فتبادلا التحايا ودعتها الأخيرة لتناول القهوة في مكتبها، فقبلت.
وفي مكتبها، كان التليفزيون يعرض مسلسلا مصريًا لا تعرف فريدة اسمه، وكان للهجة المصرية سحر على الجميع، فراحت المرأتان تنصتان إلى أحد الوجوه، كان رجلا قد تجاوز الأربعين بقليل، يحدث شابًا بدا من هيئته أنه كاتب؛ ربما. وقد أمسك الأخير بمجموعة أوراق مطوية، ويقول له:
" الكلام له أصول،عايز نصيحتي؟ اعمل لك قرطاسين اكتب فيهم أي حاجة. أو اسرقهم من أي حتة، محدش بيقفش السرقة دلوقتي، ولو قفشها بيبقى تيار المطبلاتية أعلى منه فصوته بيروح، وشوف لك ناقد يقول فيك انك جهبذ عصرك، وجمع لك شوية مغنواتية على حبة مسقفاتية..وأنا اديك الكارنيه..."
_ طيب ممكن اعمل ايه بالكارنيه؟
_ يووووه، ده بقى يطلعك في أي قناة تقول اللي نفسك فيه، ومتقلقش، مفيش حد حيراجعك لأن المذيع برضه معاه كارنيه زي بتاعك، بس اوعى الست فريدة تقفشك... ساعتها أنا معرفكش.
وضجت القاعة بالضحك، وقالت إحدى المحررات وهي تقهقه، وجهة حديثها لفريدة:
" شكلك فاهم يا نصة."
وبعد قليل، جاءنا نبأ وفاة أحد الزملاء من الكتاب الذين لا يعني وجودهم أو غيابهم شيئًا على المستوى الفكري. لكنه يعني الكثير للكل على امستوى الإنساني، فقالت فريدة:" فلترقد روحه بسلام، يجب تقديم كل ما يليق لروحه". وضجت الجريدة بالحركة، وراح الجميع يذكرون محاسن الزميل، ويعيدون كلماته التي ازدادت إبداعًا بمجرد أن ترك القلم إلى الأبد. فقد قرر الجميع أن يبعثوه حيًّا.
تفحصت فريدة الوجوه من حولها، ورفعت حاجبها الأيمن وقالت في نفسها:

فلترقد روحك بسلام الآن، سيصير اسمك، صورك، ابداعك، وكلامك أقوالًا مأثورة بعد موتك يا عزيزي المرحوم المدَّعي. سيعترفون بك منذ الآن، سنسمع انك كنت الكاتب الجهبذ، سيقول الجميع عنك أنك نص نبي، رغم ان الكواليس، كالعادة، تحتمل أن أناسًا كثيرون يكرهود، وإن عدت ثانية لقتلوك بأيديهم، ولربما دفنوك حيًا. ... لا تقلق يا عزيزي! الآن سيدرك الجميع كم كنت عظيمًا ... لك التقدير ما دمت ميتا ..."

-37

كان علينا، أن نعود أنا ومراد وكل أولاد القرية، كل أيلول، إلى المدرسة، فنحمل حقائبنا ونسير على الطريق الضيقة المحاذية للترعة فنرى انعكاس أجسامنا على وجه المياه. كنا نسير في طابور بين طرق طينية ملتوية كما لو كنا نازحين فروا من القصف، يرعدنا البرد، وتزكم أنوفنا رائحة سباخ الأرض، وترقبنا السواقي بعيونها التي يثقبها الماء طوال الوقت، وتحلق فوق رؤوسنا الطيور المهاجرة. نلمح أبو قردان فنتذكر كيف رسموا لنا صورته بجوار الفلاح في كتاب القراءة. ونتفاخر فيما بيننا لأن الحكومة صورت جارنا أبو محمود بينما يعزق الأرض، ويهيؤها لزراعة الأرز. ونمر بسعاد وهي تهش الجاموس أمامها إلى الحقل ثم نراها تربطهم إلى جذع الشجرة فنقول لبعضنا هذه هي سعاد التي تزوجت عادل في كتاب القراءة، ونتساءل لماذا يقولون أنها متزوجة بينما تقول النسوة أنها رفضت الزواج كي تربي أبناء أخيها الذي استشهد في حرب اليمن، كنا نسألها أين عادل بصوت مرتفع:"أين عادل يا سعاااد؟" وننهار في الضحك فتقذفنا بعيدان القش وتقول: "الكتاب بتاعكم بيكذب، واللي بيكذب حيروح النار"، كانت كلمة النار ترعبنا وتوقفنا عن أي تجاوز دون ان ندري عن مكانها شيًا، وكثيرًا ما سألني مراد عن تلك النار التي يحدثوننا عنها طول الوقت، ويقول لي: لقد تعمدت أن أقف امام الفرن مباشرة، ثم كذبتُ على أمي فقلت لها أنني أكره معلم الرسم رغم حبي الشديد له، ولم تحرقني النار، هل تعتقدين أن النار تأتي إلينا لتحرقنا؟ أم أننا نحن من نذهب إليها؟ فلم أجبه فقد كان يكتفي دومًا بطرح الأسئة.

كان حقل أبو طارق مغمورًا بنُوَّار القطن. وكان أخي مراد يجيد صيد العصافير، وهكذا تعلمت منه كيف أصنع لها الفخاخ؛ كنا نأتي بالمُخِّيط وهو مادة صمغية كثيفة تلتصق فيها أقدام العصافير، ونمضي بين الأشجار فنضع بعضا من المُخِّيط على فروع الأشجار، ثم نتوارى حتى لاترانا الطيور، وننتظر. وكلما حط عصفور التصقت قدماه بالمخيط وفقد لقدرة على الفكاك. كنا ننتظر حتى يصبح عدد الطيور الملتصقة مناسبًا حتى يسمح لأيدينا بأن تحمله ثم نذهب لجمعها مع زملائنا. وعلمني أخي كيف أمسك العصفور من رجليه. كنت قوية بما يكفي لأن أحمل سبعة عصافير معًا بالإضافة إلى حقيبتي، ثم نتخذ طريق العودة. وما أن نقترب من الدار حتى نرى النساء اللواتي يعملن لدى أمي يحملن الخبز فوق رؤوسهن، وتفوح رائحة البطاطا المشوية، صواني البطاطس باللحم وأطباق الأرز المعمر الفخارية. كنا نتعمد أن ندخل دارنا من الناحية التي تواجه غرفة الفرن، ونمشي بين الدجاج والبط والأوز. وكنت أرى الهدهد دومًا لا يبرح مكانه على شجرة الجميز، أو ربما كان ينتقل ببطء شديد وأقول لجدتي بعد أن نفرغ في حجرها العصافير التي اصطدناها:" لماذا لايطير هذا الهدهد؟ يبدو كما لو كان مشلولًا. فتجيبني كأنها حكيم الزمان: " يبدو أنه فقد بصره أو إحدى قدميه" لكنني كنت أشعر أنه يفهم ما نقول فقد كان ينظر نحونا طوال الوقت.

كنا ننزع الحقائب عن كتوفنا، ولا تتركنا جدتي إلا بعد أن نأكل الخبز المحشو بالسمن الفلاحي والسكر كي يمنحنا بعض القوة إلى أن يحين موعد الغداء. كان ليل الشتاء في قريتنا يبدأ بعد أن يأتي جدي من المسجد بعد صلاة العشاء، ولما دخلنا الدار يومها، وجدنا أمي والنسوة يعملن على ترتيب قاعة الضيوف لاستقبال أهل

زوج أختنا الكبرى. كنا لا نهتم وقتها لأحايث الكبار، ولكني لا أنسى حوارًا دار بين أبي وأمي يوم زفاف شقيقتنا الكبرى، حيث قال أبي:
- أنا مشفتش أطيب من أهل بلدنا دول والله. بس فيه شوية ناس كده مش حابة لنا الفرح.
- خد بالك أكتر ناس بتكرهك هي اللي بتضحك لك طول الوقت...مش كل اللي يضحك في وشك بيحبك.
- ليه بس؟ ده انا عامل لهم حاجات كتير والله، من يوم ما مسكت العمودية؛ رخصت لهم السماد، ورصفتلهم الشوارع، وزودت لهم ضخ المياةالعمومية للبلد، وصلحت لهم محول الكهربا الرئيسي، وعملت صندوق زكاة في الجامع واللي عاوز حاجة بيروح ياخدها من الشيخ عثمان. حاعمل ايه اكتر من كده؟ ده انا لسه واخد العمودية من ست شهور بس. بس معاكي حق فيه شوية نس كده عايزة الحرق مش بتحمد ربنا.
- انت متعرفش طبيعتهم هنا. انت لسه مفكرهم زي زمان. الناس اتغيرت .انا اللي عايشة بينهم وعارفاهم، انت مشفتش عملوا ايه في أبويا الحاج رفاعي لما كان في مجلس النواب؟، دول كانوا شوية ويعلقوه على الشجرة لما اقترح عليهم ان اللي حيخلف أكتر من عيلين حيدفعه غرامة، رغم انه كان فاتح بيوت كتيرة هنا.
- ربنا يستر.
- خلي بالك انا نبهتك كتير...لو شلت ايدك من بقهم محدش حيرحمك...الناس هنا من نوعية " وإذا خاصم فجر".. يعني اللي بيسقفوا لك النهاردة حيسلموك تسليم أهالي ويبيعوك في لحظة بكرة، انت متعرفهمش زي ما أنا عارفاهم. انت اللي مش وخد بالك عشان قلبك طيب بس. ,متفكرش كمان انهم فرحانين من قلبهم.
- ياشيخة قولي كلام غير ده، الفرح زي الفل والناس بترقص ومزقططين والكل جي يجامل.
- طيب ما تعمل لهم اختبار كده وقول ان الفرح خلص ومفيش "جاتوه"، أو طفي عليهم النور وهم في عز الرقص، صدقني حتتفرج على مواهب متعددة...و كله كوم وفقرة "الحاوي" كوم.
- لالالا.. دول ناس طيبين وولاد أصول.
أنا فاكرة كويس قوي إنه لما جرب اللي قالت له عليه ...ولعوا له في "الكوشة" ولما رجع ابويا على الدار قالت له:
- مش قلت لك؟!!! كان لازم تشوف بعينك يعني؟
لا أدري لماذا يلح هذا الحوار علي طوال الوقت، ولماذا لا يختفي من مخيلتي مشهد" الكوشة" وقد التهمتها النيران. ترى! هل وخزتها النيران في قلبها فشعرت بما أشعر به دومًا كلما تذكرت دار أبي؟
لم يخرجها من شلال الذكرى غير صوت ساندرا يقول:
- هل أنت بخير يا جدتي؟
- نعم. لا تقلقي.
- هل زارتك الكوابيس مرة أخرى؟
- لا، بل كنت في زيارة لدار أبي.
- دار أبيك؟ هل تشتاقين إلى أبيكِ مثلي؟
- أنا لا أنسى أبي. رغم كل شيء.الآباء كالوشم، لا يمكن نسيانهم إلا إن أحرقونا أحياء، النار فقط هي التي تزيل الوشم.
وقطع حوارهما صوت المؤذن يقيم الصلاة: قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة.

حين نفشل كأزواج، علينا ألا نفشل كأباء وأمهات. في البلدان المتقدمة، يصل الأزواج إلى حلول وسطى، بروح رياضية. نحن أرواح، يصيبها التغير، ويرهقها الروتين، كل منا له طاقة، إن نفذت نفذت قدرته على الفعل والتفاعل. نحن بحاجة إلى إعادة ترتيب أمور كثيرة في حيواتنا الاجتماعية، على رأسها العلاقة بين الأب والأم اللذان فشلا في أن يكونا زوجًا ناجحا. ثم تأتي العلاقة بين الحماة وزوجة الإبن تلك التي شوهتها الأفلام والمسلسلات. علينا أن نيعد صياغة الأمور بشكل يتفق مع مصلحة القادمين.نحن بحاجة إلى مراجعة تلك المسائل بهدوء.

هكذا بدأ يوم عمل جديد بالجريدة، كانت فريدة مهمومة بكل شيء في الحياة تقريبًا. وكانت ترى أن كل المشاكل التي يقابلها العالم طوال الوقت تبدأ من نقطة واحدة هي الأخلاق، فردت عليها إحدى المحررات:

- هذه معادلة صعبة يا عزيزتي، كيف تطلبين الرقي والتحضر من أشخاص فشلوا في معاملة بعضهم البعض من باب المودة والرحمة والحب بينما علاقتهم ببعضهم البعض كأزواج قائمة. إنهم لم يحترموا أنفسهم في علاقة قائمة، فهل سينصلح حالهم بعد الانفصال؟ الأمر متعلق بالأخلاق، الثقافات، النفسيات والفروق الفردية. الشخص الراقي والمحترم يساوي سين يساوي قيمة واحدة، ولا يساوي سين في المتغير؛ يعني مش بيعرف يقوم يطلع بمنظرين.

وبعد قليل رن جرس الهاتف الأرضي في المكتب، فردت فريدة:

- هالو؟؟؟

- صباح الخير، كان رئيس التحرير على الطرف الآخر فردت:

- صباح الخيرات.

- لو تكرمت سيأتي بعض االمتقدمين للعمل لدينا في قسم الدراسات والبحوث ، وعليك أن تختبري قدراته، ومن ثم لك حرية أن تقبليه معنا تستبعديه، هذا يعود لتقديرك، فنحن نثق في وعيك وخبرتك.

- لا عليك، سأفعل بالطبع.

وانهمكت فريدة في إعداد تقرير خصصت له إحدى المجلات العالمية صفحة كاملة، كان يخوض في كيفية وصول أحد الأشخاص الذين يعملون لدى إحدى الكليات إلى كرسي المحافظة بينما ترصد صحيفته الجنائية ضلوعه في تزوير شهادة الدكتوراة التي حصل عليه من جامعة لا وجود لها، وآخر قد تآمر مع رئيس إحدى الجامعات على بيع شهادات الماجستير والدكتوراة للطلبة بعد أن أوهموهم بأنها صادرة من إحدى الجامعات الأوروبية التي ثبت فيما بعد أنها وهمية وأنهم كانوا يتقاضون أثمان تلك الشهادات بالدولار، وقد قبلت الجهات المعنية أوراقه كي يصبح محافَظًا، كانت فريدة تلعن الكل مع كل كلمة تخطها تقريبًا، وبعد قليل ظهر شاب في عقده الثلاثين تقريبًا لدى الباب، وانحنى لها وحياها ثم قال:

- السيدة فريدة؟

- نعم، تفضل.

- أنا هنا من أجل الوظيفة، لقد أرسلني رئيس التحرير.

- نعم، قدم لنفسك لو تكرمت. فجلس يتكلم عن نفسه لأكثر من ربع الساعة، وتركته هي كي تقرأه جيدًا، ثم سألته:

- مالشهادات التي حصلت عليها لطفًا؟

- خمس شهادات ليسانس و....

- حقوق...آداب و... ماذا أيضاً؟

- آداب تاريخ، آداب فلسفة، وآداب إعلام, كما انني حصلت على أربع شهادات للدكتوراة في الاقتصاد والعلوم السياسية، والتاريخ، والقانون الدولي، وحقوق الإنسان....ووو
- من فضلك اترك فايل أوراقك بالخارج عند السكرتيرة، وتفضل بلدخول بمفردك. أريد أن اختبر عقلك.

استمرت المقابلة لمدة ساعة تقريبًا، كانت تقتنع بالامتحانات الشفهية، ففيها تظهر قوة العلم واضحة، وينكشف المدعون. كانت تقول :" نحن جيدون إلى حد ما حين نتحدث إلى الورق." وبعد المقابلة، كان يمكن لفريدة أن تحرق حقلًا للغاز بزفيرها، ولكنها اكتفت بأن تقول:
- ستصلك منا رسالة بالرد عما قريب، اترك لنا رقم هاتفك الأرضي.
فلما خرج، تمتمت في قلبها بصوت مسموع إلا قليلًا:
" الحقيقة سيد البواب مثقف عنك. لم ورقك وامشي يابني، احنا مؤسسة محترمة بتتعامل مع العقول مش الورق..بالونات منفوخة "مازوت" صحيح."
كان عم حامد البواب الذي يعمل في العمارة التي تسكن بها فريدة رجلًا طيبا للغاية، وحين رآها تهبط من السيارة، هُرِع إليها، وراح ينادي ابنه كي يحمل حقائبها، وكانت قد قضت أسبوعين في القاهرة، فما زلت تتابع نتائج تلك القضية التي رفعتها على صاحب شركة الترجمة، ومعاويةالذي سرق ترجمتها، ونشرها باسم مترجم آخر. وكالعادة لم تسفر الأمور إلا على مزيد من التسويف، رغم مرور ثلاث سنوات على الأمر، وحين هبط المصعد، وانفتح الباب، صعد ثانية بهم، فلما استقر في الطابق الرابع، نظرت فريدة إلى الشقة المجاورة، وتوجهت بالحديث إلى عم حامد:
- هو لسه البيت ده محدش عارف يطلع منه الساكن اللي مزور العقد؟؟؟
- لا والله، مفيش جديد يا هانم، بس بيجولوا يبجي الوضع على ما هو عليه.
- وانت بقى بتشيل له الشنط وتجيب له طلبات زي ما بتعمل معانا كده.
- لع يا هانم، احنا صعايدة، بحب الصح، وهو عوج.
- صح يا عم حامد، كلام في سرك؟
- جُولي
- إوعى تعمل حاجة غصب عنك، عشان لو وافقت في يوم حتوافق كل يوم. فهمت حاجة؟
- لو كنت جُلْتي لي الكلام دِه من تلاتين سنة كنت فهمت.
- ليه؟
- أصل اللي كان غاصبني أوافج مات امبارح.
-39
- مش لازم تزهقني في عيشتي عشان تقول لي انك زهقت من العيشة معايا، زهقت وعايز تمشي خليك جنتل وقول، انت عارف اني ست شيك وحاتفهم..أصلا انا واخدة بالي من زماااان بس كنت باديك فرص..يمكن ترجع عن اللي في دماغك.
- يعني ايه؟ تقصدي ايه بكلامك ده؟ اني باتلكك لك مثلا؟
- يعني اتفضل امشي، انت مشيت من هنا من زمان قوي بس انت مش واخد بالك.
- انتي فاهمة بتقولي ايه؟
- أيوة..

- طب والله ماحتشوفي وشي تاني.
- مش قلت لك انك مشيت من زماااان!!!!!
لكنه بدلا من أن يحمل حقيبته ويخرج، قام بضربها ضربًا مبرحًا، ثم حملها كما لو كانت كيسًا للقمامة، وأخرجها من المنزل مع أطفالها، رغم أنه قال فيما بعد، أنها خرجت برغبتها ومن تلقاء نفسها. كانت النتيجة واحدة، فهو لم يشفق عليها حين قبع بركبتيه على صدرها كأنه كلب بلدي مرت أمامه دجاجة فرت من دوَّار الجيران، وانقض عليها كأن لم يداعبها يومًا في الفراش كزوجة. لو كانت أنثى فأر، لغفر لها بموجب يومٍ من جماع لذيذ قدمته له. فهبطت درجات السلم حتى وصلت إلى بيت جارتها ووجدتها تتصل بي وهي تبكي بهيستيريا:
- تعالي خديني حالًا.
- ساندرا؟ ماالأمر؟
- تعالي، خديني حالًا.
- ما الأمر؟؟ مالك؟ أين الأولاد؟
- معي، أقصد نحن في بيت السيدة رحاب.
- رحاب؟، الآن؟ إنها الثالثة فجرًا، هل انهدم الدار؟
- لأ، لقد ضربني.
- الحقير، الغبي! سأرسل لك السائق حالاً. أقسم أنني لن أجعله يراكم مرة أخرى
- أخبري السائق ألا يتأخر.
... وكنت قد حذرته حين كانوا جميعًا في بيتي في أوائل الشهر الماضي من أن يتطاول عليها، وقلت له إن لمستها بأذى سأجعلك تندم طيلة حياتك، لكنه تحداني، فليحرقك الله، أقسم بالله سأضربه كما ضربها، سأجعله يذوق إهانة الضرب والتعدي. يا له من حقير! لن يكلفني الأمر شيئًا، سأربي الولدين كما ربيت اولادي من قبل.
كان الوقت يمضي ببطْ شديد، ولم يجد هاتفي الغبي صوت السائق بسهولة فقد كانت الشبكة كالعادة" ساقطة" كما كل شيء في الحياة. وكنت أقول في نفسي:" إن لم تشعر المرأة بالأمان مع رجل ينام معها بسرير واحد، ويستنشق زفيرها، وتزفر شهيقه، فمع من يمكن لها أن تحقق هذا؟ لماذا لم يسمح الله لقابيل بالزواج من أخته، على الأقل سيشعر تجاهها دومًا بالود، سيؤلمه دمه إن آذاها. لماذا يجعلنا الله نتزوج من الغرباء؟
حين وقعت عيناي على وجه ابنتي رأيت الطلاق. لم ترتم في حضني كالعادة، ولم تتكلم كثيرًا، بل وضعت أصابع كفها الأربعة على فمها، ففهمت أنها لن تتكلم بالطبع في وجود الطفلين، ولكنها كانت تتنفس بصعوبة وتطلق زفيرًا متألمًا من وقت لآخر، في الواقع، لم يكن لديها رغبة في الكلام، فتركتها، وبعد خمسة أيام، بدأت في سرد الأمر، ولم أرهقها فلم أسألها كثيرًا، فالنسبة لي كان كافيًا للغاية أن تقول أنه ضربها.
وكسيدة محترمة، بنت رجال يعني، اتصلت بوالدة زوجها:
- سيدة هانم، كيف حالك؟
- الحمد لله، من المتكلم من فضلك؟ فريدة؟
- نعم، إنها أنا.
- مرحبًا بك.
- أريد أن أبلغك أن ابنك اعتدى على ابنتي بالضرب.

- آه.. حقًا؟ لا أعلم إن كان هذا قد حدث... اغلقي الخط من فضل، سأستفسر منه عن الأمر.
- ماذا؟ ما هذا الذي تقولين؟ إن ابنتي هنا،تبكي، لقد ضربها.
- مممم، على كلٍ، هي تستحق الضرب.
- ماذا؟ هل تدركين معنى كلامك؟
- لقد حاولت تهدئتها، لكنها صممت على الخروج من البيت؟
- إذن تعلمين أنه ضربها؟
- ...نعم.
- هل تقبلين الأمر لابنتك؟
- مممم... لو كانت مخطئة...مممم... نعم، أقبل.
- ما هذا الهراء؟ ماهذا الذي تقولين؟
- يقول الله:" اضربوهن"
- ماذا؟ ماهذا التخلف ؟ ياللجهل!
- يقول:" اضربوهن واهجروهن.
- مممم... لكن هل اقترحت عليها أن تترك الأولاد؟ هل قلت لها:" اتركي الولدين، واذهبي إلى بيت أهلك؟ هل صدر منك هذا الكلام؟
- ممم..نعم، قصدت أن أمنحها فرصة، كي ترتاح بعض الشيء. سبحان الله، لقد قالت أنها تريد الخروج منذ ثلاثة أيام، لكنني أجدها في البيت، في كل مرة أتصل بهم هاتفيًا.
- سبحان الله؟ الله يعطيك العافية...أشكرك.

كان إغلاق الخط في وجهها فرض عين قبل أن أسبها وألعن كل أمواتها وأحياءها. ونظرت إلى ابنتي، ولم أقل لها ردودها علي، لأنها فهمت من ردودي، بقية النص، ثم قررت ان أتكلم مع هذا الفحل، الذي اعتقد أن كل مهمته هي تلقيح الإناث:

- هل ضربتها؟؟؟؟
- مممم...نعم... في الواقع...
- لماذا؟
- لأنها عصبية للغاية، لقد ضربت العيال، و... كما أأأ...أن صوتها مرتفع، لم أحتمل...
- اعترافك بأنك ضربتها يعني اعتراف بإنك "عربجي" ... غبي ... أنت لا تستحق أن يكون لك زوج.
- إنها ناشز... لا تطيع أوامري و....
- أنت جاهل أيضًا... لا أريد سماع صوتك، سأجعلك تندم على تعديك عليها طوال حياتك.
- اسمعيني .. فقط اسمعيني سيدة فريدة؟.
- إطلاقًا ... لن أجعلك تراها مرة أخرى، الحمد لله أن القانون في صف المرأة، والأولاد من حقها، في حضانتها...أنت من أوصل الأمور إلى حالة لا يمكن معها أن أسامحك.
- لقد أخرجتني عن شعوري، الله يعرف أنني عاملتها دومًا بالمعروف.
- عاملتها بالمعروف؟
- نعم، إنها تأكل، تشرب، وتنام... وأوفر لها كل طلبات المنزل.

- المعروف لا يعني الأكل والشرب يا هولاكو!...المعروف أن تكون ودودًا، وترحم ضعفها... لكن أن تضربها يعني أنك غير مؤهل لحمل لقب إنسان.
- هذا ليس كلامي، يقول الله في القرآن: " اضربوهن"، "اهجروهن".
- وأنت... ألم تجد ما تطبقه من كل تعاليم القرآن إلا" اضربوهن واهجروهن؟ألم تقرأ، أو تسمع عن "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"؟ لن أعيب عليك، لا أستطيع أن أحملك تفسيرًا قال به من يأخذون بظاهر القول، والأهواء وما تمليه عليهم قبليتهم، وتحيزهم للرجال، العيب على من يفسرون كلام الله دون الغوص في فقه اللغة، ودلالات الألفاظ، وما تقوله اللغة بين السطور، وما يتفق و العدل الآلهي وما يرتضيه الله للنساء حين قال:" ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف".

أغلقت الخط، لأنهي حورًا غليظًا وجاهلًا، وبكيت حتى انهار مني البكاء. رحت أحدث نفسي كما لو كنت مختلًا عقليًا. لم أحتمل كلام مروان وأمه، واحسست بصدري يطلق طلقات مطاطية في قلبيهما، وأعتقد أن شيطان الفقه لبسني فشعرت أنني أصعد منبر المسجد المجاور لبيتي، وأمسك الخطيب من يديه، وانحيه جانبًا، وأعتدل في وقفتي كي أخاطب الناس، كم هو جميل أن تخاطب الناس با يليق بإنسانيتهم، وتتحدث عن الله بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه فوجدتني أسترجع بعض آيات القرآن الكريم التي جاء فيها الفعل "ضَرَبَ"، ووجدتني أقول لحوائط الدار وأبوابها، وللبحر الساكن على بعد عشرة أمتار من بيتي في الأسكندرية:

حين ذكر الله الفعل "اضربوهن" في القرآن، كان يعني به "اوجد حلًا للمشكلة"،"استر ضعفها" يعني تغاضى عن عصبيتها، ربما بلغ منها التعب كل مبلغ، أو اخرج من البيت حتى تهدأ الأمور! فقد قال عز وجل:" واضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا". هل تتوقع أن سيدن موسى عليه السلام أوسع الصخر ضربًا، أم انه أخذ بالأسباب؛ فقام بفعل، ليحظى من الله بردة الفعل؟ لقد حاول الصخر بعصاه كي يخرج منه أفضل ما به: الحياة- الماء، وماذا أفهم غير الستر حين يقول الله جل وعلا في سورة الكهف:" وضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا" يعني أنه سترهم وآواهم، فلم يمسسهم أحد بسوء، ويقول:" وليضربن بخمرهن على جيوبهن"، يعني عليهن أن يسترن أثداءهن، الضرب يعني الستر، الستر. هل كان الضرب عقابًا للصخرة؟ أم عقابًا لأهل الكهف؟ أم كان عقابًا للبحر حين ضربه موسى عليه السلام فانفلق فرقين؟ أنتم من تفهمون المسائل على نحو خاطيء...لم يأت الفعل" ضَرَبَ" في القرآن إلا بمعنى الستر أو للأخذ بالأسباب. هل جربت أن تلمس بعصاك بالونًا منتفخًا بالماء؟ لو لمسته لانفجر بين يديك، لو كان عصيًا لاختار الله فعلًا آخر غير انفجر، ولكان الأنسب مثلًا أن يقول: " فانشق"، فالانشقاق مناسب لكل ما هو عصي على الشق، أما الانفجار فيعني أنه ماإن لمس الصخر بعصاه حتى امتثل لأمر الله وانفجرت عيون المياه. الضرب هنا لا يعني أنه فقد وعيه بينما يضرب الحجر، إنما يعني أنه أخذ بالأسباب... وقال ربنا أيضا:" واضرب بعصاك البحر فانْفَلَقَ فكان كل فَرْقٍ كالطُّود العظيم" ضرب يعني أخذ بالأسباب، تصرف بحكمة، كي يستر عيبًا، أو كي يغير واقعًا إلى الأحسن...

الدين حسن الخلق

الدين حسن الخلق

مر شهران، حاول فيهما مروان بكل ما أوتي من قوة أن يسترد زوجه وولديه، وكنت أقول لقلبي: لا، سألقنه درسًا لن ينساه أبدًا، وسأجعله يفكر مرتين قبل أن يتسبب بغبائه، أو لأنه إمعة يفعل ما تريده أمه، وليس ما يرضي الله، في أن يهدم أسرة، لقد استطاع هذا الأبله أن يجعل ابنتي تكرهه، في أقل من تلك الربع ساعة، التي هي كل الوقت الذي استغرقه ضربه لها وإخراجها من بيتها، ولكنني أشفقت على الصغيرين، فقد بدا

الشحوب واضحًا عليهما، لم تعد ضحكاتهما تملأ الدار، لم تعد الكرة تقفز من مكان لآخر، لم تتطاير أكياس الحلوى، زجاجات الكولا، وعلب العصائر أمام الخادمة بينما تنظف البيت، ولم نعد نر التفاح مقضومًاإلا كثيرًا، على المائدة، بجوار المقاعد، وتحتها. كان نشاط ما قد افتقده البيت الكبير، ولم تعد مدينة الملاهي مبهجة، وحتى صوت الصلاة كان حزينًا، فقد كان صوت راكان يختفي حين يؤذن للصلاة ويؤمنا، وكأنما فقد نبضه، فرحت أدعو الله أن يصلح ذاتَ بينِهم، فاستجاب.

- صباح الخير، فريدة هانم.
- صباح النور. أفندم!!
- أنا شهاب، خال مروان.
- مرحبًا بك.
- الحقيقة أنني أود زيارتكم،...ممم أود أن أصلح ذات البين، سيأتي مروان كي يعتذر لها.
- لقد أغضبنا جميعًا، لا نرغب بلقائه. تخيل! لقد ضربها!
- تقبلي اعتذاري بدلًا عن الجميع.
- نحن غاضبون بالفعل.
- الصلح خير.
- سناتي جميعنا، كل رجالات العائلة، لنأخدها ونعيدها إلى بيتها، أخبري الجميع ، يشرفنا أن نلتقي بالجميع يا هانم. لا تنسي اننا أبناء عمومة. الأمر عائلي للغاية.
- ممم... حسنٌ، سأفعل، ... ولكن...
- من فضلك يا هانم، الأولاد هم الخاسرون الوحيديون في هذه المعركة تدركين ذلك جيدً بالطبع.
- إلى اللقاء، سأفعل.

لم يستأذنني أحد قبل أن يعض يدي، إلا ذلك الببغاء، الذي حط على كتفي يومًا، لقد فهم من صرختي، أنني أكره عض الأيدي، في الواقع، لقد اتفقنا على ألا يؤلمني بمنقاره، وتدريجيا اكتفى بلمس يدي بمنقاره، ليستأذنني كي يعود إلى قفصه، في الواقع، لم يستأذنني أحد غير الببغاء قبل أن يعض يدي.

لم يكن الأمر هينًا، فحين أبلغت رجالنا، لم تات موافقتهم إلا بعد أن مرَّ أسبوعان. فلما كان اليوم الذي ستجتمع فيه العائلتين، رأيت اللهفة على وجه ابنتي، ورأيت اشتياق الزوج لزوجها، ولولا هذا، لصرخت في وجه زوجها، ولأوسعته ضربًا. وحين دخل الرجل هُرِع إليه الصبيان، وتعلقا بساقيه، حاولوا معانقته، فلم يجدا غير حذائه فأخذا يقبلانه، وهكذا أنهى الصغيران المشهد، وعادت ساندرا إلى الدار.

- كيف وجدت الدار ساندرا؟
- كئيبة للغاية قبل أن ألمس أوراق الزرع وأطعم السمكات، وأفتح القفص للببغاءات كي تمرح كالعادة في الدار.
- والصغار؟
- صغار.
- وغرفة النوم؟
- لمَّا تزل صامتة.

كنت أعرف أن الأمر لن يكون على مايرام قبل أن يمر وقت كاف، تستعيد فيه ساندرا المرأة الكاملة في داخلها، ولن يحدث هذا قبل أن يدخل عليها زوجها جديدًا كما كان يوم أن دخل دارنا يطلبها للزواج.حين قدمه لي أخي فقال إنه على خلق وكفى. كنت أتمنى لو أنه وأمه يتعلمان من هؤلاء الذين لا يتوضأون خمسًا، ولا يتصدقون، قوانين حقوق الإنسان.

..وعدت إلى حيث تجلس أمي في كرسيها الوثير في القاعة الوسطى للدار، تطرز الوقت تسابيح ومفارش، كانت تضع شالها الأبيض على رأسها فينسدل على كتفيها وصدرها فيتماهى لون وجهها الثلجي مع لون الشال ، ولا يقطع الأبيض فيها إلا لون عينينها الأزرق الرمادي حين أدخل عليها فتترك أعمال الإبرة ، وتنظر إلى وتبتسم بفم فقد كل أسنانه إلا اثنتين، كانت تقول لى أنهما يجيدان التعامل مع "الفتة،" وتضحك، فأرى العمر وقد انفلت منها إلا قليلا، فيؤلمني قلبي، كانت حركتها ضعيفة، لا تقوى على النهوض للوضوء، فكانت تتيمم طوال الوقت، وتجلس تجاه القبلة، وما إن ينطلق الأذان لأي وقت من الخمسة، حتى تفر إلى الله.

-40

" حين أوقع نقدًا على قطعة أدبية، أو عمل أدبي قيم ما، فهذا يعني أنني أقدر نفسي وأحترمها بالمقام الأول، وأرفعك إلى مقام تستحقه بجدارة، في عالم مزيف تحكمه الشللية والمصالح ، وأرفع هامة الوطن، وأبشره بعمل صالح في المقام الأهم.

وأطلق على الأيادي الهدامة لكل ما هو قيم ونبيل قولة ربنا عز وجل:"إنه عمل غير صالح".

تقديري زميل الحرف المبدع في كل مكان، وبأي لسان تكلمت."

كانت هذه الفقرة تحتل مساحة برواز خشبي محفور بدقة متناهية، وتتخلل ثناياه أوراق الذهب التي أضفت عليه رونقًا فخمًا. كان توقيعي على الجهة اليسرى أسفل الورقة يعنيني كثيرا، فقد رغبت أن أبعث رسالة لكل من يدخل مكتبي، كان البرواز معلقًا على الحائط الذي يستند إليه مقعدي الجلدي الأسود، استدرت بكرسي فوجدت إياد، زميلي بالجورنال، كان قد حصل على بكالوريوس التجارة ويعمل رئيسًا للتحرير في إحدى المجلات الثقافية، وتتصدر لغته ركيكةً الصفحة الأولى من المجلة. لا أعلم بالضبط كيف وصل إلى منصبه هذا، لا سيما أنه كان يزدري الشعر والشعراء، وكنت أضحك كثيرًا بيني وبين قلبي، حين يتحدث العربية، فيرفع المجرور، وينصب المرفوع، كان يذكرني دومًا بذاك المذيع الذي كان يجلس إلى كرسيه، ثم يميله إلى الوراء، وهو يتشدق بلغة مشوهة ومذبوحة نحوًا وصرفًا. وترد عليه بالتهليل والتكبير مذيعة أخرى، فيتكلم الجهل طويلًا، دون أن يخرج من فريق العمل من يوقف عملية هدم اللغة.

- العلم يبني بيوتًا لا عماد لها

والجهل يهدم بيت العِزِّ والكرم

- "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون" في سورة الشعراء

- لقد أفلح من قال لا أعلم يا أخي، أنت تقول ما لا تفهم، كفاك فتوى بغير علم، وتفسير بغير تفكر، كثرت الببغاوات في بلادي،الشعراء هنا معرفة بألف ولام ،والمعرف في اللغة يقصد به التخصيص وليس التعميم، وهذا خطاب من الله لرسوله يخبره فيه عن شعراء المشركين، حين اتهموه بأنه مجنون وأنه ليس أكثر من شاعر يهيم في كل واد كما يهيمون، لأنهم كانوا أهل ضلالة، وقصد الله تعريف نبيه ببعض من الشعراء الذين يحيدون عن الحق، ويتبعهم في ذلك الغاوون من أهل الضلال، ليخفف عنه ما لحق ينفسيته من ألم لاتهامهم له بالباطل، ولو قصد الله كل الشعراء لجاء بالكلمة منكرة، ففي التنكير التعميم، هذا ما تخبر به اللغة أولا، ثم

مقتضى حال الحوار ثانيا، ومن هنا يبقى كل قول يخرج عن التدليس والتضليل من وعي الشاعر كفيل بأن يخرجه من زمرة المغوين الضالين.
طبعا ده مش تفسير تيك أواي، ولا تفصيل، ولا مقابل طبق فتة. ده كلام العقل والمنطق وما تقوله لنا اللغة.
- ولكن الشيخ فلان بيقول:.....
- الشيخ فلان لا يملك النقطة يا عزيزي، ليس منا من يملك النقطة، كلنا يملك من علامات الترقيم بعضها، ولا يملك النقطة والقول الفصل إلا الله. ولكن هنالك فيصل آخر تقوله لنا اللغة. فاللغة سابقة على النص المقدس يا عزيزي، خلقها الله حين علم آدم الأسماء كلها، واختصها بكل الجلال حين قال جبريل محمد: اقرأ، وفعل الأمر هنا لنا جميعًا، فإن كان لنا في رسول الله أسوة حسنة، فلنبدأ باقرأ، واقرأ هنا لا تعني فقط أن تتفوه بالحروف والكلام، ولكن اقرأ هنا تعني، اسمع،واستوعب، وافهم، وتعقل، وتفكر، وتدبَّر. كل هذه مرادفات للفظة " اقرأ. "استفت قلبك،" لكنني لا اجد كلامًا أكثر من ذلك. والحقيقة أنا لا أجد علاقة بين طبيعة دراستك وعملك كرئيس التحرير.
وقطع كلامنا صوت المذيع يقول:
شهداء الجمعة
وكانت قوات الاحتلال قتلت أمس الجمعة شابا فلسطينيا في حي تل الرميدة بمدينة الخليل جنوبي الضفة الغربية بزعم محاولته طعن جندي إسرائيلي، وذلك بعد ساعات من استشهاد شابين آخرين أحدهما أردني والآخر فلسطيني في كل من القدس والخليل.
وقالت مراسلة الجزيرة في القدس جيفارا البديري إن جنود الاحتلال أطلقوا وابلا من الرصاص على الشاب وتركوه ينزف حتى استشهد، ولم يسمحوا للمواطنين بإسعافه.
وفي وقت سابق من الجمعة أيضًا، استشهد فلسطيني برصاص جنود الاحتلال بدعوى محاولته دعس إسرائيليين قرب مستوطنة "كريات أربع" بالخليل، وقالت المراسلة إن قوات الاحتلال أطلقت النار بشكل متعمد على شاب كان برفقة خطيبته مما أدى إلى استشهاده على الفور، بينما أصيبت خطيبته بجراح وحالتها خطيرة.
كما أقدمت قوات الاحتلال على قتل شاب أردني في منطقة باب العامود بالقدس المحتلة بزعم مهاجمته جنود الاحتلال، ومحاولته تنفيذ عملية طعن ضد أحد عناصر الشرطة.
وعرض شريط الأخبار خبرًا يقول:
قبل 6 ساعات
قصفت مقاتلات روسية مناطق في ريف حمص بقنابل محرمة دوليًا، بينما قُتل مدنيون بينهم أطفال في غارات للطيران الروسي والسوري على ريفي إدلب وحلب.
اشتركنا في تنهيدة عميقة كانت كافية لأن تحرق بلدًا بكامله، ثم قال إياد:
حين ينتهي دور الدعاة والشيوخ في كل مكان عند حد تعدد الزوجات، اعتبار المرأة عورة، إغفال اعتبار المطلقة من المحصنات الغافلات، وجوب ضرب النساء بالسواك"، تفسير "اهجروهن" بترك الحنو عليها ومعاملتها بالمعروف، تحريم البرفان، تقديم ضرورة إطلاق اللحية كسنة محببة على حسن الخلق، والدقة في حساب مقياس الجلابية بحيث لا تصل إلى الكعبين بالنسبة للرجل،ووجوب أن تكنس بها المرأةالشوارع، لا بد أن نطالبهم بموقف واضح، غير الشجب والاعتراض والدعاء على الأعداء، إزاء الإنسان الذي كرمه الله

وأمره بالتفكير طوال الوقت. ولا بد أن نعرف أين هم من مشهد حمَّامات الدم، والقتل في الساحات العربية باسم الدين على مدار اللحظة. علينا أن نسألهم دومًا:" أين أنتم من ذلك؟؟ أين أنتم من ذلك؟؟ أو من أنتم؟؟؟؟

- ؟؟؟؟؟؟

الآن فقط، يمكنني أن أتقبل فكرةأن تكون رئيس تحرير لمجلة ثقافية بل وسأقول أن بإمكان التجار أن يقودوا فكر أمة.

-41

كانت زياراتي للمرسم من أجمل ما أقوم به من أمور. كنت أتجول مع زوجي بين اللوحات في الطابق الثاني، ونتوقف لديها طويلا، ونتناقش في اللون واللالون، وتماهي الألوان في بعضها البعض، وفي غياب اللون أو طغيانه أحيانا على باقي التفاصيل في بعض اللوحات، ولكنا كنا نغوص دوما في عالم اللوحات التي تحمل تضاد اللونين الأبيض والأسود. كان أمرًا يجعلنا نوشك على البكاء. خاصة حين نقف أمام لوحات النساء اللواتي يحملن الجرار فوق رؤسهن، أو مشهد غسل النسوة للغلة في مياه الترع حيث تعكس اللوحة ضجة تجمهرهن على حافة المياه وهن يحملن المشنات الكبيرة المملوءة بالغلة، وينشرن الغلة في الشمس بعد غسلها. كانت اللوحة حية للغاية فقد كنا نلمح الأسماك تتجمع لتتناول وجبات شهية، ولا تخشى سنانير الصيادين. وعلى مقربة منا وقف الرسام بين جمهور الموجودين، كان معروفًا لديهم جميعًا على ما يبدو. ينتقل بينهم من لوحة لأخرى. يشرح لهم شعوره حين رسمها، وكم استغرق من وقت لإنهائها. كانت معظم اللوحات تشترك في اللون الأحمر المنثور على وجه جميع اللوحات، عدا واحدة. لم نتبيها جيدًا من مكاننا لأنها حظيت بكم كبير من الواقفين أمامها. لم يبد لنا منها سوى الحافة العليا للبرواز وكان لون الخلفية الأزرق الفاتح قد خرج منه لون أحمر قاني باتجاه أسفل اللوحة، فلم نميز ملامح ما يرمز إليه. ودفعنا الفضول إلى الانتقال إلى حيث تقف اللوحة الضخمة، وحين انزاح الجمهور قليلً، واقتربنا استبان لنا جسد امرأة ضخمة ترتدي فستانًا له لون احمر قانٍ .تستلقي على جنبها الأيسر فلا يبدو للناظر إليها سوى ظهرها، وقد نثر الرسام حول جسدها شبابًا يمدون أياديهم لينالوا ما تيسر من أنثى فيها فاندهشنا من هذا التصوير للواقع، إذ تبدو اللوحة ملفتة للغاية. لا ادري لماذا وجعنا كثيرًا هذا التجسيد الخطير لجسد المرأة بكل مفاتن ظهرها وشعرها المنسدل على أرض اللوحة والسلسلة الضخمة التي تلتف حول عنقها وتنساب على ظهرها. تبادلنا نظرات نم على الدهشة والإعجاب الشديد، ورفع كل منا حاجبيه. وقال زوجي:

- لو لم يرسم غير هذه اللوحة في عمره لكفته.

- انظر كم هو دقيق في رسم أيادي الشباب الذي تحيط بها فقط بداية من خصرها وحتى قدميها، إنه يسلط الضوء على العقل الجمعي للمجتمع، هذه المنطقة هي كل ما يهم الرجل العربي.

- والغربي أيضا عزيزتي.

- لن نتقدم ما دمنا بهذه العقلية. انظر، إنها أكثر اللوحات جمهورًا، انظر إلى الجمهور! لقد شغلتهم المرأة ولم تشغلهم الأيادي الشابة الممتدة إلى جسدها.

- لهم قراءتهم ولنا قراءتنا، ربما هو قصد بلوحته هذه الفتنة.

- وربما قصد أن يَسُبَّهم.

- يَسُبَّهم؟

- نعم، وهذا ما أعتقده في الغالب، وإلا يكون مغلق العقل إذ يرسم الواقع دون أن يعالجه. على المبدع ألا يكفي أن نرصد الواقع ياعزيزي، ألا ترى معي أن المرأة تحتل مساحة اللوحة بالكامل، وجعلها هو ببراعة

تستلقي على جنبها الأيمن. وترك للمشاهدين ملامح شعرها المبعثر على ظهرها وعلى أسفل اللوحة، تاركًا لهم حرية تخيل بقية أجزاء جسدها. لقد رسمها بوعي ضارب في العمق.
- وربما رسمها لأنه يعلم أنها سلعة العصر، ألا ترين أن منطقة الخصر لديها هو أكثر ما لفت انتباه الجمهور؟
- تكلمني عن الجمهور، وأنت تعلم أن كل من بالمرسم من الوسط الثقافي والتشكيليين؟
- لو انصلح ذوق أهل الثقافة والفن، لانصلح الذوق العام.
- انظر كم هو بارع في تجسيد خصر المرأة؟، لو لمسها أحدهم لانقلبت على ظهرها كي تكلمه، كأنها استيقظت للتو من النوم. انظر إلى عيونهم إنهم يريدون رؤية المسكوت عنه في اللوحة.
- إنه الجنس بحذافيره، إنها تعكس الجشع والأنانية، لا تكتفي العيون بما تراه، ولكنها تبحث عن الماوراء في كل شيء، ألم أقل لك إنها فتنة؟
- ماذا تعني لفظة "فتنة لك؟
- كل ما تتوزع آراء الناس عليه، وتتفرق فيه ريحهم، يصبح فتنة.
- وكل ما يروج له من سلع رخيصة فتنة أيضًا، المرأة في بلادنا فتنة رخيصة.
- مذا تعني بكلمة رخيصة؟
- متاحة.
- متاحة، أم مباحة؟ أرى أنها مستباحة.
-المتاح مستباح بالضرورة.
- المتاح يقبع بين العرض والطلب أماالمستباح فهو من لا يملك من الأمر شيئا.
- أراك تغارين على المرأة في الأزرق هنا.
- نعم، غرت.
- ولم؟ إنها مجرد لوحة.
- إنها العرب.
- العرب؟ أتجسدين العرب كلهم في لوحة امرأة؟
- نعم، هي في نظري تعكس كل العرب.
- الكل؟، هذا ليس إنصافًا.
- لو طال العطب ركن اللوحة، كيف سيبدو الأمر لك؟
- غير بهية.
- وكذلك عكس لي عطب المسكوت في الأيادي الممدوة لتنهش لحمها، أو لقلبها على ظهرها، أو لتداعب ثدييها مثلا، لوحة موازية، تعكس فكرًا عربيا أصابه العفن. انظر لم يستثن الرسام أحد في الصورة إلا وقد مد ذراعاه كليهما نحو جسد المرأة، هو أيضا لم يستثن أحد.
- ربما هو قصور لديه.
- بل هو قصور وشمته روحه على اللوحة.
- المرأة قضية عامة تشغل الرجل في كل مكان، منذ أن خلق الله آدم.
- ولكن آدم لم يتخذها دمية للهو، لقد انشغل بها، وحرص على إرضائها، ولم يذكر الله لنا شيئًا عن مداعبته لها. وجعلها مستورة. ولم يذكر السوأة إلا حين خرجا عن أمره بمعصية الله في الأكل من الشجرة.
- خرجًا، تقولين خرجًا؟

- نعم، خرجا، لو قبلتك مثلا لقبلتني، فيكون كل منا قد فعل الفعل نفسه، فنكون قد فعلنا، قبلنا، تشاورنا، الفعل ورد الفعل شريكان في الفعل، لقد خرجا، ونفيا معًا إلى حيث الشقاء، فبم تبرر قبول آدم للمعصية، هل لأنه كان يلهو بها فقط؟ أم لأنه حاول إرضاءها، وماذا لو اعتبرها وسيلة للترفيه، أو "بيتًا للراحة" فقط، ترى هل كان يعنيه أن يرضيها؟ نعم إن الأيادي الممتدة نحو جسد المرأة ترمز إلى العرب. والعرب وحدهم، لأن فريقا انتهك، وفريقا غيَّر بقلبه. وهذا ما لم يفلح الرسام في نقله هنا، أين من تعامل مع القلب في اللوحة؟ ألا ترى أن الجزءالأعلى من المرأة بدايةً من الرأس وحتى منطقة ما قبل ثدييها خالية تمامًا من الأيادي؟ إن الجزء الأسفل من اللوحة- المراة هو أشد المناطق ازدحامًا. الأمر واضح عزيزي.
- ربما تقرأين من واقع نفسي أو أزمة نفسية ما.
- تقصد من منطلق تجربة سيئة؟، إطلاقًا، لقد حظيت بأب رائع وإخوة رائعين، وزوج أروع، ولكن من منظور نقدي بحت، أرى أن هذا الرسام، عن قصد، أو عن غير قصد، جسد مشكلة العرب التي تتركز في انتهاك المرأة، حتى حين يذهبون إلى السينما، أو يشاهدون الأفلام الإباحية، أو يدخلون النوادي الليلة، أو المراقص، لا يدخلون لأنهم يقدرونها، أو يستمتعون بفنها، هم يدخلون لانتهاكها بشكل أو بآخر. باعتبارها سلعة رخيصة ليس إلا. حتى لو دفعوا لها الملايين.
- أراك تضخمين المسألة، هي مجرد لوحة على كل حال.
- هي خلاصة القول يا عزيزي، سيصبح هذا الرسام عالمي وستحظى هذه اللوحة بعدسات الفضائيات، وسيخرج النقاد ليحدثونا عن براعته في رسم مؤخرتها، وربما حازت على نوبل للإبداع.
واكتفى زوجي بالقهقهة، ووضحكت من فرط الأسى. ولكنني كنت سعيدة بحصول المرأة المستلقية على ظهرها على كل هذه الإطراءات من الكل، ونظرت إلى وجه الرسام فرأيته يمشي بين الجمهور ويحدثهم وهو ينظر إلى السقف طوال الوقت، لقد جعلت منه المرأة المستلقية على جنبها فنانًا عبقريًا. لقد صنعته امرأة على كل حال، فهل قال المسكوت عنه في اللوحة غير ما قلت؟ لقد نظروا إليها جميعًا، فمنحته لقب " الرسام العالمي" واشتهوها هم فمنحتهم العار.

-42

افتتح ديسمبر موسم جمع الزيتون، بانوراما من أروع المشاهد التي لا تنسى، كنا جميعًا رجالًا ونساء نجتمع تحت شجر الزيتون؛ نضرب الشجر بالعصي فتتساقط حبات الزيتون على مساحات النايلون التي نفرشها حول الشجرات، وبين الضحكات الرائقة والأغاني وأكواب الشاي بالقرفة، نجمع ما يسقط من زيتون في أوعية كبيرة يحملها الشباب إلى معصرة أبو محمد جارنا بجوار الدار، وحين جلبوا لنا الأمشاط البلاستيكية كان الامر ممتعًا، وكنت سعيدة للغاية حين جلب تيسير جارنا تلك الأمشاط، فقد كنت أشعر أن العصي تؤلم أشجارنا، بل كنت أسمعها تئن لذا شعرت بها تستمتع بالتمشيط، ولم لا؟ فهي أرواح مثلنا، وبعد قليل جاءت ميسر جارتنا وهي تجمع التين في طبق كبير، وتدعونا لاستراحة قصيرة، فركضنا نحوها، كانت ميسر صبية جميلة، وكانت أم العبد تقول: " خدوا من إيد الصبية عيشة هنية." وصرن نخطف التين من الطبق ومن بعضنا البعض وتعالت ضحكاتنا، ومن وقت لآخر ينهرنا تيسير كي نخفض من أصواتنا، وفجأة صرخت مْيَسَّر:
- ييييه، يالله، شو هاد؟ التين بيو دود.
- دود؟ صرخنا جميعًا في نفس واحد.
- إيه والله، اطَّلَّعُوا، هيو، هوني، بيمشي.

حملقنا جميعًا في بطون التين، فرآنا الدود. وبدأت علامات القيء على البعض، وانتابت البعض نوبة هستيرية من الضحك، إلا تيسير، وقف محملقًا فينا جميعًا، وحسبناه فقد النطق، فهزته ميسر وسألته:

- ويش بيش؟

- أنا بجالي فوج الشهر بافطر تين من هاي الشجرة.

- هاهاهاها، كانت ضحكاتنا تهز شجر الزيتون فتسقط حباته على الأرض، إذ لم يعد محتاج للعصي بعد كلام تيسير.

كان تيسير جارنا يقول أنه يسمع كلام الشجر حين يأتي يعود من عمله ليلًا، ليركن سيارته بين شجرات التين، ولكنه لا يعرف له تفسيرًا. ولما اقتربت منه وسألته، هل تتذكر كلمات بعينها، أو حروف، قال وهو يغلق عين ويفتح الأخرى، ثم هرش داخل أذنه بقشة كانت في يده، وقال ببطء وبحروف مرتبكة:

أهيا، شراهيا، آل دوناي، أصبؤت

ما اهتز "بعل"،لا، ولم يسقط" هبل"

انتفضت من نومي عنوة، وتفلت عن يساري ثلاثًا، وتعوذت من الشيطان، وحاولت ألا أتذكر أحداث ذلك الحلم اللعين؛ كنا وحدنا تمامًا، وقد اختفى الرجال من القرية، كنا جميعًا نركض باتجاه الملجأ المخبوء في منتصف بستان الزيتون الذي يحوط داري، كان الملجأ مهيأً تمامًا لاستقبالنا حال الطواريء، وكانت المعاول قد اتخذت في حجرات الذكور ركنًا قصيًا. ووجدتني والنسوة نخبيء الذهب والنقود في أكياس الأرز، وشردت أصوات الرصاص أسراب الحمام. ورأيت الدور تسقط من حولنا، وفجأة شق صاروخ بيتي إلى نصفين، وكنت أنادي على أمي. يا إلهي، أرجو أن يكون خيرًا، أواه يا أمي، لكم افتقدك، هل أنت بخير؟.

استجمعت شتات نفسي، ورحت أتحقق من مكان وجودي، كان الضوء الخافت الذي ينبعث من الممر يغمد عتمة الليل في غرفتي، ويضفي لونًا باهتًا وبالكاد ميزت الأشياء من حولي، نعم، أنا في بيتي، ولا شيء سوى الصمت، وزوجي ينام بهدوء، وتبدو الأمور طبيعية للغاية، لعله خيرًا. رحت أطمئن نفسي. وأدعو الله أن تسير الأمور على خير مايرام. ولم أدر كيف استسلمت للنوم مرة أخرى . وأيقظني صراخ طرقات جارتي أم خالد،:

- ريم،افتحي، الكويت انضربت، بدنا ننزل الملجأ، كان باب الملجأ يبدأ من نفق تحت داري، ندخل إليه من فتحة في أرضية المطبخ، ففركت عيني وفتحت الباب وقلت:

- أم خالد، الكويت هي اللي انضربت مش الأردن، اطلعي بيتك ما تخافيش.

- يا الله انتم يالمصريين ما اجواكم، ولا بيهمكم شيء.

- لو لينا نصيب نموت حنموت يا ام خالد، اطلعي ارتاحي.

- جايبين الضرب على التليفزيون، والله دكوها دكة مرتبة.

- العراقيين مفتريين بجد.

- والكوايتة جَوَايَا، افتروا في كل شيء الصراحة.

- مهما كان الأمر، إلا الموت، الأبريا مالهمش ذنب.

- أحنا كده يالعرب ما بنتشطر غير ع بعض.

- معاكي حق، اطلعي بيتك، الحرب على أد ما هي بعيدة مننا قريبة قوي.

- شو بتجولي يا بنت، والله ماني فاهميتك.

- يعني احنا اللي انضربنا يا ام خالد، اللي ضرب واللي انضرب مننا من دمنا، والكسبان كالعادة اليهود والأمريكان.
- يلعن ابو هاذول على ابوو هاذول.
- ألف مرة، صدقيني الحرب هنا، وشاورت لها على قلبي، وقعدنا نعيط.
كنا نحملق في القنابل وهي تسقط على الكويت، ونشعر أننا على مرمى حجر منا، التمَّ الجميع في داري، كانت جاراتي في المدينة يحملن جنسيات عربية مختلفة. قالت نادرة جارتي التي تعرفت عليها في غرفة التليفزيون في بيتي:
- كلناهنا في بيت مصري سبحان الله، هدا قدركم يالمصريين اتجمعونا وتشيلوا عنا.
- ولا يهمك، بس انتوا ما بتسمعوا الكلام، يعني مثلًا لما السادات راح عمل معاهدة السلام الكل هاجمه ومحدش سمع كلامه، والإخوان اغتالوه، ومحدش فهم بعد نظره، وبعدها شوفي حال الفلسطينية بقى ازاي، لا تتوقعي خيرًا من العرب للعرب، ومن الآخر للعرب...
- صح، معك حق.
كنا نصرخ مع كل انفجار، وكنت أشعر أن التليفزيون متآمرٌ علينا أيضًا، فقد كان يلقي بالقنابل داخل بيتنا، فنتلقفها، و نلقيها أيضًا، هكذا شعر الجميع في تلك اللحظات، كانت اللحظات مُرَّة، عصية على البلع، انتشرت الطاقات السلبية في الطرقات، وكنت لا ترى الناس إلا مطأطين وجوههم، يرهقهم المجهول، وكنت أقول في نفسي، لماذا نعتبره مجهولًا، بينما تنقله يوميًا شاشات التليفزيون. كانت هذ المرة الأولى التي رأيت فيها أن بإمكاننا رصد المجهول لايف.
بعد اجتياج علوج العراق للكويت، رأينا الانقسام. فقد أدانت مصر تصرف العراق، ووافقت على تحرير الكويت، وأرسلت قواتها لتنفيذ هذه المهمة، بينما وقف ياسر عرفات، والملك حسين إلى جانب صدام حسين. كان الأمر صادمًا بكل ما تحويه الكلمة من معنى. كان بداية مرعبة لسناريو مرعب لن تخرج منه الأمة بثوب سليم، أتذكر أننا لم نتوقع خيرًا لكل الأمة منذ ذلك اليوم. فقد شهد الشارع الأردني مشاحنات كثيرة بين المصريين والأردنيين والفلسطينين، فقد أثر الجو السياسي على نفسيات الشعوب، فاتسعت الفجوة، وانقلب الجميع على المصريين بطريقة أو بأخرى، كنا نسمع الاخبار من هنا وهناك حول هذا الأمر، من جيراننا، وتصيبنا الدهشة، لكن أن تسمع الأخبار أمرٌ، وان تعيشها لايف أمر آخر.
فتحت باب الحديقة الأمامي، فرأيت جارتي أم فاتيما تقف في شرفتها حيرى. ألقيت عليها تحية الصباح كعادتنا فلم تجب. قلت ربما لم تنتبه فصعدت درجتي السلم اللتين تفصلان بين حديقتي وحديقتها واقتربت من السور الفاصل بيننا ورفع صوتي بالتحية:" كيف الحال أم فاتيما، صباح الخير فلم ترد أيضًا. ولأو مرة منذ جئت إلى هذا البلد ينقبض قلبي، وينزعج نبضي فيرفس صدري دون رحمة، وشعرت بضيق شديد وبت أتنفس بصعوبة شديدة، وبعد قليل، أطلت سوزان - ابنتها، وقالت:
- أمي غضبانة من مصر ومن المصاروة كلهم اليوم.
- ليه؟
- من شان تعاطفهم مع الكويت، مصر واقفة ضد العراق وترفض ضربها للكويت. بينما تؤيد صدام كل من فلسطين والأردن.
- وايه دخل المصاروة بالموضوع؟، وإزاي حد يقلب على حد عشان حاجة هو معملهاش؟
- هي هيك، مش طايئة حالها من وقتها.

- على كده مصر لازم تزعل من الكل بقى، عبد الناصر علم كل العرب في مصر، وبعت لهم بعثات تعلمهم وتثقفهم، ومحدش معترف بفضلها؛ يا شيخة ده عشان ناصر تكرم عيون مصر والمصاروة.
- والله ما باعرف، هي هيك تفكيرها، ما تزعلي، إشوي وبتروق.
- ولا ما تروق، براحتها.
ونزلت درجتي السلم، وعدت إلى منزلي، كان التليفزيون يلقي بالقنابل في ساحة الدار، وبعد أسبوعين من الاجتياح، وقفت شاحنتين كبيرتين أمام دارنا، فهمت فيما بعد أنهما تحملان ممتلكات أخت أم ميلاد جارتنا التي تمكنت وآخرين من الفرار من الكويت، ومنذ ذلك اليوم، أصبح مشهد شاحنات المنقولات الآتية من الكويت مشهدا عاديًا في شوارع عمان ومناطق أخرى، ولولا مرسوم ملكي أمر بعدم التعرض للمصريين في عمان وأن التعرض لهم بمثابة التعرض للملك شخصيًا، لأفرغ الفلسطينيون رصاصات مسدساتهم في أكبادهم، فتذكرت أحلام، وقلت لو كانت هنا، لخففت عني حزن هذا اليوم الذي رفضت فيه أم فاطيما رد الصباح إلي، يوم ما ستعود أحلام، وسنجتمع في مطبخ أم العبد ثانية، ولربما لمحنا نضال. لكن جملة واحدة صارت تتردد على مسامعي من الجارات طوال الوقت، يقولونها كلما أتت شاحنة تحمل متاع الفلسطينيين الفارين من الكويت:" خلهم يذوكوا الفقر شوي، طول عمرهم عايشين مفخفخين، وشايفين حالهم علينا، الله نكس روسهم وخزاهم أد ما افتروا". كانت هذه الجملة مفتاح القادم من احوال العرب، فقد قرأت بها قلوب القادمين، وعرفت أننا إلى منحدر، ولعنت عقلي الذي لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وحللها، وفك شفرتها، وقرأ بها تاريخًا قادمًا، ومحى بها أسماء بعض البلاد من الخريطة، كان في مقدمتها العراق.
لن تعود علاقتي بأم فاطيما كما كانت ما حييت، ولكنني سأقبل اعتذارها إن اعتذرت بالطبع، ومرت الأيام ثقيلة، كانت البلد تزدحم، وتغيب ملامحها، كانت الشاحنات الآتية من الكويت، تفرغ أناسا غريبة الشعور، والعادات، وسمعت لأول مرة في حياتي منذ جئت إلى عمان، معنى كلمة "ذعران"، وأصبح وجه المدينة البريئة قبيحًا للغاية، فقررت الرحيل في نيسان.
كنت أنظر إلى وجوه المتحدثين في التلفاز فلا أرى إلا الصراخ، كلهم يصرخون، وما من مستمع بينهم، ولم أخرج يومًا بنتيجة أو حل ولو على المدى البغيض، وبت أسمع لغة جديدة، لم أسمعها من قبل، كان أم خالد تقول: "نحنا صحابات البلاد الأصليين، ومن يوم إجا الفسطينية وهم احتلوا البلاد، كل الوظايف هسا بيها فلسطينين، وأسمع أم فاتيما تقول: ساق الله واحنا راجعين ع بلادنا، إلنا دور مسكرة هنيك وبيارات، بس كماني احنا سوينا هاي البلاد، واحنا اللي عمرناها بمصرياتنا، وتقول أم فدوى: الله لا يوفجهم العراقية، كاينين يغتصبوا النسوان وينهبوا الدور بلا رحمة ولا شفجة، وتقول جارتنا الروسية: أرى أنكم لا تفهمون المسألة، أنتم تتناحرون فيما بينكم، فكيف يقف لله معكم، وقد فرقتم كلمته؟ وكنت أستغرب من لغتها العربية السليمة.
كنت أغمس النظر في الجميع وهن يلقون اللوم والسباب على مسمع البلاد، ثم انظر إلى الروسية، ولا أملك إلا أن أهز رأسي قهرًا، ولو كان لي أذنيّ كلب، لصرت أوجههماإليهن كطبق دش كبير يحاول التقاط جملة واحدة فقط اشترك فيها الجميع، وأخيرًا ترجمت لغة أجسادهن، ولم أعد أر إلا طوائف من إناث.
وتذكرت ميسون صديقتي التي عملت لمدة شهرين في الجريدة، اضطرت إلى ترك العمل معنا لانتهاء إقامتها حين قالت لي ذات صباح ضربه الثلج في مقتل في شهر يناير:
- شو بَدْنا نسوِّي بالله، لمَّن ننزل على الضفة اليهود بيعتبرونا جُرذان، وبيصير قتلنا وذبحنا حلال، ولما نسافر ع أي بلد أوروبي ولا عربي بيعتبرونا لاجئين، ونصير ندوِّر على رزقنا مثل الديدان تا تُظبُط أمورنا، ولو رحنا ع أميركا يشاوروا علينا ويقولوا هادولي عرب، وين نروح ياالله، وين تا يصير الْنا قيمة زي العالم.

- عارفة إن في لندن، لما يدخل ناس على أي مطعم ويلاقوا الترابيزة مش نضيفة بيقولوا إيه؟
- بيقولوا إيش؟
- فول أوف أراب.
- احنا اللي سوينا هيك بحالنا.
- طبعا،مين نفخ اميركا غيرنا، مين فهمها إنها مهمة غيرنا؟ افتحي مصنع مشابك غسيل واكتبي على التيكت صنع في أميركا بس، حتلاقي شركتك تضرب كل المشابك اللي بيبيعوها العرب كلهم بال....
- دخلك قيليلي، شو المعيار يللي بيميز هوية أي بلد، وثقافتها ومين اللي ممكن يحدد هيك معيار؟
- في بلاد يحكم جهلاؤها مفكريها وعلماءها، لاتسألي عن المعايير، وفي بلاد مازالت خانة الديانة والمؤهل والوظيفة هي الفوارق الوحيدة التي تميز أحدهم عن الآخر، لا تسألي عن المعايير، وفي بلاد يبيع من لا يملك لمن لا يستحق، لا تسألي عن المعايير، وفي بلاد كل رجال الدين فيها على دين الملك، لاتسألي عن المعايير،وفي بلاد نصَّب فيها البعض أنفسهم آلهة على البعض الآخر، وانتحل كبراؤهم شخصية الرب، لا تسألي عن المعايير، في بلاد يقسم فيها النصابون بمن في السماء لينهبوا ما في الأرض وما عليها، لا تسألي عن المعايير،ووووووو.....
- والله طول الوجت بادعي الله يولي من يصلح ويوحد الكل، والله راح نكون جوة هايلة لو وقفنا بحد بعضنا.
- انا أكره الدعاء دون عمل، حين يشعرالإنسان بالعجز يصبح مضطرّا، فيلجأإلى الدعاء كي يفرج الله كربه، ن يرسل الله المخلِّص دون أن نقدم أعمالًا تليق بين يديه. ولكم أكره هؤلاء الشيوخ الذين يجتهدون في البكاء على شاشات التليفزيون، أنا أرى أن الدعاء سر خطير بين العبد وربه، واحيانًا أقول لو عرف أحدهم كيف أكلم ربي، ربما حسدني على استجابة الله لي. الدعاء سر، يقول الرسول: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، والدعاء حاجة ملحة، ويقول الله سبحانه وتعالى:"أفمن يجيب المضطر إذا دعاه"، لا أحد يعرف مدى اضطرارنا إلا الله.
- هل سافرتِ برة مصر وعمان؟
- أيوة، رحت لندن سياحة.
- وايه أكتر شيء حبيتيه في لندن؟
- الإنسانية، هيومانيتي.
- وفي عمَّان؟
- الناس اللي بتروح البحر الميت، عشان تداوي أمراضها بشوية مية بملح، كان نفسي أفهم الأمور زي ما بيفهموها.
- وبمصر؟
لما رجعت مصر من 15 سنة كنت باسمع الزملاء الكتاب والنقاد بيتكلموا عن الحداثة وما بعد الحداثة وكل يوم ندوة عن الاختلاف في تأويل الفرق بين حديث ومحدث وحداثي وما بعد حداثي،و كل مرة أخرج بنتيجة واحدة هي إننا لسنا واقفين هناااااك عند العصور المظلمة في أوروبا، وإننا عندنا أزمة في فهم المصطلح والتعامل معاه بشكل تطبيقي وعلى رأي زميلي "آدينا بنقول كلمتين ناخد عليهم قرشين وخلاص"، ده طبعا بخلاف القوالب الجاهزة وكام مقولة لأي كاتب أو ناقد أجنبي كفيلة بأن تجعل التصفيق أكثر من شرس. ورغم وجود زملاء فطاحل في اللغة والنقد والشعر وقامات أدبية لا يستهان بها ولم تأخذ حقها في عالم الزمارين، تبقى أزمتي الحقيقية مع المطبلاتية والرقاصين قائمة إلى وقتنا هذا، ثم كيف للأمور ان تستقيم في المناحي

الثقافية، بينما مازال هنالك من يوصي بشرب بول البعير، وإرضاع الكبير، وزواج الجن والإنس، والتبرك بأضرحة الأولياء. بس هي دي بس الأشياء اللي محبيتهاش لكن اللي حافضل أحبها طول عمري هي مصر.
- وفلسطين؟
- مممم، أحلام، أحلام، فلسطين تعني لي أحلام.
- او مين هي أحلام هايي؟
- أحلام بنت ام العبد، صبية زي الفرس الجامحة، كل ما تهرب برة السور، يجروا وراها، ويلبسوها السرج، ويحطو لها الشكيمة على بقها، ولما زهقوا منها ودوها الضفة، مش فلسطين في الضفة برضه. ولا فلسطين حاجة والضفة حاجة تانية؟
- فلسطين، هي بالضبط أحلام، فعلا، وين هي هلا؟
- في فلسطين، انتي عارفة فلسطين فين؟
- مممم.... شو بتقصدي؟
- فلسطين في كل حتة دلوقتي حتى في مصر.
- مصر، ييي الله يحميها مصر، لو صار لها شيء بتروح العرب.
- كل ده ومش صاير لها شيء؟، قول لي هو لو أخوك دخل المستشفى، انتي ممكن تكوني فين؟
- معه طبعا، ما باتركه.
- يبقى مصر مع اخوها.

-43

جلست كالعادة في مقعدي بجوار النافذة، ورحت اتنقل بين محطات التليفزيون، فاستوقفتني تتر فيلم هندي يحمل عنوان "القافلة". أرجعتني لفظة القافلة إلى لفظة الحرب، ومنها إلى بقايا الدور، وأشلاء البشر والحيوانات، وعجز النخيل الراقدة في الهدد، وروائح نتنة انبعث من بطون انفجرت للتو، ولا أدري لماذا لم تعود بي إلى رحلة الشتاء والصيف من وإلى الجزيرة العربية، وقلت في نفسي، ربما انسحبت المشاهد رغمًا، ولم يقبع في الذاكرة متأهبًا غير الطلول، ورحت أفكر طوال الوقت، في زيارة المقابر حيث يرقد أبي وأخي فقد كنت بحاجة إلى شحن روحي بطاقة للبدء، وربما كانت منطقة اللاوعي المدرك لدي تدفعني إلى القيام بأمر مهم.

رحت أرتب جدول أعمالي للأسبوع المقبل يدفعني الحنين إلى ساحة الموتى، واستقر قلبي على زيارتهم في الجمعة التالية. ثم رجعت إلى مكاني أتنقل بين محطات التليفزيون، فانفتحت الشاشة عن مشاهد متلاحقة للبؤة تحاول صيد أحد الغزلان، ووجدتني أركز جيدًا على تعابير وجهها، وحالة الشره التي هيجت عضلات جسدها، فجعلتها تركض بهيستيرية، و تمركزت بوضوح في مخالبها، وفي سرعة تنقل عينيها باتجاه الغزالة. وبين كر وفر، استسلمت الغزالة في لمح البصر، لفك اللبؤة التي وقفت فوقها بقدميها، وغرزت مخالبها في جسدها. ولدهشتي، تحولت نظرات عينيها المفترسة فجأة إلى عينين لينتين تتفحصان الغزالة وتقلبها ذات اليمين وذات اليسار، وقد خففت من حدة مخالبها التي انغرزت في لحمها، وصارت تشمها. فلما رأتها صغيرة جدًا وقفت تنظر حولها، وفجأة تحولت اللبؤة أمامي إلى أم، فقد راحت تبعدها بيدها عن مرمى الريح، لكي تفوت على الحيوانات المفترسة فرصة الانقضاض عليها، وفجأة ظهر ذكر أسد، وحاول الانقضاض على الغزالة فتحولت اللبؤة إلى محارب قديم مخضرم يضرب بعرض الحائط كل شيء إلا عرضه، وبلده، وكرامته؛ دافعت اللبؤة عن الغزالة بكل ما أوتيت من قوة فابتعد، واختفي خلف الأحراش، وراح يستنشق

الهواء من مؤخرته. ولفت انتباهي تقوقع الغزالة تحت بطن اللبؤة وبين أقدامها وقد لفها الخوف والضعف، ورأيت التياعه لفقده أمه، وقطع علي اندماجي مع هذين الروحين، طائفة من الإعلانات المباغتة، فراودني حنين للغابة. لكن طول فترة الإعلانات، أنستني الأمر، وكأنما تعمدت الإعلانات صرف نظر المشاهد عن المشاعر الإنسانية التي يتمتع بها الضواري من الحيوانات. تركت غرفة المعيشة، ووقفت أمام دولاب كتبي، واخترت " كتاب عبقرية عمر"، ورحت اقرأه للمرة الخمسين على ما أعتقد....

غلبني النوم، فوجدتني أركض في الغابة إلى حيث يرقد الغزال بين جنبي اللبؤة، اقتربت منه وحملته برفق، لكنه كان قد فارق الحياة بشكل طبيعي، فقد جئت متأخرة قليلًا، ولم تتذكر هي إلا أنها أم، فلم تر في فريسة محتملة.. يا لله! لقد كنت أكره أن يأتيني أحد متاخرًا عن موعده. لدهشتي لم تهاجمني اللبؤة، ولم تبد اعتراضًا أيضًا حين حفرت له مكانًا تحت شجرة التين، وتركته كي يستريح. كانت ترمقني بعطف شديد فلما أسلمت سوقها للريح فتحت عيني.

لم يفعلها الذكر أيضًا هنا، لم يشغله سوى الطعام، ولم يكن لديه مانع في مهاجمة اللبؤة التي من المفترض أنها زوجته في قبيلة الأسود، وهي التي تخرج للصيد، بينما يبقى الذكر في العرين ليحميه من الضباع المفترسة، لم يفكر إلا بنفسه حين الطعام، لكم هو قميء هذا الأمر! وفعلتها الأنثى أيضا فتولت حماية الغزال الرضيع، حتى هنا في عالم الحيوانات، تتصرف الإناث بما يليق بالإنسانية في ذروة معانيها، ولكن لماذا أجلد نفسي هكذا؟ لماذا لا تمر الأمور على قلبي وروحي مرور الكرام؟ لماذا أتوقف عند كل شيء، هل أنا مجنونة؟

-44

حاولت ترتيب أولوياتي لهذا اليوم، فركبت سيارتي وتوجهت إلى مكتبي، وما إن وصلت، حتى عكست لي الكاميرا الأمامية، صورة شاب يتكلم في هاتفه المحمول، ويصعد السلالم، ثم ينظر إلى باب مكتبي، وسمعته يقول لأحدهم:

- المدام جوة، أدخل لها دلوقتي؟

- فنهضت من مكاني كي أفهم ما الأمر، لم تكن السكرتيرة موجودة بالمكتب بعد، فدق الباب، ثم قال صوت تعمد أن يجعله خشنا:

- شلنا عداد المية يا افندم

- نعم؟، ليه؟

- عليكم 600 جنيه.

- وإيه المشكلة، العمارة اللي بتتبني جنبنا عليها 20 ألف جنيه، ومحدش شال لها العداد.

- فين دي؟ لايميني عليها، عشان أحصلهم، أنا لي نسبة.

- ليك نسبة؟؟؟

- أقصد لأني مش باسمح لحد ياكل حق الحكومة.

- حق؟، وحكومة؟، أمال مين اللي باعتك؟

- حمايا، أقصد رئيسي في الهيئة.

- طيب.. حاجيلكم بكرة أدفع.

- بكرة يعني بكرة، عشان بعد بكرة حيدخل المخزن، ولودخل مخزن، حتدفعي 900.

- انت بتهددني، طب حادفع بعد بكرة عشان أضيع عليك انت وحماك النسبة.

شالوا العداد من غير إنذار، ههم عاوزين مننا إيه.

- مين دول يا أفندم؟
- نسايب المحصل!
عدت إلى مكتبي وأنا أشعر بالقرف من كل شيء حولي، البشر، والبشر، والبشر، وبعد أن أجريت عدة مكالمات، ألغيت فيها مواعيدي لليوم، اتصلت بالسائق كي يقلني إلى المنزل، كنت بحاجة إلى الهروب من كل شيء فاستسلمت إلى النوم.
دخلت إلى الغابة فقرأت على بابها طريقة التعامل مع سكانها:" عليك أن تلمس كل شيء حي لكي تحصل على الطاقة. احتفظ بقوتك قدر الإمكان. حين تحصل على القوة من الأشجار والورود والزهور تصبح قويًا بما يكفي لإحياء كل الكائنات الميتة. قلت في نفسي: "ماهذا الجو الغريب؟" بدأت السير، وكلما وجدت فئرانًا، قططًا، وكلابًا ميتة ألمسها، وأشحنها بالطاقة فتعود إلى الحياة. وجدت شعوب النمل، والنحل ميتة فلمستها فدب فيها السعي من جديد. رأيت خيولًا كثيرة نافقة فلمستها وشحنتها فنهضت على قوائمها، وفجأة شعرت بضعف يعتريني، وبدأ الدوار يزيع بصري، لكنني لم ألمس أي شيء بطريقي، لقد وجدتني لا أجرؤ على شحن قلبي من طاقة الشجر والحيوانات والزروع. تحاشيت أن يلمس جسدي أي من الكائنات حتى لا أقلص من قوتها. لا اتخيل أن أرى ورقة شجر تسقط ضعيفة خائرة بسببي. وفجأة رأيت أمي، استطعت النفاذ ببصري إلى قلبها، كانت ضعيفة للغاية، بل كانت تحتضر، فلمست قلبها ففتحت عيناها وقالت لي بضعف: أمي!، فلما استعادت قوتها،ونهضت لتعانقني، خارت قواي، فنادتني فاستيقظت.
لفني الاكتئاب، والخوف فافتقدت أبي. أرغب بشدة في زيارة أبي. ارتديت ملابس سوداء، ووضعت نظارتي السوداء، وأمرت السائق أن يأخذني إلى حيث يرقد أبي وأخي، وفي الطريق استحضرت روحيهما بشكل طاغ، وكلما اقتربنا اضطربت دقات قلبي، وشعرت كأنهما ينتظراني لدى الباب، كعادتهما حين أرجع من الامتحانات. بدأت أنفاسي في الاضطراب، فقد لاحت البوابة السوداء الضخمة التي تنفتح على بيوت الصخر، لتخبرنا أننا عما قريب سنكون لا شيء. توقف محرك السيارة لدى الباب، فترجلت وتبعني السائق. ليس من الجيد أن أكون وحدي هنا. سرنا عبر الممر الفاصل بين القبور، ولاح الصبار في كل شبر من بين الصخور، ليعلن أنه استمد قوته من الموتى، وأنه الوحيد الذي اعتلى عروش المكان، وتقف الأشجار على مسافة واحدة من الممر، رحت أقرأ الشواهد الواحد تلو الآخر، حتى عثرت على دار أبي الأبدية، كان اسمه منقوشا بخط الرقعة على الشاهد فاحترق قلبي. لقد اعتدت رؤية اسمه على دفاتري وشهاداتي، واعتدت أن أراه حين يترك لأمي رسالة ما، ويلصقها على باب الثلاجة كي لا يوقظها عند الصباح، وأحيانًا يكتب فيها للجميع:" بحبكم قوي"، أما الآن فقد وقَّع أحدهم بدلًا عنه، ليصبح اسم أبي نقشًا نقرأه كما نقرأ أخبار الفراعنة على الجدران والمقابر والمعابد. سرت حتى اقتربت من قبر أبي، فخفت أن أتقدم، وفجأة جاء الرجل المسئول عن المقابر وقال لي:
- لا تخافي، قفي هنا، وأشار إلى حجر بجوار القبر، واقرئي ما شئت من قرآن.
- لا أستطيع. إنه أبي، وأخي، أقصد تراب أبي، وأخي. لا أتخيل أنني أمشي فوق رأسيهما.
- لا.. إنهما بعيدان، في الداخل، أنت هنا على أطراف المقبرة، اقتربي من الصخرة، انظري هذا هو باب المدفن.
وقفت إلى القبر، وبسطت يدي أربت عليه، وشعرت بأنني أربت على جسديهما معًا، وشعرت بالحياة تسري في الصخرة، لقد تحول سرير الصخر إلى أبي وأخي، رحت أخبرهما عن كل شيء، وأشكو لهما من كل شيء، وأبكي، وشعرت بالدم يتدفق إلى رأسي، كأنني في طريقي إلى الصلب، فلقد شعرت أنني راقدة على

ظهري، رأسي منحدر إلى الأسفل، وتعلقت ساقاي إلى صخرة مرتفعة فلعنت الرومان. أقسم أنهما يسمعاني ويحاوراني، ورحت أنظر إلى باب المقبرة وذلك القفل الكبير الذي يربض فوق صدرها، ويفصلني عن عالم أبي وأخي. لقد علمت الآن من أين تأتي الأشباح، وعلمت أنهم ليسوا إلا أرواحًا افتقدت ذويها، وجاءت لتبحث عنهم في عالم الأحياء. ما أغبى الأشباح، لو أنني في مكانهم لما تركت هذا العالم. لا شك أن أبي فرح للغاية بزيارتي له، فها هي رائحة البابيب الذي يدخنه قد عبأت المكان، لا بد أنه يضع ساقه اليمنى على ساقه اليسرى ويقول بفخر لمن حوله الآن هذه هي فريدة ابنتي، لقد صارت كاتبة صحفية في غيابي. أخرجني صوت السائق من جنوني فقال:

- هل تريدين من الشيخ ان يقرأ القرآن لوالدك وأخيك؟

- لا، لن يصل إليهما إلا ما أقرؤه أنا.

- حسنٌ، اقرئي إذن، ولكن علينا ألا نظل هنا لفترة طويلة، المقابر خطرة ياسيدتي.

أوجعتني عبارة" المقابر خطرة" للغاية، من المؤلم أن يترك الإنسان روحه في مكان خطر ويمضي. كان كل جزء في جسدي يوخزني قهرًا؛ لماذا لا نمضي جميعًا إلى هنا، لماذا نمضي كيفما اتفق فتظل أرواحنا موجوعة، هائمة، ومنقسمة طوال الوقت بين الموت والحياة، وكأنما رد علي الصمت في هذا المكان المعزول، فقد تنفست بعمق، وشعرت براحة شديدة، وتمنيت لو أظل هنا، ولولا أنني رأيت قبيلة كلاب تقترب من المكان لما خرجت.

حاولنا الخروج من المكان طويلًا فلم نفلح. لم نجد الطريق إلى الشارع الرئيسي، وكلما أخذت السيارة دورة كاملة حول المكان لتجد مخرجًا، وجدنا أنفسنا أمام الباب الرئيسي للمقابر، فقلت للسائق اسأل الحارس عن الطريق، فقال: هل احتجزتكم الأرواح هنا؟

- احتجزتنا؟ الأرواح؟

- نعم، يبدو أنكما لم تمكثا طويلاً بما يكفي لأن تهدأ روحيهما. لقد افتقدوك كثيراً أيضًا.

- وكيف تعرف أن الأمر كذلك؟

- نحن هنا نعلم ما لا تعلمون، نعلم المقابر الطيبة من الخبيثة، نحن أكثر الناس معرفة بأحوال الأحياء، لن تخرجي من هنا قبل أن يشبعا منك.

أخذني الذهول إلى الصمت التام، فقلت في نفسي: " في المرة القادمة سأتمدد بجواركما يا أبي، فأنا لا أنتمي للعالم الخارجي. أدار السائق المحرك وفي هذه المرة وجدنا أنفسنا قاب قوسين أو أدنى من المنزل، يبدو أن أبي هز رأسه موافقًا.

-45

انتفض الصباح في بيت الجدة على صوت حشرجة قادم من غرفتها، كانت قد تركت باب غرفتها مفتوحًا طيلة الليلة السابقة على غير عادتها، وكأنما تنتظر ضيفًا ما، ومع انتشار النور في جو البيت، حركة عصافير الكناري غير المعتادة، وهرولة الكلب من غرفة إلى أخرى على غير هدى، استيقظ كل من بالبيت، ساندرا، يوسف، الخال مراد، وكانت الخادمة قد استيقظت منذ السادسة تقريبًا، لكنها لا تتحرك من غرفتها إلا بناءً على نداء يصدر من غرفة الجدة يصدره صوت "الإنتركم" الواصل بين غرفة الجدة وغرفتها بالقرب من المطبخ، سمع الجميع صوت الحشرجة فنظروا جميعًا بوجل إلى بعضهم البعض، وبشكل لا إردي هُرِع الجميع نحو غرفة الجدة فوجدوها ممدة في فراشها، تضع يدها اليمنى على اليسرى، وقد اضطربت ضربات

قلبها في صدرها، فصرخت ساندرا، فضم يوسف رأسها إلى صدره، وأسرعت فريدة إلى الهاتف تتصل بالطبيب، وخرج الخال مسرعًا ينادي الخادمة كي تصنع كوبًا من الماء والسكر، وماهي إلا لحظات حتى استعادت الجدة وعيها إلا قليلًا؛ لم تتفوه ببنت شفة، كانت تنظر إليهم باستغراب كما لو كانت لم ترهم من قبل، كان أمر ما يشغلها، لم تفصح عنه، وفجأة ضغطت بكلتا يديها على قلبها و قالت:

- فريدة، أنا باموت يا فريدة، حطي ايدك على قلبي، حيطلع من صدري، بيوجعني قوي، أنا باموت بجد، وتعلقت عينا فريدة بعيني أمها وكأنما توقف الزمان وتلاشى المكان من حولهما، ثم نهضت الجدة من مكانها ونزلت عن السرير، خشي الجميع عليها أن تسقط، فنظرت إلى فريدة نظرة آمرة فهمت منها أن تبعد الجميع عنها وتتركها تفعل ما تريد، لكنها كانت تحوطها بيديها كي تمنعها من التعثر، كانت الجدة تتخبط في مشيتها، تستند في كل خطوة على حوائط الممر المؤدي إلى قاعة الطعام، ثم جلست إلى أحد المقاعد ممشوقة بقدر لفت نظر الجميع، ثم ارتجفت فسألتها فريدة:

- بردانة؟ اجيب لك غطا؟

- فردت الجدة بصوت خفيض ضعيف:

- لأ.

- ثم انتفضت للمرة الثالثة، وكأنما رأت الموت عن كثب فرفعت خصرها بكلتا يديها للأعلى ثم وقفت مرة أخرى، وتمتمت بكلمات، فهم الجميع منها، فيما بعد، أنها كانت تتلو الشهادتين، وربما قالت الكثير من كلمات الله، فلقد طالت وقفتها، ثم سقطت فجأة على المقعد المقابل للممر، فصرخت فريدة:

- قلت لك اشربي الشوربة، انتي ضعيفة، مبتمعيش الكلام، شفتي، انتي من غير أكل وشرب بقالك كتير يا ماما، فردت الجدة كأنها طفلة تتعلم الكلام حديثًا:

- حاضر ، حاضر، حاشرب، فقربت منها فريدة كوب الماء الممزوج بالسكر فارتشفت الجدة منها نقطة ماء واحدة، وسقطت الأخرى من شفتيها على ذقنها، ثم انغلق فمها وتشنجت يدها اليمنى، ورأى الجميع كأنما انصب في عروقها حبر أسود، فأطلقت ساندرا صراخا متواصلًا وانهارت فريدة:

- ماما، ماما، حبيبتي، يا حبيبتي، استني معايا شوية، اوعي تمشي دلوقتي مش حاتحمل، كان الخال يجلس مدهوشًا على المقعد المجاور لها، وما إن رفعت فريدة وجه أمها لتريحها إلى الوراء حتى مالت الجدة إلى اليسار، فارتاحت رأسها على صدر أخيها الذي أغمض عينيها بشكل لاإرادي وسط ذهول الجميع، وفرَّ أكرم إلى الشرفة وهو يبكي، آلمه كثيرًا أن تنتهي حياة جدته في لحظات بينما هو عاجز عن أية حيلة لإنقاذها، وقف يوسف بين أخته وأمه يحتضن رأسيهما معا، ويربت على قلبيهما ويقبل جبينيهما مواسيًا، ثم قال:

- يلا يا خال، نشيل جدتي من هنا، وندخلها أوضتها، الله يرحمها يارب. لفا عليها ثوبها الأبيض الفضفاض، وحملاها معًا إلى غرفتها بينما كاد الكلب أن يجن قهرًا عليها إذ كان يقفز عاليًا كي يلمس جسدها المحمول ويئن، أما الببغاء فلم يسمع له أحد صوتًا من يومها إلى أن مات في صمت شديد. انهارت ملامح الدار العتيقة، وتبدلت أحوال الدار فأصبحت بلا دار.، كان على يوسف إبلاغ الجميع نبأ وفاتها، كان الوقت غروبًا، لذا ستبيت جدتهم ليلة أخرى بالبيت في غرفتها.

أخذ جسد الجدة يبرد رويدًا رويدًا، وجاء الطبيب فكشف عليها، وأقر بوفاتها، وكتب في تقريره:" هبوط حاد في الدورة الدموية". لم يعلق أحد على تقرير الطبيب. كان لابد أن تتركنا يومًا على أية حال، أو يتركنا أحدنا.

لقد كان الله رحيما بهم حين تركها لكم لمدة ثمان وثمانين عام، لا بد أن يموت البعض كي يعيد البعض الآخر حساباته، ويراجع دفاتر يومياته، لقد ماتت لأن ورقتها اصفرت، وتآكلت المفصل الذي يربط بينها وبين شجرة

الحياة، وكان لابد أن تسقط يومًا، لم تتآكل ورقتها لأنها عاشت طويلًا، لقد اصفرت ورقتها لأن زمنها الافتراضي توقف، لا علاقة للزمن الافتراضي بالعمر أو الصحة، ربما هذا يفسر شعورنا بالضيق والتشاؤم أحيانًا حين تتوقف الساعات في أيدينا، أو تختل حركة عقاربها، فتتقدم بالوقت، أحيانًا، أو تتأخر به، قال أكرم علينا بالدعاء فهي لا بد محوطة بالملائكة. جدتي جديرة بذلك. ولكنه سرعان ما سأل:

- ليه كل ما نتعلق بحد يسيبنا ويمشي، لما اتعلقت ببابا قوي، سابنا ومشي، ولما اتعلقت بجدتي سابتنا وماتت، ولما اتعلقت بزميلتي في الجامعة سابتني واتخطبت لواحد تاني، ولما اتعلقت بخالي سابنا واشتغل في جهة عليا، وبقينا نشوفه بظروفها، ولما اتعلقت بزميلي في المدرسة الابتدائية سابني ومات من كتر ضرب الاستاذ فيه، مش عاوز اتعلق بحد، مش حاتعلق بحد، حتى انتي يا أمي، حادرب نفسي على انك مش موجودة، أنا خايف، خايف جدا.

- كل دي تدريبات يا ابني، تدريبات تعلمك ان الدنيا دي ولا حاجة. لا شيء أقسى من أن تقنع ولداًا لك بأنه لن يرى جدته بعد الآن. مهما بلغت من قدرة على منح التبريرات فإنك تبدو أمامه عاجزًا إلا عن أن تكون مثله؛ تبكيان كما لو لم تبكيا من قبل من فرط الحزن.

- انا رافض اتعلم بالطريقة دي، رافض تتاخد مني حاجات عشان اتعلم حاجة، رافض الاقيكي في الآخر صورة بتشبهك محطوطة على حيطة أوضتي، رافض اتوجع. انا حادرب نفسي على إني أكرهك.

-46

رُفِعَ الأذان لصلاة الجمعة ووصلنا صوت المؤذن واضحًا جليًا وبعد قليل تنحنح الخطيب، واستعاذ من الشيطان الرجيم ثم بدأ بحمد الله والثناء على أنبياء الله جميعهم خص بالصلاة والسلام سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، أحيانا كنت الرياح تحول بيني وبين كلماته فأحيانا أسمعه يقول: ولقد أوصى رسولنا الكريم في خطبة الوداع بالنساء فقال: أوصيكم بالنساء خيرًا، أو هكذ وصلتني، ثم يعلو صوته ويزداد انفعالًا حتى يتغير من فرط الغضب حين يذكر البكيني و الشواطيء التي تجوبها النساء بلا لباس شرعي، ويحذر الرجال من مغبة ذلك ويصم كل من يقبل تبرج نسئه بالديوث، ويعنفهم يمنة ويسرة، ثم يعود ليركز على الوضوء ونواقضه ويقف طويلًا عند ما تفعله أجساد النساء بشهوات الرجال حين يسلمن عليهن، وحين تفوح طيوبهن، أو حين يرون منهن طرفًا او جزءً من سيقانهن أو أذرعتهن أو رقابهن، والنظرة الاولى لك والثانية عليك، ثم ينتقل ليصف الثعبان الأقرع، وضمة القبر، ويهدد ويتوعد، فأتخيل المصلين وهم جالسون بجوار بعضهم البعض وفي داخل كل منهم حديث يبحث عن الفرار ليس من الله المنتقم الجبار ولكن من أقرب باب خروج من المسجد. لم أسمعه يحدثهم عن فائدة تعليم الأطفال السباحة والرماية وركوب الخيل كي ينافسون على البطولات العالمية، لم أسمعه يشرح لهم أن الرسول قال : علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل، وأن كلمة أولاد تعني ضمنًا الإناث والذكور. هذا ما تقوله اللغة، فهؤلاء بالفعل هم من يحصدون الجوائز في البرازيل. لم يقف إلا عند البكيني حتى قلت في نفسي أراهن أن البعض قد فقد وضوئه. لقد قال لي أحد شباب يومًا، كنت انظر إلى عيني الشيخ وهو يخطب وأرى الشرر يخرج منهم ويزبد جني فمه من فرط الغضب، وأقول لنفسي: لا أريد ربًا يعنفني طوال الوقت مثل أبي. وكان أبوه رجلًا عسكريًا لا يأتي إلى المنزل إلا قليلًا، وحدثني أنهم كانوا يشتاقون إليه طالما كان بعيدًا يؤدي مهام الوطن، وحين يأتي يفرون إلى بيت الجدة، فهو لايغلق فمه من فرط الثرثرة، يبدو متذمرًا من كل شيء، ولأي شيء، حتى أنه كان يحصي لأمي الدقائق التي تصنع له فيه الشاي فإن غابت يعنفها، وإن لم تستيقظ مبكرًا معه يلعن الكسل، يفتح النوافذ في السادسة ويوقظهم رغمًا؛ يقول: استيقظوا، فقد استيقظت.

وحين رأى ابني استيائي من الخطيب ومن هياجه العصبي الذي أثر على جهازي العصبي وزاد من توتري قال: هذا أمر هين بالنسبة لمن يقولون بنكاح الرجل لزوجه المرأة الميتة طالما لم يمر على موتها ست ساعات، وآخرون يقولون بنكاح الجهاد، ناهيك عن كتب عذاب القبر المريعة...و... و...
ثم سكن الخطيب هنيهة ليرتاح وقال: الحمد لله حمدًا كثيرًا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، يقول الله عز وجل:إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ"، فرفع لفظ الجلالة ونصب لفظة العلماءَ، فجعل الله فاعلًا يخشى العلماءَ. وهنا وددت لو رأيته أمامي، خاصة حين بدأ في شرح الآية وكيف فسر الأمر بأن الله يخشى العلماء خشية تقدير، إجلال، وإكبار لعلمهم، كما لو أن أحدًا غير الله هو الذي منحهم العلم. يالله ماذا يقول هذا الرجل؟ من الذي دفع به إلى المنبر ليكون خطيبًا؟ اشتد غضبي، وصرت ألعنه في سري. ومإن انتهت الصلاة حتى سمعت صوت عراك وصياح من ناحية الباب الأمامي للمسجد، وحين عاد ابني الأكبر من الصلاة أخبرني أن المصلين استاءوا من ركاكة اللغة، ومن جهله بالتفسير، فقد كان من بين المصلين عسكريين قدامى، وبعض من طلاب جامعة، وقد وقفوا جميعًا يناقشونه طويلًا كي يعتذر عن جهله بشرح الآية، لكنه انفعل عليهم و تباهى بأنه يخطب هنا منذ أكثر من عشر سنوات. فقلت في نفسي: عشر سنوات؟ إذن لا بد ن المصلين يأتون إلى المسجد بدافع العادة، أو انهم لا يصغون للخطبة من الأساس، فهو يجيد تشويش جهاز الاستقبال لديهم؛ يهاجم جهازهم العصبي بصوته الجهوري، حركات يده النهديدية، وحديثه الدائم عن ذلك الإله الشرير الذي خلقنا كي يرينا قدرته على التعذيب وليس لكي نتعرف إليه عن قرب.
-47
لم ينقطع اتصالي بأم العبد طوال الوقت، كنا نتكلم من وقت لآخر. كانت أخبار القرية كما هي تصل إلي متفرقة دون اختلاف كبير، فمازالت أم غالب تتصل بأخيها كي يأتي لتربية بناتها، مازالت صرخاتهما المكتومة تخرج رغم أنف خالهما. مازال الجيران ينصتون دون أن يحرك أي منهم ساكنًا بشكل فعلي؛ اكتفوا بالشجب ومصمصمة الشفاة حسرة على مصيرهما. ولا زالت أم العبد تقول جملتها الشهيرة: "ماحدن عارف شو بيسوين هاذول البنتين، أكيد عاملينلهم شي مصيبة، ولَّا ليش بيثور خالهِن عليهُن كل هالْأَد؟"، وكالعادة لا تفلح معها نقاشاتي، لكني كنت أشعر بأنني يومًا ما سأحرر هاتين البنتين، ولو استدعى الأمر أن أختطفهما. لم أقتنع يومًا أن تواطأ الشرطة على فتاتين ضعيفتين، لأن شخًا يمارس عليهم سطوة ما. كانت المكالمات بيني وبين أم العبد موجعة أحيانًا، خاصة حين تأتي سيرة أحلام، فعدم معرفتها شيئًا عن ابنتها، والأحوال الدموية بغزة حالتا بين الجميع وبين معرفة ما يجري هناك. ورحت أفكر في أحوال الضفة؛ الأسرى والسجون، والسحل والضرب للأطفال والنساء والشيوخ والرجال، ورحت أتذكر وجه جارتي "رُبى" حين عادت من الضفة، ثم فكرت طويلًا في أحوال تولين، كنت أقول لنفسي، ماذا لو تتزوج هذه الفتاة؟، كيف ستحيا في مجتمع ينظر إلى العانس كما لو كانت من فصيلة "الخنافس"؟ ولماذا كلما كبر سن الفتاة أصبحت أقل في أعين العرسان والحموات؟، أليست امرأة صالحة للجماع، وللإنجاب، وللاهتمام بشئون البيت؟، أليست بإنسان له احتياجات مشروعة؟، من الغباء أن يحاكم المجتمع تولين من منظور متخلف لا يعرف إلا "هذا ما وجدنا عليه آباءنا". أتذكر تالا، ووجهها الملائكي، وطبيعتها الخجولة، كانت تشبه الأميرات الإنجليزيات في الأفلام القديمة، وتمارا وميسون، ومرام، وندى، ونيرمين، وتسنيم، وفدوى وخلود، وعبد الناصر، كل هؤلاء هم عائلتي الجديدة، أحمل همومهم جميعًا، وأفكر فيهم طوال الوقت منذ رحلت، ونظرت إلى الساعة، كانت تقترب من العاشرة صباحًا،إنه موعد القهوة كالعادة في بيت أم العبد فانتقلت بروحي إلى هناك، ولدهشتي رن جرس الهاتف. كانت أم العبد على الطرف الآخر، قلت:

- والله شمِّيت ريحة القهوة تقريبًا، وضحكت من قلبي.
- والله هلا اللي نزلتها عن النار، والله اشتكنالك ريم.
- وانا والله وحشتوني كلكم.
- إيه رأيك تيجي يومة الجمعة تتغدي معانا، الطقس حلو، والبنات بدهن يشوفوش والله.
- خلاص، ييجي سليم بس وأقول له، حاتلفن لك بالليل عشان أأكد عليكي.
- يلا بديش أعطلك، وبديش أحكي معك في أي شيء كبل الجمعة، بدنا نحوش لك السوالف.
- خلاص ، حاضر، تسلمي يا مامتي.
استقبلوني جميعًا فتركت نفسي للعناق، وانفتحت غرفة المعيشة لتجمعنا ثانية، وأحسست أن الأثاث صار أكثر لمعانًا حين دخلت. لم نتقابل منذ عشرة أشهر تقريبًا، كن يتحدثن إلي في نفس الوقت،وكنت ألف رأسي يمنة، ويسرة وأوزع اهتمامي على الكل. كان هذا البيت يرمم في نفسي أشياء كثيرة ويمنحني رائحة مصر. حدثت أمور كثيرة في غيابي، فاقترحت تولين أن تبدأ بأخبار أماني وأمل:
- لقد ساءت الأمور كثيرًا، وجاءت عربة الإسعاف لتنقل أمل إلى المستشفى ثلاث مرات .
- المستشفى؟، وأين هي الآن؟
- بالدار.
- بالدار؟، كيف؟ من المفترض أن يسأل الطبيب عن جسدها المشوه بفعل سجائر خالها، وبشعرها المحلوق كأنها في معتقل اسرائيلي، كيف عادت؟ توقعت أن تخبرينني أنهم ألقوا القبض على خالها.
- ألقوا القبض عليه؟ يالك من طيبة وبريئة يا ريم! من يجرؤ على ذلك؟، إنه يحرك الأمور بإصبعه، هذا ما تقوله أماني، حتى لو فعلها أحدهم وأبلغ عنه، لن تحضر الشرطة، لأنها لا تستطيع أن تحوم بسيارة النجدة أمام بوابة الدار.
- هذه الأخبار تثيرني وتغضبني للغاية، أكره أن أقف مسلوبة الإرادة، وأكره جبنكم جميعًا في هذه القرية رجالًا ونساء، كيف تسكتون على مثل هذا الأمر، إنهما ضعيفتان، ولا حول لهما ولاقوة، سيحاسبكم الله عليهما.
- إنه يعرفنا جميعًا، سيؤذي كل من يتعرض له، هذا ليس إنسانًا عاديًا، إن له نفوذًا كبيرًا، حتى على كبراء البلد، إنهم يتحاشون التعامل معه، حتى أم غالب، لا تملك إلا أن تتصل به في كل صغيرة وكبيرة، وإن لم تفعل تخبره الخادمة، فيأتي ليعاقبها هي الأخرى. لا تلقي باللوم على المرأة، فهي مغلوبة على أمرها، ولا تملك الخادمة إلا تنفيذ تعاليمه بحذافيرها وإلا انقطع عيشها، لقد قالت لي أمل ذات مرة أنها شاهدت شريط فيديو لرجل أمره رجال خالها بخلع ملابسه، وتصويره، كانو يهددونه بأنهم سيرسلون الفيديو إلى أهله، ولكنها لم تكمل الفيديو فقد دخل عليها خالها وأوسعها ضربًا، يبدو أن الفتاتين تعلمان أسرارًا خطيرة عنه، الأمر معقد ريم، فليجعل الله لهن مخرجا.
- يا إلهي، الدعاء مرحلة، وليس كل المراحل، لا بد أن يجتمع الرجال في هذه القرية ويتصدون له. لا بد أن يتخذوا موقفًا حاسمًا مهما كلف الأمر، فالأمر يدعو للأسى بالفعل.
وتدخلت أم العبد في الحوار لتقطعه عمدًا، قالت بلهجة تصطنع المرح:
- يلا كُومِن حبيباتي، ريم هون لنهايةاليوم، معكن وكت كثير للسوالف، يلا بدي اكقعد مع المرة شوي.
كنت لا أحب لفظة" مرة" هذه، فنظرت إليها معاتبة، فقالت وهي تضحك:

إيه، والله هاي أحلى كلمة تنقال للواحدة بالعالم. كلمة مرة هاي، بتحسي فيها أنوثة هيك، كل هاد وما اتعودتي عليها؟

- والله لو جوزي قال لي الكلمة دي حاطلب الطلاق فورًا، أصلًا هي مش في قاموسه يللا يا أم العبد راح أعديها عشان بحبك بس.

- يا خيتي، خلينا نكون نسوان يتقال لهن: يامرة"، بس ما نتهان بالفعل، فيه نسوان كتيرة بيتقال لهن يا مدام وياهانم وهي منزوعة الكرامة ببيتها ووسط أهلها.

- كده بتتكلمي منطق، وانا مش بيغلبني غير المنطق, انتي صح ، بس ريم أحلى أوك؟

- أوك.

وملأت ضحكاتنا أرجاء الوادي، وقررنا الصعود إلى سطوح الدار، المشهد من أعلى أكثر من رائع، أعشق هذا المكان، وكنت أشعر دومًا انني جئت هنا يومًا ما، هنالك أمر ما يربطني بهذا المكان. كان أمرًا ولدت به، وظل كامنًا في روحي، حتى جئت إلى هنا فاتحد بالمكان، فأنا ألتئم تمامًا حين أجيء إلى هنا، ومنذ اللحظة التي تصل إلى روحي رائحة القرية، وتلوح أشجار الصنوبر، على الجانبين في الطريق الرئيسية، وما إن ينحني الطريق ليصعد إلى الجبل حتى أشعر بقلبي يقفز من صدري، ويتحول إلى غزالة تمرح وتلهو وتتمرغ في العشب هنا وهناك، وكنت أتبعها أينما تذهب. كان الوادي يقبع بعيدًا في الأسفل، يلفه الغموض، ولم أرغب يومًا في فك شفرته، كنت أحبه كما هو، بخصوصيته، وعفويته التي تربض فوق عيون الماء، وأشجار اليقطين والنارنج والزيتون، وكانت رءوس شجر الرمان قد حملت أزهارها البرتقالية الزاهية فأضفت إلى اللوحة بهاءً خاصًا، وشالت عيني إلى المدى، ثم طارت إلى أحلام، رأيتها بفستانها الوردي، وحذائها الذي يشبه حذاء سندريلا، وشعرها الطويل، وهي تنط الحبل مع البنات في الحديقة الخلفية، ثم تجلس إلى الأرجوحة التي أتي بها أبو أيمن من سوق الجمعة يومًا، ورأيتها تطير بها في الهواء، ويطير فستانها حتي يبين لون الحنطة مغطى بقطعة داخلية بيضاء يزينها ورود وردية، وضحكاتها التي تغزو الوادي ثم تعود مع الريح، وتفحصت كل البنات من حولي، فوجدتهن على غير عادتهن، كن أكثر هدوءً، وأقلَّ صخبًا، حتى خلود التي وجدتها تنظر إليَّ بحب شديد،بدت كقطة الدار تتمسح في الكل بصمت، فغمزت لها بإحدي عيني وضحكت فسألتني:

- أميت راح ترجع أحلام بالله ست ريم؟، والله اشتجت لها، وبنفسي شوفها، ودي ياها تاخدني بحضنها ت انام.

- راح ترجع حبيبتي، لما ينفتح الجسر.

- وهو ليش مسكَّر؟

- لأنهم خايفين من الأشرار.

- وليش ما يطخوهم، لما يلاجُوهُم؟

- لأنهم كتير قوي.

- طيب وشو ذنبي ماشوف اختي من شان الجسر مسكَّر؟

- عندك حق، بيقولوا راح ينفتح بعد أسبوعين.

- مين هادول يللي بيقولوا، كل ما أجول لحدَن شَغْلة يقول لي هم مش راح يجْبَلُوا، أو هم يقولوا هيك وهيك، او هم رافضين، مين هم هادول دخلك ست ريم.

- مممممم..... انا كمان مش عارفة هم مين يا خلود، لما أعرف صدقيني حاقول لك.

صفعني سؤال خلود مرة، وصفعني جهلي بالرد عليها مرات. أسمعها دومًا تقول: " مين هم هادول يللي بيقولوا؟". رغم كل الحكايات التي سمعتها من البنات عن العرسان والدراسة، كيف أن أبو العبد خصص مبلغًا كبيرًا لعبد الناصر، ووضعه وديعة في البنك كي يؤمن له تكاليف دراسته، كيف كان حمل أم جهاد للمرة الثالثة عصيًا، كيف أنها أوشكت على الموت مرات كثيرة ثم أنجبت أنثى، لم يكترث لها أبوها كثيرًا، كيف ترك باسل تالا ولم يف بوعده لها بالزواج، وحديث تولين عن العريس البخيل الذي طلبها للزواج، ولم يحضر لها غير زجاجة كولاً، وكيسًا حشاه بالفواكه في أول مرة زارهم هو وأمه، أن ميسون قد بلغت المحيض، وأن أبو العبد ينام وحيدًا في غرفة منفصلة، ومن وقت لآخر ينام في غرفة ابنه، كل هذه الأحداث كانت عادية للغاية، ولم يؤرقني غير سؤال خلود" مين هم هادول يللي بيقولوا؟، وبنما أعد طعام العشاء لزوجي سألته:

- هل لديك أخبار جديدة عن حالة الجسر؟

- أي جسر؟

- الفاصل بين الأردن والضفة.

- لماذا تسألين؟

- تعرفني، أبحث عن كل شيء.

- ربما يكون مغلقًا هذه الأيام، بسبب الأحداث.

- تقول أم العبد أن أحلام ربما لا تقدر على المجيء إلى عمان، لأن الجسر مغلق، والناس عالقون به، ينتظرون إذنًا للدخول إلى بلادهم، لكم هو قاس هذا الأمر، ربما قتلت نفسي لو كان علي أن استأذن أحدهم كي أعود إلى مصر.

- عليك ان تستأذنيني ، قالها وقهقه بصوت مرتفع.

- هذا ليس استئذان موجع، هذا احترام تفرضه علي أطر الزواج، ولكن ماذا لو كان أمر رجوعنا إلى مصر مرهون بشخص أو ببوابة يقف عليها هامان؟ أليس الأمر مرعبًا؟

- بل موجعًا، ولكن" لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، هذه كأسهم وعليهم أن يتجرعوها بالشكر، وأراهم يفعلون الشكر، ويرسمونه وشومًا بدمائهم على الحوائط والطرقات.

- لماذا لا يكون الإنسان الضعيف خارج منظومة الصدام والقتال.

- يقولون سيتوقف القتال قريبًا، وسيسمحون بعبور الجسر ذهابًا وعودةً بمرونة أكبر لا تقلقي.

- من هم؟

- لم أفهم قصدك؟

- من هم الذين يقولون، ويسمحون؟

ولدهشتي لم يجبني زوجي أيضًا، ولربما قال في نفسه، ما لهذه المجنونة، ألا تعرف أن اليهود وحدهم هم من يملك زمام الأمور في كل مكان، وأن جميع الدول تتحدث باسمها بطريقة أو بأخرى، وإن تنوعت الألسنة واللهجات؟ ألا تعرف زوجتي حقًا من هم؟، نعم، من المؤكد أنه يقول ذلك في قلبه، وقطع علي تفكيري فسألني:

- هل تودين النزول إلى مصر؟

- وهل ننزل إليها أم نصعد؟، كيف هو الأمر على الخريطة؟، وهل يتوجب أن نغير اتجاه الخريطة؟ لنغير لفظة ننزل؟ أرى أننا نصعد إلى مصر.

- قال: "اهبطو مصر فإن لكم ما سألتم"، وضحك ثانية مني.

- قال اهبطوا لأنهم هبطوا حين استبدلوا المن والسلوى بالفول والفلافل والبصل، خاطبهم بما يليق بالموقف، فقهقه زوجي طويلًا، فاستطردت: لكنك تقترح علي رؤية أهلي، إذن سنطلع إلى مصر، فهذا صعود يليق بالحالة النفسيةالسيئة التي أمر بها هنا.
- حالة نفسية؟ هل تمرين بحالة نفسية وأنا موجود؟ حي أرزق ما زلت؟ لقد أشعرتني أنني هامش كتاب ألفه أحد المدَّعين، وراجعه رئيسس التحرير الذي ناقشك في الفعل" انفتح"، ثم ضحك بصوت مرتفع، محاولًا تلطيف الجو.
- لم أقصد بالطبع، أنا فقط أشعر بالعجز.
- العجز. ريم! هل أنت بخير؟ وبدت عليه علامات القلق، قلت: ليس لأننا لم ننجب، وليس لأي سبب يتعلق بنا.
- إذن مالأمر؟، فبكيت، لا أعلم شيئًا محددًا دفعني للبكاء، ولكنني انهرت بالفعل، واندفع زوجي ليضمني إليه، ويقبل رأسي ويدي ووجهي، لم يحتمل أن يراني هكذا، وأعتذر بيني وبيني لأنني آلمته، سيحسب أنني ألومه على أنه جاء بي إلى هنا لأعيش وحدي، فقد كان يعلم مدى رتباطي بأمي، وأخوي الصغيرين. أزاح خصلات شعري إلى الوراء،وقبل جبهتي وسألني:
- مالأمر؟، هل تودين الصعود إلى مصر؟
- بل أود الخروج من السجن، وتحطيم الجسور والمعابر، التي تمنع أي إنسان من أن يرتمي على تراب بلده ويقبله ويحمد الله أن له بلدة آمنة. أود العبور إلى حيث أحلام، لقد رأيت تصدع قلب دار أم العبد بفقدانها وقلقهم عليها، ومزقتني أسئلة خلود عن المعبر.
- اهدئي الآن، ولنتناول طعامنا، ثم نخرج إلى جولة بالسيارة تستنشقين هواءً آخر غير هواء قرية الجبل، فهززت رأسي بالموافقة.
واحتفظت لنفسي بوجع تمنيت لو انه انفلت عواءً حتى أرتاح، فشعوري بالفشل والعجز عن مساعدة أماني وأختها يطاردني ليل نهار، ورحت أقنع نفسي بأنني لن أغير العالم وحدي، ولن تجدي النقاشات والجدالات نفعًا، وأن خارطة العالم التي أتمناها لا محل له من الإعراب، وحاولت أن أبحث عن أمور تافهة تشغلني حتى لا تذهب قوتي هباء، وقلت لزوجي:
- أريد أن تشتري لي بيانو.
- بيانو؟
- نعم، وسأذهب لتعلم الموسيقى، فالعزف سيخرجني من العالم، وأنا بحاجة إلى الخروج بالفعل.
- حين تعودين من مصر، سأكون قد اشتريت لك بيانو من أحد المزادات. أعدك، وخرجنا، كانت السيارة تغتصب الطريق أمامنا، تغتصب؟ هل قلت تغتصب؟ ما هذا الذي أقول، ماعلاقة الاغتصاب بالأرض؟ والسيارة؟ بالطبع الاغتصاب والأرض قرينان في روحي، منذ أن أتيت إلى هنا، لم يحدثوننا في حصص التاريخ عن اغتصاب الأرض، ولكنهم حدثونا عن الاستيلاء على الأرض، ولكن هل هنالك من فرق؟، لا أرى فرقًا، لماذا خففوا لنا اللغة، هل فعلوا ذلك حتى يصدمنا الواقع بكل جبروته فنجرب عمليًا كم هي جارحة ومؤلمة؟ لقد أصبح بإمكاني أن أطلق كلمة اغتصاب على كل شيء، حتى لو عضني كلب، سأقول اغتصبني، فكل ما لاأرضى به يصبح نوعا من الاغتصاب، ولكن، ما هذا الذي أقول؟. كان زوجي يقود السيارة فقط، فهو لا يحب الكلام والقيادة في آن معًا، لم يكن محاورًا جيدًا، أقصد أنه لا يجيد الثرثرة. لكنني أحبه هكذا،

يقول لي كل شيء ويحاورني في كل شيء صمتًا، وتلتصق روحي بروحه أيما التصاق، ويحترم هو صمتي، فيتركني، لكنه من وقت لآخر يقول:
- ريم! هل أنت سعيدة؟
- بالطبع، لدي أروع زوج بالعالم.
- حبيبتي أنت.
- وأنت كل حياتي.
" مين هم يللي بيقولوا؟"، سوف تقتلني عبارة خلود هذه. رحت أبحث عن ضمير الجمع الغائب، ذاك الذي حل محل الغول في حكايات جدتي، ولكني لم أجد له اسمًا يعود عليه. حين أعود من مصر، حتما سأجده، ولربما مكنتني الموسيقى مني استكشاف عوالم أخرى، يقولون أن الذهاب إلى الأوبرا مفيد للغاية، وأنه يخرج الطاقة السلبية من الروح، ولكن من هم الذين يقولون؟، يا إلهي، هم، مرة أخرى؟، سأجن بهذه الطريقة، يقتلني أن أشعر بأنني لست حرة بما يكفي لكي أقرر إنهاء أزمة أماني وحدي، لست حرة بما يكفي لكي أرفض أن أتراجع، لأن شخصًا ما يهدد ردة فعلي الإيجابية لمجرد أنه يملك نفوذًا ما. وما الجديد، فالحياة كلها ردود فعل عنيفة، وتهديدات يمارسها كل منا على الآخر، بمجرد أن يشعر بقدرة تميزه أو نفوذ يناله، الحياة نفسها تهديد، والموت أيضًا، كان أول تهديد لي حين مات أخي بينما كنا صغيرين، وبعدها توالت التهديدات، واستفحلت، فمرضت أمي، ثم ماتت بين يدي، ماالجديد، فهل ينعم كل من يهددونا بالهدوء؟ ربما تكون الإجابة بالنفي. إن الموت أكبر تهديد لنا، ويقولون أنه "البدء"و" البعث"، في كل الديانات، فهو ما إن يظهر بثوبه الأسود من كوة المجهول، حتى تهدده الحياة بالقيام منه من جديد، والمرض أكبر تهديد لكل المخلوقات، لكنه ينهار أمام الصحة حين تنفلت من بين أنيابه، والطلاق أكبر تهديد للمرأة، ويهدده الزواج مرة أخرى، كل سقوط نواجهه، هو تهديد نخرج منه عنوة بالصعود، و كل تجربة حب فاشلة، نخرج منها لنبدأ أروع منها، ولو نسبيًا. لكنني رغم كل شيء، لم أكن حرة بما يكفي لإنقاذ أماني، فأنا هنا غريبة في عيون أهل البلد الأصليين، يعتبرونا وافدين، ولولا القبلية التي تحكمهم لاتخذت قرارًا، ونفذته بالفعل حين رأيت رأس أماني ، ولاتصلت بالشرطة على الفور، لكن، من يضمن لي إن فعلت ذلك أن الامور ستنتهي إلى خير؟ ربما تنقلب أماني نفسها لتصبح ضدي، ويدفعها الخوف من خالها إلى اتهامي بأنني قمت بقص شعرها، وتشويهها، وحتى لو كانت الجروح قديمة، فسيستخرج لها تقريرًا طبيًا يفيد بأنني تسببت لها في عاهة مستديمة، ومن غير المستبعد أن تشهد معها أمها وأختها، اللتين لم تراياني قط، ولربما شهدت جاراتي أيضا ضدي. بل ربما شهدت تولين وتالا و...و.... يا إلهي! إن الخوف من أصحاب النفوذ له آثاره المرعبة على الناس، وحينها، سأكون سببًا في تعاسة بيتي، وزوجي،وعائلتي. ليس من الحكمة أن نقف في وجه العواصف، ولكن من الجبن أن نحيا كالخنازير... ولربما مارس خالها علينا نفوذه فاستولى على تجارة زوجي، وممتلكاته هنا، ووووو... يا إلهي، ولربما تواطأ معه أحدهم في السفارة فأمرو بترحيلنا لسبب أو لآخر. لكم هو قذر هذا العالم الذي نعيش فيه، كل ما علي الآن هو أن أستمتع بصحبة زوجي، والليل والقمر الذي يحتضن القرى في بطن الجبل، وأعتقد أنه مستمتع للغاية بوجودنا على الطريق.
- ريم، ريم، ربما ناداني مرارًا قبل أن انتبه،لأنه قال:
- ريم، هل استسلمت للنوم؟، أفيقي حبيبتي، هل تودين الذهاب إلى سوق المدينة لنجلب بعض الأغراض للبيت.
- لا، لا أريد شيئًا، لدينا ما يكفي من كل شيء، ربما نفعل ذلك لاحقًا في الأسبوع القادم.

- هل أنعشك الهواء بما يكفي لأن تعودي كيوم زفافنا؟
- نعم، وأكثر، كان علي أن أكون الأروع دائمًا، لأنه كان يعرف كيف يعامل في الإنسان قبل الأنثى.
- إذن دعينا نرجع إلى الدار، فأنا بحاجة إلى الراحة، وإلى فنجان قهوة وسيكارة، وكنت أعشق طريقة امتلاكه للسيكارة، وأعشقه حين ينفث منها الهوء في الفراغ، وأعشق الأشكال التي يصنعها الدخان إلى أن يفقد ذيوله في اللاشيء، ورجعنا، بدلنا ثيابنا بعد حمام ساخن، واتخذ مكانه المعتاد في الغرفة، وعلى الكرسي الهزاز، راح يشعل سيكارته، بعد أن أسمع الغرفة موسيقى" بحيرة البجع"، عالم آخر، يعرف زوجي جيدًا، كيف ينقلني إليه بمجرد أن يمد لي يده كي أجلس على ركبتيه، ويقول:
- من هنا تبدأ الحياة.
تلك هي اللحظات الوحيدة التي أشعر فيها بالانعتاق الحقيقي وبأنني أترك عنان الأمور له، وأنا متيقنة بأنه لن يأخذ كرامتي عنوة، كانت الحرية بالنسبة لي، أن أستيقظ صباحا، لأراه بجانبي لما يزل، ملكي وحدي، ولا ينازعني فيه أحد.
بعد ساعتين تقريبًا، أدار زوجي الراديو، فقلت له:
- اغلقه، لا جديد، ولن يكون هنالك جديد، وجاءنا صوت المذيعة حادًا بينما ينقل أخبار مصر من صوت العرب:
وتم تعيين فلان لوزارة كذا، وفلان لوزارة كذا، ولما سمع زوجي اسم فلان، انتفض، وقال:
- كيف يحدث هذا؟ إنه مزور، وتاريخه معروف، ولم تذكره الصحف بخير من قبل.
- إنه اختيار الرئيس . ومن الذي يختار غير الرئيس؟
- بل إن الجهات المختصة هي التي تمرر أوراقه للرئيس، كيف يحدث هذا، لن يأتي أحدهم بخير، فسألته:
- من؟
- هم، لن يأتوا بخير، طالما هنالك من يضلل، ويسمح لغير المسموح به أن يحدث، فلن يتغير شيء، قال هذا وأطفأ الراديو، واستعد للنوم، ورحت أقلب رواية كنت قد بدأت القراءة فيها منذ تركت بيت أم العبد وأتيت إلى هنا، كنت بحاجة إلى هدوء مختلف لا تمنحه لي إلا القراءة، ورحت أقرأ بصوت خفيض كي يسمع زوجي ما أقرأ، هكذا كانت عادتنا، حتى يغلبنا النوم.
-48
إلى أن يأتي السايس بالسيارة من الكراج، كان علي أن أقف طويلًا في مدخل العمارة، بجوار غرفة البواب، وبما إن الفاصل بين مكان وقوفي وغرفة البواب ستارة لم أستطع منع أذني من التقاط حديث دار بينه وبين زوجته، كان سيد مثقف للغاية، فهو يحاول إثبات ذلك دومًا في كل مرة أتحدث إليه فيها. لقد اضطرته الظروف فترك قريته النائية في أطراف المحلة الكبرى، وجاء ليكون نفسه في الإسكندرية، هكذا قال لي في المرة الأولى التي سألته عن بلده، لكنني كنت أهرب من نقاشاته لأنه كما نقول باللهجة العامية المصرية" هليلهلي"، فهو يتكلم في الأمور المحظور الكلام فيها، وأنا لا أحب النقاشات السياسية خاصة مع هؤلاء الذين لا يمكلون شيًا ليخسروه، قالت فوزية زوجة سيد:
- وإيه اللي مش عاجبك في البدلة الكاكي بقى. ده سالم اخويا زي القمر فيها.
- انتي عاملة زي أمك بتموتي في المظاهر، الدفعة راح الدفعة جه، انتي عارفة الدفعة ده بيقبض كام؟
- مش مهم، المهم انه مالي هدومه كده، والكل بيحترمه.
- طب عارف ليه انتصر تشرشل في الحرب العالمية الثانية وبعدين سقط في أول انتخابات بعد الحرب ؟

- ليه يا فالح؟
- لأن الشعب الانجليزي كان محتاج لراجل بيلعب اقتصاد عشان يخلي البلد تقوم بعد ما الحرب دمرت اقتصادها، وتشرشل كان كاكي.
- وانت بتقارن بين هنا وانجلترا ليه؟، انت مش شايف الصورة بوضوح، بيقولوا في التليفزيون إن احنا في حالة حرب.
- طب وايه اللي اتغير يافالحة، طول عمرنا في حالة حرب، طول عمرها اسرائيل شوكة في ظهرنا، وعاوزانا نقع. وطول عمرنا بنعاني من أمريكا وانجلترا وفرنسا.
- كلامك ده هو اللي حيأخر البلد، وانت واللي زيك حيوقعوها، بلاش تحشروا نفسكم في كل حاجة.
- ده كلامك انتي، انتي اللي بتقولي مش أنا؛" طول عمرها في حالة حرب، وطول عمرهم بيحاربونا،" بس الفرق إن هم بيتقدموا ومركزين في بكرة واحنا لسه بنلطم وبنقول الغول جاي، وواقفين محلك سر.
- فيه ناس ساندة البلد، مراكزها كبيرة، شبعانة يعني،ومش محتاجة، مالهمش مصلحة غير ان البلد تقوم، ده كفاية الإرهاب.
- والله ما إرهاب غير الحيتان اللي واكلة البلد،إوعى يغرك إن فلان له مركز مهم هنا ولا هنا بلوشي، ده كل ما كبر مركزه، اعرفي انه بينفذ التعليمات بحرفية أكبر، ده من منطلق" كل ما كنت مطيع، كل ما علو مراتبك"احنا الغلابا اللي حاسين البلد بتقع ولا بتقوم، دول كلهم حرامية.
- انت حتعمل لي فيها مثقف انت مفكرني مش حعرف ارد عليك اكمن ابويا موادنيش مدراس ؟خلي بالك كلامك ده ممكن يعرضك لمتاعب مع الحكومة، واحنا جايين نسترزق، وكمان مالناش باب دار، كل اللي بيننا وبينهم ستارة، ييجوا ياخدوك من وسطينا وانت نايم، ومحدش حيعرف يعمل لك حاجة، ولا حد حينفعك
- متاعب؟ أكتر من كده؟ انت مش واخدة بالك احنا رايحين فين؟داحنا يادوب نعشي العيال، ونبعت قرشين لامي في البلد، دول بيدفعوا لنا الشهرية بالعافية، كلهم منفوخين على الفاضي زي مانتي شايفة.
- كل مرة نلاقي حد يقول نفس الكلام، الله يرحم أيام الملك فاروق، برضه قعدوا ينتقدوه لحد ما سابهالهم مخضرة ومشي، ومن ساعتها مشفناش خير.
- حتشوفي متقلقيش. خلاص الإقطاع رجع تاني، مصر بقت طبقتين، واحدة تحت خاالص، والتانية في المريخ.
- انت مش فاهم اللي بتقوله والله.
- ما أنا عارف اني اتجننت، استحمليني بقى، قدرك تتجوزي مجنون. صدقيني ، لو كل فاسد ومرتشي أخد إعدام علني الفساد حيقل، لكن طول مالفاسد والمرتشي بيدفع تمن براءته" يبقى كل مسئول حييجي حيسرق براحته من باب " اللي تعرف ديته اقتله" لو اتقفش، ديتها يدفع قرشين للدولة الغلبانة وخلاص، بنقلد الغرب في كل شيء إلا الصح، تجربة إعدام المفسد والمعووج في الصين لازم يطبقوها في مصر. " اضرب المربوط يخاف السايب" على رأي أمي.
وجدتني انصت باهتمام بالغ لكلام سيد، ولم أنتبه إلا على كلام السايس وهو بيقول:
- فريدة هانم. اتفضلي، خليتهالك زي الفل.
- هي إيه دي؟
- العربية يا افندم
- آه، يخرب بيتك يا سيد. طلعت فاهم اكتر مني، ودخلت السيارة، وفتحت الراديو، فسمعت معالي زايد تقول:

الفلسفة دى فى أى حتة فى الجتة يا اخويا، يعنى لا قدر الله لو الواحد فلسفتو وجعتو، الوجع يبقى فين؟" فقهقهت بصوت مرتفع، وصار جميع من حولي من المارة والسيارات ينظرون إلى باندهاش، في الواقع ، لم أتمالك نفسي من الضحك، حتى إنني قررت أن أركن السيارة لحظات كي أعيد السيطرة على المقود، وتعجبت من فوزية التي رأت أن عليها إنهاء الحوار مع زوجها، لأنه كما تقول "بيتكلم على كيفه ومش فاهم حاجة، والناس اللي فوق هي اللي عارفة".

-49

- لماذا لا أرى العم موريس يتمتم كثيرًا بكلمات المسيح، بينما جعلني تكرارك للكلام أحفظ القرآن والأحاديث عن ظهر قلب؟ هكذا فاجأ يوسف أبيه، حين جاء لزيارتنا.

- ربما لأنك لم تجلس معه لفترت طويلة.

- إن إبنه يجلس معه لفترات طويلة أيضًا، ولم يسمع أي منهما غير القس حين يكلمهم في أيام الآحاد.

- ربما لأنه يكتفي بكلام القس.

- وربما لأنهم يؤمنون بأن الله يسكن جسدهم، يكلمهم ويكلمونه طوال الوقت هكذا يقولون، فإن سرق أحدهم يسرق بيد الرب، وإن كذب فإنه يكذب بلسان الرب.

- ونحن أيضا كذلك، إن سرقنا أغضبنا الرب، وإن التزمنا بأوامره فرح. قال الله تعالى " من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب مني، وما تقرب لي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها وإذا سألني لأعطينه وإذا استغفرني لأغفرن له وإذا استعاذني أعذته."

- هنالك فرق بين أغضبه وانتحل صفته وسرق بيده.

- انتحل صفة الرب؟ وهل يوجد من ينتحل صفة الرب؟

- كل الذين يصدرون الفتاوى المغلوطة، الذين يُكفِّرون الناس، فيدخلون من يشاءون الجنة، ويدخلون من يشاءون النار، ويصنفون الناس: هذا كافر، وهذا مسلم، وهذا مرتد، وهذا مسيحي أو بوذي، كل أولئك الناس ينتحلون صفة الرب.

- أرك تميل إلى كفة عمك، احترس! إنهم يجيدون فن التبشير، ويومًا ما تجد نفسك وقد خرجت عن الإسلام، فهم يجيدون غسل العقول جيدًا، احترس، لن أرحمك حينها.

- غسيل مخ؟، ياأبي، ألا ترى معي أنه بينما يتكلم قومنا ويجادلون في أمور "الغلمان، والحور العين، ومقياس طول الجلباب، ينشغل الغرب – وهم مسيحيون- بتجريب تخليق البشر، والتجهيز للعيش فوق المريخ، وإعداد الأطفال لقيادة العالم في المستقبل القريب؟ إننا نجلس القرفصاء، نحمل العصا، ونشكل لجان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما لو كنا نعمل بالريموت كونترول، لم تعد تشغلنا إلا الشكليات، هذا ما قصدته ليس إلا.

- سأظل أحذرك منهم طوال حياتي.

- لا تشغل بالك أبي، أنا فقط أفكر معك بصوت مرتفع.

- وانا أرد عليك بصوت صاخب، قبل أن أفكر جديًا في أن أمنعك من التحدث إلى بيتر.

- بيتر؟ إنه صديقي الوحيد، كيف يكون هذا ياأبي؟

- إنماأحذرك.

- لن أغضبك ما حييت. تظل أبي وحبيبي، ولكن يحزنني بالفعل أننا أصبحنا نتدخل باسم الدين في كل شيء، ودائمًا ما نستخدمه للتخلص من المصائب أو لتبريرها، لقد تركنا كل آيات التفكر والتدبر والتعقل، وأصبحنا نتكلم فقط عن حرمة السلام على المراة الأجنبية، لأنها تثير الغرائز. لقد أثبت العلم براءة الشيطان من هذه التهمة، وقال العلماء بأن المخ هو المسئول عن إعطاء الإشارات لأي منطقة بالجسم، وإلا أصبحنا مجرد آلات تحركها آلات بفعل الطاقة التي تنبعث بينهما، وبناءً عليه نجد تبريرًا لزنا المحارم وكل الفواحش. هذا كلام العلم، العقل والمنطق.

كان حوار ابني مع أبيه قيم للغاية، وجعلني أتذكر ذلك الشيخ الذي جاء إلى بيتنا حين تركت ساندرا بيتها وطلبت الطلاق. لاتزال كلماته عالقة في ذهني إذ راح يتكلم بشعور "أبو العريف" الذي لا علم فوق علمه، واعتبرني وابنتي من الإماء على زمن الرقيق :

" انتي عارفة الست اللي تطلب الطلاق من جوزها تبقى إيه؟ دي تبقى ناشز، يعني طالعة عن طوع جوزها، ويقول الرسول عليه أفضل الصلوات إن الست اللي بتطلب الطلاق مش بتشم ريحة الجنة" ، وأتذكر يومها كيف نظرت إليه ساندرا؛ فقد أحنت وجهها حتى لامست ذقنها رقبتها، ورحت تنقل عينيها بين عينيه ويديه بينما يتكلم، ثم خطفت نظرة عابرة نحوي فالتقت عينانا؛ رفعت لها حاجبي الأيسر، ثم غمزتها كي لا تقوم بدور المهاجم، وكان علينا أن نتركه يرحل بسلام، فلما أجابه الصمت عنا، فهم الرجل هو أنه غير مرغوب في وجوده فلم يشرب العصير. لقد فسر الناشز من منظور غريب للغاية.

وبعد أن رحل، سألت ساندرا:

مامعنى ناشز هنا؟ يقول الله عز وجل:

"الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً [النساء : 35-34]"

قلت لساندرا:

الأساس في الأمر هو أن تكون المرأة زوجة صالحة، تحفظ زوجها في ماله، عرضه، أولاده، وسره، فإن حدث وتغيرت لأمر طاريء، تصبح قد خرجت عن القاعدة الأساسية. إذن لا بد أن يحدث طارئًا كي تتغير المرأة، إذ أنها لن تتغير من تلقاء نفسها. النشوز يعني البروز، الارتفاع، والنتوء، أي الخروج عن الطبيعة المتعارف عليها.

يحدث النشاز في صوت الآلة الموسيقية حين تكون أوتارها غير مشدودة بالقدر الكافي أو حين تحتاج إلى تكيف على وضع ما. ويحدث النشاز في صوت المغني حين تكون حنجرته غير مهياة لإخراج النغمة. الصوت نتيجة لاهتزاز الاحبال الصوتية، فإن حدث خللًا في مقدار الاهتزاز خرج الصوت ناشزًا. وتكون المرأة ناشزًا حين يصبح زوجها ناشزًا أيضًا، لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في القوة. لو لم يكن هنال نشوز من ناحية الرجل، لما صارت المرأة ناشزا. الأمر بديهي، فكما أنه لا تصبح الفتاة البكر امرأة إلا بفعل الزواج من رجل، لا يحدث الخروج عن المألوف إلا بدافع قوي. لا شيء يخرج من فراغ .النشاز رد فعل وليس فعلًا. فكيف يكون العلاج إذن؟ يقول الله: "فعظوهن" الوعظ هنا هو الكلام اللين، ومحاولة إصلاح الأمر، وليس تهديدهن، وإلا ماذا نقول في: "وجعلنا بينكم مودة ورحمة"، حين يتسبب الزوج في خروج امراته عليه، يصبح عليه هو أن يحاول تهدئة الأمر بالقول اللين، ثم يقول الله مستخدمًا واو العطف التي تدل

على فورية حدوث الأمر: "واهجروهن" أي اتركوهن، لا تشُقُّوا عليهن، والترك يكون فقط في العلاقة الزوجية، وهنا أراد الله أن يحفظ كرامة الرجل، فلا يطلب زوجته حين يرى منها نفورًا للمداعبة، بل يتركها حتى تلين الأمور، وتنساب بينهما لغة مشتركة في لحظة ما، فتلك المرأة التي جعلها زوجها ناشزًا، لن تشعر تجاهه إلا بالنفور بداهةً، بل لن تطيق أن يلمسها زوجها ولو بطرف إصبعه، فمابالك بعلاقة زوجية كاملة.
اهجروهن تعني اتركوهن، يعني بالعامية المصرية" خليك جنتل وسيبها لحد ما تهدا" لأنني لا أعتقد أن الله الذي كرم المرأة في كل موضع، واختارها لتحمل بالروح القدس، سيهينها بأن يجعل عدم اقتراب زوجها منها من أجل الجماع عقابًا، ليس هكذا تعاقب النساء في شرع الله. لن يرضى الله أن يصيبها بضرر نفسي فادح. إذ كيف يعالج داءً بداء؟ يقول الرسول:" لا ضرر ولا ضرار،" وتطلب المرأة الطلاق للضرر، ومن الضرر أن تضرب المرأة في مقتل لا يحمل معنى جميلًا كالذي يقصده الجاهلون بالله، وكيف أقبل أنا كامرأة كرمها الله أن أعاقب بهذه المسألة. أما "اضربوهن" فتعني استروهن، أي لا تذهب لأمك كي تشكو زوجتك، فتتضخم المشاكل وتصل بالأسرة إلى طرق مسدودة.
نحن لا نعطي الله ورسوله حقهما من التبجيل والتوقير إن فسرنا الأمر كما فسره الشيخ عاطف،وغيره من الحفظة، فهل انغلق باب الاجتهاد؟ لا بد ان نعترف اننا غير مهذبون حين نفسر الأمور ما لا يليق بجلال الله ومدى حكمته ومنتهى عدله، نحن غير مهذبون حين نجعل من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام معانٍ يعارض بعضها البعض.
كانت ساندرا تنصت إلي بكل كيانها، فقد لاقى كلامي صدى طيبًا في قلبها، وقالت لو ناقشتني في هذا الأمر قبل أن أمر بهذا المنعطف الخطير من حياتي الزوجية لما فهمت قولك، ولكنني أعيش ما تقولينه الآن، وبحذافيره، لذا أتفق معك تمامًا.
في الواقع، لا يعنيني أن يتفق معي العالم أو لا يتفق، فلم نقرأ عن فكر جديد بقى حرًا، ولم نسمع عن معتقل سجنه عقله وفكره خرج إلى العالم ليجدد إلا بعد موته بسنين طوال، ولكني سعيدة للغاية لأنني وجدت حلًا يرضي ابنتي عن الله الذي خلقنا وطلب منا في كل لحظة أن نفكر، ونتدبر، ونتعقل، طلب ذلك منا جميعًا، باستفهام استنكاري يعيب فيه على من لا يعمل عقله أن يكون متلقيًا جاهلًا.
مرت أيام عصيبة على ابنتي، تؤرقها كلمات الشيخ عن " اضربوهن واهجروهن، ولم يدر بخلده أو خلد من نقل عنهم أن الله يقول: واهجرهم هجرا جميلًا، هذا الهجر الجميل مع الغرباء، فماذا لو تعلق الهجر بالزوجة التي جعل لله بينها وبين زوجها بميثاق غليظ؟.
- هل أعد لك فنجان اسبريسو؟ هكذا نبهتني ساندرا.
- أكون ممنونة، انا بالفعل بحاجة إليه، احملي الاسبريسو لنا إلى الشرفة، فلنزول الشمس في البحر دمعتان، علينا أن نتخلص منهما أنا وأنت.
-50
جلست على كرسي الأرجوحة في حديقى منزلي الخلفية، وتشبثت يداي بسلسلتي حبلها جيدا، ورحت أزيح الهواء بجسمي إلى الخلف، ثم أركله بقوة اندفاع ساقيي إلى الأمام، ورحت أطير ذهابا وجيئة في الهواء، حتى شعرت أني أطير بالفعل، كان شيء ما في رأسي يتبعثر ثم يخف ثم يطير معي، استغرقت وقتًا طويلًا حتى استرجعت إسمي، لكنني قررت ألا أسمح لقوة الدفع العنيفة، التي تأخذ جسمي ذهابًا وجيئة، بأن تتشقلب بي، وقد كان، فقد كان يكفيني الطيران، ويرضي غروري، وراحت الأحداث تمر أمامي كما لو كنت أحلم، لم أستدع أحدا، كانت أماني وأمل تبكيان وتناديان اسمي صوت مرتفع، ثم مدت كل منهما يدها نحوي، وسمعت

صراخهما في الهواء، ولم أقو على فعل الشيء، فوقعتا ولم يبن منهما شيء إلا كفوفهما الصغيرة التي تركت وشمًا على روحي، ثم جاءت أحلام، ترتدي ثوبها الوردي، وحذاءها الطفل الوردي، وجلست بجواري ورحنا نطير معًا، كانت تعانقني برأسها فتميل به نحوي من وقت لآخر، فسألتها والهواء يطوح بنا:

- هل أنت بخير؟

- لا،ولكن لا تخبري أمي.

- مابك؟

- أنا سجينة بالدار، أخدم أهل زوجي، ولم يسمح لي بالإنجاب، وحين حملت من أربعة أشهر، أخذني للطبيب، الذي بدوره تخلص من الجنين.

- تخلص من الجنين؟

- لا يريد مني أولادًا، من حقه أن يفعل هذا ست ريم، أنا وحدي هناك، ولا أستطيع أن أدافع عن نفسي، حتى حلمي بأن يكون لي ولد، أستند عليه ويعينني في الكبر، أصبح جحيما أحترق فيه وحدي، قالت أحلام هذا، ثم اختل توازنها على الكرسي وتركت الحبال بينما كانت الأرجوحة تطير على أقصى ارتفاع لها إلى الخلف.

مرت أم العبد تحمل مع النسوة تابوتًا فارغًا، رفعنه معًا، وأسكننه الأرض في بستان الزيتون، كن بانتظار شخص ما،ورأيت ثلاث نساء يحملن بأيديهن أباريق لم أميز مابها، وأمعنت النظر طويلًا، فرأيت رجالًا لهم أجسام ضخمة تحمل رجلًا ثم تلقيه عند أقدام النسوة، فوضعت النسوة أيديهن على أفواههن، وكتمن عواءً، وفجأة طار هذا الجسم في الهواء، وتعلقت أنظارنا جميعًا بالسماء، ووجدتني أطير إلى الخلف ثم إلى الأمام وانا مشدوهة العقل،أحملق في الغيوم. ثم مرت خلود سريعًا وتركت لي صوتها يرن في مسامعي: " مين هادول يللي بيقولوا؟، ثم رأيت الرجل الذي يشبه هامان كما صوره لنا فيلم "موسى النبي"، كان لا يزال يلوح بيده لي ويأمرني بالخروج، وسمعت صوتي يقول صراخا:" إلى أين؟، إلى أين؟، لماذا تطاردني؟ ولماذا جعلتني أخرج من داري في قرية الجبل؟ كنت أحب بيتي، ولدهشتي قال: أنت تتهمين نفسك بالجنون، لقد أفقدك عجزك عن حماية أحلام ومن بعدها أماني التمييز، أنا هو ذلك الرجل القابع في داخلك، وقد طردك هذا الرجل حين خذلتِ الفتيات، ولم تتدخلي لإنقاذهن، وحين هممت بالرد، نقطعت رأسه، وبدا أمامي جثة بلا رأس. كنت غارقة في الدوار، كان الهواء المنعش قد قدم لرأسي وجبة دسمة، تكفي لأن تحرك كل رياح الفقد بداخلي، ورأيتني في إحدى المستشفيات، أستعد للقاء أبي، وأركض بين الممرات، وكلما وجدت رجلًا يجلس عل كرسي متحرك، أركض نحوه، وأتفحص وجهه، فلا أجده أبي، ورحت أبكي وأصرخ، فقد أعدوا له سريره، ولكني لا أجده، وسمعتني أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، ووجدت أم خالد جارتي ومعها بعض الجارات بجوار الأرجوحة، يحاولن التخفيف من سرعتها، وإنزالي، ورويدًا رويدًا، استطعت بالكاد أن أشعر بقدميي ترتطمان بالأرض، ولم أستفق إلا في اليوم التالي، ووجدتني في المستشفى، فرحت اتلمس ملامح الأشياء حولي، ولمحت الحامل الذي يعلقون عليه المحاليل الطبية، فتابعت الأنبوب الخارج منه، حتى وصلت إلى ظهر كف يدي اليمنى، فبكيت، ليس عجزًا بكيت، ولكني كنت بالفعل فاقدة للقدرة على تحريك جسدي، حاولت ثانية و لم أفلح. كان رأسي يزن خمسة أرطال من الحديد، لكني أخيرًا لمحت بطرف عيني جرسًا يمكنه توصيلي بأحدهم في الخارج، فمددت يدي اليسرى وبصعوبة بالغة ضغط عليه، وبعد قليل انفتح الباب، ودخلت ممرضة تقول:

- أنت بخير، وهذا أمر جيد للغاية، زوجك بالخارج، سيدخل بعد قليل، يمكنك الخروج.

- الخروج؟ الخروج.، هل يمكنني الخروج بالفعل؟

- نعم، أنت لا تعانين شيئا عضويًا،لقد كنت بحاجة إلى مغذٍ فقط.
- أشكرك.
كانت تتحدث عن جسدي وكنت أتحدث عن روحي، فلم تفهم ما قصدته بكلمة الخروج. دخل زوجي كعادته، ودودًا، حانيًا، وأشفق على كفي المقيد إلى الكانيولا، وأنبوب المغذي، وقبلها، ثم قبل رأسي، وقال:
- لولا أنك صرخت لما شعر بك أحد، لاتذهبي إلى الأرجوحة بمفردك بعد الآن.
- صرخت؟، بمفردي؟، لم أكن بمفردي، قلت هذا ولم أؤكد على كلامي، حتى لا يظن زوجي أن مسًا أصابني، فاستطردت: لقد كانت أم خالد و.....
لم يدعني أكمل حديثي، فقد دخلت الممرضة فسألها متي وقت الخروج، فأجابته: حين تنتهي عبوة المغذي، فالتفت إلى وقال: لا تقلقي، سأمكث معك ثلاثة أيام بالبيت، فأنا بحاجة لأن أكون بجانبك، قلت له: أنت بحاجة لأن تكون بجانبي، أم أنا التي تحتاجك؟، قال : لا فرق، لافرق.
وفي الدار، التمت الجارات للاطمئنان علي، ورحن يحذرنني من الأرجوحة، ومن الحوادث التي تعرض لها جيران قبلي لأنها تذهب العقل، وتترك الناس في حالات جنون، وقلت إحداهن: إن الدوار الذي ينتاب الدماغ يدفع بالدم إلى الرأس بشكل كبير وغير متوقع، وعلى الرغم من أنه مفيد، إلا أنه أحيانًا يصيب بعضًا من أجزاء الدماغ بالخلل، فيختل الإنسان، ولربما فقد عقله.عليً أن اعترف أن الفلسطينيات مثقفات بالسليقة، وبفعل الأحداث التي مرت على بلادهن. وبعد قليل بارك الجميع خروجي من المستشفي بالسلامة، فقلت في نفسي: هل أنا بخير حقا؟، وهل يعني الخروج من المستشفى خروجًا حقيقيًا من عالم المستشفى المليء بالصراخ الليلي، وصوت عربات الموتى تتنقل من مكان إلى آخر في الممرات، وصوت عم علي، الذي لا أعرفه، وهو ينادي على اسم المغسل كي يوجهه بالميكروفون إلى الغرفة السوداء؟، ولم ينقذني من كل هذا إلا استسلامي للنوم العميق.
مرت الأيام عادية كما دومًا في بيتي، غير أنني لم أتحرك كثيرًا في جو البيت، وكنت فقط أجلس مع زوجي في الشرفة الخلفية نتكلم في كل شيء، إلا أحلام وأماني، كان كل شيء حولي مريح للغاية بينما بداخلي يغلي ثلاثة قدور؛ أحلام، أمل وأماني، وبينما كان التليفزيون ينقل لنا أخبار الخراب في الشرق، ويعرض من آن لآخر محاولات انتشال الجثث التي غرقت بهم مراكب الهجرة غير الشرعية، وأنباء متفرقة عن رفض هنا و شجب هناك لاستقبال وفود اللاجئين الآتين من كل بلاد الشرق، رحت أخطط لإنقاذ أماني وأختها، واخترت الكذب والإشاعة حلًا، فلربما ثار الرأي العام، وانتفض، ولربما تمكنت من إخراجهما من ظلم أمهما وخالهما، وما أن اكتملت الخطة في رأسي حتى قلت:
- سليم؟، هنالك سر يؤرقني ولا أطيقه في صدري دون أن أخبرك به أنت على الأقل.
- سر؟ ما هو؟ وعن من؟
- سر يتعلق بأماني؟
- أماني مرة أخرى يا ريم؟، قل لك هذا ليس من شأننا، لهم عاداتهم ولن يرضو بحلول نقترحها عليهم، نحن هنا مهما كانت مكانتنا ومركزنا الاجتماعي بالنسبة إلى الكل وافدان، غريبان، ضيوف، هل رأيت ضيوفًا يملكون قرارًا لبيت زاروه؟
- ولكن، أماني قالت أن خالها يعتدي عليهما جنسيًا، ولا تستطيع أمهما فعل شيء إزاء ذلك، فهي تخاف منه، كما أن الخادمة والبستانجي يفتنان له إن هي لم تخبره عن أحوالهن جميعا. وتقول أيضًا أنهما تسمعان صراخ أناس آخرين، وتعتقد أن خالها متورط في أمر خطير.

- يعتدي جنسيًا، على بنات أخته؟ صراخ؟ آخرين؟
- نعم، لم أخبر أحدًا غيرك بذلك، ولكني أتوقع منك أن تجد حلًا معي، لو رأيت عينيهيا وهما يستغيثان بي، لو رأيت شعرها المحلوق كأنها عنزة جزوا لها شعرها دون رحمة.
- مممم، سأصلي الجمعة بالقرية، وسأخبر الإمام، لير حلًا، ولكن ماذا لو لم يكن كلامك دقيقًا؟، أو ماذا لو ان الفتاة كاذبة، سندخل في مشاكل لا طاقة لنا بها، ولن يرحمنا الكل، وسينقلب ضدك كل من كنت تظنينهم معك، ولن تقف أم العبد نفسها بجانبك، تعرفين العرب، يقفون معك طالما أنت قوية، وحين تسقطين، تكثر السكاكين.
- دعنا نقدم على خطوة إيجابية ما ف يهذا الموضوع، لو تدخل الإمام، سيجد حلًا بالتأكيد، فإن كانت الفتاة كاذبة بشأن الاغتصاب، فهي بالتأكيد غير كاذبة بشأن التعذيب، فلقد رأيت شعرها، والعلامات الزرقاء في جسدها، لم لا؟، لن نخسر شيئًا، فقط دعني أتحدث إلى أم العبد كي أعرف آخر الأنباء حولهما، وجاء صوتها طيبا كالعادة:
- حبيبتي ريم، كيف حالك؟، اشتقنا لك كثير.
- أنا بخير، وأنا أيضا اشتقت لكم كثيرًا، فأخبرتني أن ابنتها ميسون ترقد في المستشفى، لأنها بحاجة إلى مغذٍ، وأن أبو العبد يجتاحه الشوق إلى أحلام، وأنه يئن كالجريح الذي غرزو في لحمه السكين، كي يستخرجوا رصاصة استقرت في عظمة فخذه.
- وماذا عن الكل؟ كيف تتعاملون مع الأمر؟
- لا شيء، الصمت التام، أوالبكا دون صت.
- لو أنقذنا أماني لأنقذنا أحلام و...و...و.
- أماني؟
- نعم، لقد تركناهما للقبو ولخال لا يرحم وأم بلهاء.
- ولكن ريم، قلت لك لا طاقة لنا بما سيفعله خالها بنا لو تدخلنا، اتركي هذا الأمر ريم.
- لو تدخلنا لحمايتهم لحمى الله أولادنا.
- وما دخلك أنت بالأمر، هل تخشين على أولادك؟، أنت لا تنجبين، لكنها لم تقصد إيلامي، ورغم ذلك انغرز سيف في صدري، فأصابني تحت ثدي الأيسر تمام، وآلمني ضلعي، فأجبتها:
- لي أخوان، وأخوات، ولي أحلام وتولين، وتالا، وتغريد، وخلود والكل يا أم العبد، لو لم ننقذ أماني وأمل، لن تمتد يد الله لتنقذنا يومًا، ورحت أسألها بخبث متعمد عن أحوال البنتين كي أتأكد أنني لم أنقل لزوجي بلاغًا كاذبًا، فلربما أشفق الخال وأصلح من شأنه، فقلت: هل هما بخير الآن، فأجابت بعفويتها العهودة:
- لقد بتر الأطباء قدم أمل اليمنى و....
- بتروها؟، بتروها؟، لماذا؟
- كان لها قدم سكري، ولما فشلوا في العلاج امتدت الغرغرينة وأكلت كل الأصابع ثم امتدت إلى بقية القدم ثم الساق، فاضطروا لبترها من المنطقة التي فوق الركبة، بقليل، مسكينة للغاية هذه الفتاة.
- نحن جميعًا السبب فيما حدث لها.
- نحن؟، من تقصدين بنحن؟
- جميعنا، لقد أخبرتك أن الخال يمارس كل أنواع التعذيب على البنتين، وأن أمهما ربما تكون مختلة نفسيًا، أو عقليًا. وكان لابد من وقفة تنهي هذه المهزلة، نحن مشاركون في كل ما يحدث وسوف يحدث لهاتين الفتاتين يا أم العبد.

- اهدئي عزيزتي، أنت لا تعرفين الصورة كاملة، فخالهما يملك أن يشردنا جميعًا، قلت لك إن له نفوذه ممتد، وأن كلمته مسموعة لدى كبراء البلد،ربم يكون نائبا في البرلمان حتى، لا أعرف. تخشى الشرطة من مجرد ذكر اسمه بسوء، أرجوك ريم، لا تفتحي علينا أبواب جهنم.
- أبواب جهنم مفتوحة بالفعل لنا بسب سكوتنا على الأمر. ثم من هذا الذي وضع في قلبك أن الشرطة ستقف مسلوبة الإرادة من أجل إرضاء أحهم مهما علا شأنه؟ يقول زوجي أنهم هنا حازمون، لا يرتشون، ولا يدلسون، وإلا تعرضوا لعقوبات جسيمة. ثم هذا مجتمع مهذب بالفعل لأنه مجتمع عائلات يعرف بعضها البعض. من الذي روج لهذا الأمر؟
- لديك ما تخسرينه ريم، زوجك، واستقرارك، ولدينا أولادنا، لن يجدي نفعًا أن نثير المشاكل مع جار يملك إشعال النار في القرية لو زلت ألسنتنا وذكرته بسوء.
- وكيف حال الفتاة الآن؟
- يقولون أن الأطباء منعوا زيارتها لأسباب طبية.
- وماذا عن الحروق التي بجسدها؟ ألم يرها أي من الأطباء؟
- حتى لورأوها، لن يتكلموا إلا بما يمليه عليهم الكبار.
- لا تنزعجي مني عزيزتي، أنا فقط مشفقة للغاية على الفتاتين على أية حال هذا شأن أهل قريتكم، ولن يعاقبني الله على عجزي عن إنقاذهما، هذا شأنكم أنتم بالفعل.
- فليرحمهما الله، وليجعل لهما مخرجا!
- آمين.

انتهت مكالمتي مع أم العبد على أية حال، لكنها لم تنته بيني وبين نفسي، ولكنني على كل حال قررت أن افعل شيئا، وكان زوجي قد غفا قليلا على الصوفا وهو يشاهد التلفاز، فلما انتبه، قال:

- ريم، اصنعي لنا كوبين من الشاي وأكثري من النعناع.

وضعت النعناع وانا أدعو الله أن تفلح خطتي، كنت على يقين بأن لكل شيء نهاية، وأن كل شيء يمضي بنا إلى حكمة يقصد بها الله لنا نفعًا ما بطريقة أو بأخرى، وأخذت أرجو الله بقلبي أن يجعلني سببًا لنجاة هاتين البنتين، فلما جلست امام زوجي نتبادل أطراف الحوار قلت له:

- لو أخبرت الإمام، لفعل شيئًا.
- ربما، ولكن ربما خشي الإمام من الخوض في الأعراض، هذ مجتمع لا يتحمل الخوض في هذه الأمور.
- قل له أن الفتاة هي التي أخبرت زوجتي بذلك، صحيح لا يمكنني أن أقسم أنه يعتدي عليهما جنسيًا، خالهما، ولكني أقسم أنني رأيت آثار التعذيب على جسد أماني، ولو استطاعت أمل السير إلى بيتنا لجاءتني كما فعلت أختها، إذ لا بد أنها أخبرتها بأمر زيارتها السريعة لي، ثم هنالك أمر آخر.
- ماهو؟

فأخبرته بأمر قطع رجل أمل، وأن أحدًا من الأطباء الذين عالجوها، لم يجرؤ على التفوه بكلمة خوفًا من مركز الخال، فرأيت العزم في وجه زوجي فحمدت الله، وكان قلبي يحدثني أن أمرًا ما سيقلب الأمور رأسًا على عقب، ولِمْ لا، وأنا لا أقصد سوى رفع الظلم عن فتاتين فقدتا كل حول وقوة.

- حسن، سأفعل، سأحاول قدر الإمكان أن أجعل أحدهم يفعل شيئًا، تعرفين الضغوط التي علينا نحن المصريين، موقفنا حساس، وربما لاتُرضي حلولنا الأطراف المعنية، ولربما تحول الأمر ليصبح ثأرا

شخصيّا، وربما تطور الأمر فأفقد عملي هنا، وأنت تعلمين أن كل نقودي بالسوق، وستكون خسارتنا فادحة لو حدث في الأمور أمور.
- "ليقضي الله أمرا كان مفعولا".
ذهب زوجي كالعادة إلى عمله عند العاشرة، وأعددت شطيرة الزيت والزعتر، وبعض حبات من الزيتون الأخضر اللذيذ، ووجدت حبتين من الكبيبة السورية، فتناولت فطوري في الشرفة الشرقية، ورحت أتابع الأخبار، لم أر جديدًا، فالقتل ، والذبح، والاضطهاد، والشيعة والدروز، والإخوان، والسنة، والتناحر، والأقباط، وصلبوه تارة، ولم يصلبوه تارة أخرى، واللاهوت والناسوت، والشيوخ تصرخ في الناس تهددهم وتتوعدهم بالنار والأقرع، لا جديد عل القنوات جميعها، سوى الفكر التآمري، والخيانة، وفجأة لمحت تتر فيلم" صراع في الوادي، فتذكرت يوم الأحد في بيت حماتي، حين كنا نقضيه بطوله في مشاهدة الأفلام القديمة ويأخذنا الأبيض والأسود إلى حالة من الحياد، ليخلق لنا التضاد دون أن ندري إلى نوع من السلام النفسي، يمكننا من تمضية طوال الأسبوع في حال جيدة نوعا ما.
بعد صلاة العصر، تلقيت اتصالًا من تولين، كانت تبكي بهيستيرية وتقول:
- ريم، هل تسمحين بزيارتنا غدًا؟
- ماذا بك يا تولين؟ هل حدث مكروه لأي منكم؟ كيف حال أبيك؟ هل جميعكم بخير؟
- لا تقلقي الجميع بخير، أنا فقط أريد أن أتحدث إليك. تعلمين أنني لا أرتاح إلا حين أتحدث إليك.
- اهدئي إذن، سأزوركم يوم الجمعة مع زوجي، فقد أخبرني أنه سيصلي الجمعة القادمة بمسجد القرية، فقد افتقد الجميع هناك، وأنت تعلمين أن المؤذن مصري، ومن قريتنا أيضًا، وسيتناول زوجي حتما الغذاء مع الشيخ سيد.
- يا إلهي، اليوم هو الاثنين، مممم، بعد ثلاثة أيام إذن نلتقي، أريدك في أمر ضروري، وأمي كالعادة تحاصرني بأسئلتها، ومخاوفها، ووو... الهاتف لا يكفي لقص الحكايا الحيوية، أحتاجك هنا، سأنتظرك.
- لا تبكي، أجلي البكاء لشيء أكبر، أنت صبية صغيرة، والزواج آت لا محالة، أجلي البكاء لأمر يستحق، ثم عليك أن تنتبهي، أحيانًا نبكي من أجل شيء، وتتعب أرواحنا في اللهاث ورائه، ونحن لا ندري أننا نركض وراء أقدارنا، وأدوات تعذيبنا، التأخير دومًا يأتي بنتائج أفضل.
- معك حق، أراك على خير.
- وأنت بخير.
كنت أتفهم بكاء تولين الهيستيري بالطبع، لكنني قلت في نفسي:" ماذا لو نشأت تولين في أسرة لا تتحدث عن ألوهية الرجال، وناسوتية النساء؟ ماذا لو أنها نشأت بين عائلة ترى في الاستقلال المادي كل الحياة، بغض النظر عن وجود الرجل في حياة المرأة أم لا؟ ماذا لو تحدثنا إلى بناتنا عن العلم، والعمل، وتحقيق الذات إلى أبعد مدى، ومن ثم، وفي الوقت المناسب، ستلتحم روحا بالتأكيد برجل يتزوجها أخيرًا، وهي بكامل وعيها، وبصحة نفسية جيدة، ودون تشوهات مجتمعية جعلت مصدر الرزق والحب والحنان ولاحتواء والأمان في يد الرجل. بغض النظر عن صلاحيته لأن يكون أبًا بالدرجة الأولى أم لا؟ لماذا تضع العائلات على كواهل بناتهن كل هذه الموروث العفن. لماذا لا يتركون الأمور لتجري في أعنتها؟ يأتي من يأتي ويرحل من يرحل عن اقتناع وعن رغبة حقيقية وليس لأنه مدفوعًا بالناس، او مدفوعًا بالخوف من القادم المجهول إن لم يأت الفارس؟

حملتنا السيارة إلى الطريق العام، ثم انحرفت يمينًا، وصارت تصعد الطريق إلى حيث تقبع القرية بين فوضى الجبال، واقتربنا من الطريق التي يلوح منها بيت أم العبد من بعيد ليرسم شكل هرم يميل بقاعدته إلى الوادي، ويتكيء بقمته على كتف الجبل، ثم استدارت السيارة لتصعد الطريق الحلزوني الذي يدور حول الدار حوالي خمس مرات، قبل أن تقف أمام البوابة الخارجية لدار أم العبد، ومن بعيد لاحت نوافذ بيتي الحبيب، يا إلهي، لكم أعشق هذه القرية بكل ما فيها، وما عليها، ولا أدري لماذا، ليت الأماكن تخبرنا عن سر امتزاجنا بها، ولكن، هل هو المكان الذي يوجعنا؟ أم أرواحا التقينا بها هنا يومًا حين كنا عدما، وطفنا هنا سويًّا، فانحفرت الأماكن في أرواحنا؟، وسط صمت زوجي، وتركيزه في القيادة، واستمتاعه بالطريق مثلي، وجدتني أتذكر مكرم، زميلي بالجامعة، حين كان يشتري لي الورد، ويهديه إلي، ثم ينتهز فرصة الراحة بين المحاضرات، ويغني لي " أهواك"، وحين كنت أعاتبه بعيني لأنه يتجاوز في التعبير عن مشاعره لي دون أن يحظى مني بقبول ما، كان يقول: عارفة يا ريم، فيه بنت مرسومة في روحي، جوة قوي، قعدت ادور على حد يشبهها طول عمري، لحد ما شفتك، النموذج المنقوش في روحي ده هو انت، ومتسألينيش ليه، لإن معنديش إجابة"، وقتها كنت صغيرة للغاية، ولم أدرك كلماته جيدًا حتى قابلت زوجي ؛ حين رأيته، قلت في نفسي، هنالك رجل موشوم في روحي، ولا يطابق هذا النموذج بداخلي سوى سليم. ومن يومها وأنا أتنفس حبه.

وصلنا إلى بيت أم العبد قبل أذان الظهر بساعة تقريبًا، وقبل أن أغادر السيارة قال سليم بلهجة آمرة:

- أرجو ألا تثيري أمر أماني معهن اليوم. عديني ريم، اعتمدي علي، سأفعل شيئًا، ثقي بي.

- أعدك. طبعت قبلتين على خده الأيمن، وطرت لأدق الجرس، ففتحت لي خلود، فلما رأتني، قفزت إلى حضني، كانت ثقيلة بعض الشيء، فقد كبرت قليلًا وازدادت طولًا، وعانقتني وهي تقول: كلهن بالدار عم يستنوكي تيجي. تعالي مس ريم،" وسبقتني، لم أكن بحاجة لأن انتظر لدى الباب حتى يظهر أهل الدار، كنت اعرف طريقي إلى كل مكان بالبيت، وما أن فتحت خلود باب المطبخ حتى رأيت الحياة؛ العائلة، الدفء، المشاكل، الصراخ، والجميع يتكلمون في آن معًا، وأم أيمن تصرخ كالعادة على شيء ولكل شيء، وتولين كعادتها تضع الإيشارب في كل وقت، حتى حين تنام، كانت تستحي من الله، هكذا كانت تقول لي دومًا، كانت تخبيء منه عينيها بطرحة الصلاة، وتقول لي، لا أحب أن يراني أبكي بينما أقرأ كلامه، وقفت على باب المطبخ ووضعت حقيبتي على مائدة الطعام، وعانقت عشرة وجوه، ولوحت لعشرين يد امتدت لتحييني، وشعرت كأنما حظيت بعملية تغيير دم في ماي كلينيك، ونظرت لي أم العبد معاتبة وقالت: لولا اتصلت فيشي تولين ما شِفناش، ما شاالله عليشي وحواليشي" فضحكنا جميعًا، وقالت تالا: استعدي للوصلة الغنائية من أم العبد، لقد أخذنا كفايتنا طوال الوقت، ويقهقه الجميع، فقد كانت المرأة تعاملني كما لو كنت ابنتها البكر التي استولى عليها زوجها ومنعها من زيارة بيت أهلها كثيرًا، كانت تقول لي دومًا: يللي ماخد عقلك نياله، فأرد عليها بطيبة: أنت حبيبتي، قلبي هنا معكم جميعًا، أنتم أهلي يا أمي، أنتم دعوة أمي المستجابة، فتدمع عيناها وتقول: الله يخليها إلش حبيبتي، والله ما في زي الإم، ريتها إمي هون، بس الله يرحم الشِلّ، راحوا شُلْهم تحت تراب الدور، والله ما في شيء حلو من وكتها"، فأضم رأسها فتقول مازحة كي تقطع كآبة الحوار: ما بدي ضمة ناعمة، بدي ياها خشنة، وعمك بو العبد صار ينام بجنب ابنه من يوم ما انفطم، فأستحي أنا وتغوص هي في الضحك، كانت تعلم أنني أستحي للغاية، وفي الوقت نفسه أكن تقديرًا كبيرً للعم نزار، ولا أحب أن أتناول الحوار حول خصوصياته معها كرجل، فقد كانا لي قدسًا أخرى.

جلست إلى المائدة، كان الشتاء قد غادر القرية إلا قليلًا، وكان الشاي بالميرمية صديق العائلة، وتوأم جلساتنا في كل مكان، وبعد أن قلنا كل الكلام، وقصت لي الصبايا كل الأخبار، قال تولين:

- تعالي نتخذ مكانًا قصيّا، فلدي الكثير مما أود مناقشته معك، وآخذ رأيك فيه.
- ولم لا، أنا هنا من أجلك اليوم، وقلت في نفسي:"بل من أجل أماني وأمل.
سرنا عبر الممر المؤدي إلى القاعة الوسطى، ثم يمينًا إلى غرفة الصالون، كانت وسيعة للغاية، فاتخذنا مكان بجوار النافذة، لي غرام مع النوافذ، أحبها حتى لو كانت تطل على اللامكان، وأخيرًا جلسنا قبالة بعضنا البعض، بينما راحت النافذة تستقبل زخات خفيفة من المطر، وتريقها ببطء على عتبة النافذة السفلية، ثم إلى العشب القابع في أرضية الحديقة الخلفية للدار، وقالت:
- زارتنا جارتنا أم خليل بالأمس، وتكلمت مع أمي طويلًا، وبعد قليل نادتني أمي، وقالت أن ابن اخت أم خليل مهندس يعمل في أميركا، ويستعد لمناقشة رسالة الدكتوراة حاليًا، وسينزل إلى عمَّان لفترة قصيرة، ويريد أن يتزوج، ويحمل عروسه ويسافر، وهي تريد صورة لي كي تريها للعريس، وقد أحضرت لي صورته.
- وما المشكلة هنا، هذه طريقة لا بأس بها، على الأقل هي تعرفه، وتعرف عائلته، هذا أفضل من أن يأتيك رجل غريب، لا نضمن أخلاقه ودينه، ومادام الرجل يريد الزواج من هنا، إذن فهو رجل محترم بالضرورة.
- ليس المشكلة في أنه قريب أم خليل، أوغيره،ولكن المزعج في الأمر، أنه يريد الزواج في خلال أسبوعين، هما مدة إجازته، أنا أشعر كأنني حقيبة سفر، سيعدونها له، ويرتبونها، كي يأتي لكي يحملها ويطير.
- معك حق، هذا وقت لا يكفي كفترة تعارف، ثم، هنالك أمر آخر، ماذا لو كان متزوج بأمريكية، يفعلون هذا من أجل الجنسية عزيزتي,و.....
- نعم، سألتها، فقالت لم يسبق له الزواج، ومدحت فيه حتى تخيلت ألوان جناحيه.
- ولم تبكين إذن، هذا أمر عادي للغاية، لقد اعتقدت أنك تحملين خبرًا مزعجًا عن أحلام وتخفينه عن أمك.
- احمل ما هو اكثر إيلامًا ريم.
- وما هو؟
- أمي.
- أمك؟
- نعم، لا أطيق فراقها، فبكيت أنا فاعتذرت الفتاة، لكنني شعرت بالذنب لأنني تركت أمي وسافرت مع زوجي، فقالت:
- الأمر مختلف يا ريم، أنا هي من يأخذ حق أمي حين يغضب أبي، ويبدأ في تعنيفها على كل صغيرة وكبيرة، لقد صار عصبيًا للغاية منذ أن غادرت أحلام.
- أتقصدين انه يسأل عنها؟ كنت أحسبه لا يبالي.
- بل، يبكي ألمًا، أسمعه يبكي في الليل وحده، حين أستيقظ من الليل وأعبر الممر بجوار غرفته، لكي أدخل إلى المطبخ، وأسمعه يزغرد لها ويقول:
ياحلاام يا صبية
يا وردة جورية
يا بنت الكرام
وجعتيلي روحي
ورحتي للنوحي
ولا فيني أوصلك
ولابتيجي شي صبحية

لولولولولييييي، ثم يبكي ويئن، ولكنني لا أجرؤ على طرق باب الغرفة كي أهديء من وجعه، فأبي كما تعلمين لا يحب أن يراه أحد في موقف ضعف.
أوجعتني يا تولين.
- لقد أخبرته عمتي أن أمي كانت تنتظر اليوم الذي تتخلص فيه من أحلام، بالزواج أو بالموت، ومن يومها وهو يلومها، ويوجعها بالكلمات، ويتهمها بأنها باعتها، وتركتها للمجهول.
- لم لا يذهب أحدهم لزيارتها؟ من المؤكد أنه سيعرف شيئًا ما عنها.
- الجسر مغلق، واليهود يتحكمون في كل شاردة وواردة في جهتهم، ليس سهلًا أن يذهب أبي أو أمي إلى الضفة، الرجوع من الضفة أصعب من دخولها، كان عمي فادي قادمًا مع زوجته لزيارة جدتي التي كانت تحتضر حينها، وظلا في الإ ستراحة لمدة أربعة أيام، وكان يحملان حينها تأشيرة عودة إلى الإمارات، ولا يحتاجان إلى مذكرة عدم الممانعة، ولما ناقش عمي الضابط في الأمر،أخذوا بطاقة هويته ووضعوه وزوجه خارج الإستراحة بحجة اساءة التصرف مع الضابط، منعوه من السفر يومها، تعطلت عودته إلى عمله، خسر كثيرًا حتى استطاع تدبير أموره مرة أخرى، ولم يحضر جنازة جدتي. وحين قررت خالتي التي تسكن "رام الله" الحضور إلى الأردن لتزور أمي حين ولادة أخي عَبِد، وصلت إلى إستراحة "أريحا" ومكثت بها عشرة أيام حتى حان دورها لتغادر إلى هنا. ونامت زوجة ابن خالي التي تعيش في طولكرم هي وأهلها بالاستراحة لمدة سبعة أيام، قبل ان يسمحوا لهم بالمغادرة، وحين زارت أمي أهلها في القدس، وأرادت العودة، نامت في الاستراحة ثمانية أيام، وخمسة أيام في بيت أقارب لنا في أريحا. ليس الأمر بالسهل يا ريم، إن اليهود يتحكمون بأنفاسنا، ولكني أعتب على زوج أحلام، كيف لا يجد وسيلة يطمئننا بها عليهما، لقد مر عامان على رحيلهما. قلبي يحدثني بأنهما ليسا بخير.
- لا أدري بم أجيبك، ولكنني أكره أن اكون سلبية، لو كنت مكان أبيك لذهبت إلى الضفة وليكن ما يكون، لكنني أقدر موقفه بالطبع، فكلكن هنا صبايا، ولا يجوز أن يترككم للمجهول. هو بين نارين. أما عن العريس فأنا أنصحك بصلاة الاستخارة، استشيري الله، ولن يكون إلا ما هو كائن.
لم أملك لها حلًا سوى اللجوء إلى الله، ففي كثير من الأوقات يجب علينا أن نرفع أيدينا فقط؛ مستسلمين، في انتظار قرار إلهي، أو معجزة ما. كنت طوال الوقت أرى أننا فعل، وأن الله ردة فعل بموجب قوله: لا يغير الله ما بقومٍ حتى يغيَّروا ما بأنفسهم"، يسبق نوايانا الفعل فيتمم الله أفعالنا بالسداد. كما كنت في قرارة نفسي أعلم أن مسألة زواج تولين لن يحلها إلا الله، وآمنت أن حل الله سيدهش النسوة اللواتي فشلن في إيجاد العريس الذي يقبل بها زوجة وأماً صالحة لأبنائه، فهو حين يمنح من لا حيلة له يدهش أصحاب الحيل. كماأنني وجدت أن أفكاري ربما تتسبب في كارثة، هنا لا يسمحون للفتاة إلا بالطاعة، ولا مجال للتفكير بحرية، كما أنني لست على استعدادٍ لإبداء رأيي، فيحملونني نتيجة الأمر في حال كان العريس غير جدير بها. وحين بحثت في نفسي وجدتني في الأصل مشغولة، ومتوترة للغاية بما يمكن أن يحدث عقب انتهاء الصلاة. لا بد أن الإمام سيشعل القرية ناراً من أجل الفتاتين، لا بد أن أمرًا عظيمًاً سيتخذ طريقه إلى دار أم غالب لينهي المسألة. لا، بل كنت مرعوبة للغاية؛ فماذا لو لم يفعل أحدهم شيئًا، وعلم أبو غالب أنني المحرض الأساسي عليه، ماذا لو أنه علم أن من جعل الإناء يغلي استعدادًا لسلخه هو أنا؟ لا دية للمصري هنا، ولن تقف السفارة بجواري كالعادة، هم هنا للمجاملات وحفلات العشاء وتأمين مستقبلهم. هكذا قال لي زوجي يومًا. إن أبو غالب هنا هو السلطة التي لا تعرف لها ربًا غير البطش، هو هامان الذي انطبق عليه البحر مع فرعون، وليس هامان الذي خرج من الحائط كي يأمرني بالخروج، يتهمني بالعجز، وكأنما يقول لي : إن الأرض التي لا تستطيعين الدفاع عنها،

وتخليصها من الظلم لا تستحقين العيش فوقها. فهي حتمًا ستطردك." ولم لا، ألم يخسف الله الأرض بالقرى الظالم أهلها دومًا؟.ألم يخسف الله الأرض بالقرى التي فسق مترفوها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرها الله تدميرا؟ لم يدمرها لفساد المفسدين والفاسقين فقط، بل لسكوت الناس عن الظلم، وقبلوهم بالفساد، لوانهم ثاروا واعترضوا على الفساد لرحم الله قريتهم. ولكن ماذا لو اضطهدنا أبو غالب؟، ماذا لو انقلبت الآية؟. أنا لا أملك لتولين حلًا بالفعل، لأنني مرعوبة. والإنسان المرعوب يحدث له تشويش نفسي، واضطراب عقلي يمنعه من التركيز بل يتركه أعميً،أصمًا، وأبكم. لا أنكر أن قلبي يرتعد، أشعر بانقباضه، ولا أدري لماذا تذكرت جار جدي في "دكرنس"؛ عم حمدان الذي جاءه أمر من مأمور القسم بإزالة برج الحمام في حقله فرفض، وقال للمأمور إنه لن يزيل برجه إلا إن جاء أمر بإزالة جميع أبراج القرية، فاعتبر المأمور كلام العم حمدان تحديًا له، فأمر رجاله بإلقاء القبض عليه، وبعدها بيومين، تناقلت القرية أنباء مقتله، وأقسمت زوجته أنها رأت زوجها غارقًا في بوله والقيء، وملقىً على أرضية غرفة الحجز. تذكرت فريدة وهي تسرد لي واقعة استدعائها إلى القسم دون أن تعرف سببًا لذلك، وأنهم احترموا عملها كصحفية، وبدلًا من أن يأخدوها من الجريدة بصحبة الشرطة، طلبوا منها أن تتبعهم، فلما وصلت بصحبة رئيس التحرير وبعضًا من الأصدقاء، طلبها الضابط، وتحدث إليها قليلًا، ثم أرسلها إلى أحد الأمناء الذي أخذها إلى غرفة وحاول إجبارها على التوقيع على محضر ما، يحتوي على كلامٍ ما لا تعرف مضمونه، ولم تقرأ منه حرفًا، فرفضت، أتذكر غضبها، ألمها، ودموعها وهي تسرد كيف كبَّل الأمين لها الشتائم وسط ذهولها، ولولا رعاية الله ،وتدخل رئيس التحرير لما انتهت الأمور إلى خير. وتذكرت أنني قرأت في إحدى الصحف كيف ألقت الشرطة القبض على فتاة، لم تبلغ العشرين عامًا، لأنها ابنة أحد المطلوبين المتهمين بتحرير شيك بدون رصيد، دون وجه حق. يا إلهي لماذا أتذكر كل هذه الأحداث الآن؟ تشجعي ياريم! لن تحدث إلا إرادة الله، "أولسنا على الحقِّ؟".
أخرجني صوت تولين من دوامتي، وراحت تقول بصوت مرتبك للغاية:
- هنالك أمر سيحزنك للغاية عن أماني وأمل.
- ماذا حل بهما؟ أخبريني تولين.
- لقد تحدثت إلى أماني منذ أسبوع، وأخبرتني كلامًا لا أجرؤ على قوله لأحد غيرك.
- تحدثي، ماذا قالت؟
- كانت تعاني ألمًا شديدًا في رأسها، وقالت لي بصوت ضعيف للغاية، إن خالي يعذب أناسًا في القبو، لقد رأيتهم، كان هنالك رجالٌ كثيرين يعذبون أحد الرجال، وأعتقد أنهم دفنوه في أرضية القبو، لا أعلم شيئًا، غير أنهم قالوا للرجل: عليك ان توقع عقود البيع، وكان يرفض، فعلقوه مقلوبًا، لقد رأيت رأسه يقطر دمًا، وأخبرتني أن أخبرك بهذا الكلام.
- ماذا؟؟؟ ماذا؟؟ لقد قلت لكم أن هالك أمرًا خطيرًا يدور في هذا البيت، لا بد أن يكون هنالك أمر وراء تعذيب خالهما لهما... هو لم يفعل ذلك من فراغ. يالله، أنا لا أتحمل كل هذه الضغوط، اللهم اجعل لهما مخرجا.ولكن كيف يجرؤ هذ الرجل مهما بلغت سلطته على أن يفعل هذا الأمر، كيف يقوم بتعذيب رجل في بيته، ماهذا الذي يحدث هنا؟ أنا أعرف أن الشرطة هنا نزيهة للغاية، مشهود لها على مستوى عربي، كيف يحدث أن يسيطر أحدهم عليهم لهذه الدرجة.
- لا يا ريم،لا بد أن هنالك عنصرًا سيئًا بينهم، نحن بشر، والعناصر السيئة أمر وارد.
- حين ينكشف الأمر سيتعرض كل متورط للإعدام ربما، فالتجاوزات هنا غير مسموح بها، والعقوبات مغلظة ولا شك. لو وصل الأمر إلى الديوان الملكي لانهدت الدنيا على رأس هذا الخال الوغد.

لم أجبها، فقد قلت في نفسي:" سينقذهما رب المَلِك، ورب السموات السبع والأرضين"، دفنت وجهي بين كفي ورحت أقرأ آية الكرسي سبعًا، كما علمتني أمي. وأقسم أنني سمعت الإجابة:" وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعيد"، فانفلتت دموعي، واحتضنتني تولين، وانهمرت دعواتنا، إذ لم نملك إلا أن نتوسل إلى الله، لكنني أدعوه الآن وقد أخذت بالأسباب.

-52

ارتفع الأذان ليوم الجمعة، وكالعادة اكتظت الحمَّامات الأربعة في دار أم العبد بالمتوضئات، وجلسنا ننتظر الخطبة، كانت عيوننا معلقة بشاشة التليفزون، ستنقل الصلاة من مسجد الحسين، واعتلى الخطيب المنبر، تكلم عن الشهادة في سبيل الله، وسمعته يصرخ ويبكي ويصاب بهيستيريا الوعظ، فضاق صدري، وقلت في نفسي: وماذا بعد؟... وماذا بعد؟، هل وضعت بذلك حلولًا للنازحين من الضفة والقطاع؟، هل استخرجت بذلك الصراخ هويات خضر للعابرين الجسر إلى الماوراء؟، هل حررت القدس؟ لكم هم متشابهون هؤلاء المنادون إلى الشهادة، التحمل والصبر! ولكم هم متشابهون هؤلاء الذين يهددونا بقهر الله لنا، وانتقامه منا طوال الوقت، لم يخلقنا الله ليرينا مدى قدرته علينا، فهذا أمر بديهي، بل خلقنا ليرينا مدى قدرتنا على اختياره بمحض إرادتنا لكي يكون إلهنا، حبيبنا، وملجأنا. لكم هم متشابهون، مملون، ولا ياتون بجديد. إنهم على هذه الحال، على الأقل، منذ أن وعيت على الحياة، وبدأت أحلل وأترجم للأمور من باب "استفت قلبك" على أقل تقدير. يا إلهي لماذا حين أعقد المقارنات لا أجد الاختلافات إلا في التوقيت، خطوط الطول، وخطوط العرض. طالما كان اتجاه البوصلة إلى الشرق؟ لماذا تفجعني النتيجة دومًا بأن لا فرق،لا فرق.

انتهت الصلاة، فوضعت يدي على قلبي، فالآن تبدأ مرحلة إنقاذ أمل وأماني، وسيعرف الإمام، والمؤذن، والشيخ سيد، وكبار القرية بأمر اغتصاب الخال لابنتي أخته، ويفور الدم في عروقهم، فيندفعون إلى منزل أم غالب، لتحري الأمر. رحت أضرب أخماسًا في أسداس، وأدعو الله كي يوفق زوجي والرجال لحل قريب، وأن يجنبنا بطش خال البنتين. ومن وقت لآخر نتجاذب أطراف الحديث مع بعضنا البعض، فعالم البنات مليء بالحواديت، ومليء بالحلم أيضًا. كنت أجيد توزيع الأحلام، ويجيدون هم العناية بالزهور. راحوا يسألونني طول الوقت عن منزلي الجديد، وعن جيراني الجدد، وأقول طوال الوقت:" أنا لم أنتقل من هنا، ولم أخرج، لقد كان خروجي دخولًا قويًا إلى دراكم، أنا ألتقيكم جميعًا بروحي، وأدعو لكم بظهر الغيب، ثم تذكرت اللوحة فوق عتبة دار غرفة نومي في بيتي في الطابق الأسفل، ووجدتني أقرأ اللوحة بشكل مختلف، قلت: الآن عرفت لماذا يأمرني الرجل بالخروج، تقول اللوحة :" حتى هامان هذا الجبروت لا يرضى عن الظلم، وأنه يرى أن ما يحدث في قريتنا ليس بالأمر التافه، فحبس النساء، ونفيهم يعني نفي أمة وتضييعها،" لقد خرج في هذه اللوحة ليقول لي أن السكوت على الانتهاكات الصغيرة هو الدمار بعينه لأنه يفتح الباب على مصراعيه للانتهاكات الكبيرة. حتى هذا الجبار غاضب لأنني لم أغير شيئًا، ولم أقم بإنقاذ البنتين، نعم، إن لم تنصف المظلوم سيطردك بيتك، ثم قريتك، ثم مدينتك، ثم ينبذك العالم، فلا هوية لك، أنت لا تستحق العيش إن لم تقطع يد الظالم، ورحت أقول لنفسي: ولماذا لم يظهر الرجل إلا في بيتي؟، وعلى الفور دار الحوار عاصفًا بيني وبين قلبي:

- لأنك مصرية.

- مصرية؟

- نعم، هذا دورك، ودور أبائك، اخرجي من هنا طالما أنك لا تتخذين موقفًا إيجابيًا، وطالما لم تقتصي للضعفاء، إنك مصر.

- ولكن هل هذا معقول؟ ولماذا لم يخرج لي في بيتي الجديد؟ هل اختفى الظلم إلا من هذه القرية؟ وعالجني عقلي بجواب رأيته مقنعًا:
- لا، لقد ترك وشمه في روحك، سيظل الرجل يؤرقك ويطاردك أينما ذهبت، ستحملينه في روحك وعقلك، طالما قبلت بالظلم، ولم تشمري ذارعًا للدفاع عن المظلومين. هذا دورك ما حييت، فقلت:
- وأنا قبلت.
وبتحد كبير قلت لتولين، هل يمكن لي ان أنزل إلى الدار التي كنت بها، فهزت رأسها وقالت: بالطبع، ستبقى دارك وحدك، ولن يسكنها أحد، هكذا قال أبي، حتى الجيران يمرون من هنا فيقول أحدهم لآخر، هذه دار ريم، وهبطنا السلالم الحجرية، كان قلبي ينبض رهبة، وحنينًا، فهذه دار أحبها، لكنها أخافتني وطردتني. كانت تولين تعرف أنني أريد باب غرفة نومي، فلما فتحت هرعت إلى الباب ونظرنا إلى الحائط فوجدنا اللوحة، وقد صارت ملامح الرجل أكثر حدة، كانت كل منا تراه ينظر إليها ويأمرها بالخروج، فأصابنا الهلع، ورحنا نغلق الأبواب بأقصى سرعة، وصفعنا الباب الخارجي، وطرنا إلى دارهم، لا أتذكر إن كنا طرنا أم حملنا أحدهم.
انقضت صلاة العصر، ولم يعد زوجي ، فلما فرغنا من الغداء اتصل بي زوجي على الهاتف الأرضي في بيت أم العبد، وقال لي أنه بالباب ينتظرني، فحييت الجميع، أشبعت الهواء بالقُبَل، عبرت لهم عن حبي العميق، سار معي بعضهن إلى الباب، طل بعضهن من النوافذ، ولحقتني خلود حتى باب السيارة، فلما دخلت وأغلقت الباب، طلت بوجهها البريء من النافذة قالت: مس ريم، عرفتي مين هم يللي بيكولوا كل شيء؟ فتلعثمت، خرجت إليها، قبلت وجنتيها، وقلت لها، سأعرفهم خلال اليومين القادمين. حياهم زوجي جميعًا، وابتعدنا حتى أننا لم نعد نسمع غير احتكاك السيارة بالمطبات الصناعية التي تعترض طريقنا بالقرب من مدرسة البنات، قلت في نفسي:" ماهذا؟ لماذا انتهى اليوم كما بدأ: هادئًا مسالمًا وكأن شيئًا لم يكن، أين الغيرة والرجولة والحماسة؟، لا أفهم شيئًا البتة. كنت مندهشة من صمت زوجي، فهو لم ينظر إلى مباشرة في عيني منذ رآني، تشغله الطريق تمامًا، المنحنيات، والهبوط إلى الوادي، فانقبض قلبي، شعرت بإغماءة قصيرة، وفجأة قال زوجي:
- لا تتكلمي في أمر الفتاتين مجددًا يا ريم.هذا أمر.
ونزل كلامه علي قلبي كأنه صاعقة لامست آخر البحر فاستحال نارًا، وتلعثمت في الرد وقلت:
- مممم... أأأأا، ماذا؟ ماذا تقول؟ لا أتكلم؟
- لقد رفض الإمام التدخل، وحذرني من مغبة الأمر.
- الإمام؟ الشيخ؟، قال الله وقال الرسول؟ رفض؟ تقصد أنه لن يرفع الظلم، ولن يكون يد الله على الأرض؟
- إنه يقول أن للرجل نفوذًا يجعل بمقدوره نَفْي الشيخ نفسه لو شاء.
- ولكن.... أأأأأ....
- ولقد تكلمت مع كل الكبار والشيوخ، لا أحد يرغب في التعامل مع هذا الملف، حتى الشيخ سيد، حذرني من التدخل، وقال هذ شأن يخصهم وحدهم، إنهم قبائل وعشائر،وستحدث أمورًا جسام، لا طاقة لأهل القرية بها، ستتعرص القرية للمخاطر لو اتخذ كبارها خطوة ضد هذا الرجل، ويقول الله: فمن اضطر غير باغ فلاجناح عليه"
- اضطر؟ ومن هو المضطر الآن غير البنتين، لقد بتروا ساقها، وتعاني من القدم السكري، ويطفئ الرجل في جسدها السكائر، ويضربهما بالشماغ ويعلقهما في الفلكة، ويحلق لهما شعورهما كأنهما عنزتين، إنهما صبيتان يا سليم، ثم هنالك امر جديد، هنالك رجل محبوس في القبو يعذبه رجال الخال ، هكذا قالت لي تولين اليوم"

ورحت أبكي كالمجنونة،وفي طريقنا إلى الوادي لاح بستان بيت نضال، فتذكرت أحلام، وقلت: لماذا جئت بي إلى هنا يا إلهي، أنا لا أطيق الأمر برمته، أشعر بالشلل يجتاح رئتي. أريد العودة إلى مصر. نحن هنا مجرد دمى تنتقل من نقطة محددة إلى نقطة محددة، وليس مسموح لنا بأن نمارس غيرتنا، خوفنا، رغبتنا في الفعل، نحن أقل شأنً من خيال الظل، علينا أن نعيش صم بكم وعميانًا، لكم أكره كل شيء الآن. أنا هنا أمارس طقوس السجين ليس إلا. لم أملك نفسي فقلت : سليم! أنا أكرهك، وأكره عملك، وأكره القرية والمدينة والخريطة. سأصعد إلى مصر. مدهوشًا نظر سليم إلي، ثم لف ذراعه اليمنى حول كتفي وضمني إليه بكل ما أتوي من حنان، ولم ينطق ببنت شفة فانهرت في البكاء. ثم قال: ماهذا؟ انظري هناك يا ريم! ومن بعيد لاح بعض الشباب، وتدريجيًا بدأت أعدادهم في الازدياد، كنت أرى رءوسًا تتزايد أعدادها، وكلما أرهقت سيارتنا طريقنا هبوطًا، ازدادت الرءوس صعودًا ووضوحًا. يا الله! لم أر للشباب تجمعًا في هذه القرية منذ جئت إلى هنا. حتى في وقت عرس أحلام، لم أر لهم تجمعًا، بل كانوا جميعًا جلوسًا حين جاء العريس وبدأ الرقص. لم أر بين الشباب من يرقص، كان الشيوخ يهزون عصيهم، ويدبكون، بل لم ألمح للشباب عددًا.أو هكذ خيل إلي. كلماانحدرت السيارة إلى الوادي، اقتربنا منهم، فلما أصبحنا قاب قوسين أو أدنى، لمحت نضال، أنا أعرف وجهه جيدًا، لكني لم أتكلم. كان أمرهم يبعث على الخرس. فقال زوجي: لا تقلقي، لقد رأيتهم في المسجد، رأيت هذا الشاب الأسمر الطويل، فقلت:

- إنه نضال، ولكن، مابهم؟ ماذا هذا التجمع الغريب؟، لم يشهد الطريق الصاعد من التل إلى بلدتنا مثل هذا التجمع من قبل، قلت ربما ظهرت الذئاب مرة أخرى بالوادي، حتمًا ستضر بالأغنام، فأهل نضال يعملون بتجارةالأغنام. وكلما اقتربت السيارة اقتربوا، وازددنا اندهاشا، فقلت لزوجي: هلا سألتهم ماالأمر؟، ففتح نافذة السيارة وحيَّاهم، فحيوه، ثم سألهم: ما الأمر يا شباب، إلى أين؟ كانوا مندفعين، ومن وقت لآخر، يخرج من بين أقدام أشجار الزيتون، الصنوبر والسرو شباب من هنا وهناك، من الطرق التي تجيء من القرى المجاورة،، وجاءنا صوت نضال جهوريًا:

- إلى دار أبو غالب، فأسقط في يدي، وبلع زوجي ريقه بصعوبة، ورمقني بطرف عينيه، وقال: دار أبو غالب؟ ولِمْ؟

- ستعلم حين نعود، لا نعرف الكثير، ولكن هنالك فتاتان محتجزتان في القبو، يعذبهما خالهما، هكذا سمعنا من الإمام الذي راح يحذرنا من اتخاذ أي إجراء متهور، ولن نرجع إلا بالفتاتين، لو رغبت عد معنا سيد سليم، فنظر سليم إلي ثانية. كان أمر رفضه الصعود مع الرجال كفيلٌ بأن أنهي علاقتي به كزوجة إلى الأبد، ولكنه قال لهم: أنا معكم، سأعيد زوجتي إلى بيت أم العبد، ولنلتقي عند دار أم غالب ، وليكن ما يكون، فتنفست الصعداء وعانقته بعيني، كنت أشعر أننا على منحنى خطر من الطريق، ومن حياتنا معًا في هذا البلد الذي حسبت أنني جئته لأكون رفيقة لزوجي رجل الأعمال فقط، نلهو معًا، ونأخذ من الدنيا أجمل ما في ترياقها، ولكن يبدو أن أمرًا آخر شق الغمام ليجعلني مثل بروميثيوس -سارق النار- لقد قرأت أن بروميثيوس أحب البشر وعلمهم المهن والحرف، وفضَّلهم على آلهة جبل الأوليمب، ولكنني ربما أكون قد صنعت تناصًا مع بروميثيوس الآن، فقد أضرمتها بيدي هاتين.

ارتفع صوت الشباب وهم يصعدون الجبل وتهدر أصواتهم، وكلما مروا بأحد الجيران وقفوا معه، تبادلوا الحديث، انضموا إليهم، ثم واصلوا المسير. لم يمر وقت طويل حتى كان كل شباب القرية على الطريق المؤدي إلى دار أم غالب، ورحت أدعو الله في سري أن يحفظهم، وأن ينقذ الفتاتين، نعم، الآن يمكنني الدعاء بعمق، لا يجدي الدعاء بدون فعل، لقد أخذت بالأسباب ولن تُتَمم بقية الأمر إلا إرداة الله وقبوله لدعواتي، فالله

يحب أن يرى فينا عزيمة الفعل، ونية المبادرة، فهو ردة فعل ليست مساوية لنا في المقدار ولا في الكيفية ولا في القوة، هو المعجزة التي تدهش أصحاب الحيل، حين يعجز من لا حيلة له، فاللهم لا حول ولاقوة إلا بالله.
أخذ النهار يبتعد عن القرية بطيئًا، كأنه يتلكع حتى يسنح للشباب فرصة إنقاذ البنتين قبل حلول الليل، كانت صوت الشباب هادرًا، مخيفًا يحمله الوادي، و وعلى الفور انتشر الخبر بأن الشباب سيدخلون إلى بيت أم غالب لإحضار البنتين، مهما كلف الأمر، هُرعت إلى منزل أم العبد فرأيت رؤوس بناتها تطل من النوافذ يستطلعن الأمر، فلما رأيتني أعود إليهم، قلن بانزعاج ، وفي نفس واحد: ريم؟ ماالأمر؟
- أماني. إنهم آتون لإنقاذ البنتين.
- أماني؟ من هم....؟... لم نفهم.
- نضال...
- نضال؟ ماله نضال؟ قالت أم العبد بحدة.
- نضال يقود شباب البلدة..سيحاصرون بيت أم غالب.
انهالت الأسئلة علي لاأدري من منهن كانت تتكلم:
- ياللمصيبة، وما علاقة نضال بدار أم غالب؟
- يقولون لقد حذرهم الإمام من ذلك، فغضبوا.
- من الذي أخبر الإمام؟
- زوجي.
- ولِمْ ياريم؟
- لأنه رجل، وللرجال غضبتهم.
- ماذا تقصدين بأنه رجل؟
- نضال أيضًا رجل.
- من هو نضال هذا؟ سألتني أم العبد باستنكار.
- أحلام.
- أحلام؟
- نعم، نضال أحلام.
- لماذ ياريم، سيضيع شباب القرية بفعلتهم هذه، وسيضيعون البلد معهم، ياللمصيبة، لو علم خال البنتين لأحرق القرية علينا، يا إلهي، اللهم لطفك ياحق.
- نعم، قولي يا حق... ياحق.
كان هدير الشباب مدويًا، ورأينا البعض يتسلق الأسوار، ويغيب طويلًا، ويبدو أن أحدًا من سكان القرية اتصل بالشرطة، ولكن لبعد المسافة بين القرية وأقرب وحدة نجدة إليها، تأخر مجيئها قبل أن يخرج نضال يحمل فتاة بين يديه، ترتدي جلبابًا أسودًا، بدت مغمى عليها تقريبًا، سقطت الثانية أثناء خروجها، كانت تستند إلى ساعدي شابين، وخرجا بهما ووضعاهما في إحدى السيارات، وسط ذهول وصراخ الجميع، ثم خرجت امرأة تجاوزت الستين بقليل، بدينة، ولم أميز ملامح أخرى، قالوا إنها أم غالب، فمنذ أن جئت إلى هنا وأناأسمعهم يذكرون اسمها، وأخبارها من الجارات، لكني لم أرها. ولدهشتنا جميعًا، خرج خمسة رجال تباعًا، وهم يجرون أرجلهم ويترنحون وحمل الشباب رجلًا آخر، يبدو أنه فاقد الوعي، وتعالت الصرخات من كل جانب، وانتفضت القرية عن بكرة أبيها، وأحاط الرجال دار أم غالب من كل اتجاه، فقد طار الخبر إلى القرى

المجاورة، ولاحت رؤوس الرجال من كل مكان، وكأنما يقذف الأفق رجالًا، وبعد قليل، تحول المدى إلى رؤوس، كان الأمر مروعًا بالنسبة إلى البعض، وفوضويًا بالنسبة إلى البعض، وتخيلت أنه ربما لم تكن الشرطة لتحرك ساكنًا، لولا غضبة هؤلاء الشباب، فقد استمدت منهم قوة إلى قوتها ،لقد فتح نضال مجالًا للشرطة، كي تتدخل دون أن ترضخ لتهديدات أصحاب النفوذ ممن يجاملون الخال، وبعد قليل تعالت أبواق سيارات النجدة، والإسعاف، حتى لو كانوا تحت ضغط ما، كان عليهم أن يلبوا نداء القرية، وإلا فضحتهم الصحف فقد رأيناالمصورين يدخلون ويركضون في كل اتجاه بينما يحملون الكاميرات على أكتافهم، وصار الشباب يساعدون الشرطة في التجول في المكان، ثم اصطف الرجال في صفوف كثيرة، ورفع نضال يديه عاليًا معلنا استسلامه وامتثاله لأوامر رجال الشرطة، فقلده الرجال جميعًا، كان مشهدًا مهيبًا، فالموجودن الآن هم رجال خمس قرى على الأقل. راحوا كلهم على قلب رجل واحد يسلمون أنفسهم لرجال الشرطة، يا لهذا الرقي، ولم تقترب الشرطة من أي منهم. فجأة، سمعنا دوي طلقات نارية، فاضطررنا إلى ترك أماكننا فوق سطح الدار وبدأنا في النزول زحفًا على بطوننا حتى وصلنا إلى داخل الدار. كنا جميعًا نجيد التصرف حين الخطر، فانحنينا طوال الوقت، حتى هبطنا إلى المنزل. قالت أم العبد: يبدو أن رجال أبو غالب جاءوا لتأديب القرية،" وبعد حوالي ما يقرب من الثلاث ساعات انقطع الصوت تمامًا، فقلنا:يبدو أننا فقدنا رجالنا إلى الأبد، وأنهم لا بد مقبوض عليهم، فلم يعد زوجي، ولم يعد أبو العبد، أوأي من الرجال، كي يطمئننا على الوضع بالخارج، وكان الليل قد طوى البلد تحت جناحيه، واستسلم للظلال، نحن أهل كهف إن دخل الليل قريتنا، ونوعًا من الزواحف إن حل الخطر، فللجبال أسرارها، علينا فقط أن نحتمي بالدور. وبين الفينة والأخرى نسمع صوت الهاتف من جيراننا، نطمئن عليهم ويطمئنون علينا، ولم يبت رجل واحد في داره في هذه الليلة، فقد استضافهم مركز الشرطة، واضطررت إلى قضاء الليل في منزل أم العبد، فقد غلبنا النوم من فرط الترقب. لم يكن لدى أي منا تصورًا محددًا عن ملامح يوم غد، بل لم نعد نعرف إن كنا سنرى غدًا آخر أم لا. لم تعرف أي منا إلى أين ستسير الأمور، لكنهم سيظلون جماعة تشد بعضها من أزر بعض في أتعس الأمور. أما أنا، فإن حدثت في الأمور أمور، سأكون وحيدة! يا إلهي! سيحترق قلبي إن لم يعد سليم، وسمعت صوت أنين روحي عاليًا، تملكني الذعر، وفقدت وعي تقريبًا. لم ننتبه جميعًا، إلا على صوت جرس الباب، ففقزنا كاننا قرية نمل أزعجها مرور فأر بالجوار. كان صوت الرجال بالخارج مرعبًا، وهادرًا، مرة أخرى، وتبعثرت السيارات في الشارع الكبير، كان الوقت قبيل العصر، وكنا قد نمنا جميعًا بعد ان صلينا الفجر، ورحت أقول لنفسي بينما نطل جميعنا من النوافذ كي نستطلع الأمر، من أين خرج كل هؤلاء الرجال، كانوا يملأون الشارع الكبير، يبدون من بعيد كأنهم قوافل على طريق الحجاز - اليمن، وسمعنا أبو العبد يقول:

- تفضلوا يا شباب، تفضل سيد سليم.

- سليم؟ زوجي، اللهم لك الحمد، لقد حسبت أنهم سيلفون الحبل حول رقبته، ويدعون أنه حرضهم أو ماشابه،الحمدلله إذ لم يجعل من بينهم خائنًا.

دخل الجميع وتزاحمنا، وتكدس بعضنا فوق بعض، ورحنا نسترق السمع من وراء باب غرفة الضيوف، كي نستطلع الأمر، فميزت أنا صوت نضال.

كان أبو العبد يوزع القهوة العربية على الضيوف، ومن وقت إلى آخر تأتينا كلمة " تحقيق، نفوذ، مجنونة، مصحة، كلهم يكرهونه، دخلوا عليه، حبسوه، ولم نفهم شيئًا حتى انفض المجلس، وودع أبو العبد الكل إلا زوجي، وكنت لم أرالعم نزار منذ وقت طويل، فسلمت عليه، وأصر هو أن نمكث حتى وقت الغداء فتعلل زوجي بأن أعمالًا كبيرة تنتظره، وأن لا مفر من مغادرتنا، وأمام إصرار زوجي، ودعنا الجميع لدى الباب،

كنا جميع قد قتلنا الفضول لمعرفة ما آلت إليه الأمور، ولم يقل أي من الرجلين شيئًا، فقد كانا منهكين للغاية، بل كانت ليلة عصيبة على الجميع.

-53

لماذا علي أن أرضى بكل ما تفرضه علي الأرض، الأعراف، التقاليد، وإرادة جدي، وأبي؟، هنالك أمور على المرء أن يحسمها بمجرد اطلاعه عليها، فهي لا تحتمل التسويف، لا تحتمل تضييع الوقت في الاستئذان، والمرور بأكثر من جهة كي تحصل على إشارة بدء، خاصة حين يتعلق الأمر بالأرواح، ويكون الأمر طارئًا وملحًا. لماذا يأمرنا الجميع بترك كل ما هو متعارف عليه من قوانين، أعراف، وتقاليد، حين تحدث الكوارث كما في حوادث الطرق، الحرائق، وانهدام البيوت، والغرق وغيرها؟ لماذا يكون الرجل شجاعًا وبطلًا في أعين الجميع، حين ينقذ فتاة من أيدي رجل حاول اختطافها؟ لماذا يعتبرنا أهلونا شجعانًا حين نمسك بأحد اللصوص ونمنعه من إتمام مهمته؟ ولماذا يسمحون لنا باستخدام قوانيننا حين الشدائد؛ حين يفقد الجميع الحلول المتعارف عليها والتي لا تجدي نفعًا في الأمور الطارئة؟ لماذا نحن روتينيون طالما امتلكنا الوقت، وضِمْنًا اللاخطر، وفوضويون حين يكون من المحتمل أن تصبح الفيمتو ثانية معادلًا موضوعيًا للأرواح؛ لجثث أهل القرية حين يباغتنا السيل في الشتاء مثلا؟ لقد مات جارنا أبو رزان بين الثلوج، قبل خمسة أعوام لأن أحدًا من الذين شاهدوا الانهيار الثلجي لم يتطوع لإنقاذه، واكتفى البعض بالاتصال بفرق الإنقاذ، ووقف البعض الآخر يشهد موت رجل من فرط التجمد! لقد وضُعت القوانين كي نتعداها جميعًا حين تهاجمنا الطواريء. لاأجد معنى للسكوت على مصيبة، لحين يأتينا من الكبار أمرًا بالتعامل معها، غير أننا مغيبون، لا نملك الفعل، إلا في إطار ما يجب، وليس في إطار ما هو طاريء. أنا أرى قانونًا واحدًا هو "قانون الرجال". هذا قانون لا يأخذ إذنًا من أحد، أو من جهة مهما علت. هذه هي قناعتي بمعنى القانون، لقد منعتني قوانين أم العبد من الاحتفاظ بأحلام حتى يحين الوقت المناسب الذي يمكنني فيه أن أطلبها للزواج، منعتني قوانين الطبيعة من النزول إلى المسجد حين يغطينا الثلج، منعني أبي من الالتحاق بالمعهد العالي للموسيقى بالقاهرة، لأنه كان يحلم أن يكون له ابنا طبيبًا. وماذا عن حلمي أنا؟ منعتني معلمة الرسم حين كنت في الصف الخامس الابتدائي من كتابة اسمي" نضال"، على مركب، تعمَّدُت أن أجعلها مقلوبةً تحت الماء، كنت قد لونتها بالأزرق في لوحة كنت قد رسمتها بيدي، بحجة أن الرسم يعني الصمت، وليس الكلام، كما أنها رفضت أن أدخل بها مسابقة للرسم أقيمت بين المدارس حينها، أتذكر جيدًا أنني أجبتها والغضب يوجع قلبي: " يمكنني استبدال الأحمر بالأزرق، ولكنني لست على استعداد لأن أمحو إسمي،" يا إلهي لكم كانت غبية تلك المرأة! ومنعتني إصابة في ساقي من ممارسة الرياضة لمدة أربعين يومًا. وقال أبي يومًا:" لو ذهبنا إلى الضفة، سنغيب أكثر من شهر ربما، فكل شيء بيد اليهود هناك، ولا نحصل على المغادرة بسهول، وربما اضطررنا إلى النوم لليال طويلة على الجسر"، ياإلهي!، كلها جسور، جسور ، جسور، لا شيء إلا الجسور، وأنا أشعر بجناحيي قادران على التحليق. يا الله، كم علي أن أتحمل كل هذه الموانع؟.

أتذكر جيدًا كيف كان أبي يضربني بالشماغ، حين أتعثر في قراءة سورة الكهف عن غيب، ولم يسمح لي، يومًا، بأن أشرح له سبب ذلك، فقد كنت أخفق دومًا، لأنني حين أنسى كلمة ما، أفقد كل ما يأتي بعدها من كلام، وأصبح كالأبله أتهته إلى الأبد، ولا أتوقف عن التهتهة إلا حين تؤلمني لسعات الشماغ بينما يجلد كتفي أو ظهري، فتتحول التهتهة إلى عواء كلب قطعوا له إحدى قوائمه وتركوه للصغار يعذبونه بين الحواري فقيرة. يا إلهي، كيف لطفلٍ ضعيف أن يوقف شيخًا عن ضربه بالشماغ، في قرية نائية لو استغاث بأحدهم لعنفه هو الآخر بحجة أنه ولد غير مطيع، لماذا لم يسأل أبي نفسه يومًا، إن كنت أفهم ما يجبرني على حفظه،

لو سألني لقلت له إن عقلي ليس مهيأً للحفظ، وأنه يفضل لو فهم الأمر. الآن فقط ، بين أنا في السنة الأخيرة في كلية الحقوق، صرت أعرف جيدًا المغزى من سورة الكهف، ومن كل شيء، لقد صار بإمكاني تحليل كل شيء، ولقد صرت بارعا في الحفظ أيضًا. الآن فقط يا أبي، ولكنك لم تعد هنا، لأخبرك أن كل ما فعلته بي كان خطأً فادحًا في حق عقلي، فقد حرمتني التفكير والفهم بشكل أكثر حرية، لذا كنت أحب معلم الرياضيات أكثر منك حينها، لأنه كان يبني كل شيء على مدى فهمنا للأشكال والأرقام، كان يعلمنا كيف نجري العمليات الحسابية في عقولنا أولًا ثم نبدأ في تجسيدها على الورق، لماذا علي أن أخضع لكل تلك الأمور التي لا أفهمها؟، ولماذا أشعر بكل هذا الألم لأنك لست هنا؟؟

-54

حملتنا السيارة حلزونيًا إلى حيث مخارج القرية، وفي الطريق لمحنا نضال في بستان الزيتون، جالسًا، فطلبت من زوجي أن يقف بالسيارة قليلًا، فقد دفعني الفضول لمراقبة هذا الشاب الرجل، جيدًا، فرأيته يمسك بين يديه بحجرين كبيرين، وراح يحك كل منهما في الآخر، ولمحت شرارات النار تخرج من بينهما، وبعد قليل اشتعلت النار في كمية الحطب التي صنع بها كانونًا، ثم ترك الحجرين، وامتدت يده إلى إبريق الشاي الأزرق الغامق المرقط بالأبيض، و رفعه على جذوة النار، ثم فرد ذراعيه عن أخرهما، ونظر إلى السماء نظرة طويلة، فتبعت نقطة إلتقاء نظره بالأفق، فوجدت عيناه قد استقرتا على ماكتبه الغيم فوق رأسه تماما: ولدهشتي قرأت: "أحلام"، وأوقظني زوجي من شرودي، فأشرت بيدي إلى الغيم، وما هي إلا برهة قصيرة حتى سمعنا صوت نضال نقله لنا الصدى جهوريًا ينادي: "أحلاااااااااااام"، ثم ساد الجو صمت أهل الكهف.

انحدرت السيارة بنا إلى مخارج القرية، وكلما استدرنا حلزونيا لمحنا نضال عن بعد، ولكن في المرة الأخيرة كان قد تمدد على ظهره فاستوى بالأرض، ولم أعرف من الذي فر من الآخر، نضال أم الغمام فقد كان الوادي يردد صوت أبواق سيارات البوليس هادرًا، وما هي إلا دقائق حتى اعترضت السيارات طريقنا، تمامًا عند منحنى الخروج من القرية، ثم هبط أحد الضباط، واتجه نحوسيارتنا، وأمرني الضابط بالهبوط وحدي.

.....